النثر الفني

في القرن الرابع

تأليف

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية بباريس

(قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور في ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جدًا)

الجزء الأول

الطبعة الثانية

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ص. ب ٥٧٨

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

م. السعادة
بمصر

الإهداء

إلى أستاذى الدكتور منصور فهمى .

و إلى صديقى المسيو دى كومنين .

أهـــدى هـــذا الـكتاب .

تحية وداد و إعزاز و إخلاص ؟

زكى مبارك

مصر الجديدة ، أول يناير سنة ١٩٣٤

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

فهرس[1]

صفحة

فاتحة الكتاب ٧

نقد للنثر الفنى ١٧

الباب الأول

تطور النثر الفنى من عصر النبوّة إلى القرن الرابع

النثر الجاهلى ٣٣

نشأة النثر الفنى ٤٤

النثر الفنى فى العصر الإسلامى ٥٧

أطوار السجع ٦٤

الباب الثانى

خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع

خصائص نثرية ١٠٥

السجع والازدواج ١١٣

تصوير الحياة العقلية ١٢٦

الفكاهات ١٣٢

النسيب ١٤٨

الاخوانيات ١٦٣

صفحة

الوصف ١٧١

المبتذل والطريف فى التعابير الأدبية ١٨٠

الباب الثالث

كتاب الأخبار والأقاصيص

المقامات ١٩٧

مقامات بديع الزمان ٢٠٦

أحاديث ابن دريد ٢٢٧

روايات الأغانى.. ... ... ٣٣٤

أخبار ابن دريد ٢٤٦

حكايات ابن الأنبارى ٢٥٤

التوابع والزوابع ٢٥٨

الإنسان والحيوان أمام محكمة الجن ... ٢٧١

أخبار التوحيدى ٢٨١

قصص الببغاء ٢٨٦

أحمد بن يوسف المصرى ٢٩٤

عبد الله بن عبد الكريم ٣١٢

المحسن التنوخى ٣١٤

حكاية أبى القاسم البغدادى ٢٣٨

الفهرس المفصل ٢٥٣

---

(١) انظر (الفهرس المفصل) فى آخر الجزء .

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

هذا كتاب « النثر الفنى فى القرن الرابع » وهو كتاب شغلت به نفسى سبع سنين ، فإن رآه المنصفون خليقاً بأن يغمر قلب مؤلفه بشعاع من نشوة الاعتزاز فهو عصارة لجهود عشرين عاما قضاها المؤلف فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى ؛ وإن رأوه أصغر من أن يورث المؤلف شيئاً من الزهو فليتذكروا أنى ألفته فى أعوامٍ سودٍ لقيت فيها من عَنَت الأيام ما يقصم الظهر ، ويقصف العمر : فقد كنت أشطر العام شطرين ، أقضى شطره الأول فى القاهرة ، حيث أؤدى عملى ، وأجنى رزقى ، وأقضى شطره الثانى فى باريس ، كالطير الغريب ، أحادث العلماء ، وأستلهم المؤلفين ، إلى أن ينفد ما ادخرته أو يكاد ، ثم صممت على أن أنقطع إلى الدرس فى جامعة باريس حتى أنتصر أو أموت ، وكانت العاقبة أن أنعم علىّ الله — عز شأنه — بالنصر المبين .

ولكنى أحب أن أكون فى طليعة المنصفين لمؤلف هذا الكتاب ، وهل من العدل أن أظلم نفسى وأنصف الناس ؟

إن هذا الكتاب أول كتاب من نوعه فى اللغة العربية ، أو هو —على الأقل— أولُ كتاب صُنِّف عن النثر الفنى فى القرن الرابع ، فهو بذلك أول منارة أقيمت لهداية السارين فى غيابات ذلك العهد السحيق .

ولن يستطيع أى مؤلف آخر — مهما اعتز بقوته ، وتعامى عن جهود من سبقوه — أن ينسى أنى رفعت من طريقه ألوفاً من العقبات والأشواك .

وهل يمكن الأرتياب فى أن مؤلف هـذا الـكتاب هو أول من كشف النقاب عن نشأة النثر الفنى فى اللغة العربية ، وقهر المستشرقين ومن لَّف لَفَّهم من أهل الشرق على الاعتراف بأن القرآن صورة من صور النثر الجاهلى ، وأنه دليلٌ على أن العرب كان لهم نثر فنىٌّ قبل عصر النبوّة بأجيال ؟

وهل يمكن الشك فى أن مؤلف هذا الـكتاب هو أول من رَجَع الصور الفنية فى نثر كُتاب الصنعة والزخرف إلى أصول عربية صميمة ، وكان الباحثون يظنونها أثراً من اتصال العرب بالفرس واليونان ؟

وهل يمترى منصف فى أن ما كتبته عن أطوار السجع والنسيب فى النثر الفنى بابٌ من البحث جديد ؟

وهل يتردد أريب فى الأعتراف بأن الفصول التى كتبتها عن نشـأة المقامات وعن الأخبار والأقاصيص فصولٌ مبتكرةٌ كُتبتْ لأول مرة فى اللغة العربية ؟

والفصول التى أنشأتها عن كُتّاب النقد الأدبى ؟ لقد جلوت فى تلك الفصول طوائف من الحقائق الأدبية لم يهبها أحدٌ ما تستحق من العناية قبل اليوم .

والمؤلفون المنسيون الذين بعثهم هذا الـكتاب ؟

لقد مرت أجيال طوال نُسى فيها أبو المغيرة بن حزم نسياناً تاماً حتى كاد يطوى من صفحة التاريخ ، إلى أن كشف عنه مؤلف هذا الـكتاب .

وكان أساتذة الأدب العربى فى الشرق والغرب يعتقدون أن (رسالة الغفران) أول مسلاة فى اللغة العربية ، ويظنون أن ابن شهيد حاكاه حين ألف رسالة (التوابع والزوابع) فجاء مؤلف هـذا الـكتاب وأثبت أن رسالة ابن شهيد أُلفت قبـل رسالة المعرى بنحو عشرين عاماً ، وأن المعرى هو الذى حاكى ابن شهيد .

وكان كتاب أبى محمد بن حزم فى (فن الحب) مجهولا فى الشرق ، فلماجاء مؤلف هذا الـكتاب وأظهره عدّه المصريون أعجوبة ، وتألفت لجنة من علماء الأزهر برياسة الشيخ

محمد عرفة وكيل كلية الشريعة لتبرئة ابن حزم مما نسب إليه ! ثم انفضّت اللجنة وانزوى أعضاؤها الفضلاء ! أليس ذلك دليلا على أن هذا الكتاب فاجأ الشرقيين بنبأ عظيم ؟

وما كتبته عن ابن دريد؟ هل كان ينتظر أحد أن يكون هذا الرجل هو واضع الأقصوصة فى اللغة العربية ، والملهم الأول لبطل المقامات بديع الزمان ؟

تلك ملامح من شمائل هذا الكتاب ، أقف عندها ولا أزيد !

ومعاذ الأدب أن أمنّ على لغة العرب التى أعزنى بها الله . وإنما هى ثورة نفسية أنطقنى بها ما أراه فى زمانى من غدر وعقوق . والله المستعان ، على إفك هذا الزمان !

— ٢ —

وأنا ، بعد ذلك، مسئول عن عرض المؤاخذات التى وُجِّهت إلى هذا الكتاب .

وأذكر ، أولا ، أن فى هذا الكتاب عيباً سجله الأساتذة فى جامعة باريس ، وهو النزعة الوجدانية ، وقد اُعتذر عنى المسيو ماسينيون يوم أداء الامتحان فى السوربون ، فذكر أنى شاعر ، والشعراء لا يستطيعون الفرار من نزوات الوجدان .

وأذكر ، ثانياً ، أنى قصرت تقصيراً ملموساً فى عرض الشواهد ، ولم أذكر شاهداً كاملا غير مناظرة الخوارزمى والهمذانى، واكتفيت بالإشارة فى الهوامش إلى مراجع الشواهد . وعذرى فى ذلك أن هذا الكتاب لم يؤلف إلا للخواصّ ، ومن السهل عليهم أن يرجعوا إلى الشواهد فى مصادرها حين يشاءون . يضاف إلى هذا أن الشواهد لو ذكرتْ كاملة لوصل حجم الكتاب إلى أكثر من أربعة مجلدات . وأين الناشر الذى ينفق على نحو ألفى صفحة من هذه الصفحات الطوال العراض[1] ؟ !

وأذكر ، ثالثاً ، أن منهج العرض والتأليف يختلف فى هذا الكتاب بعض الاختلاف . والسبب فى هذا أن الكتاب لم يؤلف فى عام واحد ، وإنما كتبت فصوله كما أسلفت فى خلال سبع سنين ، وهى مدّة طويلة يتحول فيها العقل والذوق من حال إلى حال .

---

(١) تردد الحاج محمد مصطفى أولا فى نشر هذا الكتاب لطوله وضخامة نفقاته ، ولم تصح عزيمته على نشره إلا بعد أن علم أن حضرة صاحب المعالى الأستاذ محمد حلمى عيسى باشا وعد بطبعه على نفقة وزارة المعارف العمومية .

وأذكر ، رابعاً ، غلبة الأستطراد فى صلب الكتاب ، وهو عيب لامنى عليه الأساتذة فى باريس . وعذرى فى ذلك أنى أميل إلى هذا النحو الموروث فى التأليف ، لأن مؤلفاتنا القديمة كان أكثرها كذلك ، والقارئ هو الغانم على أى حال ، والفهرس المفصل[1] الذى ألحقته بالجزء الأول والجزء الثانى سيمكّن القارىء من تعقب مافى الكتاب من شتيت الفوائد الأدبية والتاريخية .

— ٣ —

عُنينا فى هذا الكتاب بدرس النثر الفنى ، أما الزمان فهو القرن الرابع ، وأما المكان فهو الأمصار الإسلامية لذلك العهد . كان يمكن أن يتفق العرب والمستعربون فى القرن الرابع على اصطناع أسلوب واحد أو مقارب فى التعبير عن مختلف المعانى والأغراض ؟

ذلك سؤال وجهه إلينا المسيو ديمومبين ، وأجبنا عنه فى النص الفرنسى[2] ، ونعرض له فى هذه المقدمة بشىء من البيان .

لا جدال فى أن الموضوعات كانت تختلف كثيراً أو قليلا ، فالمشاكل العقلية والوجدانية التى كانت تعرض لكتاب الأندلس تغاير بعض المغايرة ما كان يعرض لأمثالهم فى مصر والشام وفارس والعراق .

أما اللغة والأسلوب فالاختلاف فيهما قليل. لأن العرب الذين هاجروا فاتحين إلى مصر والمغرب والأندلس نقلوا تقاليدهم الأدبية إلى تلك البلاد ، وكان من همّ المؤلفين فى المغرب والأندلس أن ينقلوا إلى مواطنيهم أدب أهل المشرق ، والتاريخ يحدّثنا « أن الصاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده ، فلما تأمله قال :هذه بضاعتنا رُدّت إلينا ، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شىء من أخبار بلادهم ، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه »[3] .

---

(١) الفهرس المفصل هو الترجمة المقبولة لعبارة Table analytique

(٢) ص ٤١ و ٢٣١ — ٢٣٣ (٣) معجم الأدباء ج ١ ص ٦٧

ولهذا الخبر الصغير وجهان على جانب من الأهمية : فالصاحب كان يتشوف الى أدب أهل الأندلس ، لأنه لم يكن منشوراً فى المشرق ، وكان يرى أن أول ما ينبغى أن يشغل به رجل كأحمد بن عبد ربه هو تدوين أدب أهل الأندلس . أما ابن عبد ربه فكان أعرف بحاجة بلاده من الصاحب ، فاجتهد فى أن ينقل إليهم أدب أهل المشرق ، وكانوا يرونهم أساتذةً فى الشعر والبيان . واهتمام أمثال ابن عبد ربه بجمع الآداب المشرقية يؤيد ما نراه من محافظة أهل الأندلس على الأساليب العربية التى كان يصطنعها كتاب الشام وكتاب العراق .

وما وقع فى الأندلس وقع مثله فى المغرب ، فإن مؤلف زهر الآداب يحدّثنا فى مقدّمة كتابه أن العباس بن سليمان ارتحل الى المشرق فى طلب الكتب « باذلاً فى ذلك ماله ، مستعذباً فيه تعبه ، إلى أن أورد من كلام بلغاء عصره : وفصحاء دهره ، طرائف طريفة ، وغرائب غريبة » وسأله أن يجمع له « من مختارها كتاباً يكتفى به عن جملتها » فألف كتاب زهر الآداب .

وكما خلا العقد الفريد من أدب أهل الأندلس خلا زهر الآداب من أدب أهل المغرب .

أيكون معنى ذلك أن الأندلسيين والمغاربة كانوا يستخفون بآثارهم الأدبية ؟

لا ، ولكن معناه أنهم كانوا يرون المثل الأعلى عند أهل المشرق ، فكانوا يجدون فى نقل ما أُثر عن أهل الشرق من القصائد والرسائل والحكم والأمثال .

وكذلك كان زهر الآداب المرجع الأول الذى اعتمدت عليه فى أكثر الشواهد المشرقية مع أنه لرجل تونسىّ من أهل القيروان .

— ٤ —

ويمكن الحكم بأن حظ بغداد فى الأيام الخالية كان شبيها بحظ القاهرة فى هذه الأيام ألسنا نرى العرب والمستعربين فى مختلف الأقطار الإسلامية يتأثرون ما يجدّ فى القاهرة من ضروب الآداب والفنون ؟ ألسنا نرى مناهج النشر والتأليف التى يبدعها أهل القاهرة تنتشر فى أكثر الأمصار الإسلامية بشىء من التغيير قليل ؟

والمسيو ديمومبين يحدثنا أن زرياب حين رحل الى الأندلس أُستطاع أن يؤثر فى الأغانى الأندلسية و يصبغها بصبغة شرقية ، أفيرتاب أحد فى أن أغانى محمد عبد الوهاب تعطر الأغانى الشرقية بنفحة مصرية ، وتنقل إلى أكثر البلاد العربية أسرار الغناء فى وادى النيل ؟

يضاف إلى هذا نظام الرحلة فى طلب العلم ، وكان أهل الأندلس معروفين بذلك ، وكان الأخذ عن علماء المشرق مما يرفع رأس الرجل حين يعود إلى بلاده موفور العلم والعقل ، وكان يتفق لأهل الأندلس أن يقيموا زمناً بمصر فى طريقهم الى المشرق ، ليأخذوا عن علماء مصر ما يرون فى أخذه فضلا وعائدة . وقصة المنذر بن سعيد البلوطى معروفة ، وهى لاتخلو من فكاهة ، فقد حضر مجلس ابن النحاس فى مصر وهو يملى هذه الأبيات :

خليلىّ هل بالشام عينٌ حزينةٌ ... تُبكّى على ليلى لعلى أعينها

قد أُسلمها الباكون إلا حمامة ... مطوّقةً باتت وباتِ قرينها

تجاوبها أخرى على خيزرانةٍ ... يكاد يدنّيها من الأرض لينها

فقال ابن سعيد : يا أبا جعفر ! ماذا ، أعزك الله ، باتا يصنعان ؟ فقال ابن النحاس : وكيف تقوله أنت يا أندلسىّ ؟ فقال : بانت و بان قرينها .

و بالطبع ما كان يتفق لجميع من وفد على مصر من أهل الأندلس ما اتفق لابن سعيد مع ابن النحاس ولكن المهم أن نشير إلى أن ابن النحاس استثقل ابن سعيد بعد ذلك حتى منعه كتاب العين وكان يذهب فينتسخ من نسخته ، فانصرف عنه إلى الانتساخ من نسخة ابن العباس بن ولاد[1] .

وفى أمثال هذا الخبر ما يدل على أن الأندلسيين والمغاربة فى رحلتهم إلى المشرق كانوا يجمعون بين فائدتين : الاستماع إلى الرجال وانتساخ ما يظفرون به من نادر المصنفات ، حتى إذا عادوا إلى بلادهم اشتغلوا بالوراقة والتدريس ، أما الوراقة فلكسب الرزق ، وأما التدريس فلطلب المجد .

(١) انظر معجم الأدباء ج ٢ ص ٧٢ ، ٧٣

و بعض هذا كافٍ لصبغ أذواقهم بالصبغة المشرقية فى الشعر والبيان .

أيكون عجيباً بعد هذه الأدلة أن نحكم بأن أساليب الكتاب فى القرن الرابع كانت متقاربة فى السمات والخصائص و إن افترقت مساكنهم بين المغرب والمشرق ؟

— ٥ —

مرت المناقشات هادئة فى هذا الكتاب ، ولم يستعرْ ضريمها إلا حين اتصلت برجلين من كرام الرجال ، هما المسيو مرسيه والدكتور طه حسين .

أما المسيو مرسيه فعالم واسع الاطلاع ؛ وهو رأس المستشرقين الفرنسيين لهذا العهد ، وكانت له آراء مدوّنة عن نشأة النثر الفنى عند العرب . وما كدت أصل إلى باريس حتى هممت بمهاجمته ، فنصحنى المسيو ماسينيون وأفهمنى أنه رجلٌ صعب المِراس ؛ وأن منزلته فى المعهد العلمى عظيمة ، وأن المستشرقين جميعاً يجلونه أعظم الإجلال . ولكن كتب الله أن لا أنتصح برأى المسيو ماسينيون ، فابتدأت رسالتى التى قدّمتها للسوربون بفصلين فى نقض آرائه من الأساس ، فغضب الرجل وثار ، وصمم على حذف الفصلين بحجة أنهما لونٌ من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث ، وصممت على إبقاء الفصلين بحجة أنهما العماد الذى تنهض عليه نظريتى فى نشأة النثر الفنى .

وكأنما عزّ على الرجل أن أهاجمه فى عُقر داره فمضى يعادينى عداءً خفياً كانت له آثار بشعة لا أتذكرها إلا انتفضتُ رُعباً من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الإنصاف .

وقد قابلت خصومته بلددٍ أقسى وأعنف : ورأيت الحرص على آرائى أفضل من الحرص على رضاه ، فأبقيت الفصلين اللذين أغضباه ، وأضفت إلى البحث الذى قدمته إلى مدرسة اللغات الشرقية فصلا كان أشار بحذفه لأنى هاجمته فيه ، وانتهينا إلى عاقبة أفصح عنها المسيو ماسينيون كل الإفصاح إذ قال حين لقيته أخيراً فى باريس :

« إن المسيو مرسيه لا يحبك ، ولكنه لا يستطيع أن ينساك » .

أما أنا فأحب هذا الرجل وأذكره بالجميل ، لأنه من خيرة الأساتذة الذين تلقيت عنهم فى باريس ، ولأنه كان رئيس لجنة الامتحان الذى ظفرت فيه بدبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية ، والله سبحانه هو القادر على أن ينسينى مالقيت على يديه من ظلم و إجحاف !

أما الدكتور طه حسين فما أدرى والله ما ذنبُه حتى يهاجَم أعنف الهجوم فى هـذا الكتاب !

إن هذا الرجل تربطنى به ألوف من الذكريات ، يرجع بعضها إلى العهد الذى كنت فيه طالباً بالجامعة المصرية القديمة ، يوم كان يصطنع العدل الذى يلبس ثوب الظلم فى امتحان الطلاب ، فقـد ساعد مرة على إسقاطى فى امتحان الجغرافيا ووصف الشعوب ، وأسقطنى مرة ثانية فى امتحان تاريخ الشرق القديم . والسقوط فى الامتحان مما يحفظه الطالب المخلص لأستاذه المنصف .

و يرجع بعض الذكريات إلى العهد الذى كنت فيه مدرساً بالجامعة المصرية الجديدة ، حين كنت أحمل إليه على أكتافى أحجار الأساس لنرفع القواعد من كلية الآداب .

وأدق ما يصل بيننا من الذكريات ما وقع فى ربيع سنة ١٩٢٦ يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلى ، وثارت الأمة والحكومة والبرلمان ، وكان أصدقاؤه وزملاؤه بين خائف يترقب ، وحاسد يتربص ، وكنت وحدى صديقه الذى لا يهاب ، وزميله الذى لا يخون .

ولكن حماستى للفكرة التى أدافع عنها ، وغرام الدكتور طه بنقضها فى رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كان مما حملنى على مقاومته بعنف وقوة ، حتى ليحسب القارىء أن بيننا عداوة سقيت لأجلها القلم قطرات من السم الزعاف حين عرضت لدحض آرائه فى فصول هذا الكتاب .

أكتب هذا وقد شرّق الدكتور طه وغرّبت ، ولم يبق بيننا إلا أطيافٌ من كرائم الذكريات ، قلبي بها ضنين .

— ٦ —

يشتمل هذا الكتاب على مقدّمة وستة أبواب ، أما المقدّمة فتبحث عن نصيب النثر الفني من عناية النقاد ، وتبين الغرض من تأليف هذا الكتاب ، وفى الباب الأوّل ، يتكلم المؤلف عن النثر الجاهلي والنثر الإسلامى وأطوار السجع والازدواج ، وكان من الضرورى فى نظر المؤلف أن ينشىء هذا الباب ، وهو أصل الخصومة بينه و بين أستاذه المسيو مرسيه ، وحجة المؤلف أنه من الواجب تعرف مذاهب النثر من عصر النبوة إلى القرن الرابع لتظهر خصائص النثر فى العصر الذى ألف عنه الكتاب ، وفى الباب الثانى يدرس المؤلف خصائص النثر فى القرن الرابع فيبين ما فيه من الظواهر الفنية والعقلية ، ثم يمضى فيتكلم فى الباب الثالث عن كُتّاب الأخبار والأقاصيص ، و يتحدث فى الباب الرابع عن كُتّاب النقد الأدبى ، و يشرح فى الباب الخامس بعض الجوانب المهمة من كُتّاب الآراء والمذاهب ، و يختم الكتاب بالباب السادس عن كُتّاب الرسائل والعهود .

والمؤلف مطمئن إلى صحة هذا التقسيم ، و يعترف بأنه لم يتكلم عن البلاغة الدينية إلا قليلا ، فقد حملته الأثَرَة على أن يستبقى هذا الجانب لكتابه « أثر التصوف فى الأدب والأخلاق » الذى يرجو أن يوفق إلى إتمامه بعد قليل .

— ٧ —

راعينا روح العصر فى تأليف هذا الكتاب ، فتجنبنا ألفاظاً وتعابير كانت تستساغ فى القرن الرابع ولا تستساغ اليوم ، ولكنا فى الوقت نفسه لم نهمل واجب الدقة فى التأليف فأشرنا إلى نوازع اللهو والمجون ، ودللنا القارىء على مصادرها إن كان يهمه استقصاء الظواهر الاجتماعية التى حفظها التاريخ ، والأدب فى رأينا أصدق مصدر للدراسات الفلسفية والتاريخية ، ومثل هذا الكتاب يقدّم للخواص الذين يُعدُّ التحفظ فى مخاطبتهم ضرباً من الجمود .

— ٨ —

بين الأصل الفرنسى و بين هذا الكتاب أختلاف قليل ، ففى النسخة الفرنسية أشياء تكتب لأهل الغرب ولا يحتاج إليها أهل الشرق ، وفى هذه النسخة العربية تفاصيل لا يحتاج إليها أهل الغرب وتنفع أهل الشرق ، و يمكن القول بأن فى النسخة العربية حرية لم تكن فى النسخة الفرنسية ، لأن الأصل الفرنسى كتب لأداء أمتحان الدكتوراه فى جامعة باريس ، تحت إشراف أستاذين فيهما صرامة وقسوة ، وهما المسيو مرسيه والمسيو ديمومبين ، فالأصل الفرنسى وُجِّه وجهة العلم الصرف ، أما هذا الكتاب فوضع لغرض التعليم والتثقيف .

— ٩ —

أيرانى القارئ أحسنت التمهيد لهذا الكتاب ؟

قد يكون ذلك وقد لا يكون ، ولكن مما لا ريب فيه أنى رفعت عن كاهلى عبئاً ثقيلا بإخراجه إلى الناس ، فقد كان من الواجب أن ينشر بالعربية بعد نشره بالفرنسية ، وقد قضيت عاما فى طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية ، وأستوجب تحقيقه وتصحيحه جهوداً لم تكن تخطر بالبال ، وصبر ناشره الحاج مصطفى محمد صبراً جميلا ، وأحتمل عمال المطبعة ضجر الإفراط فى المراجعة والتصحيح .

وأرى من الواجب أن أشكر صاحب العزة الأستاذ برادة بك على التسهيلات التى أختصنى بها فى تيسير طبع هذا الكتاب على الطريقة الفنية التى استطعت بها ربط أصول الكتاب بعضها ببعض ، وأن أسدى الثناء إلى صديقى المفضال محمد افندى نديم على معونته فى إنجاز الطبع على أحسن حال .

والله أسأل أن يقينى شر الفتنة ، فتنة النفس والقلب والعقل ، وأن يهدينى الصراط المستقيم ، وأن يمنح هذا الكتاب من القبول ما يكافىء ما أضعت فى تأليفه من العمر والعافية ، إنه قريبٌ مجيب ؟

مصر الجديدة { ٦ شوال سنة ١٣٥٢
٢٢ يناير سنة ١٩٣٤ }

محمد زكى عبد السلام مبارك

نقد النثر الفنى

١ — ينبغى أن نقيد فى صدر هذا الكتاب أن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية : فلسنا نجد فى كتب النقد تلك الأبحاث المطولة التى يراد بها رد معانى الكتاب إلى مصادرها الأولى على نحو ما فعلوا فى درس معانى الشعر و بيان المبتكر منها والمنقول . فقد نجدهم يتعقبون المعنى حين يرد فى بيت من الشعر فيذكرون أجديدٌ هو أم قديم ، ثم يذكرون مَن أُخِذ عنه إن كان قديماً ، و يبينون الفرق بين المعنى فى صورته الأولى و بينه فى صورته الثانية . وقد يزيدون فيذكرون الأدوار التى مر بها المعنى منذ عُرف عن الجاهليين و يبينون درجات من تناوله من الشعراء . وهذا الذى نقوله يبين وجهاً من الفروق بين النثر والشعر من الوجهة الفنية : فالشعر فى نظر النقاد من العرب أكثر حظاً من الفن وأولى بالنقد والوزن . والنثر مهما اُحتفل أصحابه باتقانه وتجويده لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر . ولذلك قلّت العناية بتقييد أوابده والنص على مافيه من ضروب الإبداع والابتكار أو دلائل الضعف والجمود[1] . وليس فى اللغة العربية كتاب منثور شغل به النقاد غير القرآن ، على أن شغل النقاد بالقرآن لم يكن عملا فنياً بالمعنى الصحيح للنقد الأدبى : فقد كان مفروضاً فى كل من يكتب عن القرآن أن يظهر عبقريته هو فى إظهار ماخفى من أسرار ذلك الكتاب المجيد.

(١) ومع هذا نجد فى مطالعاتنا إشارات إلى سرقات الكتاب فقد كان أحمد بن أبى طاهر يقول فى سعيد بن حميد : « لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع إلى أهلك لما بقى منه شئ » الفهرست ص ١٧٩ — و (الكلام) هنا هو النثر الذى يسمى أيضاً (الكتابة) وقد سمى النثر (كلاما) فى عدة مواطن منها قول بديع الزمان : « البليغ من لم يقصر نظمه على نثره ، ولم يزر كلامه بشعره » . . .

وعرض الثعالبى لبعض المعانى التى وردت فى نثر الصاحب بن عباد مسروقة من شعر المتنبى — اليتيمة ص ٨٧ ج ١ . وكذلك عرض لإحدى رسائل الصابى فبين أن بعض ألفاظها مأخوذ من فصل كتبه جعفر بن محمد بن ثوابة عن المعتضد إلى ابن طولون — اليتيمة ص ١٩١ ج ١ وفى وفيات الأعيان — ج ١ ص ١٥ و١٦ — كلام لإبراهيم الصولى عما أضاف إلى نثره من معانى الشعراء .

وليس هذا من النقد فى شىء . إنما النقد أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبى موقف الممتحن للمحاسن والعيوب . من أجل ذلك وُسم أكثر ما كتب عن القرآن باسم الإعجاز لأن النقاد أطمأنوا إلى أن القرآن هو المثل الأعلى الذى تقف عنده حدود الطبيعة الإنسانية فى البلاغة والبيان .

٢ — فإذا خلينا القرآن جانباً وانتقلنا إلى غيره من غرر النثر وجدنا البدائع النثرية قليلة الحظ من عناية النقاد : فنحن نستطيع أن نجد طائفة صالحة من المؤلفات تدور حول أبى تمام والبحترى ومسلم بن الوليد وأبى نواس و بشار والمتنبى ، بحيث نستطيع أن نجزم بأن الشعراء الكبار الذين شُغل بهم الناس كانوا سبباً فى نشاط النقد الأدبى و إمداده بتلك الحيوية العظيمة التى ظهر أثرها فى مثل مؤلفات أبى هلال العسكرى وابن الأثير وابن رشيق وأبى الحسن الجرجانى وغيرهم من فحول النقاد الذين شُغلوا بالموازنة بين الشعراء . ولكن قلّ أن نجد أثراً لمثل ذلك الاهتمام إذا شئنا أن نعرف ماصنع النقاد فى الموازنة بين كاتبين كالبديع والخوارزمى ، أو الصاحب والصابى ، أو عبد الحميد وابن المقفع ، أو الصولى وابن الزيات ، أو ابن زيدون وابن شهيد ، وغيرهم من الكتاب الذين شغلوا معاصريهم من المتأدبين والناقدين[١] .

---

(١) ولا ننكر مع هذا أنه وضعت كتب كثيرة فى نقد النثر أشهرها كتاب قدامة بن جعفر الذى نشرته الجامعة المصرية بتحقيق الدكتور طه حسين والأستاذ عبدالحميد العبادى . وكتاب (المذهب فى البلاغات لابن العميد) ـ ١٩٤ فهرست ـ وكتاب (غرر البلاغة) أورد منه صاحب صبح الأعشى شواهد ـ ٢٨٠ و٢٨٥ ج ٩ ـ و (تحفة الكتاب فى الرسائل) ٢٧٤ ج ٦ ياقوت ـ و (كتاب الكتاب) ـ ٢٧٩ ج ٦ ياقوت ـ و (غلط أدب الكاتب) و (مصابيح الكتاب) ـ ٢٨١ ج ٦ ياقوت ـ و (والاختيار من الرسائل) أو (فقر البلغاء) ـ ١٣٠ ج ٦ ياقوت ـ و (علم النثر) ـ ٢٥١ ج ١ ياقوت ـ و (أنواع الأسجاع) ـ ٧٥ ج ٤ ياقوت ـ و (الرسائل السلطانيات والاخوانيات) و (الفرق بين المترسل والشاعر) ـ ٢٥٧ ج ٢ ياقوت.

وفى مطالعاتنا نجد كتباً كثيرة ألفت فى النثر : لا نعرف أهى من قبيل المجموعات أم من باب النقد أم من علم البيان ، لأن أصولها لم تصل إلينا . وهى تدل على أن المتقدمين اهتموا بالدراسات النثرية . ولكننا لانزال نرى أن الشعر استبد بجهود أكثر النقاد ولم يخلص للنثر من عنايتهم إلا القليل .

ولنقيد أن نقد النثر الذى انصرف عنه أكثر الباحثين هو فن غير الفن الذى عرف بأدب الكتاب ووضعت فيه أبحاث كثيرة منها «الرسالة العذراء» التى قدمناها مع مقدمة بالفرنسية إلى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس ونشرناها فى سنة ١٩٣١ ، و (أدب الكتاب) =

٣ — و إيثار الشعر على النثر له مظاهر كثيرة فى البيئات العربية ، فهذا أبو بكر الخوارزمى الذى كان يحفظ نحو خمسين ألف بيت من الشعر لم يعرف عنه أنه اهتم بحفظ الرسائل حتى ذكروا أنه لم يحفظ غير رسالة واحدة هى كتاب الصاحب إلى ابن العميد جوابا عن كتابه عليه فى وصف البحر[١] . والواقع أن الشعر أقرب إلى النفس من هذه الناحية ، وهو بالذاكرة أعلق ، وعلى الألسنة أسير ، بفضل القوافى والأوزان .

٤ — ولنذكر هنا أن فى كتاب القرن الرابع من نظر فى هذه المسألة وفاضل بين الشعر والنثر و بين مقام الكتاب ومقام الشعراء . وأهم ما لفت نظرى فى تحرير هـذا الموضوع ما كتبه الثعالبى فى تفضيل النثر وما كتبه ابن رشيق رداً عليه فى تفضيل الشعر . والثعالبى يبنى حكمه على أن طبقات الكتاب كانت ولا تزال مرتفعة عن طبقات الشعراء « فإن الكتاب وهم ألسنة الملوك إنما يتراسلون فى جباية خراج ، أو سد ثغر ، أو عمارة بلاد ، أو إصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية فى رزية ، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ، ومعاظم الشئون ، التى يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ، ومعارف مفننة »[٢] .

وهذا حق من جانب وخطأ من جانب آخر : هو حق من حيث تنويهه بفضل النثر فى المصالح المعاشية والسياسية والإدارية ، لأن النثر هو الأداة الصالحة للتفاهم فى شئون الحرب والسلم والتجارة والزراعة والصناعة وما إلى ذلك من شئون العمران ، ولكنه خطأ من حيث يعطى للنثر جوانب هى أقرب إلى الشعر : فالدعاء إلى الألفة والنهى عن الفرقة والتهانى بالعطايا والتعازى فى الرزايا من الموضوعات التى كان الشعر فيها أصلح أداة من النثر وأقدر على تسجيل العواطف والأحاسيس ، وامتلاك القلوب والنفوس .

= للصولى . و(كتاب الكتاب) لابن درستويه ، وما إلى ذلك من الدراسات التى تتصل فى الأغلب بأحوال الكتاب من الوجهة الديوانية والاجتماعية . وأهم كتاب فى هذا الباب هو (صبح الأعشى) الذى يعد أنفع ما صنف فى أدب الكتاب . على أن هذا النوع من التأليف حافل بالملاحظات الفنية التى تقربه من (النقد الأدبى) وإن لم تسم به إلى المصنفات الممتعة التى قصرها أصحابها على دراسة آثار الشعراء .

(١) ص ٨٧ ج ٣ نثر من يتيمة الدهر . (٢) ص ٣ نثر النظم .

والثعالبى صدق فى نصه على أن ما يشتغل به الـكتاب يقضى بأن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفننة : فإنه يكاد يغلب على جمهور الشعراء فى اللغـة العربية فراغ الأفئدة وفقر الرءوس . والشعراء المتفوقون عند العرب هم الشعراء المثقفون الذين استطاعوا أن ينافسوا كبار الباحثين من أصحاب المذاهب وأرباب الأقلام . فأبو نواس و بشار بن برد ومسلم بن الوليد وابن المعتز وابن الرومى وأبو تمام والبحترى والشريف الرضى والمتنبى ، كل أولئك كانوا من أهل العلم الوافر العميق ، وكانوا فوق ذلك أصحاب مطامع وأهواء فى الملك والسياسة ، وكانوا لا ينامون إلا على سر مبيَّت أو غرض دفين .

ونظرةٌ إلى شعراء العصر الحاضر تعطينا ما يؤيد هذه الفـكرة ، فالشعراء النابهون فى عصرنا هم الذين لابسوا رجال الملك واُتصلوا بالجماهير اتصال استثمار واستغلال : فقـد كان شوقى شاعر القصر ، وكان حافظ شاعر الشعب ، كما كان البارودى شاعر السيف ، وقد خمل من خمل من الشعراء الذين قعدت بهم ثقافتهم ووقفت بهم هممهم عند الاكتفاء بمضغ الـكلام الموزون !

٥ — والثعالبى بعـد كلماته تلك يذكر فى أسباب تقديم النثر على الشعراء أن الشعر تصوَّن عنه الأنبياء وترفّع عنـه الملوك . وهى حجة واهية وسبب ضعيف ، فالشعر أقرب الفنون إلى أرواح الأنبياء ، وأنا لا أتصور الأنبياء إلا شعراء ، و إن جهلوا القوافى والأوزان ، لأن الشعر الحق روحٌ صرف ، والنبوة الحقة شعرٌ صُراح . أما الملوك فترفُّعهم عن الشعر لا يحط من قدره ، ولا يغض من شأنه ، والملوك لو استطاعوا أن يضموا إلى قواهم المادية تلك القوة الروحية لـكان حظهم أوفى الحظوظ . ولـكن شواغل الملك وتكاليف السياسة اليومية تصرف العقـل والحس والخيال عن إجادة الشعر الذى يتطلب صفاء النفس وجلاء الوجدان .

٦ — وربما كان أظرف نقد وجه للشعر والشعراء ما قصه الثعالبى إذ قال : وقد أفصح عبد الصمد بن المعذل عن حقيقة الحال فى انحطاط رتبة الشاعر لاشتغاله بخلاف المراشد حيث قال لأبى تمام وقد قصد البصرة وشارفها :

أنت بين اُثنتين تبرز للنا س وكلتاهما بوجه مُذال

لست تنفك طالبا لوصال من حبيب أو طالبا لنوال
أى ماء لحر وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال

فلما بلغت الأبيات أبا تمام قال : صدق والله وأحسن ! وثنى عنانه عن البصرة وحلف أن لا يدخلها أبداً[١] .

وهذه الأبيات التى قالها ابن المعذل تصوّر حياة الشعراء الأقدمين أصدق تصوير . وقد رأيت أن أرجع بمناسبة هذه الأبيات إلى وصية أبى تمام للبحترى لأرى الأغراض التى كان يهتم بها مثل ذلك الشاعر البليغ ، فلم أجده نص على غير النسيب والمديح إذ قال :

« وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، وأكثر من بيان الصبابة وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . فاذا أخذت فى مدح سيد ذى أيادٍ فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف مقامه »[٢] .

فالشاعر على هذا الوضع لا يبرح دامع العين فى سبيل الحب ، أو قلق النفس فى سبيل المال ، وحياته إذن مقسمة بين ذلين : ذل الهوى وذل السؤال .

٧ — غير أنه ينبغى أن لا نفتن بهذا الكلام فتنة باقية ، وأن نفهم أن جماله يرجع إلى أنه سخرية تدل على براعة وذكاء ، فإنه إن جاز لنا أن نلوم الشعراء على إسفافهم حين يطمعون فى عطايا الملوك فإنا لا نستطيع أن نأخذ عليهم أن تُفتَن عيونهم بالحسن ، وأن تخفق قلوبهم بالوجد ، فإن للشاعر رسالة يؤدّيها إلى العالم هى فهمه العميق لأسرار الجمال ثم غناؤه الساحر فى تقديس الحسن المصون . والشاعر الملهم حين يفهم المعانى الروحية لصباحة الوجوه وأسالة الخدود ، ورشاقة القدود ، يعود وهو قيثارة إلٰهية يمضى رنينها ساحراً أخّاذاً لا يملك الغض منه إلا صُمّ المسامع أو غُلْف القلوب .

٨ — أما ابن رشيق فيفضل الشعر على النثر لأسباب فنية ، وهو يذكر أن كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة ورديئة ،

(١) ص ٤ من نثر النظم . (٢) ص ١٠١ ج ١ زهر الآداب .

وفى رأيه أنه إذا اتفق الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة ، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً فى التسمية : لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة ، فالدر — وبه يشبَّه اللفظ — إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به فى الباب الذى كسب له وانتخت من أجله ، وكذلك اللفظ إذا كان منثورا تبدّد فى الأسماع ، فاذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته وازدوجت فرائده[(١)] .

وهذا كلام ضعيف لا يتناسب مع عقل مثقف كعقل ابن رشيق ، لأنه إذا صح أن يشبَّه الشعر بالعقد المنظوم فإنه لا يصح أن يشبه النثر بالدر المنثور ؛ لأن النثر منظوم أيضا ، والكاتب يؤلف بين الكلمات ويزاوج بين الألفاظ بنفس الدقة التى يعنى بها ناظم العقد ، واللؤلؤ المنثور له قيمته دائماً ، لأن اللؤلؤة هى هى فى قيمتها ونفاستها ، ولن يضيرها أن تسقط من بين حبات العقد وأن تقع حيث يشاء الإغفال . أما اللفظة فتفقد قيمتها الأدبية وهى مفردة إذ كان سحرها يرجع إلى موقعها من التركيب بلا فرق بين الشعر والنثر . وقد نص عبد القاهر الجرجانى فى دلائل الاعجاز على أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجرّدة ، ولا من حيث هى كلم مفردة ، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلّق له بصريح اللفظ ، وذكر أننا نرى الكلمة تروق وتؤنس فى موضع ، ثم نراها تثقل وتوحش فى موضع آخر ، وأننا قد نرى رجلين استعملا كلًا بأعيانها ثم نرى هذا قد فرع السِّماك ، ونرى ذاك قد لصق بالحضيض[(٢)] .

٩ — على أنه يخيل إلىّ أن تقديم الثعالبى للنثر كان أثراً لغرض شخصىّ ، فلا يبعد أن يكون خوارزمشاه الذى قدم إليه « نثر النظم وحل العقد » كان من هواه أن يقدّم النثر على الشعر إيثاراً لبعض الكتاب ، أو حقداً على بعض الشعراء . وهذا الذى نقوله ليس بغريب من كتاب ذلك العصر ، فعهدى بهم يصوّرون الحقائق حسبما توحى الأهواء ، حتى أننا نجد ابن رشيق الذى فضل الشعر على النثر يقول : « ولم أهجم بهذا الرد وأورد

---

(١) ص ٤ و ٥ من كتاب العمدة . (٢) راجع ص ٣٨ و ٣٩ من دلائل الإعجاز .

هذه الحجة لولا أن السيد أبقاه الله قد جمع النوعين ، وحاز الفضيلتين ، فهما نقطتان من بحره ، ونوارتان من زهره[١] » فهذه الفقرة صريحة فى أن أحكامه تتأثر بأهواء من يعاشر من الرؤساء .

١٠ — وأبو هلال العسكرى أكثر دقة من الثعالبى فى الكلام على الشعر والنثر ، فعنده أن الرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل ، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب فى السهولة والعذوبة ، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافَه بها ، والرسالة يكتَب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة ، فى أيسر كلفة ، ولا يتهيأ مثل ذلك فى الشعر من سرعة قلبه وإحالته إلى الرسائل إلا بتكلف ، وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعراً إلا بمشقة[٢] .

١١ — هذا فهم أبى هلال للنثر والشعر من الوجهة الفنية ، أما من الوجهة الأجتماعية فالنثر فى رأيه عليه مدار السلطان ، والشعر يغلب عليه الزور والبهتان ، وليس يرد من الشاعر إلا حسن الكلام ، أما الصدق فيطلب من الأنبياء[٣] .

وفضل الشعر على النثر — عند أبى هلال — يرجع إلى أستفاضته فى الناس ، وبُعد

---

(١) ص ٦ العمدة . (٢) ص ١٠٢ — وهذا صريح فى أن نقاد العرب يفهمون أن الرسائل والخطب فن واحد أو فنان متقاربان يقابلهما الشعر . فالكلام ينقسم إلى قسمين : منظوم ومنثور ، والمنثور منه الخطب والرسائل . وقد عرض القلقشندى للتعليق على كلمة أبى هلال فى صبح الأعشى ــ ج ١ ص ٢٢٩ ــ فقال : إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها ، يحتاج الكتاب إليها فى صدور بعض المكاتبات ، وفى المبيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكبار التواقيع والمناشير» . ومن هذا يتبين أن المسيو مرسيه تكلف شططاً حين زعم أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أصول أساسية : هى النظم والنثر والخطب ، ليصح له أن يحكم بأن الجاهليين عرفوا فن الشعر وفن الخطابة ولم يعرفوا فن النثر . والمعقول أن الذى يحسن إعداد الخطبة يحسن بسهولة إنشاء الرسالة . وقد بقى صدى خطباء الجاهلية لأن الخطب كانت لاتلقى عادة إلا فى المواسم أو عند كبريات الحوادث . أما الرسائل فكانت تنقل من قبيلة إلى قبيلة على أيدى الرسل وكانت فى الأغلب مما يكتمه المرسلون. (٣) انظر الصناعتين ص ١٠٣

سيره فى الآفاق ، و إلى تأثيره فى الأعراض والأنساب ، و إلى أنه ليس شىء يقوم مقامه فى المجالس الحافلة ، والمشاهد الجامعة ، و إلى أن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب ولا تؤنس إلا بإنشاد الأشعار ، و إلى أن الشعر أصلح للألحان التى هى أهنى اللذات ، ولا تتهيأ صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر فهو لها بمنزلة المادة القابلة لصورها الشريفة[١] .

قال أبو هلال : ومن صفات الشعر التى يختص بها دون غيره أن الانسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة فى ذلك أو عمل خطبة فيه جاء فى غاية القباحة ، و إن عمل فى ذلك أبياتا من الشعر احتُمِل . ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحنينه إليه وشهرته فى حبه و بكاه من أجله لأستُهْجِن منه ذلك وتنقص به فيه ، ولو قال فى ذلك شعراً لكان حسنا[٢] .

١٢ — وهذا كلام يحتمل النقض ، فإن مدح الرجل نفسه ، إن جرى مجرى الدفاع والمفاخرة ، صح وقوعه فى النثر ، وشواهد ذلك كثيرة من خطب الخلفاء والولاة ورسائلهم ، فليست خطب على بن أبى طالب فى جملتها إلا إشادة بشرفه وتنويهاً بقربه من الرسول . أما الفخر الذى يجرى مجرى الزهو والخيلاء فهو مردود فى الشعر والنثر . و إن كان الشعر أصلح الفنين للتغنى بكرم الأعراق وشرف الأحساب .

أما الغزل فمن الحق أن الشعر أولى به ، لأن الغزل غناء ، والشعر أقرب إلى الأنين والرنين ، ولكنا لا نجد بداً من الإشارة إلى أن من الكتاب من اتخذ النثر أداة تشبيب فوقع تشبيبه موقع القبول ، وفى رسالة الجاحظ إلى إبراهيم بن المدبر[٣] ، ورسالة إسحاق بن إبراهيم إلى على بن هشام[٤] ، وما نقله صاحب زهر الآداب فى الجزء الأوّل والثالث من وصف النساء والغلمان ورسائل الشوق دليل على أن النثر يصلح أيضا للمعانى الغرامية . ولا معنى لتضييق المجال أمام الكتاب بمثل ذلك الاصطلاح ، ولكن هيهات أن تنجو الحياة الأدبية أو الاجتماعية من أثقال التقاليد التى تسيطر على الذوق ، وتجعل مقياس القبح والحسن تابعاً لما ألف الجمهور من ملابسات الحياة .

---

(١) ص ١٠٣ (٢) ص ١٠٤ (٣) ص ٦٧ ج ٦ ياقوت .
(٤) ص ٢١٩ ج ٢ ياقوت .

١٣ — بعد هذا البيان أحب أن أدون رأيى فى الفرق بين منزلة الشعر ومنزلة النثر وهو رأى لم أُسبَق إليه : رأيى أن الموضوعات هى التى تحدد نوع الصياغة ، فليس ينبغى أن يفترض أن الشعر صالح لكل موضوع ، ولا أن النثر صالح لكل موضوع ، فهناك مواطن للقول لا يصلح فيها غير النثر ، ومواطن أخرى لا يصلح فيها غير الشعر . والبليغ الموفَّق هو الذى يفهم سياسة الفطرة فى مثل هذه الشئون . فى بعض الأحوال يكون الإفصاح بالشعر نوعا من العىّ كما يكون أحيانا أسمى أنواع البيان . وقد أذكر أننى كنت أحاور المسيو مرسيه فى تطور السجع فأخرج رسائل الجاحظ وفيها هذه العبارة :

« إن معاوية مع تخلفه عن مراتب أهل السابقة أملى كتابا إلى رجل فقال فيه : (لهو أهون علىّ من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة) ثم قال : امح (من كلاب الحرة) واكتب (من الكلاب) كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس فى موضعه »[1] .

وكان المسيو مرسيه يظن أن فى هذه العبارة دلالة على أنهم كانوا إذ ذاك لا يستحبون الكلام المسجوع ، فوجهت نظره إلى أن لهذه العبارة معنى آخر : ذلك أن السجع فن رقيق ، لا يصلح فى مثل ذلك المقام وهو مقام تهديد ووعيد .

وفهم الظروف وما تقتضيه من شعر أو نثر هو أساس التوفيق عند من يفرض عليهم القول . فكم موطن يظهر فيه الشعر غريباً ، وكم موطن تظهر فيه الرسائل والخطب وكأنها بعيدة عما يجب أن يقال . ولو تتبعنا آثار الكتاب الذين مُنِحوا موهبة الشعر لرأيناهم يجنحون إلى القريض فى مواضع لايغنى فيها النثر شيئاً . فبديع الزمان يمضى فى رسائله ومقاماته ناثراً ، ثم ينتقل إلى الشعر فجأة حيث يرى الشعر أقرب إلى ما يريد . وقد رأينا عبد العزيز بن يوسف يراسل الصاحب بن عباد فيبدأ خطابه ناثراً ثم يميل إلى النظم ولا يفوته أن يعلل ذلك الميل فيقول : «ابتدأت ، أطال الله بقاء مولاى الصاحب ، بكتابى هذا وفى نفسى إتمامه نثراً ، فمال طبعى إلى النظم ، وأملى خاطرى على يدى منه ما كتبت ، ونعم المعرب عن الضمير مضمار القريض »[2] .

---

(١) ص ١٥٥ رسائل الجاحظ . (٢) اليتيمة ص ٩١ ج ٢

١٤ — قلنا إن الموضوعات هى التى تحدد نوع الصياغة فلنعد إلى ذلك بكلمة حاسمة فنقول : إذا كان موضوع القول متصلا بالمشاعر والعواطف والقلوب كان الشعر أوجب لأن لغته أقدر على التأثير والإمتاع ، و إذا كان الموضوع متصلا بأعمال العقل والفهم والإدراك كان النثر أوجب ، لأن لغته أقدر على الشرح والإيضاح والإفهام والتبيين والإقناع ، ومن أجل ذلك نرى الفقهاء واللغويين والنحويين ورجال العلوم الصرفة كالفلكيين والرياضيين لا يجيدون الشعر إلا قليلا لأن اتجاهاتهم العقلية تصرفهم عن تلقى الوحى والإلهام إذ كان الشعر فى صميمه ينفر من النفوس المعقدة و يأنس بالنفوس الصافية التى تسيطر عليها القوة أو الوداعة وتغلب على أصحابها الثورة أو السكون ، ولا يفهمون من العالم إلا جوانبه الأخاذة التى تصرخ بالعظمة البالغة أو ترمى بالقلب فى سعير الحب وفتنة الجمال .

* * *

١٥ — ونعود فنذكر أن كتاب القرن الرابع كان يغلب عليهم الشعر ، فكانوا يلجأون إلى القريض فى المواطن التى لا يحسن فيها غير القريض . وحرص كتاب القرن الرابع على إجادة الشعر يدل على مغالاتهم فى الصنعة فإن الشعر أدخل فى الفن من النثر . ولكن ليس معنى هذا أنهم كانوا جميعاً من الشعراء المتفوقين . كلا ! فإن عبد العزيز بن يوسف الذى كان يقرنه الصاحب إلى الصابى لم يكن جيد الشعر ، والقطع التى وصلت إلينا من شعره باردة الأنفاس ، والتوحيدى أُثِر عنه شعر قليل ، وهو مع قلته ضعيف . وهناك كتّاب كان شعرهم أجود من نثرهم وكانوا من المبرزين فى الصناعتين ، منهم أبو العلاء المعرى صاحب اللزوميات وسقط الزند وهما من دواوين الشعر الممتازة فى اللغة العربية ، وصاحب رسالة الغفران التى تعد من من آيات النثر العربى ، ومنهم الشريف الرضى وهو من أفذاذ الشعراء ، وينسب إليه جزء كبير من نهج البلاغة ، ومنهم أبو عامر بن شهيد أحد كتاب الأندلس وشعرائها وهو من أفراد المجيدين فى المنظوم والمنثور ، والشعر عليه أغلب .

أما الكتّاب الذين غلب عليهم النثر وكان لهم مع ذلك شعر جيد فهم عديدون منهم على ابن عبد العزيز الجرجانى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وأبو الفضل بن العميد ، وأبو اسحق الصابى ،

وبديع الزمان الهمذانى ، وأبو إسحق الحصرى[١] ، وأبو الفرج الببغاء ، وهؤلاء كانوا يجيدون الشعر إجادة تامة فى موضوعات لا يحسن فيها غير القريض .

١٦ — ولنذكر نماذج من شعر هؤلاء الكتاب لندل على تفوقهم فى الصناعتين تفوقا يجعل منزلتهم فى النثر الفنى أعلى وأرفع ؛ إذ كان النثر عند هؤلاء فناً خالصاً لا يفضله الشعر بغير القوافى والأوزان .

فمن ذلك قول ابن العميد فى معشوقه وقد فُصِد :

ويح الطبيب الذى جست يداه يدك ... ما كان أجهله فيما قد اُعتمدك
بأى شىء تراه كان معتذرا ... من مسه بحديد مؤلم جسدك
لو أن ألحاظه كانت مباضعه ... ثم أنتحاك بها من رقة فصدك

وقال الصاحب بن عباد فى رجل كثير الشرب بطىء السكر :

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما ... توالت عليه من نداماه قرقف
فقلت سبيل الخمر أن تنقص الحجا ... فإن لم تجد عقلا فماذا تحيف

وقال بديع الزمان فى طبائع الناس :

كذاك الناس خدّاعٌ ... إلى جانب خدّاعِ
يعيشون مع الذئب ... ويبكون مع الراعى

١٧ — والقلقشندى من الذين رجحوا النثر على الشعر : فقد ذكر فى كتابه (صبح الأعشى) أن الشعر وإن كانت له فضيلة تخصه من حيث تفرده باعتدال أقسامه وتوازن أجزائه ، وتساوى قوافيه ، مع طول بقائه على تعاقب الأزمان ، وتداوله على ألسنة الرواة لسهولة حفظه ، وجمال إنشاده بمجالس الملوك ، فإن النثر أرفع منه درجة ، وأعلى رتبة ، وأشرف مقاما ، وأحسن نظاما[٢] .

---

(١) الحصرى مقل فى كتابته وشعره ، ولكن الفقرات التى تتفق له أحياناً فى زهر الآداب تنم عن ذوق فى الإنشاء . واهتمامه بأدب القرن الرابع هو الذى أوحى إلينا فكرة تأليف هذا الكتاب .

(٢) صبح الأعشى ص ٥٨ ج ١

والنظام الذى يظهر حسنه فى النثر غير واضح ، ولـكن القلقشندى يفسره فيذكر أن الشعر محصور فى وزن وقافية يحتاج الشاعر معهما إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير ، وقصر الممدود ، ومد المقصود ، وصرف ما لا ينصرف ، ومنع ماينصرف من الصرف ، إلى غير ذلك مما تلجىء إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه ، والـكلام المنثور لايحتاج فيه إلى شىء من ذلك فتـكون ألفاظه تابعة لمعانيه .

وتفسير القلقشندى لرأيه غير كاف ولا سديد ، فإن الشعر الذى نوازن بينه و بين النثر ليس هو الشعر الذى تـكون معانيه تابعة لألفاظه ، و إنما هو الشعر المحـكم الذى تـكون فيه الألفاظ دائماً تبعاً للمعانى ، والنظم الجيد يفرض ذلك فى الشعر والنثر على السواء .

ومما تنبه له القلقشندى خطر الموضوعات التى يعرض لهـا النثر حيث يراه مبنيا « على مصالح الأمة وقوام الرعية » لما يشتمل عليـه من مكاتبات الملوك وسراة الناس فى مهمات الدين وصلاح الحال ، وما يلتحق بذلك من ولايات السيوف وأر باب الأقلام[(١)] .

ونقل القلقشندى عن « مواد البيان » أن العرب كانت أحست بانحطاط رتبة الشعر عن الـكلام المنثور ، كما حكى أن أمرأ القيس بن حجر همّ أبوه بقتله حين سمعه يترنم فى مجلس شرابه بقوله :

إسقيا حجـــرا على علاته من كُمَيت لونها لون العلق[(٢)]

وما روى أن النابغة الجعدى كان سيداً فى قومه لا يقطعون أمراً دونه وأن قول الشعر نقصه وحط رتبته[(٣)] .

ونحن نرى مسألة أمرىء القيس تحتاج إلى تأويل ، أما مسألة النابغة الجعدى فصحيحة من حيث دلالتها على بعض التقاليد الاجتماعية . وقد تحادثت مرة مع الأستاذ إبراهيم مصطفى

(١) ص ٥٩ (٢) الـكميت : الخمر فى لونها كمتة ، وهى حمرة فى سواد ، والعلق : بالتحريك ، الدم الشديد الحمرة . (٣) ص ٦٠ و ٦١

فى مثل هذا الموضوع وكنا نتكلم عن شخصية الأستاذ محمد نجيب الغرابلى باشا ، وكان الأستاذ ابراهيم مصطفى يرى أن اهتمام الغرابلى باشا بقرض الشعر يحط من قيمته كزعيم سياسى ، ولم أفلح فى إقناع صديقى ابراهيم بأن الشعر قد يكون من مميزات كبار الرجال[1] .

١٨ — وخلاصة هـذا الفصل أن التأليف فى نقد النثر كان قليلا بالإضافة إلى التأليف فى نقد الشعر ، ويرجع ذلك إلى أن القدماء كانوا يرون الشعر أرفع فنون الجمال ، أما النثر فـكان فى نظرهم أداة من أدوات التعبير عن الأغراض العلمية والسياسية والدينية ، ولذلك كانوا حين ينقدونه يتوجهون فى الأغلب إلى ما فيه من معان وأغراض قبل أن يعنوا بالنظر فى أساليب الإنشاء ، ظناً منهم أن الدقة لا تطلب إلا من الشعراء .

١٩ — ونحن نرى أن الوقت حان للعناية بالنثر ونقده وإحلاله المحل الأوّل من جهود الباحثين والناقدين، فإن النثر اليوم هو صاحب السلطان فى المشرق والمغرب، والكتاب يحتلون اليوم مكانة يصعب أن يتسامى إليها الشعراء ، لأن النـثر هو الأداة الطبيعية لنشر الآراء والمذاهب والعقائد ، وزماننا مجنون بالسرعة فى كل شىء ، والشعر — كفن دقيق مثقل بالقوافى والأوزان — غير خليق بتقديم ماتحتاج إليـه العقول صباح مساء من ألوان الغذاء العقلى والوجدانى ، وهو حين يجود يظل مقصوراً على بعض النوازع القلبية والنفسية التى لاتستريح إليها الجماهير إلا فى لحظات الفراغ . وليس معنى هذا أن الشعر دالت دولته ، لا ، فإنه لاتزال لدينا جوانب وجدانية تتشوف إلى التغنى بالشعر البليغ ، لأن الطبيعة لاتزال تتألق فى خلق دواعى الشعر ، ولا يزال فى الدنيـا نجوم تتألق ، وأزهار تتفتح ، ولا تزال الأرض تذلل خدها لمن يمشى عليها من أسراب الظباء .

---

(١) وقد تصاولت مرة مع الأستاذ عبد العزيز البشرى بمناسبة ما كنت أثرته فى جريدة البلاغ عن شرح نهج البردة ، فقال الأستاذ وهو غاضب : « إن أبى أجل قدراً من أن يشرح قصيدة لشاعر » وهذا شاهد جديد على فهم العلماء لقيمة الشعر ، وقديماً زعموا أن الشافعى قال:

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

وإنما نريد أن نَقْدر النثر حق قدره ، وأن نبين مناهجه ومذاهبــه ممثلة فى كتّاب القرن الرابع ، لأنه فى رأينا أوّل عصر فى اللغة العربية أراد فيه الـكتاب أن يستبدوا بمعانى الشعراء وألفاظهم وتعابيرهم ، وأن يروضوا القلم الطايق على التحليق فى جميـع الأجواء .

٢٠ — وليعلم الناظر فى كتابنا هذا أن أوّل ما يهمنا هو المعانى والأغراض ، وليست الألفاظ والتعابير إلا وسائل لتجلية المعانى وكشفها وتوضيحها بحيث يستطيع القارئ أن يشارك الكاتب فى حسه وشعوره ، وذوقه ووجدانه ، وضلاله وهداه . ومن أجل هــذا اهتممنا اهتماما بالغا بتحليل آراء الـكتاب ومذاهبهم الاجتماعيـــة ، واتجاهاتهم العقلية ، وثوراتهم النفسية والوجدانيــة ، ولم نشترط من حيث الصورة إلا أن يكون الـكاتب كاتباً (écrivain) أى رجلا قديراً على تلوين أفكاره وخواطره تلوينـــاً يستهوى العقول والألباب ، فليس كل مفصح عن غرضه بقادر على جذبنا إليــه ، وإنما يستملينا الـكتاب الفنانون الذين يجمعون بين جودة المعنى وجمال الأداء .

الباب الأول

تطور النثر الفني

من عصر النبوة إلى القرن الرابع

١ - النثر الجاهلى

١ — هل كان للعرب نثر فنىّ فى عصور الجاهلية ؟ وهل كانوا يفصحون عن أغراضهم بغير الشعر والخطب والأمثال ؟

لقد اتفق مؤرّخو اللغة العربية وآدابها كما اتفق مؤرّخو الإسلام على أن العرب لم يكن لهم وجود أدبىّ ولا سياسىّ قبل عصر النبوة وأن الإسلام هو الذى أحياهم بعد موت ونبههم بعد خمول .

وهذا الاتفاق يرجع إلى أصلين : فهو عند مؤرّخى الإسلام من المسلمين تأييد لنزعة دينية يراد بها إثبات أن الإسلام هو الذى خلق العرب خلقاً وأنشأهم إنشاء : فنقلهم من الظلمات إلى النور ، ومن العدم إلى الوجود . وهو عند مؤرّخى اللغة العربية وآدابها يرجع إلى الشك فى كثير من النصوص الأدبية التى أُثِرت عن العرب قبل الإسلام من خطب وأسجاع وأمثال .

٢ — وقد وقع للأستاذ خليل مطران وهو يحاور الدكتور محمد هيكل فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ أن أشار إلى أن مجموعة الأدب التى أُثِرت عن الجاهليين لم تكن تزيد عن كراس ، وأنها على ضآلتها كانت مغنية فى تثقيف الأدباء لذلك العهد أمثال على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب . وهذا خطأ من الأستاذ مطران فإن الثقافة التى ظهر أثرها فى خطباء العرب لعهد النبوّة كانت تشهد بوجود مجموعات كثيرة جيدة من الشعر والنثر والخطب والأمثال .

٣ — وهناك رأى مثقل بأوزار الخطأ والضلال وهو رأى المسيو مرسيه ومن شايعه كالدكتور طه حسين . وذلك الرأى يقضى بأن العرب فى الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أوّلية (Primitif) والحياة الأوّلية لا توجب النثر الفنى لأنه لغة العقل وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال . وهذا الرأى أعلنه المسيو مرسيه فى المحاضرة التى افتتح بها دروسه

فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس منذ أعوام ، ثم أذاعه مطبوعاً فى كراس خاص(١) . وقد اُختطف الدكتور طه حسين هذا الرأى وأذاعه فى دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبته فى كتاب (المجمل) الذى اُشترك فى وضعه للمدارس الثانوية(٢) . وكان ينتظر أن يتنبه المسيو مرسيه ومشايعه الدكتور طه حسين إلى أن العصر الذى وسموه بالأولية عند العرب هو القرن الخامس للميلاد . وفى ذلك العصر كان النثر الفنى موجوداً عند أكثر الأمم التى جاورت العرب أو عرفوها كالفرس والهنود والمصريين واليونان ، وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم نثر فنى قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ثم لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون ، كأن العرب اُنفردوا فى التاريخ القديم بالتخلف فى ميادين العقل والمنطق والخيال .

والمسيو مرسيه يؤمن بوجود الخطب فى العصر الجاهلى ، وينكر إنكاراً مطلقاً أن يكون هناك نثر فنى كالذى يلجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة ، أو دفع شبهة ، أو إيضاح مشكلة وفاته وفات أشياعه أن القرآن يشير إلى أنه كانت هناك كتب دينية وأدبية لم يطلع عليها النبى عليه السلام حتى يُتَّهم بأنه لفَّق القرآن مما نُقل إليه من علوم الأولين (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون)(٣) .

وكانت حجة المسيو مرسيه التى واجهنى بها فى صيف سنة ١٩٢٨ أنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدوّنت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها كما هو الشأن فى آثار الهند والفرس والروم . وقد أجبته يومذاك بأن فقدان تلك الآثار لا يكفى لإنكار أنه كان لها نصيب من الوجود . على أن فى القرآن الكفاية وهو أثر جاهلىّ كما سنبينه بعد قليل .

٤ — وخلاصة ما أراه أنه كان للعرب قبل الإسلام نثر فنى يتناسب مع صفاء أذهانهم، وسلامة طباعهم ، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية ، وقلة التدوين ، وبُعدُ ذلك النثر عن الحياة الجديدة التى جاء بها الإسلام ودوّنها القرآن .

---

(١) يمكن الرجوع إلى نص هذه المحاضرة فى
(Revue Africaine—Nos 330 & 331 (1er & 2e trimestres 1927)

(٢) المجمل ص ١٥ و ١٦ (٣) سورة القصص .

وما نقله الرواة من النصوص لا يكفى لتعيين أساليب النثر فى العصر الجاهلى ، وبيان الاتجاهات العقلية التى كان يرمى إليها الكاتبون إذ ذاك ، وهو على قلته مما وضع فى العصر الأموى وصدر العصر العباسى لأغراض دينية وسياسية ، وهو لهذا لا يعيّن مدرسة نثرية ، ولا مذهبا اجتماعيا ، ولا رأيا عاما ، وإنما يعيّن أذواق واضعيه ، ومذاهبهم السياسية ، واتجاهاتهم الدينية .

ومن أمثلة ذلك حديث خنافر الحميرى ، وهو منقول عن ابن الكلبى ، ومثبت فى الجزء الأول من الأمالى(١) : وهو حديث مختلَق وضع بعد الاسلام . وقد أضفته إلى النثر المنسوب إلى العصر الجاهلى مع أنه قيل — على فرض صحته — فى عصر النبوة . لأننى أدخل تلك الفترة فى الجاهلية ، إذ لم يكن الاسلام أستطاع أن يمحو الآثار التى سبقته فى الشعر والكتابة وأن يبدع مناهج جديدة للانشاء والتفكير تغاير مذاهب الجاهليين .

والذى وضع هذا الحديث أراد أن يثبت رسالة النبى إلى الجن ، وهى رسالة لا نعرض لها برفض ولا قبول ، وإنما نقرر أن واضعها قصد إلى هذه الغاية مستعينا فى سبيل الوصول إليها بمحاكاة اللغة اليمنية ، فذكر «الزخيخ» و«الهوب» بدل النار و «الواهر» بدل الساكن و « الجحمتين » بدل العينين ، ليوقع فى روع القارئ صحة الرواية ، مع أنه يبعد أن تكون اللغة اليمنية فى ذلك الحين شديدة القرب من اللغة العدنانية بحيث لا تخالفها إلا فى بعض الألفاظ.

وكل ما يمكن أستخلاصه من مثل هذا الحديث هو أطمئنان الرواة إلى أن لغة الكهان كانت مسجوعة ، وأنه كان من المألوف أن يتبع النثر بشىء من الشعر . ولهذا قيمته فى تصوّر حالة النثر الفنى فى العصر الجاهلى ، وأن لم يصل بنا إلى تحديد ما كان عليه من قوّة أو ضعف ووضوح أو غموض .

٥ — والحكم الذى أجريناه على حديث خنافر هو الحكم الذى نقضى به فى تقدير خطبة قس بن ساعدة الإيادى ، وهى الخطبة التى زعم الرواة أنه تنبأ فيها بظهور الرسول ،

---

(١) ص ١٣٣ ج ١ طبع بولاق .

وهى بلا شك خطبة وضعت لإيهام الجمهور أن نبوّة محمد كانت مما يجرى على ألسنة الخطباء الموفَّقين من أصحاب الحكمة فى عهد الجاهلية وهى كذلك خطبة مسجوعة ختمت بقطعة من النثر على نمط الحديث المنسوب إلى خنافر بن التوأم الحميرى .

٦ — ومن أهم مانسب إلى العصر الجاهلى من آيات النثر الفنى خطب وفود العرب عند كسرى . وهى خطب طويلة فصيحة مثبتة فى الجزء الأوّل من العقد الفريد[1] . وأنا أرى أن هذه الخطب منحولة وضعها الرواة بعد الإسلام لأغراض سياسية ، حين أرادوا أن يثبتوا فضل العرب فى الجاهلية ، وانهم كانوا قادرين على مقاومة الفرس بالسيف واللسان. وأكبر الظن أنها وضعت فى العصر الإسلامى ، فإن لغتها تشابه تمام المشابهة للغة التى كتبت بها مشاورة المهدى لأهل بيته فى بغداد سنة ١٧٠ [2] . ويكفى أن يرجع الباحث الى نصوص تلك الخطب وهاته المشاورة ليقتنع بأن التشابه بين الاثرين بَيِّنٌ واضح من حيث الألفاظ والتعابير والأسلوب . وتدلنا خطب الوافدين على كسرى على تصوّر العرب بعد الإسلام لما كان عليه أسلافهم من المَنَعة وقوة الجانب ، وما أحبوا أن يصفوهم به من الثورة على كسرى والتأهب لمقاومته والخروج على سلطانه . وهى فى جملتها صورةٌ لشمائل العرب وعاداتهم وأخلاقهم وطباعهم ، وتفسيرٌ لما أُخِذ عليهم من الشذوذ فى بعض الأوضاع الاجتماعية .

ويؤيد ما ذهبت إليه من أنها كتبت بعد الإسلام أننا نجد الكلام الذى فاه به كسرى موضوعا فى لغة تماثل تمام المماثلة لغة أولئك الخطباء ، مما يدل على أن يداً تعمدت تحرير ماجرى فى تلك الوفادة . ولسنا نستطيع إثبات أن ذلك كان فى الجاهلية ، فليس لدينا مانعرف به كيف كان النعمان ينظم ديوان التحرير فى قصره[3] ، ولكننا نعرف أن العرب بعد الإسلام

---

(١) ص ١٠١ — ١٠٦ ج ١ (٢) تجد نص هذه المشاورة فى العقد ص ٥٧ — ٦٤ ج ١

(٣) هذا لايمنع أنه كان فى قصر النعمان ديوان للانشاء : فإن أبهة الملك توجب ذلك ، وكان أولئك الناس حريصين على مجاراة من يتصلون بهم من الفرس والروم فى التحلى بالمظاهر الرسمية ، وأخصها تنظيم دواوين الملوك ،

نظموا دواوين الرسائل ، وأعدوا لكل فن من فنون الكتابة رجالا إخصائيين ، ولذلك نجد مشاورة المهدى لأهل بيته مثلا ختمت بهذه العبارة :

« وكتب فى شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد »

٧ — والذى قلناه فى خطب الوفود يمكن أن نقوله فى أكثر القصص والمحاورات التى نسبت إلى أهل الجاهلية ، وتكلف واضعوها أن ينشئوا لها من الشعر وأن يضيفوا إليها من الأمثال ما يتناسب مع الغرض الذى وضعت له والظرف الذى قيلت فيه .

والنتيجة أننا لا نستطيع أن نعطى النثر الفنى فى العصر الجاهلى لوناً نطمئن إليه . لأن أكثر ما نسب إلى الجاهليين غير صحيح . ومؤرخو الآداب مطمئنون إلى أن الشعر بقى منه أضعاف ما بقى من النثر : لأن الشعر موزونٌ مقفًّى يسهل حفظه ، ولأن أكثره قيل فى حوادث مشهودة ساعدت على ترديده ، ولأن التدوين كان قليلا جداً فلم يحفظ به من النثر إلا اليسير[1] . على أن فى القدماء من ارتاب فى صحة أكثر الشعر الجاهلى مثل محمد بن سلام ، وفى المحدَثين من يكاد يرفضه كله كالدكتور طه حسين .

وإذا كان الشعر الجاهلى مهدداً بمثل هذا الرفض مع اتفاق الباحثين على أنه كان وحده موضع عناية الرواة والحفاظ والناسخين ، فكيف يمكن الاطمئنان إلى صحة ما نسب إلى الجاهليين من النثر مع أن عناية الرواة به كانت قليلة ، ومع أن من خطباء الإسلام نفسه من ضاعت آثارهم لقلة التدوين ، وكانت لهم شهرة مستفيضة جداً مثل سحبان وغيره من الخطباء الذين حدّثنا عنهم الجاحظ وغيره ممن عُنُوا بتدوين أصول الآداب .

٨ — قلنا إنه كان للعرب نثر فنى فى الجاهلية ، ثم عدنا فأثبتنا أن شواهد ذلك النثر ليست صحيحة لأنها فى جملتها من صنع الرواة ، فكيف يستقيم مع ذلك ما نراه من أنه كان للعرب نثر فنى قبل الاسلام ؟

---

(١) فى حديث لعبد الصمد بن الفضل الرقاشى: « ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره » راجع البيان والتبيين ص ١٥٨ ج ١ .

فليعلم القارئ أن لدينا شاهداً من شواهد النثر الجاهلى يصح الاعتماد عليه وهو القرآن .

ولا ينبغى الاندهاش من عدّ القرآن أثراً جاهلياً ، فإنه من صور العصر الجاهلى : إذ جاء بلغته وتصوّراته وتقاليده وتعابيره ، وهو — بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرّده بصفات أدبية لم تكن معروفة فى ظنهم عند العرب — يعطينا صورة للنثر الجاهلى ، وإن لم يمكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبى من الكتاب والخطباء .

وقد قدّمت هذا الشاهد للمسيو مرسيه الذى يرى أن النثر الفنى يبتدئ بابن المقفع ، فأخذ يبحث عن مخرج ولكنه لم يهتد إلى الآن . أما الدكتور طه حسين فقد اهتدى إلى مخرج لطيف ، وذلك إعلانه أخيراً فى دروسه بالجامعة المصرية أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر ، وإنما هو قرآن[1] .

وقد بلغتنى عنه هذه الكلمة وأنا فى باريس ، فحسبته يمزح ، والمزاح مما يباح ! فلما عدت راجعته فوجدته يصر على أن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام : شعر ونثر وقرآن . وقد حسب الدكتور طه أنه ينجو بهذا التأويل ! وكان الظن به أن يؤيدنا فيما رأيناه من قدم النثر الفنى عند العرب ، وأن لا يستكثر علينا أن ننقض بعض مايرى المستشرقون ، وهم يرون بلا حق أن العرب لم تكن لهم ذاتية أدبية ، وإنما أخذوا طرائق النثر الفنى عن الفرس واليونان[2] .

(١) وهى متابعة غير موفقة للمسيو مرسيه الذى يرى أن القرآن ليس خليقاً بأن يسمى نثراً ويقول:

On est donc fondé à refuser à la langue du Coran le nom de prose au sens plein et strict du mot.

وذنب القرآن عند المسيو مرسيه أنه فى الأغلب مسجوع وموزون rimé et cadencé ولايتحرر من قيد إلا ليقع فى قيد ، ولو صح رأى المسيو مرسيه لأنكرنا أن يكون فى آثار كتاب القرن الرابع والخامس ما هو خليق بأن يسمى نثراً ، لأن أغلب كلام أولئك مسجوع وموزون .

(٢) الدكتور طه لا يقف عند العصر الجاهلى فى نفى النثر الفنى ، فقد صرح فى إحدى محاضراته بالجامعة الأمريكية — مارس سنة ١٩٣٣ — أن القرن الأول بعد الهجرة لم يكن فيه نثر يعتد به ولم تكن للكتاب أهمية اجتماعية ، وإنما كان الشأن للشعر والشعراء ، وسيرى القارئ أن هذا الرأى قليل الحظ من الصواب .

٩ — القرآن شاهد من شواهد النثر الفنى ، ولو كره المكابرون ، فأين نضعه من عهود النثر فى اللغة العربية ؟ أنضعه فى العهد الإسلامى ؟ وكيف والإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب !

فلا مفرّ إذن من الاُعتراف بأن القرآن يعطى صورة صحيحة من النثر الفنى لعهد الجاهلية ، لأنه نزل لهداية أولئك الجاهليين ، وهم لا يخاطَبون بغير ما يفهمون . والنبى جاء لإرشاد قومه وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فى الحدود التى رسمها الدين الحنيف ، ولم يكن القرآن إلا أداة لنشر الرسالة الكريمة التى أعزت العرب بعد ذل ، وهدتهم بعد ضلال .

وفى القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل (إلا بلسان قومه ليبين لهم) . وتلك إشارة نلوح بها لمن لا يكفيهم المنطق ، وإلا فكيف يعقل أن يحدّث النبى قومه بما ينبو عن أذواقهم وأفهامهم ، وهو رجل مسئول لا يستطيع أن يقصد إلى الإغراب فى الألفاظ والتعابير ، أو قهر اللغة على الالتواء عما ألف العرب من طرائق البيان .

إنه لواضح أن اللغات يتميز بعضها عن بعض بشيئين اثنين : اللفظ والتعبير . وقد تتحد طائفة من الألفاظ فى بعض اللغات كما يقع ذلك فى العربية والتركية والفارسية والعبرية والهندية . ثم لا يقال إن وحدة الألفاظ تقتضى وحدة اللغات ، لأن سر اللغة هو فى طريقة الأداء لا أعيان الألفاظ ، ومن هنا صح لك أن تنظر فى صفحة من كتاب تركى فتجد ثلاثة أخماسها مفردات عربية ثم لا يغنيك ذلك فى فهم ما أفصح عنه الكاتب من المعانى والأغراض .

وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه أصدق فهم ، ووصل إلى قرارة نفوس المؤمنين فملأها روحاً ويقيناً ، واُستثار الدفائن من صدور المشركين فأعلنوا ما فى قلوبهم من غيظ وما فى رؤوسهم من عناد . أفكان شىء من ذلك يقع لو نزل القرآن بأساليب لا يفقهها أهل الجاهلية ؟

١٠ — القرآن ليس بشعر ، لأنه خال من القوافى والأوزان ، وهذا موضع اُتفاق .

ولكن أيمكن القول بأنه ليس بنثر أيضا كما يتوهم الدكتور طه حسين ؟ وليت شعرى لمن يقال هذا الكلام ! أيقال لرجال الدين ؟ وكيف وهذه مسألة لغوية لادينية ، وليس فى أصول الدين ما يقهرنا عن القول بما لم يقل به أحد من علماء اللغات ! أيقال لمؤرّخى اللغة العربية ؟ وكيف وهم متفقون على أن القرآن كلام منثور وإن تفرّد ببعض الخصائص والمميزات .

أيقال إن الكتاب العزيز لا هو شعر ولاهو نثر وإنما هو قرآن لتصدّق أوهام من يقولون بأن العرب لم يكن لهم نثر فنى قبل الإسلام . لأن النثر الفنى لغة العقل ، وأولئك قوم كانوا يحيون حياة أوّلية لاتبيح لأمثالهم غير التغني بعواطف الأطفال ؟

إذا كانت ميزة النثر الفنى أنه أداة لشرح الحقائق التى توحى بها العقول ، فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن القرآن عرض لكثير من المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية التى كانت تغزو أفئدة العرب فى الجاهلية ؟ أو من ذا الذى يرتاب فى أنه خاطب العرب باسم العقل لا باسم الخيال ؟

ومن موجبات الغلط عند الدكتور طه حسين أنه يرجع كلة قرآن إلى أصلها فى اللغة السريانية ، فهى هناك معناها الجهر ، وهو يؤكد أنه لذلك كان المسلمون فى الصدر الأوّل يجهرون بتلاوة القرآن .

وهذا منطق لا قيمة له ، وكان يصح لو أن القرآن كان مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها المسلمون فى أعقاب الصلوات ، وكيف والقرآن لم يكن مما أنشىء للتسبيحات والتهليلات كما هو العهد بكثير من الكتب الدينية ، وإنما نزل لدفع عادية المشركين ونقض أوهام النصارى واليهود ، وإن كان هذا لا يمنع أنه اشتمل على سورة قصيرة مسجوعة صالحة للتلاوة فى سبيل الدعاء والابتهال .

١١ — وأنا مع هذا أقرر أن القرآن — بالرغم من وضوح لغته وقربها أشد القرب من الآثار العربية لعهد الاسلام — يعدّ أثراً أدبياً يختلف بعض الاختلاف عن الآثار التى جاءت بعده ، ويتفرّد بالصفات الآتية :

(أوّلا) خلوّه من الشعر الموزون خلوّا تاما، بخلاف ما كان قبله وبعده من النثر : فقد كان يمزج غالباً بأبيات من الشعر تأتى فى أثناء الرسائل ، وقد تكون فاتحة أو خاتمة .

(ثانيـا) نظام الآيات الذى يسمح فى الغالب بوقف كامل يستريح عنده نفَس القارئ ، وهو نظام يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع الذى أثر عن الجاهليين وشاع بعد الاسلام.

(ثالثا) ضرب الأمثال وسَوق القصص . وهى طريقة لم تعرف إلا قليـلا فى الآثار الأدبيـة لتلك العصور . والقرآن يستبيح تـكرار القصة الواحـدة كلما دعت مناسبة ، فى تصرف قد يكون قليلا فى كثير من الأحيان .

رابعا — الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل الم ، حم ، طسم ، الر ، ص ، ن ، ق . إلى آخر تلك الفواتح التى اُختلف فى تأويلها المفسرون ، والتى لم يهتد أحد إلى المراد منهـا بالتحديد ، وهذا النمط من الابتداء لم نجده فى النصوص الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية.(١)

(١) كنت أتحدث عن فواتح السور مع صديقى وأستاذى المسيو بلانشو (Blanchot) فعرض على تأويلا جديراً بالدرس والتحقيق ، وفى رأيه أن الحروف (الم . الر . حم . طسم) هى كالحروف (A O I) التى توجد فى بعض المواطن من (Chansons de geste) فهى ليست إلا (Neûmes) أى إشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون .

وقد كانت الموسيقا القديمة بسيطة يشار إلى ألحانهـا بحرف أو حرفين أو ثلاثة ، وكان ذلك كافياً لتوجيه المغنى أو المرتل إلى الصوت المقصود .

وفى الـكنائس المسيحية بأوروبا ، حيث لا تزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجورى (Le chant grègorien) وفى أثيوبيا مثلا ، يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك ؛ فإن رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التى تذكر بـ (الم) فى القرآن أو (A O I) فى نشيد رولان .

ويؤيد رأى المسيو بلانشو أن (الم) تنطق هكذا عند الترتيل : (ألف . لام . ميم) فهى ليست رمزاً كتابياً ، ولـكنها رموز صوتية .

ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل فى القرآن سارت فى طريق كان معروفا عند أهل الجاهلية ، ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همة أن يخالف الجاهليين فى كل شىء حتى فى الأصوات الموسيقية : فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل ، وأن تكون متابعة لبعض ترانيم الجاهليين .

ونحن مع اعتدادنا بقيمة هذا الرأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحق من العناية ، مع تطوعهم بعرض كثير من الفروض ، ولو أنه كان معروفاً فى الصدر الأول لما تعرض لمثل هذا الإغفال .

=

خامسا — يظهر أن القرآن نُظِم نظما غنائياً ، وأن ترتيـله كان ملحوظاً فى أوضاعه النثرية بدليل أن كثيراً من الآيات ينتهى قبـل أن ينتهى المعنى المطلوب . وترتيل القرآن والتغنى به كان معروفا فى صـدر الإسلام ، ولـكننا لا نعرف كيف كانت قوانين التغنى به من الوجهة الموسيقية. لذلك ندهش حين نرى فى سورة المدثر مثلا أن الآية الحادية والثلاثين تزيد عن الآية الثلاثين والثانية والثلاثين أكثر من عشرين مرة . ولا حلّ لهذا الإشكال إلا مانلمحه فى الآيات الطوال من الإشارات التى تبيح الوقف القصير . على أن فى هذا نفسه دلالة على أن المعنى هو الأساس فى نظم القرآن ، وأن الغناء لايقع إلا نافلة فى صياغة الآيات .

سادسا — لا يلتزم القرآن السجع ، فقد نجد سوراً قصيرة مسجوعة ، وقد نجـد صحفاً مسجوعة من السور الـكبار . ولـكن ذلك لا يطّرد فيه . وكثيراً ما ينتقـل من السجع إلى الـكلام المرسل. وأكثر ما يكون ذلك حين يُعنى بالمشاكل الدينية والأجتماعية التى لايراد بها مخاطبة القلوب حتى توضع وضعاً موسيقياً ، وانما يراد بها مخاطبـة العقول ودعوتها إلى ترك مادرجت عليه من بعض أوضاع الاجتماع .

سابعا — يبتدئ القـرآن السور بالبسملة ، وهى سمة إسلامية أريدَ بها مخالفة ما كان عليه المشركون . وقـد أراد فريق من الفقهاء أن يتخذوها فاتحة للرسائل والمؤلفات فوجدوا لذلك حديثاً يقول « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر ».

١٢ — وهـذه الخصائص ليست كل شىء فى متن القرآن ، فهناك مميزات يختلف بها بعض السور عن بعض، وهناك فروق دقيقة تتميز بها أساليب السور المدنية من السور المكية ولـكنه لا يمـكن الفصل فيما تميز به أسلوب القرآن فى جملته تميزاً جوهرياً إلا اذا ظفرنا بنصوص كافية من نصوص النثر الذى عاصر القرآن أو سبقه بنحو جيل .

وهناك ميزة خطيرة للقرآن من الوجهـة المعنوية : تلك تصويره للحقائق الأدبيـة والأجتماعية والدينية التى كان يعرفها العرب قُبيل الإسـلام ، وتصويره لبعض ما كان يعرف

= ومن يدرى فلعل دراسة أصول الموسيقا فى الـكنائس الحبشية والشامية فى العهد الذى سبق الإسلام تعود على هذا الرأى بشىء من التوضيح والتحديد . وإلى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأى بين الشك واليقين .

العرب عن أسلافهم الأوّلين ، و بعض ما سمعوا به من أخبار الأمم الأجنبية التى سامها ملوكها الخسف وسوء العذاب .

١٢ — والخلاصة أن القرآن نثر ، وأنه دليل على أن العرب كان عندهم نثر فنى قبل الإسلام ، فكان لهم بذلك وجود أدبى متين قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان .

وفى هذا قضاء على أوهام من زعموا أن أوّل كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل [1] ، وأن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب والأسجاع والأمثال .

(١) هو رأى المسيو مرسيه وتابعه الدكتور طه حسين فى بحث نشره فى المقتطف ثم أعاد نشره فى كتابه عن (شوقى وحافظ) .

٢ – نشأة النثر الفنى

هل الزخرف عنصر أصيل فى اللغة العربية ؟ — الصور الفنية فى القرآن — وجوب الاهتمام بدرس عصر النبوة — خطب الرسول والخلفاء — نشأة العلوم العربية — الحياة السياسية والأدبية فى عصر النبوة — آثار العارضين من المشركين واليهود — كيف ضاعت آثار أولئك المعارضين — كيف ضاع أكثر ما ترك النبي وأصحابه من الآثار الأدبية — ضياع الأدب الجاهلى — رأى ابن فارس فى قدم النحو والعروض — رأى فى قدم علم البديع

١ — بينا أن النثر الفنى وجد عند العرب فى الجاهلية . وهو يفرض نوعا من الزخرف يهتم به علماء البلاغة . فلننظر أكان ذلك الزخرف فى طبيعة اللغة العربية ، أم وصل إليها من الخارج حين اتصل العرب بالفرس واليونان .

يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفنى وصل إلى العرب من الفرس ، وكان الدكتور طه حسين يشايعه فى ذلك ، ثم تغير فجأة فزعم أنه وصل إلى العرب من اليونان (١) . وكانت حجته وحجة المسيو مرسيه أن المولعين بالزخرف من كتاب اللغة العربية أكثرهم من الفرس المستعربين .

وهذه مدرسة قديمة يرجع عهدها إلى رينان (Renan) وهى ترمى إلى الحكم بأن المدنية العربية غريبة عن العرب ؛ وأن العرب مدينون فى علومهم وفلسفتهم وفنونهم وآدابهم إلى الفرس واليونان . والدكتور طه حسين متأثر بهذه المدرسة إلى حد بعيد : فهو يقول بأن البلاغة العربية أخذتْ حرفياً عن البلاغة اليونانية حتى فى الشواهد والصور والتعابير (٢) وأذكر أنه أوصانى بالرجوع إلى تاريخ الآداب الفارسية لأعرف بالضبط من هم الكتاب الفرس الذين أوحوا الى كتاب العرب فنون البديع كالسجع والتورية والطباق والجناس .

---

(١) إشارة إلى آراء متناقضة أعلنها الدكتور طه فى سنة ١٩٢٨ و ١٩٢٩

(٢) قال ذلك فى محاضرة ألقاها فى مسرح حديقة الأزبكية فى ربيع سنة ١٩٢٩ ثم أثبته فى البحث الذى نشر مع كتاب (نقد النثر) لقدامة بن جعفر (راجع نقد النثر ص ١٤) .

٢ — وأنا لا أنكر أن العرب تأثروا بالفرس فى حياتهم الأدبية ، فإن من الطبيعى أن تدخل فى اللغة والعقول عناصر جديدة بسبب المعاشرة والاغتراب والاطلاع على آداب الناس فى مختلف الأقطار . فكل أمة فى الأرض تتأثر حضارتها وآدابها وفنونها بالنماذج الجديدة التى تصل إليها عن طريق المعارض الدولية ، وعن طريق السياحات وتبادل الآراء والأفكار فى العلوم والفنون والآداب .

ولكنى — مع هذا — أقرر أن الزخرف عنصر أصيل فى اللغة العربية . وعندى لذلك شاهد لا يجحد وهو القرآن .

٣ — أليس القرآن آية فنية ؟ بلى ، فلننظر إذن أهو كتاب طبيعى أم هو كتاب مملوء بالزخرف والصنعة المحكمة التى تدل على أنه أنزل على قوم يعرفون ماهو الكلام الجيد وماهو الأسلوب المتين . و إننا لنرى المؤلفين فى علوم البلاغة من رجال القرن الثالث والرابع والخامس يرجعون إلى القرآن فيأخذون منه الشواهد المتنوعة التى يعز وجودها أحيانا فى الشعر والنثر عند الكتاب المتأخرين .

وأنا لا أعرف حتى الآن باحثاً رجع فى تدوين الصور الفنية للنثر إلى القرآن واهتم ببيان الجدّة والروعة التى يحتويها ذلك الكتاب الفذ ، فمن الواجب أن يترك الباحثون ذلك الميدان الذى أولعوا بالجرى فيه وهو عصر الدولة العباسية ، وأن يجعلوا ميدان النضال عصر النبوة نفسه ، وأن يحدّثونا ماهى الصلات الأدبية والاجتماعية التى وصلت إلى العرب من الخارج فأعطت نثرهم تلك القوة وذلك الزخرف اللذين نراهما مجسَّمين فى القرآن . هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية . ولكن مثل هذا العمل فى رأيى خطر على الباحثين المسلمين فى الوقت الحاضر : لأن الرأى العام فى مصر والشرق الإسلامى لا يسمح بدرس القرآن درساً تحليلياً يبين مافيه من العناصر العربية الصميمة والعناصر الدخيلة والمستشرقون أيضاً لا يهتمون بمثل هذا البحث لأن أكثرهم مقتنع بأن العرب لم يكن لهم وجود أدبىّ قبل الإسلام، والعرب بعد الإسلام فى رأيهم متأثرون بالفرس والروم . كأن العرب

لم يكن لهم من طبيعتهم الصافية ، وعقولهم القويّة ، وأذواقهم السليمة ، ما يكفى لأن تكون لهم اتجاهات فلسفية وأدبية وفنية تغلب عليها صبغة العبقرية أكثر مما تغلب نزعة المحاكاة .

٤ — ولنفرض جدلا أن المسلمين المعاصرين يسمحون لكاتب مثلى بمعالجة هذا البحث وأن المستشرقين كذلك اُهتموا به فستظل المسألة فى رأيى معقّدة صعبة الحل : لأنه لايمكن الوصول إلى يقين فى تحديد العناصر الأدبية التى يحتويها القرآن إلا إذا أمكن الوصول الى مجموعة كبيرة من النثر الفنى عند العرب قبل الإسلام تمثل من ماضيه نحو ثلاثة قرون ، فإنه يمكن حينذاك أن يقال بالتحديد ماهى الصفات الأصيلة فى النثر العربى ؛ وهل القرآن يحاكيها محاكاة تامة ، أم هو فنٌّ من الكلام جديد .

ومفهوم أنه من المستحيل فى الوقت الحاضر الوصول الى نماذج أدبية تمثل من الأدب العربى ثلاثة قرون أو قرنين قبل الإسلام ، واذن بقى القرآن وحده يتقدّم إلينا كل يوم على أنه صورة فنية مفردة لانعرف لها شبيهاً موثوقا به قبل الإسلام كما يعتقد المسلمون . والخطب والوصايا والرسائل التى نقلت إلينا على أنها جاهلية هى موضوع شك ، وهى على فرض صحتها منسوبة إلى القرن الذى يباشر الإسلام . ولا يمكن معرفة طبيعة لغة من اللغات بعدد قليل من النصوص وجد فى مدّة قليلة لاتزيد على نصف قرن من الزمان .

٥ — ونحن مع هذه الحيرة لانستطيع الفرار من الاقتناع بأن القرآن أثر عربىٌّ صِرف لأن الرسول الذى تلقاه وبلّغَه عربىّ ، ولأنه نشأ فى بيئة عربية ، وبلسان عربىّ مبين ، وليس أمامنا أى دليل على أنه متأثر تأثراً محسوساً بآداب أخرى أجنبية ، وان كان هذا ممكناً، لأن العرب قبل الإسلام كانوا على اُتصال قليل أو كثير بمن جاورهم من الأمم ، وكانت لهم مع جيرانهم الأقربين والأبعدين علاقات تجارية . وهذا كله لايفيد غير الظن وهو لايغنى عن اليقين .

أفأستطيع بعد هذا البيان أن أقول من جديد: أن صور النثر العربى لاينبغى البحث عن أصولها فى القرن الثانى والثالث ، وانما ينبغى الرجوع اليها فى القرآن ، وإذن لايصح الحكم

بأن الزخرف الفنى فى النثر العربى جاء عن طريق الفرس ، وإنما هو طابع أصيل فى اللغة العربية تطوّر مع الزمن وأخذ لوناً بعد لون وانتقل من حال الى حال . وإن كان هذا لا يمنع أن تكون صلات العرب بالفرس زادت فى قوّة هذا التطور وأضافت إليه قوًى جديدة خيلت إلى الباحثين أن النثر العربى مدين للفرس فى تطوّره ونموّه . وهذا يفسر جانباً من أسباب التطوّر ولكنه لا يرجعها الى سبب واحد هو العلة الأولى كما ظن كثير من المستشرقين .

٦ — والخواص الفنية الموجودة فى القرآن توجد كذلك فى الآثار الأدبية التى عاصرته كالأحاديث النبوية وخطب الخلفاء والولاة والقوّاد الذين شهدوا عصر النبوّة أو جاءوا بعده بقليل . ففى خطبة الوداع للنبى عليه السلام وكتب عمر بن الخطاب وخطب علىّ وزياد والحجاج روح أدبية تقارب الروح السائد فى القرآن .

٧ — ويمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التى سبقت الاسلام لم تكن تخالف كثيراً لغة القرآن لأن التطوّر الكبير الذى ينقل اللغة من أسلوب إلى أسلوب ومن روح الى روح لا يتم فى خمسين سنة مثلا . وانما يتطلب مدة طويلة . خصوصاً فى أمة بدوية محافظة قليلة الاختراع والتبديل فى لغتها وأسلوبها . ولكن هذا محض افتراض الى أن توجد نصوص كافية موثوق بها تعيّن أن لغة القرآن كانت موجودة بروحها وأسلوبها ووضعها قبل الاسلام بقرن أو قرنين .

٨ — بعد هذا ينبغى أن ننظر فى نشأة العلوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض . وهى أيضا فى رأيى قديمة لا يصح الحكم بأنها نشأت كلها بعد الإسلام فى القرن الأول والثانى كما يظن مؤرخو الآداب العربية . لأنه لا يعقل أن يظهر كتاب كالقرآن فى أهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا فى الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير . وظهور كتاب كالقرآن فى أى لغة يدل على أنها تعدت طور الطفولة منذ أزمان . واللغة حين تصل إلى

عهد القوّة والفتوّة لا تخلو من باحثين يهتمون بتقييد ما يعرض للأساليب من القوّة والضعف والوضوح والغموض (١).

والدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت فى عهد متأخر حين اشتدت الخصومة بين علماء الكلام ، والجاحظ فى رأيه أوّل من اهتم بالبلاغة اهتماما جدّيا . وأنا أرى أن نشأة البلاغة قديمة سبقت القرآن وتطوّرت من بعده . ولكن ذلك كان يجرى ببساطة وسهولة لاتوقع فى الزخرف ، ومن أجل ذلك لاحظ مؤرّخو الآداب أن بشاراً هو أوّل من كلف بالبديع فى شعره ،وتبعه فى ذلك مسلم بن الوليد وأبو نواس ، وأن أبا تمام تأثر مسلماً، وأولئك من شعراء القرن الثانى ، فهل نشأ البديع فى يوم وليلة ، أم كان موجودا رتطوّر على ألسنة أولئك الشعراء ؟

٩ — ولنقيد هنا أن القرآن فى بلاغته إنما كان يخاطب قوما يفهمونه و يتذوّقونه . وفهم القرآن وتذوّقه لا يمكن أن يقع اتفاقا و بلا استعداد ، بل لابدّ من أن تكون عند الجماهير التى سمعته وتأثرت به رأعتنقت دينه ثقافة أدبية خاصة . وأنا لاأفترض أن هذه الثقافة كانت كالثقافة التى ظفر بها العرب بعد الإسلام . ولكنها على كل حال كانت تتناسب قليلا أو كثيراً مع مافى القرآن من فصاحة وعمق . وهذا الذى أقوله يحملنا على الشك فى التقاليد التى جرى عليها الباحثون من أن العرب كانوا أميين بدرجة خطيرة وأنهم بذلك لم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئاً يستحق الذكر من قصائدهم وخطبهم ورسائلهم. بل أنا أذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الإسلام كان تاجا لنهضة علمية وأدبية رسياسية وأخلاقية واجتماعية وفلسفية

(١) يذكر أبو هلال فى كتاب الصناعتين — ص ٣٥١ — أن أكثم بن صيفى كان إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : (إفصلوا بين كل منقضى معنى ، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض) وأن الحارث بن شمر الغسانى كان يقول لكاتبه المرقش: (إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بغيرما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغيرما يحسن أن تمذق نفرت القلوب عن وعيها وملتها الأسماع واستثقلتها الرواة) .

وفى أمثال هذه الكلمات على أن الرواة نقلوا عن الجاهليين أحكاما فى صناعة الكلام .وفى ذلك ما يصلح للاستئناس به فى هذا الموضوع . وليشك من شاء فى صحة هذه النصوص فهى على كل حال صورة لفهم نقاد العرب لبعض ما كان عليه أهل الجاهلية .

فى الحدود التى كان يستطيعها العرب ، لأنه لا يمكن رجلا فرداً مثل النبى محمد عليه السلام أن ينقل أمة كاملة من العدم إلى الوجود ومن الظلمات إلى النور ومن العبودية إلى السيادة القاهرة ، كل هذا لا يمكن أن يقع من دون أن تكون تلك الأمة قد أُستعدّت فى أعماقها وفى ضمائرها وفى عقولها بحيث أُستطاع رجل واحد أن يكوّن منها أمّة متحدة وكانت قبائل متفرّقة ، وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجاربها وعلومها على أجزاء مهمة من آسيا وأفريقيا وأوربا فى زمن وجيز . ولو كان يكفى أن يكون الإنسان نبياً ليفعل ما فعله النبى محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا : لأن أممهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض .

١٠ — بل إنى لأذهب أبعد من ذلك فأقرّر أن الحركة الأدبية والسياسية والاجتماعية فى عهد النبى لم تصور إلى الآن بصورتها الحقيقية : فهذا رجل غيَّر أمة كاملة فى عشرين عاما ولقيت دعوته آلاف المصاعب . أفيمكن حقا الأقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب ، وأن أنصاره لم يقولوا من الخطب والرسائل إلا ما نقله عنهم الطبرى وغيره من المؤرخين ؟

وأين إذن آثار المعارضة الشديدة التى قامت فى وجهه وأُضطرته إلى الهجرة ؟

وأين ألسنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟

أفيعقل أن تمر حركة كهذه من دون أن تهب فى وجه صاحبها ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب وشياطين الشعراء ؟

وهل تسمح طبيعة الوجود بأن رجلا كمحمد يقضى أسماره بين خواصه ، وأيامه فى ميادين الحروب ، من غير أن تكون له ولرجاله مساجلات قوية يتناولون فيها حجج خصومهم نقداً وتحليلا ، ويعرضون فيها للسياسة العامة بآراء لها من القيمة ما شهدنا آثاره فى الرسالة الإسلامية ؟

وهل يعقل كذلك أن يصبر رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقيها عليهم النبىّ وأصحابه من دون أن يقابلوا الشر بالشر والعدوان بالعدوان فيطيلوا القول فى النفح

عن دياناتهم والقدح فى الديانة الجديدة التى تهاجمهم فى عقر دارهم ، وتدعوهم إلى تحطيم أصنامهم وترك أحبارهم ورهبانهم؟ هل يعقل أن يمر ذلك كله من دون أن يكون لهؤلاء ألف خطبة ، وألف رسالة ، وألف قصيدة ؟

١١ — أضيف إلى ذلك أن الحركة الإسلامية لم يعرف فيها من الخطباء والشعراء إلا عدد قليل لا يتناسب مع خطورة ذلك الموقف ، أفكان حقاً أن الإسلام لم يقم إلا على أكتاف ذلك العدد القليل ؟

إن الحياة العقلية فى عهد النبى لم تنقل إلينا بصورتها الحقيقية ، ويرجع ضياع صورتها فى رأيى إلى سببين :

أولا — ضياع آثار حزب المعارضة معقول ، لأنه أنهزم ولم يعدْ فى الإمكان تدوين الرسائل الجارحة والخطب المقذعة والرسائل اللاذعة التى هوجم بها النبىّ وأنصاره . خصوصاً إذا لاحظنا أن الذين نقلوا آثار ذلك العصر كلهم من المسلمين الذين يرون من الإثم والحرج أن يعيدوا الشتائم والقذائف التى رُمىَ بها النبى وجُرِّح بها الإسلام ، ولو بقيت آثار حزب المعارضة لاستطعنا أن نفهم إلى أى حدّ كان خصوم النبىّ يفهمون آراءه الاجتماعية والمنزلية ، ولرأينا كذلك صورة من الأدب الذى كان يستبيح مهاجمة النبىّ ورسالته فى عنف وإقذاع .

ثانيا — ضياع آثار النبىّ وأصحابه معقول أيضاً . فقد شعر المسلمون بأن واقعة اليمامة أضاعت جمهور الحفاظ بحيث أصبح القرآن نفسه مهدداً بالضياع ، ولولا ما فعله أبو بكر وعمر لتبدّد القرآن وعدنا لا نجد منه إلا شذرات مختلفة لاتطمئن إليها النفس كما هو الحال فى الأحاديث التى دوّنت أخيرا ، بعد إذ مات الحفاظ الأوّلون .

١٢ — وإذا كانت الظروف المختلفة لم تسمح للعرب بأن يدوّنوا آثار ذلك العصر بطريقة منظمة فإنه لا يصح لنا أن نستنتج أنه لم تكن لهم حياة أدبية قوية تصوّر ميولهم وأذواقهم وعواطفهم ومشاعرهم وكفرهم وإيمانهم ووفاءهم وغدرهم ، إلى آخر الألوان النفسية التى يقتضيها عصر التحوّل والانتقال فى جميع الأمم بلا استثناء .

وإنما ينبغى أن نعتقد أنه كان لهم أدب قوىّ متين يقرب فى روحه وأسلوبه من روح القرآن وأسلوبه : فإن البيئة واحدة والعصر واحد ، ولم يكن محمد إلا بشراً أُلهم هداية قومه كما صرح القرآن غير مرة ، لاسيما إذا تذكرنا أن القرآن وصف العرب فى عدّة مواطن بأنهم أهل فصاحة وجدل ، وخصومة وعناد ، ولم تكن فصاحتهم صمتاً ، ولا جدلهم سكوتاً ، ولا خصومتهم فراراً ، ولا عنادهم انهزاماً ، ولكنهم بالفعل قابلوا القول بالقول ، والسيف بالسيف نحو ثلث قرن إلى أن انتصر الإسلام ، ولم تبق من آثار خصومه غير ذكريات الجدل والحرب .

١٣ — والواقع أن تسمية ذلك العصر بالجاهلى تسمية دينية صرفة ، فإن العرب لم يصفوا ذلك العصر بالجهل إلا فيما يختص بالمعتقدات الدينية . ولكنهم فيما يرجع إلى الأدب كانوا يرونه من أرقى العصور ، وكانوا يتأثرون شعراءه وخطباءه وحكماءه فى كثير من أبواب القول(١) .

وقد استمسك العرب المسلمون بأهداب الأدب الجاهلى وعدّوه وحده المرجع فى ضبط أساليب اللغة العربية . ولم يتخذوا شواهد من الشعر الإسلامى إلا فى الحدود التى حسبوها قريبة أشد القرب من النزعة الجاهلية ، فكان الشعراء لذلك يجتهدون فى تذوّق الأدب الجاهلى وفى رياضة أنفسهم على محاكاته والصدور عن وحيه وأخيلته وتعابيره وألفاظه . وقد نَفَقَ ذلك الأدب نفاقاً عظيما حتى رأينا من الرواة من يصنع القصائد والخطب والأمثال فى لغة جاهلية ليبيعها فى الأسواق وفى قصور الأمراء والوزراء والخلفاء . فكان مَثَل ذلك الشعر الجاهلى مَثَل الآثار المصرية التى يخلقها التجار خلقاً ليبيعوها للأغنياء من عشاق

---

(١) ومن الخير أن ننبه القارىء إلى أن العصر الجاهلى لا يتمثل أمامنا فى بواديه ، فإن البوادى العربية كانت ولا تزال بعيدة من الفنون الأدبية التى تعتمد على العقل والمنطق ، وإنما نقصد الحواضر العربية لعهد الجاهلية ، وتلك الحواضر كان فيها شعر ونثر وقصص لأن هذه الفنون توجد حيث توجد الحضارة . والمدائن الكبيرة فى العصر الجاهلى كانت فيها حضارة تتمثل فى مظاهر مادية من المنازل والقصور ، ومظاهر معنوية من الملك والجاه والمال ، وهذه وتلك توجب ثروة من الترف العقلى والوجدانى . والنثر الفنى مظهر من ترف العقل والوجدان.

العاديّات . وقد نشأ عن هذا فنٌّ من النقد برع فيه الأقدمون ، فكان منهم من يهتم بتمييز الأدب الجاهلى الصحيح من الأدب الجاهلى المصنوع ، نكاية بالرواة الملفقين ، أو حبًّا فى تصفية الأدب الجاهلى من الزيف المدخول .

وفى ذلك مقنع لمن يحب أن يطمئن إلى أن العصر الجاهلى لم يوصم بالجهل إلا فيما يختص بالدين . أما فى الأدب فكان عصر نور وعلم وعرفان ، كما تشهد آثار القدماء .

* * *

١٤ — هناك ناس يعتقدون أن الشعر الجاهلى منحول وهناك أفراد ينكرون أن يكون العرب الجاهليون عرفوا من الأدب شيئاً آخر غير الشعر والأمثال ، وأحب أن أبين أنه لا تعارض بين القول بنفى ذلك الأدب والقول بإثباته : فأنا من الذين يرون أنه كان هناك أدب جاهلى واسع النطاق ، وأنه كان للعرب الجاهليين ألسنة فصيحة وعقول ناضجة وآراء حكيمة قادرة على قيادة تلك الجماهير الحية التى تفرقت فى الحواضر العربية .

يقولون : وأين آثار ذلك الأدب الجاهلى ؟

وأجيب بأن ذلك الأدب قد ضاع أكثره حتى ليصعب أن تتخذ منه أداة لوصف ما كان عليه الجاهليون من أنظمة أدبية وسياسية وأجتماعية ودينية .

وهنا يبتسم المنكرون قائلين : ومن يدرينا أنه كان هناك أدب ضاع !

وعند هذه المفاجأة نجد الجواب : لأن الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين ، أما المتقدمون من رجال القرن الأول والثانى والثالث فقد عرفوه وتدارسوه . فمن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن المجموعة الشعرية التى جمعها المفضَّل الضبى فى القرن الثانى مجموعة صحيحة ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر أن تلك المجموعة تدل على أنه كان هناك شعر جاهلى كثير جداً اختيرت منه المفضليات ؟

١٥ — أضيف إلى هذا أن من رجال الأدب الموثوق بهم من جمع كتباً كثيرة من آثار العصر الجاهلى ، وأن تلك الكتب قد ضاعت أصولها ضياعاً تاماً ، وفى ذلك ما يشعرنا بأن المتأخرين فقدوا ذخائر كثيرة من أصول الأدب القديم .

إننا نعرف أن أبا تمام جمع كتاب الحماسة من مكتبة أحد الأمراء ، والجمع هنا معناه التخير ، ونعرف كذلك أن ديوان الحماسة يشتمل على مختارات نفيسة من الأدب الجاهلى . فهل نجد من يدلنا على مصادر أخرى لأكثر ما اختاره أبو تمام غير ديوان الحماسة ؟

فإن لم توجد تلك المصادر فلن يكون معنى هذا أن أبا تمام خلق ديوان الحماسة خلقاً ، ولكن معناه أن الحياة كتبت لذلك الديوان . وليس أبو تمام وحده هو الذى عنى باختيار الشعر القديم فهناك مؤلفون عديدون اهتموا بذلك النوع من الاختيار ثم ضاعت مختاراتهم ولم يبق إلا ذكراها فى كتب التراجم . ومع هذا فمن الغرور أن نحكم على قيمة الأدب الجاهلى بما قرأناه منه فمن ذلك الأدب مجموعات قيمة جداً لم يكتب عليها الفناء وغفل عن استغلالها أكثر الباحثين . وفى دار الكتب المصرية مخطوطات لم يفكر أحد فى الانتفاع بها ، مع أن دار الكتب المصرية من المكاتب الفقيرة التى جمعت ذخائرها اتفاقا ومصادفة بدون أن يكون عند مؤسسيها فكرة الاستقصاء.وفىمكاتب اسبانيا والمغرب آثار جليلة للأدب الجاهلى لم يستغلها أحد ، ولعلها لو فُهرستْ ونظمت ودرست لكشفت لنا نواحى مجهولة من الأدب القديم ... ولكن أين من ينتظر نتيجة البحث ؟ إن المتأدبين عندنا يحكمون على الغائب بلا بينة ولا شهود !

١٦ — أنا أقول بأن الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين ، أما المتقدمون فكانوا يعرفونه ويروونه ويتجرون به فى الأسواق الأدبية وعلى أبواب الملوك .

ولكنى مع هذا أقرر أن هناك شطراً من الأدب الجاهلى قبره المسلمون عمداً فى القرن الأول ، وإلى القارئ البيان :

كانت الحياة الجاهلية تختلف عن الحياة الإسلامية اختلافاً شديداً . ففى الأعوام التى سبقت الإسلام كانت فى الجزيرة عادات وتقاليد وأوضاع لها ألوان وثنية أو نصرانية أو يهودية، فلما جاء الإسلام تبدلت تلك التقاليد وصار من اللائق تناسى ما يمسها من الأدب الجاهلى وصفاً أو شرحاً أو تعليلا . ورأى العرب المسلمون أن فى ذلك الأدب جوانب خطرة يجب

إسقاطها والقضاء عليها صوناً للوحدة الإسلامية . وليس فى هـذا شيء منـكر ، لأن الأدب يتصل أكثره بحياة الناس وسيرهم وأخبارهم وأخلاقهم من شمائل مرضية أو طباع ذميمة ، وفى حياته حياة لما وصف أو شرح أو علل من الأخلاق والسجايا والمعتقدات . وقد يتفق أن يكون فى العرب المسلمين من تناوله شعراء الجاهلية وكتابهم وخطباؤهم بالقدح والثلب والتحقير ، وقد يتفق كذلك أن تكون هناك قبائل تهاجت وتحاربت فى الجاهلية ثم ألَّف بينها الإسلام . أفيكون من الحزم أن يعود الرواة إلى ذلك الأدب فيرووه و يحيوه وفيه إثارة لما سكن وهدأ من قديم الأحقاد ؟

١٧ — إن العرب فى الصـدر الأول من الإسلام تناسوا عامدين أبوابا كثيرة من الأدب الذى كان محفوظا قُبيل الإسلام صيانة للوحدة الإسلامية من عبث الأهواء . وليس هـذا الذى نقوله مجرد افتراض : ففى التاريخ الإسلامى شواهد كثيرة تقنعنا بأن الخلفاء الراشدين كانوا يتشاءمون من رواية الأدب الجاهلى . وهم بالطبع لا يتشاءمون إلا من الأدب الذى يصور ما كان عند الجاهليين من ترات وعداوات وحزازات . وهم فيما عدا ذلك كانوا يدعون إلى رواية الشعر وحفظه لأنه كما قال عمر بن الخطاب ديوان العرب . والذى نقضى به فى الشعر هو نفس ما نقضى به فى الرسائل والخطب والأسجاع . فمن عسى أن يكون ذلك المسلم الذى يستبيح رواية خطب الـكهان ورسائلهم وأسجاعهم وهى تفيض بالروح الوثنية ؟ ومن عسى أن يكون ذلك المسلم الذى يروى ما أُثِر عن النصارى واليهود قبيل الإسلام ، فى حين أن الدين الجديد كان يروضهم على تناسى جميع الآداب التى تنافى أدب القرآن[1] .

---

(١) نستطيع فهم ذلك بصورة أوضح إذا تذكرنا الأدب المصرى قبل الحرب العالمية التى ثارت سنة ١٩١٤ فإن رسائل الشيخ عبد العزيز شاويش ضد الأقباط ورسائله فى مهاجمة سعد باشا زغلول وقصائد حافظ فى حادثة دنشواى والمثالب التى طوق بها عنق ابراهيم بك الهلباوى، كل ذلك لا تمكن روايته اليوم : لأن فيه إثارة للعداوة التى كانت بين المسلمين والأقباط . وفيه تحقير لناس رضى عنهم الجمهور . وقد كتبت مرة رسالة عن الأدب المصرى قبل الحرب فأبت أن تنشرها جريدة (البلاغ) فزادنى ذلك إقناعا بصحة هذا المثال . ومن هذا الباب ما وقع بعد وفاة سعد باشا فقد جمع كاتبه الخاص محمد ابراهيم الجزيرى خطبه السياسية ونشرها كاملة فكتب رئيس تحرير جريدة السياسة مقالا بين فيه أن نشر خطب سعد باشا كاملة خطراً على ائتلاف الأحزاب، لأن =

١٨ — من أجل هـذا كله أستبعد أن يكون العرب ظلوا خالى الذهن من العلوم الأدبية إلى أن اتصلوا بالفرس والروم . و إذا كان المستشرقون ومن لفّ لفّهم من أدباء مصر يستكثرون أن يكون أبو الأسود الدؤلى هو أول من فكر فى النحو و يرجحون أن يكون النحو أثراً من اتصال العرب بالسريان والروم ، فأنا أستقل أن يكون أبو الأسود أول من فكر فى النحو ، وأرى من المضحك أن يظن أن العرب لم يتنبهوا إلى وقوع اللحن فى لغتهم إلا بعد الإسلام ، وأن اتصال العرب بالأعاجم هو الذى رماهم باللحن ، كأن لغة العرب بِدعٌ من اللغات لا يلحقها تغيير ولا تبدل . وذلك رأى واضح البطلان . و إنما أرجح أن يكون العرب فى جاهليتهم عرفوا النحو وعرفوا غيره من العلوم الأدبية . ألسنا نرى القرآن يجرى على نمط واحد فى أوضاعه النحوية لا يختلف فى ذلك إلا باختلاف رواته من القبائل المختلفة[1] ؟ ولغة القرآن هى لغة قريش ، وهى التى تهمنا ، فإذا كنا نجهل إلى الآن كيف تطورت وكيف نشأت علومها وفنونها ، فمن الأمانة العلمية أن نقف على الأقل محايدين وأن لا نجزم برأى ستنقضه الأيام .

وهذا الذى أقوله أنا مستعد لتحمل تبعته والدفاع عنه ، وأرجوا أن يكون له أثر فى فهم البيئة القديمة التى نزل فيها القرآن ، والتى تستحق أن تدرس من جديد درساً علمياً يكشف اللثام عن ذلك العصر الذى سموه خطأً عصر الجهل ، وهو فى رأيى أهـل لأن يسمى عهد معرفة ونور .

* * *

١٩ — على أننى وقفت على نص مهم يدل على أن من نقاد العرب من ارتاب فى نشأة العلوم اللغوية ، إذ رأيت ابن فارس يلاحظ فى قصيدة الحطيئة التى أولها :

= فى المجموعة التى نشرها الجزيرى خطباً جارحة فى مهاجمة ثروت باشا ، وكان من أصدقاء حزب الأحرار الدستوريين . ولا ينس القارىء أننا اليوم أشد تسامحاً مما كان عليه العرب فى صدر الإسلام ، فما نكرهه نحن كان عندهم إثماً وفسوقاً .

(١) عدم اختلاف الأوضاع النحوية لا يدل على أن العرب لذلك العهد كانوا عرفوا النحو ، ولكنه دليل على أن اللغة كانت موحدة فى طرائق التعبير ، وهذا كاف للاقناع بأنهم كانوا فكروا فى ربطها بقواعد النحو وأصول البيان .

شاقتك أظعـــان لليـــــلى دون ناظرة بواكر

أن قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجىء مرفوعة،ولولا علم الحطيئة بالرفع لاختلف إعرابها لأن تساويها فى حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكون ، وهذا برهان على فهم الحطيئة لقواعد النحو والعروض(١) .

وكذلك يرى ابن فارس أن معرفة القـدماء من الصحابة بكتابة المصحف على النحو الذى يعلله النحويون فى ذوات الواو والياء والهمزة والمد والقصر تدل على فهمهم لأصول اللغة وقواعد الـكتابة(٢) . وهو على الجملة يرى أن العلوم العربية كانت معروفة قبل الإسلام .

٢٠ — والذى قضى به ابن فارس فى نشأة النحو والعروض هو الذى نقضى به نحن فى نشأة البديع ، بل نشأة البديع أظهر وأوضح ، فإن القرآن سجل مظهراً من مظاهر الزخرف والسجع ، فهو إذن كان موجودا قبل الإسلام ، وليس السجع فقط هو الذى قيده القرآن ، بل أكثر الفنون البديعية أخذت شواهدها من آيات القرآن .

ونتيجة ما سلف أن العرب فى جاهليتهم اهتموا بالنثر الفنى اهتماما ظهر أثره وعرفت خواصه فى خطب الخطباء ورسائل الـكتاب، ولـكن ماعرف عن العرب من إهمال التقييد والتدوين لشيوع الأمية فيهـم أضاع علينا معرفة من اهتموا اهتماماً جدياً بتدوين البديع ، فـكان من ذلك أن شاع الاعتقاد بأن ابن المعتز هو أول الـكاتبين فى هذا الفن الجميل(٣) .

(١) الصاحبى ص ٩ (٢) الصاحبى ص ١١

(٣) جاء فى زهر الآداب (١١٤ ج ٤) مانصه: «قال أبو بكر الصولى: اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند أبى العباس عبد الله بن المعتز وكان يتحقق بعلم البديع تحققاً ينصر دعواه فيه لسان مذاكراته : فلم يبق مسلك من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شعباً من شعابه ، وأرانا أحسن ماقيل فى بابه » .

فالمسألة إذن هى أن ابن المعتز كان يدعى التفوق فى علم البديع . فعلم البديع كان معروفا . ومن الصعب أن نقبل سكوت كتاب العرب وأدبائهم نحو قرنين عن هذا الفن حتى يجىء هذا الأمير المترف فيؤلف فيه .

وما قلناه فى ابن المعتز نقوله فى قدامة بن جعفر الذى عدوه من أوائل المؤلفين فى البديع . وفى حديث خنافر الحميرى — المثبت فى الأمالى ص ١٣٣ ج ١ — وصف القرآن بأنه « ليس بالشعر المؤلف ، ولا السجع المتكلف » وهذا الحديث موضوع بلاشك، ولـكن فيه إشارة إلى أنه كان مفهوما عند الرواة أن الناس لعهد النبوة كانوا يميزون بين السجع المطبوع ، والسجع المصنوع . والسجع من فنون البديع .

٣ – النثر الفنى فى العصر الاسلامى (*)

١ — جاء الإسلام فأيقظ العرب وأثار ما سكن من نشاطهم وحياتهم وحبّب إليهم القوّة والجاه والملك ، فانطلقت ألسنتهم ، وظهر فيهم الكتاب والخطباء والشعراء ،وكان من دواعى ذيوع البلاغة عندهم حاجتهم إلى الدفاع عن صدق النبوّة ، ثم اشتجار الفتن بينهم : فتن التحزب والاختلاف والانقسام التى كانت أهم باعث على شيوع الكتابة والخطابة فى تلك الأمة التى توارت فى الصحراء زمناً غير قليل . وأول مظهر لقوّة الخطابة والكتابة هو التنافس الشديد الذى قام بسبب الخلافة ، فقد كان كل حزب من المهاجرين والأنصار يدعو لنفسه سراً وعلانية عن طريق الخطب والرسائل والمجادلات التى كانت تثور فى المجالس والمساجد والأسواق . ثم كانت الفتنة بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فظهرت حاجة الفريقين إلى البلاغة واشتدت الرغبة فى نشر الدعوة فى الأمصار الإسلامية ، ولم يكن حظ هذه النهضة الأدبية كحظ النهضة التى سبقتها فى الجاهلية ، لأن العرب شرعوا يتحضرون و يسلكون سبيل الأمم الممدنة فى التدوين ، فكان من أثر ذلك أنْ حفظت آثار الكتاب والخطباء بحيث يستطيع الباحث أن يعيِّن مظاهر النثر وخواصه فى عصر بنى أمية وصدر عصر بنى العباس .

٢ — وأوّل ما ينبغى إثباته من خواص النثر هو عمقه وقوته بفضل تأثره بالآداب الأجنبية التى عرفها العرب حين انبثوا بفضل الإسلام فى الممالك التى فتحوها واكتسبوا بالمعاشرة والمصاهرة روحاً جديداً ظهر أثره فى الخطب والرسائل والمحاورات ، حتى ليمكن أن يقال : إن الفتح والملك أعطاهم من قوة الملاحظة ودقة التفكير مالم يعطهم القرآن وحده

(*) هذا الفصل ليس إلا نظرة سريعة إلى مذاهب النثر فى العصر الإسلامى يمكن القارئ من تصور العهود التى سبقت القرن الرابع ،وكل جزء من هذا الفصل يحتاج إلى درس مطول . ولكنا وقفنا عند حدود الإشارة لأن الفصل برمته نوع من التمهيد . وأهم ما نحتاجه هو الكلام عن السجع ، وسنفرده بفصل خاص .

لوظلوا محصورين فى أرجاء الجزيرة العربية[(١)] . ولا عبرة بما عرف عن فريق من العرب من الحرص على تربية أبنائهم تربية عربية صرفة ، فإن هذا لم يكن يراد به صرف الشباب العربى عن فهم المدنيات الأجنبية ، وإنما كان يراد به حمايته من العجمة التى كانت تعيب الأرستوقراطية العربية ، وتجعل صاحبها موضع السخرية بين معاصريه .

٣ — ومن خواص الكتابة عدم التأنق فى البدء والختام فقد كانت الجاهلية تكتب فى أول كتبها « باسمك اللهم » ثم تكتب من فلان إلى فلان ،ويمضون فى الغرض ، وكان النبى يفتتح كتبه بالبسملة ثم يقول : من محمد رسول الله إلى فلان ، ويبتدئ صدورها غالباً بالسلام عليكم ، أو السلام على من اتبع الهدى ويثنى بالتحميد بعد السلام فيقول : إنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ،ويتخلص من صدر الكتاب إلى المقصود تارة بأما بعد وأخرى بغيرها، وكان يختتمها فى الأكثر بالسلام عليكم ورحمة الله، أو السلام على من اتبع الهدى[(١)] .

٤ — والذى يهمنا تقييده فى هذا الفصل هو المنهج العام الذى جرى عليه النثر فى ذلك العصر ، ويظهر مما اطلعنا عليه أن مسألة الإيجاز والإطناب كانت تجرى فى الغالب على مقتضى

---

(١) ليس معنى هذا أننا ننكر أثر القرآن فى إحياء البلاغة العربية ، لا ، فنحن نؤمن بأن القرآن كان من أقوى البواعث على النشاط الأدبى ، ونراه مصدر الدراسات الأدبية واللغوية التى ازدهرت فى الحواضر الإسلامية . وحسب القارئ أن يذكر أن عمل علماء اللغة والنحو والصرف والبيان كان دعوة الى غاية : هى الإيمان بإعجاز القرآن . ولم يقف أثره عند إحياء العلوم الأدبية ، وإنما أثر تأثيراً بيناً فى أساليب الكتاب والخطباء حتى لوحظ أن ابن نباتة الخطيب كان يسلك فى نثره مسلك الأساليب القرآنية وحتى دون المتقدمون أن الروح القرآنى كان يظهر على لسان الصابى وعلى سنان قلمه البليغ ، فمن المجازفة أن نوافق المسيو مرسيه حين يقول فى إنكار أثر القرآن فى النثر الفنى :

L'influence du livre saint sur le developpement de la plus ancienne prose lit-téraire arabe est infinement moins considérable qu'on ne serait tenté de la croire (Revue Africaine 1re & 2e trimestres 1927 . P. 19).

ولا قيمة لما أشار إليه المسيو مرسيه عقب كلمته هذه من أن العرب كانوا يتجنبون محاكاة القرآن ، فإن ذلك لا ينافى تأثرهم به وتأثيره فيهم ، فإن هناك عدوى روحية تمس القلب والعقل وتصبغ الآثار الأدبية بصبغة مايقرأ المرء أو يسمع وإن تكاف الهرب وحسب نفسه بمنجاة من المحاكاة والتقليد .

(٢) راجع خطاب النبى محمد وكتاب أبى بكر للمسلمين يعهد إلى عمر بالخلافة وخطاب عثمان إلى على يستنجده ص ١٢٨ و ١٢٩ من كتاب الوسيط .

الحال فكان الكاتب يوجز تارة و يطنب أخرى وفقا للظروف التى يكتب فيها رسالته ، وكان من الخطباء من يطيل ، وكان منهم من يوجز ، ولا يرجون فى ذلك إلى قاعدة غير المناسبات التى توجب الكلام ، فتقضى مرة بالإطناب وتقضى حيناً بالايجاز . وسحبان وائل الذى عرف بالتطويل و بأنه كان يخطب أحياناً نصف يوم أُثِرت عنه الخطب القصيرة الموجزة . وذلك يدل على أن الفطرة كانت غالبة على ذلك العصر وأن القاعـدة المطردة لم تكن شيئاً آخر غير مراعاة الظروف .

ورسائل علىّ بن أبى طالب وخطبه ووصاياه وعهوده إلى ولاته تجرى على هذا النمط ، فهو يطيل حين يكتب عهداً يبين فيه ما يجب على الحاكم فى سياسة القطر الذى يرعاه ، و يوجز حين يكتب إلى بعض خواصه فى شأن معين لايقتضى التطويل(١) .

٥ — غير أنه لايمكن الحكم بأن الكتاب والخطباء كانوا جميعاً موفَّقين فى ترك الفضول بل يظهر أنه فى أوائل العصر العباسى وقع اضطراب فى تقدير الظروف والمناسبات وفهم أقدار المخاطبين ، فإننا نجد ابن قتيبة يدعو فى مقدمة كتابه (أدب الـكاتب) إلى وضع الألفاظ على قدر الكاتب والمكتوب إليه بحيث لايعطى الكاتب خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضيع الكلام ، ونراه يلاحظ أن الـكتاب لايفرقون بين من يكتب إليه « أنا فعلت ذلك » ومن يكتب إليه « نحن فعلنا ذلك »(٢) .

وقد ساعدنا ابن قتيبة على تحديد النمط الذى ساد فى العصر الإسلامى حيث ناقش كلمة ابرويز فى الإيجاز «وأجمع الـكثير مما تريد فى القليل مما تقول» فبين أن الإيجاز ليس محموداً فى كل موضع ، ولا بمختار فى كل كتاب ، بل لكل مقام مقال ، وأنه لوكان الإيجاز محموداً فى كل الأحوال لجرى عليه القرآن ، ولـكنه لم يفعل ذلك ، بل أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارة للايجاز، وكرر تارة للافهام، ثم اندفع ابن قتيبة فذكر أنه ليس يجوز لمن قام مقاماً فى تحضيض على حرب أو حمالة بدم او صلح بين عشائر أن يقلل الكلام و يختصره ، ولا لمن

(١) راجع فصول نهج البلاغة .

(٢) ص ١٥ من أدب الـكاتب .

كتب إلى عامة فى فتح أو استصلاح أن يوجز ، وأنه لو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكؤه فى بيعته:

« أما بعد فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فإذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت ، والسلام » .

لم يعمل هذا الكلام فى أنفسها عمله فى نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدئ ، ويحذر وينذر (١) .

وقد توهم الأستاذ أحمد الزيات أن كلمة ابن قتيبة هذه دليل على أن النثر فى الصدر الأول كان موسوماً بالإيجاز وأن ابن قتيبة دعا أهل ذلك العصر إلى عدم الاكتفاء بما كان يكتفى به أمثال يزيد بن الوليد (١) . وهذا خطأ فى الاستنتاج فإن ابن قتيبة ذكر أن القرآن كان يطيل ويكرر حسبما تقتضى الظروف . والقرآن أساس المنهج الكتابى لذلك العصر بلاشك . والذى لايمكن نكرانه أنه حصل تطور فى النثر فى العصور الإسلامية الأولى ، ولكنه كان تطوراً بطيئاً لم تظهر آثاره إلا فى طرائق التعبير عن الشئون الخاصة بتدبير الملك ومخاطبة الخلفاء ، وهذا التطور متأثر باتصال العرب بالفرس ، فقد كان لهؤلاء تقاليد ملكية رغب العرب فى محاكاتها حين اطلعوا على ما عندهم من الفنون والآداب (٣) .

(١) أدب الكاتب ص ١٦ و ١٧ (٢) تاريخ الأدب العربى ص ١٢٥

(٣) المعروف أن عبد الحميد بن يحي هو أول من نقل تقاليد الفرس إلى الكتابة العربية (راجع الصناعتين ص ٥١) ومعنى هذا أنه كانت للعرب تقاليد كتابية أضاف إليها عبد الحميد زيادات فنية فى الفواتح والخواتم . فهو لم ينشئ فناً جديداً ، ولكنه أصلح فناً قديماً ، وهذا يؤيد رأينا فى نشأة النثر الفنى ، فهو فن قديم عرفه العرب فى الجاهلية ، وتم نضجه فى العصر الإسلامى .

ومن ظريف ما يحسن تقييده أن المستشرقين كانوا يرتابون فى شخصية عبد الحميد بن يحي فلم يهتموا به اهتماماً يذكر فى دائرة المعارف الإسلامية ، ورأى الدكتور طه حسين أن يقلدهم فزعم أن شخصية عبد الحميد شخصية خرافية كشخصية امرئ القيس ! ! وتحدانا أن نثبت أن الجاحظ ذكره فى كتبه ، فهالنا هذا التحدى ، وعدنا إلى كتب الجاحظ نسألها أخبار عبد الحميد ، فرأينا الجاحظ تحدث عنه فى رسائله وكتبه غير مرة ، وأقبلنا على الدكتور طه نخبره بنتيجة البحث ، فعاد فتحدث إلى تلاميذه بأن عبد الحميد بن يحي كان يعرف =

٦ — ويهمنا فوق ماتقدم أن ننص على أن النثر فى العصر الإسلامى لم يأخذ عليه التزام السجع ، وإنما كان يقع السجع حين يقع بسيطاً مقبولا لاتكلف فيه ، ولا نكاد نجد فى القرن الأول والثانى وأوائل الثالث كاتباً يتخذ السجع طابعاً ملازما لنثره ، خصوصاً الكتاب المشاهير الذى أغنوا تلك العهود بأدبهم كابن المقفع وعبدالحميد بن يحيى . والسجع فى الأصل حلية يزدان بها النثر ، وهى مقبولة مادامت تجرى فى حدود الاعتدال والقصد ، كما وقع فى القرآن ، فإن القرآن يسجع أحيانا ولـكنه لا يلتزم السجع، لذلك نجا من التكلف والابتذال .

والصنعة التى أُثِرت عن ذلك العصر تدل على أن الكتاب كانوا يفهمون أن الكتابة فن له قواعد وأصول ، وأن الكاتب يجب أن يصفى كتابته من أوشاب الخطأ والضعف ، لذلك رأينا واصل بن عطاء مثلا يتجنب الراء فى خطبه إذكان ألثغ ، وبالرغم من أن هذا الحرف كثير الدوران فى الكلام(١) . وتجنب مثل هذا الحرف من باحث كبير مثل واصل يتكلم ويخطب بلا انقطاع يدل على أن إجادة النثر أصبحت مقصودة عند كتاب ذلك العصر وخطبائه ، ومثل هذا القصد كاف للدلالة على فهم أولئك الناس لأهمية الإتقان .

٧ — والذى يتأمل آثار ذلك العصر يرى اهتمام الكتاب والخطباء ببسط المعـانى وتأكيدها بتكرير الجمل المتقاربة فى مغزاها ومدلولها . وهذا يعطينا فكرة واضحة عن تصور الكتاب والخطباء لنفسية من يراسلونهم أو يخاطبونهم . وهذا التكرير الذى أشير إليه ليس كالتكرير الذى سأنكره فيما بعد على كتاب القرن الرابع ، وإنما هو تكرير خفيف مقبول يؤكد المعنى ولا يثقله كالذى وقع فى رسالة الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز .

« واُذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر . واُعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت به

= اليونانية ! ! ثم أثبت ذلك فى بحث قدمه إلى مؤتمر المستشرقين . . . ويظهر أن الدكتور طه نسى أن يحدث تلاميذه وقراءه عمن دله على مكان عبد الحميد فى كتب الجاحظ ، فليسمح لنا أن نحفظ لأنفسنا هذا الحق ، ورحم الله ابن الرومى إذ قال :

وعزيز على مدحى لنفسى غـير أنى جشمته للدلاله
وهو عيب يكاد يسقط فيـه كل حر يريد يظهر حاله

(١) البيان والتبيين ص ١٠ ج ١ طبعة سنة ١٣٣٢ هـ .

يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك فى قعره فريداً وحيداً ، فتزودْ له مايصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه»(١) .

وهذا التكرير قد يزيد عند بعض الكتاب ولكنه يظل مقبولا أيضاً كالذى وقع فى مشاورة المهدى لأهل بيته فى مثل هذه التعابير :

« أيها المهدى ! إن فى كل أمر غاية ، ولكل قوم صناعة اُستفرغت رأيهم واُستغرقت أشغالهم واُستنفذت أعمارهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وعُرفوا بها وعرفت بهم ، ولهذه الأمور التى جعلتنا فيها غاية وطلبت معونتنا عليها أقوامٌ من أبناء الحروب وساسة الأمور وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز وإخوان التجارب وأبطال الوقائع الذين رشحتهم سجالها وفيأتهم ظلالها وقرمتهم نواجذها ، فلو عجمت ماقِبَلهم وكشف ماعندهم لوجدت نظائر تؤيد أمرك ، وتجارب توافق نظرك ، وأحاديث تقوى قلبك ، فأما نحن معاشر عمالك وأصحاب دواوينك فحسنٌ بنا وكثيرٌ منا أن نقوم بثقل ماحملتنا من عملك ، واستودعتنا من أماناتك، وشغلتنا به من إمضاء عدلك ، وإنفاذ حكمك ، وإظهار حقك(٢) » .

وقد شاع هذا الأسلوب فى القرن الثانى والثالث ، واتخذه الجاحظ خاصة أسلوبا مختاراً لايحيد عنه ، يظهر ذلك فى مقدمة كتبه مثل البيان والتبيين والحيوان ، وفى رسائله الأدبية والاجتماعية . وفى رأيى أن الجاحظ وصل إلى درجة الغلو والإملال ، ولولا أنه كان يخلط فى كتابته بين الجد والهزل والحلو والمر لانصرف الناس عنه ، ولكنه كان رجلا عالما بطباع الناس وغرائزهم فاستطاع بذلك أن يتملق أهواءهم وأذواقهم وأن ينسيهم برقة دعابته وحلاوة استطراده إسرافَه فى أسلوبه وتطويله الذى عرف به واضطر للدفاع عنه فى مقدمة كتاب الحيوان .

٨ — ومن مظاهر الصنعة فى ذلك العصر تعمد الخيال ، وتلك صفة تجدها عند أكثر الكتاب والخطباء ، فنجد الحجاج مثلا يقول :

---

(١) نهاية الأرب ص ٣٨ ج ٦ (٢) راجع العقد الفريد ص ٥٧ — ٦٤ ج ١

«يا أهل الكوفة ! إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، و إنى لَصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللّحى » .

و يقـــول :

« إن أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه ! — كبّ كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرّها عوداً وأصلبها عموداً ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال ... أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل »[1] .

و إيثار الخيال فى النثر ظاهر فى خطب على بن أبى طالب وز ياد ورسائل عبد الحميد[2] ، وحكم الواعظين والنساك فى تلك الأيام ، ومنشورات الخوارج التى هاجموا بها الخلفاء . وهذا الأسلوب مظهر من مظاهر الفن لا ينبغى تجاهله عند تقرير الخواص التى امتاز بها النثر فى ذلك الحين .

هذه المظاهر الفنية التى طبع بها النثر فى عصر بنى أمية وصدر دولة بنى العباس كانت مقدمة لنوع من الإسراف فى الزخرف أفسد النثر فيما بعـــد ، وأثقله بألوان من السجع والازدواج .

(١) البيان والتبيين ص ١٦٤ و١٦٥ ج ٢

(٢) أظهر أثر لعبد الحميد بن يحيي هو رسالته التى وجهها إلى الكتاب يوصيهم فيها بحفظ الكرامة واحترام المهنة ومواساة الزملاء — راجع صبح الأعشى ص ٨٥ — ٨٩ ج ١

٤- أطوار السجع

١ — لهذا البحث أهمية عظيمة . وقد جمعنا له مذكرات عديدة تصلح مادة لكتيب خاص . ثم رأينا إجمالها فى هذا الفصل[١] . وترجع أهمية هذا البحث إلى مايجب من تبديد الشبهة التى تأصلت فى أنفس كثير من الباحثين الذين يظنون أن التزام السجع لم يقع إلا فى القرن الرابع . فقد حدّثنى المسيو مرسيه مرة أنه وجد كتابا لمؤلف قديم اسمه الأخضرى وأن المؤلف منسوب إلى القرن الثالث . و يصرّ المسيو مرسيه على ضمه إلى رجال القرن الرابع : لأنه يلتزم السجع . واستطرد المسيو مرسيه فذكر أنه عرض هذه المسألة على الدكتور طه حسين فوافقه على استبعاد أن يكون من رجال القرن الثالث من يلتزم السجع. وفى هذا الفصل تُبدَّد أمثال هذه الشبهات ، و يعرف القارئ أن السجع حلية قديمة أولع بها الكتاب والخطباء قبل القرن الرابع بأجيال ، وأنه لا يكفى أن يكون الكتاب مسجوعا ليطرد من حظيرة القرن الثالث كما حكم وليم مرسيه وطه حسين[٢] .

٢ — ولنذكر أوّلا أن السجع من مميزات البلاغة الفطرية : فهوفى أكثر اللغات يجرى باطراد فى الحكم والأمثال . ويمكن الحكم بأن أمثال العامة تقع غالباً مسجوعة ، وقد يجنى السجع على المعنى أحيانا فى تعابير الفطريين من أهل البادية والريف ، وفى ذلك دلالة على أن المحسِّنات اللفظية مما يقصده العوام ، وليست مما ينفرد به الخواص . والقارئ يستطيع بسهولةأن يجمع عشرين مثلا فى لحظة واحدةمن أسجاع العامة فيماسار على ألسنتهم من مختلف

(١) عرضنا لهذا الموضوع فى الأصل الفرنسى ، ثم عدنا ففصلناه بعض التفصيل فى المقدمة الفرنسية التى نشرناها مع (الرسالة العذراء) .

(٢) من الإنصاف أن نذكر أن رأى هذين الباحثين قد تغير فى كثير من موضوعات النثر الفنى بعد الأبحاث الجدية التى قدمناها إلى السوربون ومدرسة اللغات الشرقية فى باريس .

الحكم والأمثال(١) . ولو رجع القارىء إلى إحدى اللغات الأوروبية ، كالفرنسية مثلا ، لوجد السجع يجرى باُطراد فى هذا الضرب من القول ، مثل :

(Qui va à la chasse, perd sa Place)

ومثـــل :

(Qui se ressemble, s'assemble)

ومثـــل :

La nuit. tous les chats sont gris

وكالمثل السائر :

Vouloir, c'est Pouvoir

وما جمعه الرواة من خطب الجاهليين أكثره مسجوع ، كخطبة قس بن ساعدة الإيادى وخطبة النابغة الذبيانى(٢) . ومع أننا نرتاب فى صحة تلك الخطب فإننا نرى فى وضعها مسجوعة — على فرض صحة الوضع — دليلا على أن الرواة كانوا يفهمون أن السجع من طبيعة البلاغة الجاهلية ، وفهم الرواة له قيمته : لأنهم أقرب منا بمراحل طويلة إلى ذلك العهد ، ولأنهم كانوا يملكون من أصول الأدب الجاهلى الصحيح ما يمكنهم من الحكم على طرائق أهله فى التعبير .

٣ — ولو تركنا المشكوك فيه من الآثار الجاهلية ، وعدنا إلى نص جاهلى لا ريب فيه وهو القرآن لرأينا السجع إحدى سماته الأساسية . والقرآن نثر جاهلىّ ، كما أوضحنا ذلك من قبل، والسجع فيه يجرى على طريقة جاهلية حين يخاطب القلب والوجدان. ولا ينكر متعنت

(١) أسجاع العامة كثيرة، ومن طريفها ماجرى فى وصف الشهور المصرية مثل : «كياك ، صباحك مساك » يريدون وصفه بقصر النهار . و «برمهات ، روح الغيط وهات» لأن برمهات موسم ظهور البقول . و« برموده ، دق بالعموده» لأنه موسم الحصاد والدرس ، درس القمح والفول والشعير . ويقولون فى موعد انصرام الشتاء « إذا اخضر التوت البرد يموت » ومن فكاهاتهم : « عيشك كويس ياخالتى ! من سوء بختى ، يا بنت اختى ! »

وأذكر فى مناسبة السجع فى الشهور المصرية أن هناك سجعاً يماثله عند عوام الفرنسيين مثل :

En Avril, n'enlève pas nu fil

ومثل :

En Mai, fais ce qu'il te plait

(٢) تجد هذه الخطبة فى ص ٣٨ من مجموعة التحفة البهية .

أن القرآن وَضَع للصلوات والدعوات ومواقف الثناء والخوف والرجاء سوراً مسجوعة تماثل ما كان يرتله المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين. ولا ننس أن الوثنية كانت ديناً يؤمن به أهله فى طاعة وخشوع ، وكانت لهم طقوس فى هيا كلهم . وكانت تلك الطقوس تؤدّى على نحو قريب مما كان يفعل أهل الكتاب من النصارى واليهود . والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب فى صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات . والفرق بين الملتين يرجع إلى المعانى و يكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال . ولو دخلت كنيسة فى باريس ورأيت كيف تتلى الدعوات بعد الصلاة لتذكرت الصورة التى تتلى بها الدعوات بعد الصلاة فى مساجد القاهرة : ذلك بأن الديانات الثلاث الإسلام والنصرانية واليهودية ترجع إلى مهد واحد هو الجزيرة العربية . فاللون الدينى واحد ، وصورة الأداء تكاد تكون واحدة ، فلا تحسب أن القرآن غيَّر مناهج الناس فى يوم وليلة ، وتذكر أنه لم يشأ إلا أن يصلح من عقائد من دعاهم إلى الله وأن يروضهم على فكرة واحدة هى التوحيد .

ومعنى هذا أن القرآن يسجع لأن السجع كان فناً من فنون القول والدعاء عند الجاهلية، والصلوات بطبيعتها تحتاج إلى لون من الفن يتمثل فى السجع . لأن فيه أستجابة للموسيقا الوجدانية فى قلوب المتبتلين . و إليك أمثلة من سجع القرآن .

« وكم أرسلنا من نبى فى الأوّلين . وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً ومضى مثل الأوّلين . ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا أستويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون [1] » .

---

(١) سورة الزخرف .

« والسابقون السابقون ، أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأوّلين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة[1] . متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلّدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدّعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلا قيلاً سلاماً سلاماً . وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين. فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة »[2] .

وعند ملاحظة سجع القرآن نراه يتخلف فجاءة فى بعض الأحايين : كأن تكون القافية نونية فتجيء فى وسط السياق فاصلة ميمية . وفى هذا برهان على أن المعنى هو الأصل ، وأن السجع لا يراد به مطلق التوافق فى الحرف ، وإنما يقصد به التلحين والتنغيم ، لأن تغيير الحرف مع بقاء الوزن لايغير من الرنة الموسيقية[3] .

٤ — وفى الأحاديث النبوية سجع مقصود ، خلافاً لما ظن المسيو ماسينيون[4] ، ومن أمثلته .

« أفشو السلام ، وأطعموا الطعام ، وصِلوا الأرحام ، وصلُّوا بالليل والناس نيام،تدخلوا الجنة بسلام » .

ونقل الغزالى فى باب الاستعاذات المأثورة عن الرسول :

« اللهم إنى أعوذ بك من طمع يهدى إلى طبَع ، ومن طمع فى غير مطمع ، ومن طمع حيث لامطمع . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يسمع ، ونفس لا تشبع . وأعوذ بك من الجوع ، فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة ، فإنها بئست البطانة ، ومن الكسل والبخل والجبن ومن الهرم ومن أن أُردّ إلى أرذل العمر »[5] .

---

(١) موضونة : منسوجة بقضبان من الذهب والجواهر . (٢) سورة الواقعة .

(٣) الباقلانى ينفى ورود السجع فى القرآن ، وقد نقضنا رأيه من الأساس . راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٧٧ — ٨١ (٤) فى ملاحظاته التى أبداها يوم مناقشته الرسالة فى السوربون . (٥) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٣٠

ولنقيد أن السجع لا يطَّرد فى الحديث كما لا يطَّرد فى القرآن ، فهو حلية تقصد ، ولـكنها لا تلتزم ، لما فى التزامها فى قهر المعانى على متابعة الألفاظ .

وقد نجد فى الأحاديث عبارات تجرى مجرى السجع من حيث مراعاة الوزن و إن لم تراع فيها القافية ، كقوله عليه السلام :

« اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعثى ، وترد بها ألفتى ، وتصلح بها دينى ، وتحفظ بها غائبى، وترفع بها شاهدى ، وتزكى بها عملى، وتبيض بها وجهى ، وتلهمنى بها رشدى ، وتعصمنى بها من كل سوء »[1] .

وهذا النوع من « الوزن » قريب من السجع من حيث بناء الجملة ، وسنعود إليه بعد قليل .

٥ — ولو مضينا نستقرئ خطب الصحابة والخلفاء الراشدين لرأينا السجعُ يُلتزم فى كثير من الأحيان . و إلى القارىء خطبة منسوبة إلى علىّ بن أبى طالب :

«دار بالبلاء محفوفة، و بالغدر معروفة ، لا تدوم أحوالها، ولا يسلم نزالها ، أحوال مختلفة، وتارات متصرفة ، العيش فيها مذموم ، والأمان فيها معدوم . و إنما أهلها فيها أغراض مستهدفة : ترميهم بسهامها ، وتفنيهم بحمامها . واُعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل مَن قدمضى قبلكم ممن كان أطول منكم أعماراً ، وأعمر دياراً ، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة ، ورياحهم راكدة ، وأجسادهم بالية ، وديارهم خالية ، وآثارهم عافية : فاُستبدلوا بالقصور المشيدة ، والنمارق الممهدة ، الصخورَ والأحجار المسندة ، والقبور اللاطئة[2] الملحَدة . التى قد بنى بالخراب فِناؤها ، وشيد بالتراب بناؤها ، فمحلها مقترب ، وساكنها مغترب ، بين أهل محلة موحشين، وأهل فراغ متشاغلين ، لايستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران ، على ما بينهم من قرب الجوار ، ودنوّ الديار ، وكيف يكون بينهم تزاور وقد طحنهم بكلكله البلى،وأكلتهم الجنادل والثرى، وكأنْ قدصرتم إلى ماصاروا

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٢٢ (٢) اللاطئة : اللاصقة بالأرض .

إليه ، وأرتهنكم ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المستودَع ، فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور، و بعثرت القبور »[١] .

وقد أراد المسيو ديمومبين (Demombynes) أن يغض من قيمة ما نسب إلى على ابن أبى طالب من خطب ورسائل، استناداً إلى ما شاع منذ أزمان من أن الشريف الرضى هو واضع كتاب (نهج البلاغة) أما نحن فنتحفظ فى هذه المسألة كل التحفظ ؛ لأن الجاحظ يحدثنا أن خطب على وعمر وعثمان كانت محفوظة فى مجموعات[٢] . ومعنى هذا أن خطب علىّ كانت معروفة قبل الشريف الرضى . والذين نسبوا نهج البلاغة إلى الرضى يحتجون بأنه وضعها لأغراض شيعية ، فلم لا نقول من جانبنا بأن تهمة الوضع جاءت لتأييد خصوم الحملات الشيعية ؟[٣] .

ولو فرضنا أن أمثال ما استشهدنا به من خطب علىّ ليس له فإن ذلك لا يمنع أن السجع كان من مزايا ذلك الخطيب ، لأن من يقلد خطيباً يحرص على تمثيل مذهبه فى الأداء والأسلوب . وقد رأينا التوحيدى يخترع حديث السقيفة و يرى من الفن أن ينطق الصحابة بكلام مسجوع ، لأنه كان يعرف لغتهم كذلك ، فيقول على لسان عمر وهو يخاطب أبا عبيدة :

« قل لعلىّ : الرقاد محلمة ، والهوى مقحمة ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، ونبأ ظاهر أو مكتوم ، وأن أكيس الكيس من منح الشارد تألفا ، وقارب البعيد تلطفا ، ووزن كل شيء بميزانه ، ولم يخلط خبره بعيانه ، . . ما هذه الخنزوانة التى فى فراش رأسك ؟ ما هذا الشجا المعترض فى مدارج أنفاسك ؟ ما هذه القذاة التى تغشت ناظرك ؟ وما هذه الوحرة التى أكلت شراسيفك ؟ وما هذا الذى لبست بسببه جلد النمر ، واشتملت عليه بالشحناء والنكر .. الخ »[٤] .

---

(١) نهج البلاغة ص ٤٨١ — ٤٨٣ (٢) البيان ج ١ ص ١٤٧ (٣) الواقع أن اتهام الشريف الرضى بوضع (نهج البلاغة) قديم وقد أشار إليه ابن أبى الحديد فى شرحه ثم أفاض فى نقض ذلك الاتهام . راجع ص ٥٤٦ من المجلد الثانى . (٤) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٢

ومن دقة المحاكاة ما رأينا التوحيدى يحرص عليه فى حديث السقيفة من التسامح فى التزام السجع فى بعض الفقرات ليوافق المنهج الذى عرف فى نظم القرآن والحديث وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين .

٦ — فاذا تخطينا عصر النبوّة وصدر الإسلام إلى العصر الأموى رأينا الخطباء كذلك يسجعون[١] ، ورأينا مثلا هشام بن عبد الملك يقول :

« وإنا لنعرف الحق إذا نزل ، ونكره الإسراف والبخل ، وما نعطى تبذيراً ، وما نمنع تقتيراً . وما نحن إلا خزّان الله فى بلاده، وأمناؤه على عباده، فإن أذن أعطينا ، وإذا منع أبينا ، ولو كان كل قائل يصدق ، وكل سائل يستحق ، ماجبهنا قائلا ، ولا رددنا سائلا[٢] » .

روى هذا الكلام على أنه مرتجل فى الرد على خطيب وفد أهل الحجاز . وفى روايته كذلك دليل على أنهم كانوا يفهمون أن الكلام يقع مسجوعا حين يحتفل به القائلون .

وقد أثر عن الخلفاء والقوّاد كلام مسجوع فى مواطن لا ينتظر فيها تأنق فى التعبير ، كأن يكون الكلام جوابا على سؤال . من ذلك ما روى أن عقال بن شبة دخل على هشام وأراد أن يقبّل يده فقال : لايفعل هذا من العرب إلا هَلُوع ؛ ولا من العجم إلا خَضوع . وقالت امرأة لأبى مسلم : ناولنى يدك أقبلها فقد نذرت . فقال : عليك بالحجر الأسود تصيبين أجراً ، وتقضين نذراً[٣] .

---

(١) ولا ننس أن نشير إلى أن لغة الزهاد والنساك فى العصر الأموى كانت فى الأغلب مسجوعة ، ومن شواهد ذلك قول الحسن البصرى يوصى عمر بن عبد العزيز :

«واذكر ياأمير المؤمنين إذا بعثر مافى القبور، وحصل مافى الصدور... وأنت فى مهل ، قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل ، لاتحكم فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولاتسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، لأنهم لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة ، فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك ، ولا يغرنك الذين ينعمون بمافيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات من دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك » راجع نهاية الأرب ص ٣٨ ج ٦

(٢) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٦٥ (٣) محاضرات الأصفهانى (ج ١ ص ١٤٦)

وكان المسيو مرسيه (Marcais) يظن أن الناس بدأوا يكرهون السجع فى العصر الأموى . وكانت حجته ماحدّث الجاحظ أن معاوية أملى كتابا إلى رجل فقال فيه : « لهو أهون علىّ من ذرة ، أو كلب من كلاب الحرة » ثم قال لكاتبه : « امح من كلاب الحرة . وا كتب : من الكلاب » كأنه كره اتصال الكلام والمزاوجة وما أشبه السجع ، ورأى أنه ليس فى موضعه (١) .

وقد راجعنا المسيو مرسيه فى هذا وأبنّا له أن معاوية تحامى السجع فى هذا الموطن لأنه فنّ يشعر بأن الكاتب هادئ النفس ، وهو لا يصلح لمقام التهديد والوعيد .

والمعروف عن ابن المقفع أنه لا يلتزم السجع ، وبالغ المسيو مرسيه فحدّثنى فى أحد أيام سبتمبر سنة ١٩٢٩ أنه لا يعرفه على الإطلاق ، ولو استقصى أخباره لرآه يذكر أن من البلاغة « ما يكون سجعا وخطبا ، ومنها ما يكون رسائل (٢) » فابن المقفع يقرر أن السجع فن من القول يقابل الشعر والرسائل ولعله يريد به الأمثال ، وإن كان قرنه بالخطب يفهمنا انه يقصد به الخطب المسجوعة . ولاسيما إذا لاحظنا أن الحصرى يذكر أن بشار بن برد كان « سجاعا خطيبا(٣) » وأن المختار بن أبى عبيد كانت له « أسجاع يصنعها ، وألفاظ يبتدعها ، ويزعم أنها تنزل عليه ، وتوحى إليه (٤) » وفى هذه العبارة ما يذكر بأن الإلهامات الدينية ، حتى المفتراة ، كانت تنتظر صورة مسجوعة ، لأن السجع من تقاليد الكهان ، وكان الكهان حملة راية الدين فى عصر الجاهلية .

٧ — ولو حللنا أساليب المشاهير من كتاب العصر الأموى لرأينا كتاباتهم « موزونة » على طريقة السجع ، وإن لم تلتزم فيها القافية ، وانظر قول عبد الحميد بن يحيى :

---

(١) رسائل الجاحظ ص ١٥٥ (٢) ص ٦٤ ج ١ البيان والتبيين — وهذا الذى رواه الجاحظ عن فهم ابن المقفع لقيمة السجع وعده باباً من البلاغة كاف فى الرد على من يشك فى نسب كتاب ابن المقفع بسبب ما يقع فيه من تعمد السجع أحياناً كما فعل مؤلف ضحى الإسلام — ص ٢١٥ ج ١ — حين ارتاب فى أحد كتب ابن المقفع . (٣) زهر الآداب ج ٢ ص ١٢١ — ولنلاحظ أن « سجاعاً » رواها الحصرى بالسين المهملة . ووصف الجاحظ فى الجزء الثالث من البيان ص ٩٦ مسلمة بأنه كان « شجاعاً خطيباً وبارع اللسان جواداً » فأثبت «شجاعاً» بالشين المعجمة . و «سجاعاً» و «شجاعاً» وردتا مقرونتين إلى « خطيباً » ونحن نرجح أن التحريف وقع فى كتاب الجاحظ . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٥١

« ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التى يستخف بها أهل البطالة ويتسرع نحوها ذوو الجهالة ، ويجد فيها أهل الحسد مقالا لعيب يرفعونه ، ولطعن فى حق يجحدونه ، مع مافى ذلك من نقص الرأى ، ودرن العرض ، وهدم الشرف ، وتأثيل الغفلة ، وقوّة طباع السوء الكامنة فى بنى آدم كمون النار فى الحجر الصلد، فاذا قدح لاَح شرره ، ولهب وميضه ، ووقد تضرمه . وليست فى أحد أقوى سطوة، وأظهر توقداً، وأعلى كمونا، وأسرع إليه بالعيب منها إلى من كان فى سنك من أغفال الرجال»(١) .

وفى مثل هذا النثر حرية ظاهرة ، ولكن بناء الجمل مطبوع بطابع السجع فى كثير من الفقرات ورويت لعبد الحميد أسجاع كقوله : « الناس أخياف مختلفون ، وأصناف متباينون ، فنهم علق مضغة لا يباع ، ومنهم غل مظنة لايبتاع »(٢) .

وابن المقفع أكثر كتاب العصر الأموى حرية فى صوغ الجملة ، ولكن يتفق له أحيانا أن يرصع كلامه على منهج الوزن فى السجع فيقول مثلا :

« وليس كل ذى نصيب من اللب بمستوجب أن يسمى فى ذوى الألباب ... فمن رام أن يجعل نفسه لذلك الأسم والوصف أهلا فليأخذ له عتاده ، وليعد له طول أيامه ، وليؤثره على أهوائه ، فإنه قد رام أمراً جسيما لا يصلح على الغفلة ، ولا يدرك بالمعجزة ، ولا يصير على الأثرة » .

وما نسميه الوزن نريد به توافق الفواصل الذى يتحصل به هدوء النفَس عند تلاوة الكلام المرصوف .

٨ — ومما يعيّن ميل الأذواق العربية إلى إيثار السجع غلبة هذا الفن على أكثر ما أثر عن الأعراب . حدث الأصمعى أنه سمع إعرابيا يذكر قومه فقال :

« كانوا إذا اصطفوا تحت القتام ، ومطرت بينهم السهام ، يشربون الحمام . وإذا تصافحوا بالسيوف ، فغرت فاها الحتوف »(٣) .

---

(١) رسائل البلغاء ص ٦٤ (٢) الصداقة والصديق ص ٢٨

(٣) زهر الآداب ج ٤ ص ١٩٠

وعذلت أعرابية أباها فى إتلاف ماله بالجود فقالت :

«حبس المال ، أنفع للعيال ، من بذل الوجه فى السؤال ، فقد قل النوال ، وكثر البخال ، وقد أتلفت الطارف والتلاد ، و بقيت تطلب ما فى أيدى العباد ، ومن لم يحفظ ماينفعه ، أوشك أن يسعى فيما يضره »[(١)] .

وقال بعض الأعراب :

« نالنا وسمىّ [(٢)] ، وخلفه ولىّ[(٣)] ، فالأرض كأنها وشىٌ عبقرىّ ، ثم أتتنا غيوم جراد ، بمناجل حداد ، فخربت البلاد ، وأهلكت العباد ، فسبحان من يهلك القوى الأكول ، بالضعيف المأكول »[(٤)] .

ووعظ أعرابى رجلا وهو يقول :

« و يحك ! إن فلانا و إن ضحك إليك، فإنه يضحك منك ، ولئن أظهر الشفقة عليك ، إن عقاربه لتسرى إليك . فإن لم تتخذه عدوك فى علانيتك ، فلا تجعله صديقا فى سريرتك »[(٥)] .

ودخل أعرابى على خالد بن عبد الله القسرى فقال :

« أصلح الله الأمير ! شيخ كبير ، حدته إليك بارية العظام، ومؤرثة الأسقام ، ومطولة الأعوام ، فذهبت أمواله ، وذعذعت[(٦)] آباله ، وتغيرت أحواله . فإن رأى الأمير أن يجبره بفضله و ينعشه بسجله ، و يرده إلى أهله »[(٧)] .

والسجع فى كلام الأعراب كثير جداً فلا نشغل أنفسنا بالتدليل على كثرته ، ولنذكر أن هناك أحاديث كثيرة وضعت على السنة الأعراب واُهتم الوضاعون بصوغها مسجوعة لتسهل نسبتها إليهم ، وسنعود إليها عندك الكلام عن أبن دريد .

---

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٤٢ (٢) الوسمى : المطر الأول . (٣) الولى : المطر الثانى
(٤) زهر الأدب ج ٤ ص ٢٤٣ (٥) زهر الأدب ج ٣ ص ٢٥٦ (٦) ذعذعت : فرقت
(٧) أمالى القالى ج ٢ ص ٤٩

٩ — وهناك فن من القول التزم فيه السجع على نمط كلام الأعراب وهو وصايا الآباء للأبناء . وهو فن قديم عرفه أهل الجاهلية ، ومن شواهده فى العصر الإسلامى قول عبد الله بن شدّاد :

« أى بنى ! لا تزهدن فى معروف، فان الدهر ذو صروف ، والأيام ذات نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوبا إليه ، وطالب أصبح مطلوبا ما لديه ... وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ... وإن غلبت يوما على المال ، فلا تدع الحيلة على حال : فان الكريم يحتال ، والدنىّ عيال ، وكن أحسن ما تكون فى الظاهر حالا ، أقل ماتكون فى الباطن مالا »[١] .

وقال علقمة بن لبيد لابنه :

« يابنى ! إذا نزعتك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة مانك ، وإن قلت صدق قولك، وإن صلت شدّ صولك ، وإن مددت يدك بفضل مدّها ، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وإن سألته أعطاك ، وإن سكت عنه ابتداك ، وإن نزلت بك إحدى الملمات آساك ، من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك عند الحقائق ، وإن حاول حويلا آمرك[٢] ، وأن تنازعتما منفسا آثرك »[٣] .

١٠ — وزعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع كأن الخطب نوع من القصيد . قال عبد الملك بن مروان وقد دخل عليه العجاج « ياعجاج ! بلغنى أنك لا تقدر على الهجاء . فقال يا أمير المؤمنين ! من قدر على تشييد الأبنية ، أمكنه إخراب الأخبية » .

قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنا عزاً يمنعنا من أن نُظلَم ؛ وإن لنا حلما يمنعنا من أن نَظلم؛ فعلام الهجاء؟ فقال :لكلماتك أشعر من شعرك . فأنّى لك عز يمنعك من أن تُظلَم؟

(١) الأمالى ج ٢ ص ٢٠٥ (٢) آمرك : شاوركِ . (٣) عيون الأخبار ج ٣ ص ٤

www.booksall.net

قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع . قال : فما الحلم الذى يمنعك من أن تظلم ؟ فقال : الأدب المستطرف والطبع التالد [١] .

وروى أن على بن أبى طالب أرسل إلى معاوية بالشام كتابا صحبة صعصعة بن صوحان فسار به حتى أتى دمشق فأتى باب معاوية فقال لآذنه : استأذن لرسول أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، و بالباب جماعة من بنى أمية ، فأخذته النعال والأيدى لقوله « أمير المؤمنين » وكثرت عليه الجلبة ، فاتصل ذلك بمعاوية فأذن له فدخل عليه فقال : السلام عليك يا ابن أبى سفيان.هذا كتاب أمير المؤمنين . فقال معاوية : أما إنه لو كانت الرسل تُقتل فى جاهلية أو إسلام لقتلتك! ثم اعترضه معاوية فى الكلام وأراد أن يستخبره ليعرف طبعا أو تكلفا ،فقال له ممن الرجل ؟ فأجاب : من نزار قال : وما نزار ؟ قال : كان إذا غزا انحوش [٢] ، وإذا انصرف انكمش ،وإذا لقى افترش.قال:فمن أى أولاده أنت؟قال:من ربيعة.قال :وما ربيعة؟ قال : كان يغزو بالخيل ، و يغير بالليل ، ويجود بالنيل . قال: فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أمهر ، قال : وما أمهر ؟ قال : كان إذا طلب أفضى ، وإذا أدرك أرضى ، وإذا آب أنضى . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من جديلة . قال : وما جديلة ؟ قال : كان يطيل النجاد ، ويعد الجياد ، ويجيد الجلاد [٣] . قال: فمن أى ولده أنت ؟ قال من دعمىّ . قال : وما دعمىّ ؟ قال : كان ناراً ساطعا ، وشراً قاطعا ، وخيرا نافعاً . قال فمن أى ولده أنت ؟ قال: من أفصى . قال : وما أفصى ؟ قال : كان ينزل القارات ، و يكثر الغارات ، و يحمى الجارات . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال وما عبد القيس؟قال : أبطال ذادة ، جحاجحة سادة ، صناديد قادة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفصى . قال :

---

(١) الأمالى ج ٢ ص ٤٩ . (٢) انحوش : أسرع ، ومثلها انكمش . (٣) رواية صبح الأعشى تصف جديلة بأنه «كان فى الحرب سيفاً قاطعاً ، وفى المكرمات غيثاً نافعاً ، وفى اللقاء لهباً ساطعاً» وبين رواية صبح الأعشى والأمالى خلاف ملموس ، وهو دليل على التصرف فى أصل هذا الحديث . وقد اعتمدنا على رواية الأمالى ص ٢٣٠ و ٢٣١ ج ٢

وما أفصى ؟ قال: كانت رماحهم مُشرعة ، وقدورهم مترعة وجفانهم مفرغة . قال : فمن أى ولده أنت؟قال : من لُكَيْز. قال : وما لُكَيْز ؟ قال: كان يباشر القتال ، و يعانق الأبطال و يبدّد الأموال . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عجِل ؛ قال وما عجِل؛ قال الليوث الضراغمة ، الملوك القامة ، القروم القشاعمة .قال : فمن أى أى ولده أنت ؟ قال : من كعب. قال : وما كعب ؟ قال : كان يسعر الحرب ، و يجيد الضرب ، و يكشف الكرب . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من مالك ؟ قال : وما مالك ؟ قال : هو الهمام للهمام والقمقام للقمقام .

فقال معاوية رحمه الله ماتركت لهـذا الحى من قريش شيئاً ! قال : بل تركت لهم أكثره وأحبه ! قال : وما تركت لهم؟ قال: تركت لهم الوبر والمدد ، والأبيض والأصفر ، والصفا والمشعر ، والقبة والمفخر ، والسرير والمنبر . والملك الى المحشر .

قال معاوية : أما والله لقد كان يسوءنى أن أراك أسيرا .

فقال صعصعة : وأنا والله لقد كان يسوءنى أن أراك أميرا ! » .

تلك رواية الأمالى أما روايةصبح الأعشى فقصيرة وتختم هكذا بالسؤال عن عبد القيس :

فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال وما كان عبد القيس ؟ قال : كان حسناً أبيض وهاباً ، يقدم لضيفه ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق . يقوم للناس مقام الغيث من السماء(٢) .

ولنلاحظ أن هذا الحوار يشتمل فى سياقه على ثلاث قواف فى كل جواب ، و يطول فى الجواب الأخير لأنه بيت القصيد . ومن الواضح أن هذه الصنعة تعسر على الارتجال ، فمن المرجح أن يكون هذا الحوار لحقه شىء من الترتيب ، ولا سيما إذا تذكرنا أنه منسوب

---

(١) هى كذلك بالغين المعجمة فى الأصل ، وهو خارج على السجع وإن لم يخرج على الموازنة ، ولعل الصواب « مفرعة » بالعين المهملة ، يريد وصف الجفان بالامتلاء . والمادة تسمح بذلك . وليلاحظ القارىء أن (أفصى) ذكر مرتين فى هذه الرواية ، ولعل هناك خطأ فى الوضع .

(٢) صبح الأعشى ص ٢٥٥ ج ١

إلى خطيب كان مضرب المثل فى البيان المطول وهو ابن صوحان ، فلا يبعد أن يكون نظمه نظما جديداً بعد خروجه من قصر معاوية بن أبى سفيان[١] .

وهنا أيضاً لا نحتاج إلى كثير من الشواهد : لأن السجع فى حضرة الخلفاء والأمراء والوزراء كان من الذيوع بحيث لا يحتاج فى إثباته إلى تدليل .

١١ — ومن طريف ماهدانا إليه الاُستقراء أن السجع كان وسيلة من وسائل المجتدين والعفاة ، فهو عندهم فن من القـول كالقصيد يتقربون به إلى قلوب الأغنياء[٢] . وتحت أيدينا شواهد بعضها خشن متوعر ، و بعضها سهل مقبول ، وهى فى جملتها تنبئنا بأن السجع كان يزيد الـكلام رونقا و بهاء ، و ينظم قائله فى سلك أهل البيان .

قال صاحب الأمالى : « حدثنا أبو بكر رحمـه الله . قال أخبرنا أبو حاتم . قال أخبرنا أبو زيد قال : بينا أنا فى المسجد الحرام إذ وقف علينا أعرابى فقال : يامسلمون ! إن الحمد لله والصلاة على نبيه . إنى امرؤ من أهل هـذا الملطاط[٣] الشرقى المواصى[٤] أسياف[٥] تهامة . عكفت[٦] علينا سنون مُحُش[٧] فاجتبت[٨] الذرى ، وهشمت[٩] العرى[١٠] ، وجمعت[١١] النجم[١٢] ، وأعجت[١٣] البَهم ، وهمت[١٤] ، الشحم ، والتحبت

(١) هذا النمط من الأجوبة المسجوعة كثير جدا فما نقله الرواة ، وجزء منه منسوب إلى نساء شهيرات . ويمكن الحكم بأن هذا النوع يمثل أدبا قائما بذاته يجد القارئ مواده متفرقة فى كتب الأخبار والأقاصيص . وفن المقامات الذى ظهر ظهوراً قويا فى القرن الرابع متأثر بهذه الأحاديث ، فالمقامة حديث مطول يرتكز على الحوار ويلتزم فيه السجع ويفترض عند بطل المقامة ذكاء يماثل الذكاء الذى يظهر فى أحاديث الأعراب والوافدين على الخلفاء .

(٢) يؤيد هذا قول أبى العلاء المعرى فى رسالة المنيح : « وقد كان فما مضى قوم جعلوا الرسائل ، كالوسائل ، وتزينوا بالسجع ، تزين المحول بالرجع » راجع فحول البلاغة ص ٢٠٠

(٣) الملطاط : كل شفير نهر أوواد . (٤) المواصى والمواصل واحد ، يقال تواصى النبت إذا اتصل بعضه ببعض . (٥) الأسياف جمع سيف بكسر السين وهو ساحل البحر .

(٦) عكفت : أقامت . (٧) محش جمع محوش وهى التى تمحش الكلأ أى تحرقه .

(٨) اجتبت : اقتلعت من الجب وهو القطع . (٩) هشمت : كسرت. (١٠) العرى: جمع عروة وهى هنا القطعة من الشجر لايزال باقيا على الجدب . (١١) جمشت : احتلقت .

(٢) النجم ما نجم من النبت ولم يستقل على ساق (١٣) أعجت : صيرتها عجايا ، والعجى المهزول من سوء الغذاء . (٤) همت : أذابت .

اللحم[١]، وأحجنت العظم[٢]، وغادرت التراب مورا[٣]، والماء غورا[٤]، والناس أوزاعا[٥]، والنبط قعاعا[٦]، والضهل جزاعا[٧]، والمقاما جعجاعا[٨]، يصبحنا الهاوى[٩]، ويطرقنا العاوى[١٠]، فخرجت لا أتلفع بوصيدة[١١]، ولا أتقوت هبيدة[١٢]، فالبخصات وقعة[١٣]، والركبات زلعة[١٤]، والأطراف قفعة[١٥]، والجسم مسلهم[١٦]، والنظر مدرهم[١٧]، أعشو فأغطش[١٨]، وأضحى فأخفش[١٩]، أسهل ظالعا[٢٠]، وأحزن راكعا[٢١]، فهل من آمر بمير[٢٢]، أو داع بخير؟ وقاكم الله سطوة القادرة، وملكة الكاهرة[٢٣]، وسوء الموارد، وفضوح المصادر»[٢٤].

وهذا النوع من الكلام كثير أيضاً. فلا نشغل أنفسنا بإيراد الشواهد. ولنذكر أننا نفترض أن بديع الزمان اقتبس هذا المنهج فى مقاماته، فإن صاحبه أبا الفتح الاسكندرى يسأل الناس فى المساجد والأسواق على هذا المنوال. وهذه الطريقة فى الاستجداء لا تزال معروفة: ففى مضايف القرى المصرية وأسواقها يشهد الأغنياء أفواجا من السائلين يتوسلون اليهم برقى من الكلام المسجوع: بعضه فى المدح وبعضه فى الدعاء.

ولنقيد أيضاً أن ماروى فى سجع العفاة يرجع إلى بابين: باب تغلب فيه الصنعة حتى لتميل النفس لنسبته إلى صانعى الأخبار والأقاصيص، كالكلمة التى نقلناها آنفا، فإن أغلب الظن أنها من وضع بعض اللغويين.

(١) التحبت اللحم: عرقته عن العظم. (٢) أحجنت العظم عوجته فصيرته كالمحجن. (٣) المور: الذى يذهب ويجىء. (٥) أوزاع: فرق. (٦) النبط الماء الذى يستخرج من البئر أول ماتحفر والقعاع الماء المالح المر. (٧) الضهل القليل من الماء، والجزاع: أشد المياه مرارة. (٨) الجعجاع: الذى لايطمئن من قعد عليه. (٩) الهاوى: الجراد. (١٠) العاوى: الذئب. (١١) الوصيدة: كل منسوج. (١٢) الهبيدة: حب الحنظل. (١٣) البخصات جمع بخصة وهى لحم باطن القدم، والوقعة من قولهم وقع الرجل إذا اشتكى لحم باطن قدمه. (١٤) زلعة: متشققة. (١٥) قفعة: مقفعة وهى التى تقبضت ويبست. (١٦) مسلهم: مدبر. (١٧) المدرهم: الضعيف البصر الذى ضعف بصره من جوع أو مرض (١٨) أعشو: أنظر، فأغطش أى أصير غطشا، والغطش ضعف فى البصر. (١٩) الخفش: فساد فى الجفون. (٢٠) يقول: إذا مشيت فى السهول ظلعت أى غمزت (٢١) أى إذا علا الحزن ركع وكبا لوجهه (٢٢) المير: العطية. (٢٣) القاهر والكاهر واحد، وقرأ بعضهم «فأما اليتيم فلا تكهر» (٢٤) راجع هذه القطعة وشرحها فى الأمالى ج ١ ص ١١٣ — ١١٦ طبع بولاق.

و باب تغلب عليه الفطرة كالأسجاع التى يفيض بها المعتفون حين تقع بينهم و بين من يسألونهم مراجعة أو ملاحاة . من ذلك ما روى أن أعرابياً وقف يسأل فعبث به فتى فقال : ممن أنت ؟ فقال الأعرابى : من صعصعة . فقال الفتى : من أيهم ؟ فقال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكفك هذا القدر من المعرفة : فليس مقامى مقام مجادلة ولا مفاخرة ، وأنا أقول : فإن لم أكن من هاماتهم ، فلست من أعجازهم . فقال الفتى : ما رويت من فضيلتك إلا النقص فى حسبك ، فامتعض الأعرابى لذلك . فجعل الفتى يعتذر و يخلط الهزل والدعابة باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابى : « يا هذا إنك منذ اليوم آذيتنى بمزحك ، وقطعتنى عن مسألتى بكلامك واُعتذارك ، و إنك لتكشف عن جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك . ويحك ! إن الجاهل إن مزح أسخط ، و إن اعتذر أفرط ، و إن حدث أسقط ، و إن قدر تسلط ، و إن عزم على أمر تورّط ، و إن جلس مجلس الوقار تبسط ، أعوذ بالله منك ، ومن حال اضطرّتنى إلى مثلك ! »[1].

ووقف أعرابى على قوم فمنعوه فقال :

« اللهم اشغلنا بذكرك ، وأعذنا من سخطك ، وأولجنا إلى عفوك ، فقد ضنّ خلقك برزقك ، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك ، وآتنا من الدنيا القنعان[2] . و إن كان كثيرها يسخطك ، فلا خير فيما يسخطك »[3].

---

(١) زهر الآداب ص ٢٤٧ و ٢٤٨ ج ١ (٢) القنعان : القناعة .

(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٢٤ — وبمناسبة هذا الدعاء نذكر أن الأعراب رويت لهم دعوات كثيرة مسجوعة ، منها قول أحدهم عشية عرفة : « اللهم إن هذه العشية من عشايا منحاك ، وأحد أيام زلفتك . . . أتتك الضوامر من الفج العميق ، وجابت إليك المهارق من شعب المضيق ترجو ما لا خلف له من وعدك ، ولا مترك له من عظيم أجرك ، أبرزت إليك وجوهها المصونة ، صابرة على لفح السمائم ، وبرد ليل التمائم ، ليدركوا بذلك رضوانك » ثم قال : « إلهى ! إن كنت مددت يدى إليك داعياً ، فطالما كفيتنى ساهياً ، نعمتك تظاهرها على عند الغفلة ، فكيف أيأس منها عند الرجعة . . . فهب لى ، يا رب ، الصلاح فى الولد ، والأمن فى البلد ، وعافنى من شر الحسد ، ومن شر الدهر النكد» راجع الأمالى ص ٢٢٣ ج ٢

ولا يغض من قيمة هذه الأسجاع أن يظن أنها موضوعة ، فقد أشرنا غير مرة إلى أن الواضعين يراعون الذوق المعروف عند اختراع الأحاديث .

وأظرف ما قرأت فى سؤال الأعراب هذه الكلمات :

« أين الوجوه الصِّباح ، والعقول الصحاح ، والألسن الفِصاح ، والأنساب الصِّراح ، والمكارم الرياح ، والصدور الفِساح . تعيذنى من مقامى هذا »(١) .

١٢ — وأصرح من كل ما سلف فى إيثار السجع ما قاله عبد الصمد بن الفضل ابن عيسى الرقاشى وقد سئل: « لِمَ تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى و إقامة الوزن؟» فأجاب : « إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقل خلافى عليك . ولكنى أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والأذن لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد و بقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ، ولا ضاع من الموزون عشره »(١) .

وهو جواب صريح الدلالة على أن الكلام المسجوع كان ينظر إليه نظرة تقدير و إعجاب وأنه خليق بأن يحفظ ويروى ، وأن الكلام المنثور الخالى من الوزن والقافية يراد به فى الأغلب إقناع المخاطبين . أما التفكير فى الحاضرين والغائبين فيوجب كلاماً مصنوعاً يستأهل البقاء ، وكانت الصنعة أظهر ما تكون فى القوافى والأوزان .

وفى هذا الكلام أيضاً دلالة صريحة على أن النثر المرسل لم يحفظ منه إلا قليل . أما النثر المسجوع فحفظ معظمه بفضل الوزن والقافية(٣) . والأمر كذلك ، فيما نظن ، فى سائر اللغات : لأنه يرجع الى طبيعة يتساوى فيها جميع الناس .

---

(١) البيان ص ٢٣٢ ج ٣ (٢) البيان ص ١٥٨ ج ١ — وعبد الصمد هذا من رجال القرن الثانى وله كلام طريف مع شبيب بن شبة يجده القارىء فى الصناعتين (ص ٣٥٠) وسيرد له ذكر فى كلام الجاحظ بعد صفحات من هذا الفصل فى الدفاع عن السجع .

(٣) كلمة الرقاشى تدل على أن النثر الموزون لم يضع عشره ، فالشعر من باب أولى لم يضع منه إلا قليل ، أى أن معظمه كان موجوداً عند أهل القرن الثانى .

ولنشر هنا إلى خطأ وقع فيه صاحب (الريحان والريعان) فيما نقله عنه القلقشندى فى صبح الأعشى — ج ١ ص ٢١٠ — إذ قال : إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون ، إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره » ثم مضى فبين أن المنثور هو الخطب وأن الموزون هو الشعر. وإنما كان هذا خطأ لأنه اعتمد على كلمة الرقاشى وأساء فهمها، فإن كلمة الرقاشى كانت =

١٣ — عرفنا إلى الآن أن السجع كان كثيراً فى الجاهليـة ، وكان يغلب على النثر فى عصر النبوّة ، ثم أخذ سلطانه يضعف قليلا فى العصر الأموى ، و إن حرص عليه القصاص والخطباء وناقلو أحاديث الأعراب ، فلنذكر الآن أنه عاد يسترد قوته فى أواخر القرن الثانى و بدأنا نرى رسائل يكاد يلتزم فيها السجع . كقول كلثوم بن عمرو العتابى فى مخاطبة صديق[(١)] :

« أما بعد — أطال الله بقاءك وجعله يمتد بك إلى رضوانه فى الجنة — فإنك كنت عند روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وكنا نعفيها من النجعة: استتماما لزهرتها ، وشفقة على خضرتها ، وادخاراً لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندى قطعة من سنى يوسف ، واشتد علينا كلبها ، وغابت قطتها ، وكذبتنا غيومها ، وأخلفتنا بروقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فأنتجعتك وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك . مع علمى بأنك موضع الرائد ، وأنك تغطى عين الحاسد . والله أعلم أنى ما أعدك إلا فى حومة الأهل . واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ، ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ، ولم تظهر همته » .

والعتابى لا يقف عند السجع ، بل يكلف أحيانا بالبديع ، وهو أدخل فى الصنعة من السجع ، وانظر قوله لمالك بن طوق :

« أيها الأمير ! إن عشيرك من أحسن عشرتك ، و إن ابن عمك من عمّك غيره ، و إن قريبك من قرب منك نفعه ، و إن أحب الناس إليك ، من كان أخفهم ثقلا عليك »[(٢)] .

١٤ — فإذا جاء القرن الثالث رأينا السجع يظهر فى الكتابة وفى التأليف ، ورأينا أبا العيناء ، مثلا ، يؤلف كتاباً فى ذم أحمد بن الخصيب يحكى فيـه أن جماعة من الفضلاء اجتمعوا فى مجلس وكل منهم يكره ابن الخصيب لما كان فيه من الفدامة والجهالة والتغفل ، فتجاذبوا أطراف الملح فى ذمه فقال أحدهم — وهنا يبدأ الشاهد — : كان جهله غامراً لعقله ، وسفهه قاهراً لحلمه . وقال آخر : لو كان دابة لتقاعس فى عنانه ، وحرن فى ميدانه . وقل

= جوابا على من سأله كيف الكلام المرسل ويؤثر الكلام المسجوع . ولا ننس أن المنثور من ضروب النثر الفنى . فصاحب (الريحان والريعان) على هذا أخطأ مرتين حيث ظن أن المنثور والمزدوج مقصور على كلام الخطباء .

(١) الأمالى ج ٢ ص ١٣٦ (٢) ياقوت ج ٦ ص ٢١٤ وانظر الصناعتين ص ٢٥٢

آخر : كنت إذا وقع لفظه فى سمعى ، أحسست النقصان فى عقلى . وقال بعض كتابه : كنت أرى قلم ابن الخصيب ، يكتب بما لا يصيب ، ولو نطق لنطق بنَوك عجيب[١] .

وأظهر من هـذا فى إقامة الشاهد قول ابن المعتز يمدح سر من رأى ويصف خرابها ويذم بغداد :

« كتبت من بلدة قد أنهض الله سكانها ، وأقعد حيطانها : فشاهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى وخرابها ينشر ، وقد تمزقت بأهلها الديار ، فما يجب فيها حق جوار ، فما لها تصف للعيون الشكوى ، وتشير إلى ذم الدنيا ، على أنها وإن جفيت معشوقة السكنى ، رجية المثوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصباؤها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها أذفر ، ويومها غداة وليلها سحر ، وطعامها هنىء ، وشرابها مرىء ، لا كبلدتكم الوسخة السماء ، الومدة الماء والهواء ، جوها غبار ، وأرضها خبار ، وماؤها طين ، وترابها سرجين ، وحيطانها نزور ، وتشرينها تموز ، فكم فى شمسها من محترق ، وفى ظلها من غرق ، ضيقة الديار ، وسيئة الجوار ، أهلها ذئاب ، وكلامهم سباب ، وسائلهم محروم ، ومالهم مكتوم : لا يجوز إنفاقه ، ولا يحل خناقه . حشوشهم مسابل ، وطرقهم مزابل ، وحيطانهم أخصاص ، وبيوتهم أقفاص ، ولكل مكروه أجل ، وللبقاع دول : والدهر يسير بالمقيم ، ويمزج البؤس بالنعيم »[٢] .

ولابن المعتز من كلمة ثانية يغلب عليها السجع والازدواج :

« لا يزال الإخوان يسافرون فى المودة حتى يبلغوا الشقة ، فإذا بلغوا ألقوا عصا التسيار ، واطمأنت بهم الدار ، وأقبلت وفود النصائح ، وأمنت خبايا الضمائر ، فحلوا عقد التحفظ ، ونزعوا ملابس التخلق » .

وقال من كلمة ثالثة :

«سار فى جيوش عليهم أردية السيوف ، وأقمصة الحديد ، وكأن رماحهم قرون الوعول ،

---

(١) ياقوت ج ٧ ص ٦٩ (٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٤٢

وكأن دروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الأرض بحوافرها ، وتمدّ بالنقع سرادقها ، قد نشرت فى وجوهها غرر كأنها صحائف الرق،وأمسكها تحجيل كأنه أسورة اللجين، وقرّطت عذراً كأنها الشنف ، تتلقف الأعداء أوائله ، ولم تنهض أواخره ، قد صب عليهم وقار الصبر وهبت معهم ريح النصر »[1] .

وفى هذه الشواهد الثلاثة لـكاتب واحد ما يدل على أن التزام السجع لم يغلب غلبة مطلقة ، كما سنرى عند كتاب القرن الرابع ، و إنما هى طلائع لهجوم السجع نراها عند كتاب القرن الثالث من حين إلى حين ، والفنون الأدبية لاتخلق مرة واحدة ، أولا تبعث مرة واحدة ، ولـكنها فى الظهور والانتشار على نحو ماتفعل تباشير الصباح .

١٥ — ومن أظهر الدلائل على ذيوع بدعة السجع فى القرن الثالث مارأيناه من حرص ابن داود على وضع عناوين الفصول مسجوعة فى كتاب الزهرة ، وفى هذا أصدق شاهد على أن السجع عاد فناً يؤلَف و يستطاب . و إلى القارىء نماذج من تلك العناوين :

« من كثرت لحظاته ، دامت حسراته — العقل عند الهوى أسير ، والشوق عليهما أمير — من تداوى بدائه ، لم يصل إلى شفائه — ليس بلبيب ، من لم يصف ما به لطبيب — إذا صح الظفر ، وقعت الغِيَر — التذلل للحبيب ، من شيم الأديب — من طال سروره ، قصرت شهوره — من كان ظريفاً ، فليكن عفيفا — سوء الظن ، من شدة الضن — من مُنع من كثير الوصال ، قنع بقليل النوال — بعد القلوب على قرب المزار ، أشد من بعد الديار من الديار — ما عتب من اغتفر ، ولا أذنب من اعتذر — إذا ظهر الغدر ، سهل الهجر — من راعه الفراق ، ملكه الاشتياق — ماخلق الفراق ، إلا لتعذيب العشاق — من غاب قرينه ، كثر حنينه — من قدم هواه ، قوىَ أساه » .

وأرى فى هذا الشاهد مقنعاً لمن يتوهمون أن التزام السجع نشأ فجأة فى القرن الرابع ، ففى هذا الشاهد وحده دليل على أن من الممكن أن نرى كتاباً مسجوعاً لرجل من كتاب

(١) زهر الآداب ج ١ ص ١٦٥

القرن الثالث بدون أن يكون فى ذلك ما يحملنا على زحزحته إلى حظيرة القرن الرابع ، كما فعل بعض الناس(١) .

ولنقيد هنا أن السجع فى عناوين فصول الكتاب الذى شرعه ابن داود — وقد يكون سُبِق إليه — هو أصل السجع فى عناوين الكتب ، وهو فن يجده المطالع فى العصور التالية ، حتى لنجد عهوداً بأكملها يطرد فيها السجع فى العناوين . ومن أغرب ما رأيته أن كتاب (من غاب عنه المطرب) للثعالبى كتب كاتبه على أصله ما نصه :

« كان ينبغى للمؤلف رحمه الله أن يلحق اسم هذا الكتاب بلفظة وهو أن يقول : كتاب المعرب ، فيمن غاب عنه المطرب » .

وكانت عناوين الرسائل الخاصة توضع أحيانا مسجوعة ، ومن أقربها إلى الفكاهة هذا العنوان :

« إلى المخالف الشاق ، السيىء الأخلاق ، الظاهر النفاق ، محمد ابن إسحاق »(٢) .

وقد سرى هذا الفن إلى عصرنا الحاضر مع ما أفرطنا فى الدعوة إلى ترك السجع : فللأمير شكيب أرسلان كتاب حديث جداً نشره أولاً فى جريدة الشورى واسمه :

« الارتسامات اللطاف ، فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف »(٣) .

---

(١) جاء فى كتاب (ضحى الإسلام) للأستاذ أحمد أمين ما نصه : « ونحن نعلم أن هذا العصر -- عصر الجاحظ — لم يتكلف فيه سجع ، ولم تؤلف فيه كتب مسجوعة كلها ، وإن تكلف فيه سجع ففقرة أو فقرتان ، فأما كتاب كله سجع فهذا ما لا نعرفه فى هذا العصر » راجع ص ٢٢٦ ج ١

ودراستنا لأطوار السجع تقنعنا بأن حكم الأستاذ غير صحيح ، وأنه لا مانع أن توجد فى القرن الثالث مؤلفات مسجوعة ، لأن السجع بدأ يكثر فى هذا القرن حتى فى لغة التأليف كما فى الفقرات التى نقلناها عن أبى العيناء ، ولأن القرن الرابع كثرت فيه المؤلفات المسجوعة ثم شاعت بدعة السجع فى التأليف فى القرن الخامس . ومن المعقول أن يكون لطغيان السجع فى التأليف بواكير ظهرت فى القرن الثالث .

(٢) ياقوت ص ٢٥٢ ج ٦

(٣) وأظرف من هذا ما يصنع المستشرقون فى عناوين ما يطبعون من المصنفات ، فقدسمى فلوجل كتابه فى فهرس الألفاظ القرآنية :

« نجوم الفرقان ، فى أطراف القرآن »

١٦ — وقد حذا حذو ابن داود فى سجع فصول الكتاب مؤلف آخر عاش فى النصف الثانى من القرن الثالث وعاش صدراً من القرن الرابع وهو محمد بن أحمد بن إسحاق المعروف بالوشّاء ، و إلى القارىء نماذج من سجعه فى عناوين الفصول :

« باب النهى عن ممازحة الأخلاء ، والنهى عن مفاكهة الأودّاء — باب الحث على صحبة الإخوان ، والإغراء على مودّة الخلان ، والرغبة فى أهل الصلاح والإيمان — باب ما جاء فى قبح خلف المواعيد ، وما يلحق صاحبه من اللوم والتفنيد — باب الحث على كتمان السر ، والترغيب فى حفظ ما حنت عليه ضلوع الصدر — باب ما سئل عنه أهل الصدق ، من تمام خلات العشق — باب صفة ذم القيان ، ونفوذ حيلتهن فى الفتيان — باب زى الظراف ، فى التكك والنعال والخفاف — باب زيهم المخصوص ، فى الخواتيم والفصوص »[1] .

والقارىء يرى هذا السجع فى العناوين أقل جودة من سجع ابن داود .

وأهم من هذا وأدل على الغرض ما رأينا من إيثار هذا المؤلف للسجع فى كثير من مواد كتاب «الموشى» وفى هذا دليل واضح على أن السجع دخل فى لغة التأليف عند كتاب القرن الثالث . وانظر قوله فى وصف الأديب :

« فحقيق على الأديب أن يخزن لسانه عن نطقه ، ولا يرسله فى غير حقه ، وأن ينطق بعلم ، و ينصت بحلم ، ولا يعجل فى الجواب ، ولا يهجم على الخطاب ، وإن رأى أحداً هو أعلم منه ، نصت لاستماع الفائدة عنه ،وتحذر من الزلل والسقط ، وتحفظ من العيوب والغلط ، ولم يتكلم فيما لا يعلم ، ولم يناظر فيما لا يفهم ، فإنه ر بما أخرجه ذلك إلى الانقطاع والإضطراب ، وكان فيه نقصه عند ذوى الألباب »[2] .

وحدّثنا هذا المؤلف عما كان ينقش على الخواتم والفصوص فرأيناه أسجاعاً فى أسجاع !

فما كان ينقشه أهل الحزم على خواتيمهم :

« القناعة ، خير من الضراعة ـ التقلل ، خير من التذلل ـ السلامة ، خير من الندامة ـ بادر الفرصة ، قبل أن تكون الغصة ـ الهرب ، قبل الطلب ـ الفرار ، قبل الحصار ـ الرجوع ، قبل الوقوع »[3] .

(١) راجع فهرس الموشى .   (٢) الموشى ص ٨   (٣) ص ١٦٣

ومما كان ينقشه أهل الهوى على الفصوص :

« الحين ، خير من البين — القبر ، أفسح من الهجر — الموت ، خير من الفوت — كأس الهجر ، أمر من الصبر — طول الجفاء ، يكدر الصفاء — آفة الحبيب ، نظر الرقيب ـ الهوى ، ثوب الضنى — ذهب الفراق بحيلة العشاق » (١) .

فهذا «الجوّ» من الكلف بالسجع فى الرسائل والمؤلفات وأحاديث الناس كان تمهيداً لماسنراه من التزام السجع فى القرن الرابع. ولا ننس أن أكثر ما كان يكتب فى الغزل والوصف والهجاء وقع فى الأكثر مسجوعاً ، كأن السجع هو الفن الملائم للموضوعات التى كانت فى الأصل مما يتحدث عنه الشعراء . والسجع فيه خواص من الشعر . أظهرها الوزن والتقفية . وإن كان يحتاج إلى رياضة نفسية تبعد بعض البعد عن الرياضة التى يوجبها القريض .

ولا ينبغى أن نستبعد — كما استبعد الأستاذ أحمد أمين ـ أن توجد مؤلفات مسجوعة فى القرن الثالث . فإن عصرنا الحاضر ينكر السجع على المؤلفين أشد الإنكار ، ويراه ضربا من التكلف الممقوت ، ومع هذا وجدت فى عصرنا مؤلفات مسجوعة مثل (صهاريج اللؤلؤ) و (حديث عيسى بن هشام) وأبواب من (ليالى سطيح) ولا يزال عندنا كتاب مطبوعون على السجع . لا يتحامونه إلا كارهين ، ليسايروا الذوق الحديث . ومن هذا يتبين أن الصبغة الفنية التى تغلب فى بعض العصور لا تسود سيادة مطلقة وإنما تعيش بجانبها مذاهب تناقضها بعض المناقضة وترفع رأسها فى غير خوف ولا إشفاق . ولولا ماصنعت الصحافة فى رياضة الكتاب المعاصرين على تجنب السجع والطباق والجناس لبقيت من البديع فنون تسيطر على أكثر الكتاب.

١٧ — ولنأخذ فى محاولة أخرى جزيلة النفع ، وهى درس آراء علماء البيان الذين تكلموا عن السجع ، ففى كلامهم تحديد لأهمية السجع فى البلاغة العربية ؛ ولنبدأ بالجاحظ . وهو كاتب لا يسجع إلا قليلا ، ولكنه يرى السجع من خصائص لغة العرب . وانظر قوله فى الرد على الشعوبية :

---

(١) ص ١٦٤

« ونحن — أبقاك الله ! — إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنثور والأسجاع ، ومن المزدوج ومالا يزدوج [١] ، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهد صدق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب ، والسبك والنحت الذى لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم فى البيان أن يقول مثل ذلك إلا فى اليسير والنبذ القليل» [٢] .

ونراه يخص الأسجاع بأبواب من كتابه (البيان والتبين) فيتخير من بدائعها فرائد بعضها تليد و بعضها طريف ، فيقول :

قال عمر بن ذر : (والله المستعان على ألسنة تصف ، وقلوب تعرف ، وأعمال تخلف) ولما مدح عتيبة بن مرداس عبد الله بن عباس قال : (لا أعطى من يعطى الرحمن ، و يطيع الشيطان ، و يقول البهتان) وفى الحديث المأثور : (يقول العبد : مالى ! و إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو أعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت) ووصف أعرابى رجلا فقال : (صغير القدر ، قصير الشبر ، ضيق الصدر ،لئيم النجر [٣]، عظيم الكبر ، كثير الفخر) وسأل بعض الأمراء رسولا قدم من جهة السند : كيف رأيتم البلاد ؟ فقال : (ماؤها وشل ، ولصها بطل ، وتمرها دقل [٤] ، إن كثر الجند بها جاعوا ، و إن قلوا بها ضاعوا) ونظر رجل من العُبّاد إلى بعض الملوك فقال : (باب جديد ،وموت عتيد، ونزع شديد، وسفر بعيد) وقيل لبعض العرب : أى شئ تمنى وأى شىء أحب إليك ؟ فقال : (لواء منشور ، والجلوس على السرير ، والسلام عليك أيها الأمير !) وقيل لآخر — وصلى ركعتين وأطال فيهما وقد كان

---

(١) المزدوج فى كلام الجاحظ باب مع السجع فإنا نراه فى كتاب البيان يعقد بابا لمزدوج الكلام — ص ٥٨ و٩٥ ج ٢ — يستشهد فيه بأمثال هذه الكلمات : « اللهم علمه الحساب والكتاب ، وقه العذاب » وقال رجل من بنى أسد لشيخ مات ابنه : « اصبر ، أبا أمامة ، فإنه فرط أفرطته ، وخير قدمته ، وذخر ادخرته » فقال مجيباً له : « ولد دفنته ، وثكل تعجلته ، وغيب وعدته » وكان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق فسأله أبوه عنهما فقال : « جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر » .

وسنرى أن علماء البديع لا يشترطون القافية فى الازدواج ، وبهـا يتم السجع ، وإنما يشترطون أن تتفق الكلمات فى الوزن مثل « المستقيم » و « المستبين » .

(٢) ص ١٣ ج ٤ من البيان والتبيين . (٣) النجر : الأصل . (٤) الدقل: أردأ التمر .

أمر بقتله — : أجزعت من الموت ؟ فقال : (إن أجزع فقد أرى كفنا منشوراً ، وسيفاً مشهوراً ، وقبراً محفوراً)[١] .

وعقد الجاحظ فصلا آخر للأسجاع جاء فيه :

ومن الأسجاع قول أيوب بن القِرِّية وقد كان دعى للكلام فحبس عليه القول : (قد طال السمر ، وسقط القمر ، واُشتد المطر ، فماذا ينتظر ؟) فأجابه فتى من عبد القيس . (قد طال الأرق، وسقط الشفق، وكثر اللثق [٢] ، فلينطق من نطق)[٣] .

ولم يقف الجاحظ عند رواية الجيد من الأسجاع ؛ بل أضاف إلى ذلك الدفاع عنها ومناقشة من كرهوها ، فحدّث أنه قيل لعبد الصمد بن الفضل:فقد قيل للذى قال :« يارسول الله ، أرأيت من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهّل ، أليس مثل ذلك يُطّل » فقال رسول الله« أسجع كسجع الجاهلية ؟ » فقال عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا إقامة الوزن لما كان عليه بأس . ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحقّ فتشادق فى كلامه[٤] .

وقال غير عبد الصمد : وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله ؛ صلى الله عليه وسلم . واُستحسنه وأمر به شعراءه . وعامة أصحاب رسول الله قد قالوا شعراً . قليلا كان ذلك أم كثيراً وسمعوا واُستنشدوا . فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز ، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل [٤] .

قال الجاحظ : وكأن الذى كره الأسجاع بعينها — وإن كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة — أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ويدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رِئِيًا من الجن مثل (حاذى جهينة) ومثل (شق) و (سطيح) و (عزى سلمة) وأشباههم كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع . كقوله (والأرض والسماء والعقاب والصقعاء [٥] واقعة [٦] ببقعاء ، لقد نفر المجد بنى العشراء للمجد والسناء) وهذا الباب كثير.

---

(١) البيان ج ١ ص ١٥٧ (٢) اللثق : الندى . (٣) البيان ج ١ ص ١٦٣
(٤) البيان ج ١ ص ١٥٨ (٥) الصقعاء : الشمس . (٦) البقعاء: السنة المجدبة .

ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبدالعزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار . قالوا : فوقع النهى عن ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم . فلما زالت العلة زال التحريم(١) .

ثم قال الجاحظ : وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة فلم ينهوا منهم أحداً . وكان الفضل بن عيسى الرقاشى سجاعاً فى قصصه وكان عمرو بن عبيد وهشام بن حسان وأبان بن أبى عياش يأتون مجلسه(١) .

١٨ — ونستخلص من كلام الجاحظ ثلاث حقائق : الأولى أن السجع عنصر كريم فى بلاغة العرب ، الثانية أن ناساً من أهل القرن الأول والثانى كرهوا السجع لأنه كان يذكّر بأساليب الكهان ، الثالثة أن جمهور الخطباء والقصاص والوعاظ كان يسجع ، وأن الخلفاء لم ينكروا على أحد أن يتكلم بين أيديهم بكلام مسجوع .

ومن الواضح أن شبهة من كرهوا السجع ساقطة : لأن القرآن سجع . وما نظن الرسول تجنب أساليب الكهان ، فإن الكهان لم يخلقوا السجع ، وإنما كان حلية قديمة فى اللغة العربية وكانت قوية الصلاحية لمن يخاطب القلوب . وكذلك انتفع بها القسيسون والكهان فى الجاهلية ، وقبلها القرآن ، وآثرها النبى وأصحابه ، وظلت أثيرة لدى خطباء المساجد إلى اليوم . وهى فى الواقع أساس البلاغة عند رجال الدين .

١٩ — ومن الباحثين الذين فصلوا فى مسألة السجع الخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة »(٢) وقد تكلم عن السجع فى غير موضع ، وحدثنا «أن السجع الواقع موقعه كثيرلمن طلبه»(٣) ونقل نموذجا من سجع الأحنف بن قيس ، وخطّأ الرمانى فى قوله إن السجع عيب والفواصل بلاغة على الاطلاق ، لأن الرمانى إن أراد بالسجع مايكون تابعاً للمعنى وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله ، وإن كان يريد بالسجع ماتقع المعانى تابعة له وهو

---

(١) البيان ج ١ ص ١٥٩ (٢) كتاب مخطوط منه نسختان بدار الكتب المصرية رقم ٤٣٩ و ٤٤٢ بلاغة (٣) سر الفصاحة ص ٩٢

مقصود متكلَّف فذلك عيب ، والفواصل مثله . وكما يعرض التكلف فى السجع عند طلب تماثل الحروف كذلك يعرض فى الفواصل عند طلب تقارب الحروف . وقال :

« أظن أن الذى دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما فى القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبتُهم فى تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروى عن الكهنة وغيرهم . فأما الحقيقة فما ذكرناه : لأنه لافرق بين مشاركة القرآن لغيره من الكلام فى كونه مسجوعاً وبين مشاركة جميعه فى كونه عرضاً وصوتاً وحروفاً وكلاماً وعربياً ومؤلفاً ...ولافرق بين الفواصل التى تتماثل حروفها فى المقاطع و بين السجع . فإن قال قائل : إذا كان عندكم أن السجع محمود فهلاّ ورد القرآن كله مسجوعاً ؟ وما الوجه فى ورود بعضه مسجوعاً و بعضه غير مسجوع ؟ قيل إن القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم وكان الفصيح من كلامهم لايكون كله مسجوعاً لما فى ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع سيما فيما يطول من الكلام . فلم يرد مسجوعاً جرياً به على عرفهم فى الطبقة العالية من كلامهم »[١] .

وأشار الخفاجى إلى جماعة من زعماء الكتاب فى القرن الثانى والثالث فبين أن السجع فيما وقف عليه من كلامهم قليل . « لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الألفاظ فى الفصول والمقاطع إلا فى اليسير من المواضع » .

ومعنى هذا أن الذين لم يلتزموا السجع من كتاب القرن الثانى والثالث كانوا يحرصون على ألوان من الفن فى كتاباتهم . وتلك الألوان الفنية ظاهرة كل الظهور لمن يقرأ آثار أولئك الكتاب .

ولنضف إلى ما أسلفناه من رأى الخفاجى أنه و إن كان يميل إلى إيثار السجع حين يوجبه المعنى والغرض فإنه يكره أن تجعل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد : « لأن فى ذلك تعرّضا للتكرار وميلا إلى التكلف »[١] .

---

(١) ص ٩٤ — ٩٧

٢٠ — ولنوجه نظر القارئ إلى حقيقتين فى كلام الخفاجى . أولاهما حكمه بأن القرآن « أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم » فإن لهذه الحقيقة عندنا أهمية خاصة إذ كانت نؤيد رأينا فى أن القرآن من جنس كلام العرب وعلى أساليبهم ، ولا يمتاز إلا بقوّة المعنى وقوّة الروح . وثانيتهما حكمه بأن الفصيح من كلام العرب لا يكون كله مسجوعاً لما فى ذلك من أمارات التكلف ، فقد رأينا شواهد ذلك فى كلام الرسول وخطب الصحابة والخلفاء والقوّاد والوزراء وأكثر ما رأيناه ينخرط فى سلك قول قطرىّ بن الفجاءة فى وصف الدنيا:

«من أقلّ منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ، ويطيل حزنه ، ويبكى عينه . كم واثق بها قد فجعته ، وذى حلم تنبه إليها قد صرعته وذى احتيال فيها قد خدعته وكم ذى أبهة فيها قد صيرته حقيراً ، وذى نخوة قد ردته ذليلا ، ومن ذى تاج قد كبته لليدين والفم ! سلطانها دول ، وعيشتها رنق ، وعذبها أجاج ، وحلوها صبر ، وغذاؤها سمام ، وأسبابها رمام ، وقطافها سلع ، حيها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها بعرض اهتضام، ملكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجارها محروب ، مع أن وراء ذلك سكرات الموت ، وهو المطّلع ، والوقوف بين يدى الحكم العدل »(١) .

وقول خطيب من آل صوحان يعارض عبد الملك وقد أغلظ القول :

« مهلا يا بنى مروان ! تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتعظون !! أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم ، أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم : اقتدوا بسيرتنا فأنىَّ وكيف ؟ وما الحجة وما المصير إلى الله ؟ أنقتدى بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دولا ، وعبيده خولا ؟ وإن قلتم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره من يغش نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلتم : خذوا الحكمة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العظة ممن سمعتموها ، فعلام ولينا كم أمرنا ، وحكمنا كم فى دمائنا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أنطق منكم باللغات ،

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٢٢٤

وأفصح بالعظات؟ فتخلوا عنها ، وأطلقوا عقالها ، وخلوا سبيلها ، ينتدب اليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شردتموهم فى البلاد ، ومزقتموهم فى كل واد ، بل تثبت فى أيديكم لأنقضاء المدّة ، و بلوغ المهلة ، وعظم المحنة . إن لكل قائم قدراً لا يعدوه ، و يوما لايخطوه وكتابا بعده يتلوه » .

فى هذا الشاهد والذى قبله سجع مقبول جداً ، ولكنه لايلتزم ، و إنما يرد من فقرة إلى فقرة بلا قلق ولا التواء . وقد يكون الشاهدالثانى من وضع بعض العلويين : لأن راويه يذكر أن الخطيب « التُمس فلم يوجد » ومن العسير أن يحفظ كلام ألقاه صاحبه فى فورة غضب وفى مقارعة ملك ثم لاذ بالفرار . ولكن القارئ مرجوّ أن يتذكر ما أسلفناه من قبل من أن الرواة كانوا — حين يضعون كلاماً — يجتهدون فى محاكاة لغة العصور التى ينسبون اليها مايضعون من خطب وأحاديث (١) .

٢١ — وممن دافعوا عن السجع أبو هلال العسكرى فى كتاب (الصناعتين) ويمتاز أبو هلال فى كتابه بالحرص على ردّ أصول المحسنات البديعية إلى القرآن ، ومن أمثلة ذلك ماروا من الشواهد فى باب (التجنيس) من مثل :

« وأسلمت مع سليمان — فأقم وجهك للدين القيم — تتقلب فيه القلوب والأبصار — والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق — وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض — ثم كلى من كل الثمرات (٢) » وعرض أبو هلال للشاهد الذى عرض له الرقاشى فيما نقل الجاحظ . ووقف عند قوله عليه السلام « أسجعاً كسجع الكهان » وعلل الاستنكار بما عرف فى سجع الكهان من التكلف. ثم قال: « ولو كرهه عليه الصلاة والسلام لكونه

---

(١) ومن السجع المقبول عند خطباء القرن الأول قول زياد :

« ان للشيطان طيفاً ، وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت سريرته ، صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه ، رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه ، سبق بدنه بسفك دمه ، إنى أنذر ، ثم لا أنظر ، وأحذر ، ثم لاأعذر » صبح الأعشى ص ٢٢٠ ج ١

(٢) ص ٢٥١

سجعاً لقال : أسجعاً ؟ ثم سكت . وكيف يذمه ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه »[1] .

ويحدثنا أبو هلال أن النبىّ كان ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها كقوله : « أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة » وإنما أراد : ملمة . وقوله عليه السلام : « ارجعن مأزورات ، غير مأجورات » وإنما أراد : موزورات ، من الوزر ، فقال (مأزورات) لمكان (مأجورات) قصداً للتوازن وصحة التسجيع[2] .

٢٢ — وشدّد أبو هلال فى الحرص على الازدواج . وهو فن ظاهر فى كلام من لا يلتزمون السجع من أقطاب القرن الأوّل والثانى والثالث، ومن أمثلة الازدواج قول بعضهم: «أصبر على حر اللقاء ، ومضض النزال ، وشدة المصاع[3] ، ومداومة المراس» .

(١) ص ٢٠٠ (٢) الموازنة التى عنى بها أبو هلال كانت مما عرض له الحريرى فى (درة الغواص) وكلام الحريرى هناك أظهر الدلالة على أن الموازنة فن أصيل فى العربية تغير به الكلمات من وضع إلى وضع رغبة فى الوزن : فهم يقولون (حدث وقدم) فيضمون الدال من (حدث) لتوازن (قدم) فإذا أفردوها فتحوا الدال ، ويقولون « الغدايا والعشايا » إذا قرنوا بينهما فإن أفردوا (الغدايا) ردوها إلى أصلها فقالوا الغدوات . ويقولون (هنأنى الشيء ومرأنى) فإن أفردوا (مرأنى) قالوا:أمرأنى . وقالوا : «فعلت به ما ساءه وناءه» فإن أفردوا قالوا (أناءه) وقالوا فى الشجاع الذى لا يزيل مكانه « أهيس أليس » والأصل فى الأهيس الأهوس لاشتقاقه من هاس يهوس إذا دق فعدلوا به إلى الياء ليوافق لفظه (أليس) وفى الحديث من « حفنا أو رفنا فليقصر » أى من خدمنا أو أطعمنا ، وكان الأصل أحفنا فأتبع حفنا رفنا . ويروى فى قضايا على أنه قضى فى القارصة والقامصة والواقصة بالدية ، والواقصة هى الموقوصة وإنما قال الواقصة للموازنة مع القارصة والقامصة . وأنشد الفراء :

* هناك أخبية ولاج أبوبة *

فجمع باب على أبوبة ليزاوج لفظه أخبية (راجع درة الغواص ص ٣٠و٣١ وراجع الشرح ص ٧٩ ــ ٨٣) والازدواج كثير الوقوع فى اللغة العربية وله شواهد عديدة ، فلنكتف بهذه الأمثلة فى الدلالة على ذوق العرب فى هندسة الألفاظ والتعابير . ومن طريف التوافق أن اللغة العامية تساير اللغة الفصيحة فى هذا الباب . سمعت مرة تلميذة تقول وهى تتململ : « النجوح زى السقوط » نقلت « النجاح » إلى « النجوح » ليوازن « السقوط » وأحسب أن ذلك جرى على لسانها بدون أن تقصد إليه ، لأن حاسة الموازنة بين الكلمات تأصلت عند الناطقين بالضاد . (٣) المصاع : القتال .

فلو قال : (على حر الحرب ، ومضض المنازلة) لبطل رونق التوازن [١] .

وقد يتفق السجع والازدواج مثل :

« حتى صار تعريضك تصريحاً ، وتمريضك تصحيحاً » .

فالتعريض والتمريض سجع ، والتصحيح سجع آخر : فهو سجع فى سجع.

قال أبو هلال : وهذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع [١] .

ويحدثنا أبو هلال أن العرب فتنوا بالسجع حتى استعملوه فى منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوما فى منظوم وسجعاً فى سجع ، وهذا النوع من الشعر اسمه «المرصّع» ومن أمثلته :

فتور القيـــام قطيع الـكلا م يفتر عن ذى غروب خصر

وقول كعب بن زهير :

* هيفاء مقبـــلةً عجـزاء مدبرةً *

وقول أوس :

* جُشّا حناجرها عُلما مشافرها *

وقول النمر :

* من صَوْب سارية عُلّت بغادية *

وقول تأبط شراً :

حمـال ألوية شهاد أندية هباط أودية جوّاب آفاق

وقول الأفوه الأزدى :

* سود غدائرها بُلج محاجرها *

وقول عامر بن الطفيل :

ولـكننى أحمى حماها ، وأتقى أذاها ، وأرمى من رماها بمنكب

وقد ارتقى أبوهلال بالترصيع إلى العصر الجاهلى وصدر الإسلام فدلنا على أنه فن قديم انتُزِع من النثر وأضيف إلى الشعر رغبة فى وفرة الأنغام والألحان .

(١) ص ٢٠٣ (٢) ص ٢٠٢

٢٣ — ومن أظهر من اهتموا بالكلام عن السجع صاحب (المثل السائر) وهو يمتاز عمن سبقوه إلى الدفاع عن السجع بأنه عاش فى عصر كان أهله جميعا يسجعون[١]. وهو يتهم خصوم السجع بالعجز عن أن يأتوا به «وإلا فلو كان مذموماً لما ورد فى القرآن الكريم فإنه قد أتى منه بالكثير حتى أنه ليؤتى بالسورة جميعها مسجوعة كسورة الرحمن وسورة القمر وغيرها. وبالجملة فلم تخل منه سورة من السور»[٢]، ثم سرد أمثلة من الآيات المسجوعة. وانتقل إلى الحديث فذكر شواهد من سجع الرسول. ثم تحدث عن نهى النبى عن سجع الكهان بمثل ما تحدث به صاحب الصناعتين ثم قال :

« واعلم أن الأصل فى السجع إنما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء ، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد ، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعاً ، ومامن أحد منهم ولو شدا شيئاً يسيراً من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة ويأتى بها فى كلام ، بل ينبغى أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة ، لا غثة ولا باردة . وأعنى بقولى غثة وباردة أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن ، ولا إلى تركيبها ومايشترط له من الحسن ، وهو فى الذى يأتى به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الكرسف أو ينظم عقداً من الخزف الملوّن . وهذا مقام تزل عنه الأقدام ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا . فإذا صفى الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر : وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ ، فإنه يجىء عند ذلك كظاهر مموه ، على باطن مشوه ، ويكون مثله كغمد من ذهب ، على نصل من خشب »[٣] .

(١) ولد ابن الأثير سنة ٥٥٨ وتوفى سنة ٦٣٧ وهو نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى . وأبناء الأثير ثلاثة : مؤرخ ومحدث وأديب ، وهو صاحب المثل السائر .

(٢) المثل السائر ص ١١٤

(٣) المثل السائر ص ١١٦ و ١١٧

وقد افترض ابن الأثير أن يقال : إذ كان السجع أعلى درجات الكلام فكان ينبغى أن يأتى القرآن كله مسجوعاً ، وليس الأمر كذلك ، بل منه المسجوع وغير المسجوع .

وقال فى الجواب : « إن أكثر القرآن مسجوع حتى إن السورة لتأتى كلها مسجوعة وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار . والسجع لا يؤاتى فى كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار، فترك استعماله فى جميع القرآن لهذا السبب » ثم قال : « وههنا وجه آخر هو أقوى من الأول ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع ، و إنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود غير المسجوع معجزاً أبلغ فى باب الإعجاز »[1] .

ومعنى هذا أن السجع بعض أسرار الإعجاز عند ابن الأثير .

٢٤ — وحدثنا فى مكان آخر أنه تصفح القرآن فوجده «لا يكاد يخرج منه شىء عن السجع والموازنة[2] » والواقع أن الموازنة كثيرة فى القرآن ، مثل : (وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم) فالمستبين والمستقيم على وزن واحد . وكذلك قوله تعالى فى سورة مريم عليها السلام : (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً ، كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضداً، ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ، فلا تعجل عليهم إنما نعدّ لهم عدًّا) . فالعز والضد على وزن واحد ، والأزّ والعدّ على وزن واحد .

٢٥ — وكلام ابن الأثير يؤيد ما انتهينا إليه فى أثناء هذا الفصل من أن بناء الجملة لم يخرج فى جوهره عن السجع طوال القرن الثانى والثالث . والقرن الثالث يسميه صديقنا الأستاذ أحمد أمين (عصر الجاحظ) و ينفى عنه السجع ، مع أن الجاحظ يسجع ولا يخرج من السجع إلا إلى الأزدواج ، ومن كلامه فى وصف إفك الحاسد :

---

(١) ص ١١٨ هذا وقد عرض ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة إلى مناقشة من أنكروا السجع على على بن أبى طالب وبين أن كثيرا من كلام الرسول مسجوع، وعرض لسجع الكهان بكلام قريب مما ذكره الجاحظ والعسكرى وابن الأثير — راجع شرح ابن أبى الحديد ج ١ ص ٤١ و ٤٢ ثم راجع ما كتبه عن الموازنة فى ص ٢٧٣ من المجلد الأول .

(٢) المثل السائر ص ١٧٠

« و إن كان المحسود عالماً قال مبتدع ، ولرأيه متبع،حاطب ليل ، وتابع نيل ، لايدرى ماحمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل ، وقد أقبل وجوه الناس إليه ، وما أحمقهم إذ مالوا عليه ، فقبحه الله من عالم ما أعظم بليته ، وأقل رعيته،وأسوأ طعمته . و إن كان المحسود ذا دين قال : متصنع يغزو ليوصى إليه ، و يحج ليثنى عليه ، و يقرأ فى المسجد ليزوجه جاره ابنته ، و يحضر الجنائز لتعرف شهرته»[١] .

وأنظر قوله فى مقدمة الجزء الثانى من البيان والتبيين :

« ولـكنا أحببنا أن نصدّر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين ، والسلف المتقدمين ، والجلة من التابعين،الذين كانوا مصابيح الظلام،وقادة هذا الأنام ، وملح الأرض، وحلى الدنيا ، والنجوم لايضل معها السارى ، والمنار الذى يرجع إليه الباغى ، والحزب الذى كثّر الله به القليل ، وأعز به الذليل ، وزاد الـكثير فى عدده ، والعزيز فى ارتفاع قدره . وهم الذين جلَوا بكلامهم الأبصار العليلة ،وشحذوا بمنطقهم الأذهان الـكليلة ، فنبهوا القلوب من رقدتها ، ونقلوها من سوء عادتها ، وشفوها من داء القسوة ، وغباوة الغفلة ، وداووا من العى الفاضح ، ونهجوا الطريق الواضح ... الخ » .

وهذا يدلنا على أن الجاحظ لايهمل السجع إلا حين يسوقه اطراد القول فى لغة التأليف ولـكنه حين يحتفل بالـكتابة يسجع و يزاوج ، كأن لغة النثر الفنى تنتظر ملاكا من السجع والإزدواج[٢] .

٢٦ — وقدامة[٣] بن جعفر — من كتاب القرن الرابع — يرى السجع من أوصاف البلاغة ، على شرط أن يكون فى موضعه وعند سماح القريحة به،وأن يكون فى بعض الكلام

---

(١) معنى هذا أن حضور الجنائز للشهرة كان من عيوب الناس فى القرن الثالث وهو اليوم لايزال كذلك ! ! (٢) للجاحظ رسائل إخوانية التزم فيها السجع ستجد منها نموذجا عند الـكلام على الغزل المنثور فى الباب الثانى من هذا الـكتاب ص ١٥١ ج ١

(٣) اهتم قدامة بالـكلام عن النقد والبلاغة وألف فى ذلك (نقد النثر) و (نقد الشعر) و (جواهر الألفاظ) ومن أحكامه التى تهمنا ما قضى به من أن المنثور (ليس يخلو من أن يكون خطابة أو ترسلا أو احتجاجا أو حديثا) ص ٨٢ من (نقد النثر) . وهذا يؤيد ما أشرنا إليه من قبل فى هامش صفحة ٢٣

لافى جميعه « فإن السجع فى الكلام كمثل القافية فى الشعر ، و إن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه ، فأما أن يلزمه الإنسان فى جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهلٌ من فاعله ، وعىٌ من قائله » وتحدث قدامة عما كره الرسول من السجع بمثل ماتحدث الجاحظ وأبو هلال وابن الأثير ثم قال : « و إنما أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه أتى بكلامه مسجوعاً كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان . وأما إذا أتى به فى بعض كلامه ومنطقه ولم تكن القوافى مختلفة متكلفة ، ولا متمحلة مستكرهة ، وكان ذلك على سجية الإنسان وطبعه ، فهو غير منكر ولا مكروه ، بل قد أتى فى الحديث : « و يقول العبد مالى مالى ، وماله من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى . أو أعطى فأمضى » .

ثم عرض لأهل عصره ، وهم رجال القرن الرابع ، فقال :

ومما تكلم به أهل هذا العصر فأتى بالسجع فيه محموداً ، ومن الاستكراه بعيداً ، قوله : « والحمد لله الذى ذخر المنة لك ، وأخرها حتى كانت منك ، فلم يسبقك أحد إلى الإحسان إلىّ ، ولم يحاضك أحد فى الإنعام علىّ ، ولم تتقسم الأيادى شكرى فهو لك عتيد ، ولم تخلق المنن وجهى فهو لك مصون جديد ، ولم يزل ذمامى مضاعاً حتى رعيته ، وحقى مبخوساً حتى قضينته ، ورفعت من ناظرى بعد انخفاضه ، و بسطت من أملى بعد انقباضه ، فليس أعتد يداً إلا لك ، ولا منة إلا منك ، ولا أوجه رغبتى إلا إليك ، ولا أتكل فى أمرى بعد الله إلا عليك ، فصانك الله عن شكر من سواه ، كما صنتنى عن شكر من سواك » .

ثم قال :

ومما يباين هذا مما وضع فى غير موضعه قول صديق لنا فى فصل من رقعة له : « ورزقنى عدلك ، وصرف عنى خذلك » . وقوله أيضا : « ولقد جلّت عندى بابن فلان المصيبة ، وعظمت الشعيبة » . وقول آخر فى صدر رقعة : «أطال الله بقاءك لى خصيصاً ، ولأودائك فيصوصاً » — إلى أن قال :

ولو كان لزوم السجع فى القول والإغراب فيه وفى اللفظ هما البلاغة لكان الله عز وجل أولى باستعمالها فى كلامه الذى هو أفضل الكلام ، ولكان النبى صلى الله عليه وسلم والأئمة

المهديون قد أُستعملوها ولزموا سبيلها وسلكوا طريقهما . فأما ولسنا واجدين فيما فى أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا فى المواضع اليسيرة فهم أولى بأن يقتدى بهم ، ويحتذى بمنهاجهم ممن قد نبت فى هــــذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعاؤها ، ولا من الخطابة إلا التحلى باسمها(١) .

٢٧ — وقد لاحظنا أن الـكتاب كانوا يسجعون ويزاوجون حين يترجمون ، لأن الترجمة القوية لونٌ من الإنشاء توجب ما يوجبه الـكلام المبتكر من قوة الوصف ، والتأنق فى الصوغ . وقد حدثوا أنه قيل لبزرجمهر : أى الاكتساب أفضل ؟ فقال : « العلم والأدب كنزان لاينفدان ، وسراجان لايطفآن ، وحلتان لاتبليان ، من نالهما أصاب الرشاد ، وعرف طريق المعاد ، وعاش رفيعاً بين العباد(١) » وقيل لـكسرى : أى الملوك أفضل ؟ فأجاب : « الذى إذا حاورته وجدته عليما ، وإذا خبرته وجدته حكيما ، وإذا غضب كان حليما ، وإذا ظفر كان كريما وإذا استُمنِح منح جسيما ، وإذا وعد وفى وإن كان الوعد عظيما، وإذا شكى إليه وجد رحيما »(٢) .

فهذه فِقَر نقلت عن الفارسية وروعى فيها السجع ، وسنرى فى الجزء الثانى من هــــذا الـكتاب(٣) فقرات منقولة عن اليونانية وروعى فيها السجع، ونقلت صحائف من لغات أخرى وروعى فيها السجع ، من ذلك ماحدث ابن قتيبة بسنده أن يوسف عليه السلام لما لبث فى السجن سبع سنين أرسل الله عز وجل إليه جبريل عليه السلام بالبشارة بخروجه فقال له : أتعرفنى أيها الصديق ؟ قال له يوسف : أى صورة طاهرة وروحاً طيباً لا يشبه أرواح الخاطئين . قال جبريل : أنا الروح الأمين ، ورسول رب العالمين . قال يوسف: فما أدخلك مداخل المذنبين ، وأنت سيد المرسلين ، ورأس المقربين؟ قال جبريل : أوَلم تعلم أيها الصديق أن الله يطهر البيوت بطهر النبيين ، وأن البقعة التى يحلون بها هى أطهر الأرضين ، وأنه قد

---

(١) راجع ص ٩٣ — (٩٥ من كتاب نقد النثر) .
(٢) زهر الآداب ص ١٨٩ ج ٢ (٣) ص ١١٧ و ١١٨

طهر بك السجن وما حوله يا ابن الطاهرين ! قال يوسف : كيف تشبهنى بالصالحين وتسمينى بأسماء الصِّديقين ، وتعدّنى مع آبائى المخلصين ،وأنا أسيرٌ بين هؤلاء المجرمين ؟ قال جبريل: لم يكْلم قلبك الجزع ، ولم يغير خلقك البلاء ، ولم يتعاظمك السجن ، ولم تطأ فراش سيدك ، ولم ينسك بلاء الدنيا بلاء الآخرة ، ولم تنسك نفسك أباك ، ولا أبوك ربك ، وهذا الزمان الذى يفك الله به عنوّك ، ويعتق به رقك ، ويبين للناس فيه حكمتك ، ويصدق رؤياك وينصفك ممن ظلمك ، ويجمع إليك أحبتك»(١) .

ولسنا نريد أن نثبت أن كل ماترجم روعى فيه السجع والأزدواج ،لا ، ولكنا نقول إن فريقا من المترجمين جرى على الطبع المكتسب بطول الألفة فى مذاهب الإنشاء فسجع وزاوج فيما نقل إلى العربية من اللغات الأجنبية . وفى هذا تأييد لما حاولنا إثباته فى هذا الفصل من غلبة السجع والازدواج على سواد المنشئين .

٢٨ — أما بعد فقد أسهبنا فى هذا الفصل إسهاباً نخشى أن ينتهى إلى الإملال · ولكنه فصلٌ ضرورىٌ جداً فى بناء هذا الكتاب . ذلك بأن السجع صار خصيصة أساسية عند كتاب القرن الرابع ، ومن الناس من ظن أنه كان كذلك لأن كتاب ذلك العهد أسرفوا فى انتهاب المحسنات اللفظية من اللغة الفارسية ، فأردنا أن نثبت أن السجع كان حلية أصيلة فى اللغة العربية ، وأنه أخذ أطواراً مختلفة حتى وصل إلى القرن الرابع .

وسنرى بعد قليل أن السر فى إقبال كتاب القرن الرابع على السجع يرجع إلى حرصهم على انتهاب طرائق الشعراء فى المعانى والأساليب .

ونعيذ القارئ أن يتوهم أننا كتبنا هذا الفصل للدعوة إلى إيثار السجع . لا، فنحن نرى السجع قيداً يعطل حركة الفكر والعقل فى كثير من الأحيان ، ونراه يبعد لغة العرب من أن تصير لغةً مدنيةً تعبر عن جميع الشئون فى طلاقة وحرية ، بحيث لايصدها سجع ، ولا يحدها ازدواج . وسيرى المتأمل حين يجاوز القرن الرابع — الذى سلم فيه السجع من آصار التكلف

(١) عيون الأخبار ص ٢٧٦ ج ٢

المقوت — أن لغة الرسائل والتأليف وقعت تحت نيرٍ من السجع ثقيل، حتى وجدنا السجع يلتزم فى موضوعات بعيدة عن الأدب . وكان الأدب هو الذى يوحى بالتأنق والافتنان .

وإذا كان كتاب العصر الحاضر قد انصرفوا انصرافاً تاماً عن السجع فإن ذلك منشؤه أنهم ملُّوا هذا الزخرف ، وضجروا منه ، ورأوه علامة على فقر الكاتب وعجزه عن الظفر بالحلية الجوهرية : حلية المعنى الرائع والغرض النبيل .

ولا ينس القارئ أننا نؤدى فى هذه الدراسة مهمة المؤرخ . فليس من شأننا أن نقبّح أو نحسّن فناً من طرائق البيان ، وإنما نرسم العهود الأدبية رسما واضحا قد يظهر عليه التشيع فى بعض الأحيان ، وما بنا أن نتشيع ، ولكن الحرص على إتقان الصورة التاريخية قد يظهرنا متشيعين من حيث لا نريد .

ونحن فى العصر الحاضر نهرب من السجع والمزاوجة عامدين، حتى فى المواطن التى يفرض فيها المعنى أن نسجع أو نزاوج ، وليس خطؤنا فى هذا بأقل من خطأ من يجنون على المعنى بالتزام السجع . ولكل عصر آفته : فالتأنق المُغرِب آفة ، والتحرر المسرف آفة ، والصواب أن تكون السيادة للمعنى وأن يكون له السلطان المطلق فى فرض ما توجبه الألوان النفسية من مختلف الصور والأساليب[1] .

---

(١) من أجمل ما قرأنا فى الدفاع عن السجع قول ابن أبى الحديد فى الرد على من يرون السجع بابا من التكلف : « المذموم هو التكلف الذى تظهر سماجته وثقله للسامعين ، فأما التكلف المستحسن فأى عيب فيه ؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لابد فيه من تكلف إقامة الوزن، وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك » راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢ ج ١

وفى هذا المعنى قال شوقى طيب الله ثراه :

« كل موضع للشعر الرصين محل السجع ، وكل قرار لموسيقاه قرار ذلك السجع ، فإنما يوضع السجع النابغ فيما يصلح مواضع للشعر الرصين : من حكمة تخترع ، أو مثل يضرب ، أو وصف يساق ، وربما وشيت به الطوال من رسائل الأدب الخالص ، ورصعت به القصار من فقر البيان المحض . وقد ظلم العربية رجال قبحوا السجع وعدوه عيباً فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه يوضع عنوانا لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشواً فى رسائل السياسة ، أو ثرثرة فى المقالات العلمية . فيانشء العربية إن لغتكم سرية مثرية ولن يضيرها عائب ينكر حلاوة الفواصل فى الكتاب الكريم ، ولاسجع الحمام فى الحديث الشريف ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح » (أسواق الذهب ص ١٠٩) .

الباب الثاني

خصائص النثر الفني

في القرن الرابع

١ - خصائص نثرية

١ — نريد أن نبين فى هذا الباب بعض خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع ، ونحب مع هذا أن نوجه نظر القارئ إلى أنه من المتعذر أن نطمئن الى أن هناك خصائص يتفرد بها ذلك العصر ، فقد رأى القارئ كيف تطوّرت الفنون النثرية من عهد النبوّة إلى العهد الذى ندرسه فى هذا الكتاب ، ورأى كذلك أننا موقنون بأن النثر لعهد النبوّة نفسه لم يخلق خلقاً ، وإنما نشأ وتطوّر فى عدّة أجيال .

٢ — وكل ما يمكن الاطمئنان إليه فى تقدير الخصائص النثرية لهذا العهد هو بروز العناصر الفنية التى ظهرت تباشيرها منذ القرن الأوّل ، فليس فى القرن الرابع خصائص جديدة كل الجدة ، ولكن فيه خصائص كانت تلمح عند كتاب القرن الأول والثانى والثالث ، ثم ظهرت واضحة قوية على أقلام الفحول المبدعين أمثال ابن العميد والخوارزمى وبديع الزمان .

٣ — وأولى هذه الخصائص إيثار البديع ، فقد كان الكتاب السابقون يميلون إلى المحسنات البديعية ولكن فى غير إسراف ، فلما جاء كتاب القرن الرابع قصدوا إليها قصداً ، وأسرفوا فى توشية الكتابة بفنون التورية والموازنة والمطابقة والجناس .

وآية ذلك أن مؤلفى البلاغة فى القرن الثالث ما كانوا يحرصون كل الحرص على المحسنات اللفظية ، بل كانوا يلمون بها إلمامة خفيفة ، فلما جاء مؤلفو البلاغة فى القرن الرابع حرصوا عليها أشد الحرص حتى استطاع أحدهم أن يقول :

وقد ألف للألفاظ غير كتاب فقيل : « أصلح الفاسد ، وضم النشر ، وسدّ الثلم ، وأسا الكلم » فوزن أصلح الفاسد مخالف لوزن ضم النشر ، وكذلك سدّ وأسا . ولو قيل : «أصلح

الفاسد ، وألف الشارد ، وأصلح ما فسد ، وقوم ... قيل « صلح فاسده ، ورجع شارده » لـكان فى استقامة الوزن واتساق الـ... ن من تباين اللفظ وتنافى المعنى والسجع [1] .

٤ — و يمكن تحديد ما اختص به النثر فى القرن الرابع بالصفات الآتية :

أو"لا — التزام السجع فى جميع الرسائل ، حتى الرسائل المطو"لة التى يراد بها تقييد مناظرة أو شرح مسألة كالذى وقع فيما كتبه بديع الزمان الهمذانى عن المناظرة التى كانت بينه و بين أبى بكر الخوارزمى [2] ، وكالرسالة التى كتبها الخوارزمى إلى الشيعة بنيسابور [3] . وكان الـكتاب قبل ذلك يسجعون ولـكنهم لم يكونوا يلتزمون السجع فى جميع الموضوعات ومن كتاب هذا العصر من جانب التزام السجع كالشريف الرضى وأبى حيان التوحيدى ، ولـكنهم كانوا يعودون إليه من حين إلى حين .

ثانيا — الحرص على تضمين الرسائل أطايب الشعر ومختار الأمثال . فمن الـكتاب من يبدأ رسالته ببيت أو بيتين يتقدم بهما كلامه كما كان يفتتح الأولون رسائلهم بحمد الله والصلاة على نبيه ومنهم من يختتم الرسائل بالشعر كما كان يختتمها المقدمون بعبارة « والسلام على من اتبع الهدى » أو « والسلام عليكم ورحمـــة الله » وهم مع ذلك يتخيرون من الأشعار والأمثال ما يحلون به تضاعيف الرسائل ، يذكرون اسم الشاعر تارة و يغفلونه أخرى ، والخوارزمىّ يحرص على تعيين اسم الشاعر وان كان لا يلتزم ذلك

وفى رسائل البديع الهمذانى رسالة رصعها بالشعر لم أجد لها نظيرا عند غيره إذ يقول :

« أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاه :

« كما طرب النشوان مالت به الخمر »

ومن الارتياح للقائه :

« كما انتفض العصفور بلله القطر »

---

(١) راجع مقدمة جواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر .

(٢) راجع رسائل بديع الزمان ص ٣٨ (٣) راجع رسائل الخوارزمى ص ١٢٥

ومن الامتزاج بولائه :

« كما التقت الصهباء والبارد العذب »

ومن الابتهاج بمرآه :

« كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب »[1]

وهذا النمط جميل ، ويدل فوق جماله على معرفة الكاتب بأسرار الشعر البليغ ، ولكن الكتاب لم يلتزموه بالرغم من إسرافهم فى الصنعة لأنه متعب يضطر الكاتب إلى الإكثار من البحث عن الشطرات المناسبة ، خصوصاً إذا راعى القافية كما زاوج البديع بين الراء والباء.

ثالثا — ألف كتاب القرن الرابع الكتابة فى بعض الموضوعات التى كانت خاصة بالشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف وذلك لأنهم نقلوا إلى النثر محاسن الشعر من الاستعارة والتشبيه والخيال . والنثر إذا أخذ خصائص الشعر أصبح أقدر منه على الوصف لخلوه من قيد الوزن والقافية وكذلك أصبح النثر فى القرن الرابع أداة لتقييد الخواطر النفسية ، والملاحظات الفنية بحيث يرى القارىء من جمال الصنعة ودقة الأسلوب ما يغنيه عن التفكير فى قصائد الشعراء الذين سبقهم هؤلاء الكتاب إلى تصيد ما يقضى به العقل ، أو يوحى به القلب ، أو يشير إليه الخيال .

ولو بحثنا فى الشعر العربى عن قصيدة فى الهجاء لما وجدنا ما يساوى ما قاله البديع الهمذانى فى ذم أحد القضاة :

« وهذا الحيرىّ رجل سفلة طلب الرياسة بغير تحصيل آلاتها ، وأعجله حصول الأمنية عن تمحل أدواتها :

والكلب أحسن حالةً ... وهو النهاية فى الخساسهْ

ممن تصدّر للرّيا ... سة قبل إبان الرياسهْ

فولى المظالم وهو لا يعلم أسرارها ، وحمل الأمانة وهو لا يعلم مقدارها ، والأمانة عند الفاسق ، خفيفة المحمل على العاتق تشفق منها الجبال ، وتحملها الجهال ، فقبحه الله من

(١) رسائل البديع ص ٢٨

حاكم لا شاهد أعدل عنده من السلة والجام ، يدلى بهما إلى الحكام ، ولا مزكى أصدق من الصُّفر ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أحب اليه من غمزات الخصوم ، على الكيس المختوم ، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيئة الذيل ، وحمال الليل ، ولا كفيل أعز عليه من المنديل والطبق ، فى وقتى الغسق والفلق ، ولا حكومة أبغض اليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس . ثم الويل للفقير إذا ظلم ، فمايغنيه موقف الحكم إلا بالقتل من الظلم ، ولا يجيره مجلس القضاء ، إلا بالنار من الرمضاء . وأقسم لو أن اليتيم وقع بين أنياب الأسود ، بل الحيات السود ، لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا القاضى وأقاربه ، وما ظن القاضى بقوم يحملون الأمانة على متونهم ، ويأكلون النار فى بطونهم ، حتى تغلظ قصَراتهم من مال اليتامى ، وتسمن أكفالهم من مال الأيامى ؟ وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور ، وعطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من الكسوة والقوت ؟ وما قولك فى رجل يعادى الله فى الفلس ، ويبيع بالثمن البخس ، وفى حاكم يبرز فى ظاهر أهل السمت ، وباطن أصحاب السبت ، فعله الظلم البحت ، وأكله الحرام السحت ؟ وما رأيك فى سوس لا يقع إلا فى صوف الأيتام ، وجراد لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لاينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردىّ لا يغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟ وما زلت أبغض حال القضاة طبعا وجِبلة ، حتى أبغضتهم ديناً وملة ، وألعنهم دربة ، حتى لعنتهم قربة ، بما شاهدت من هذا الحيرىّ وقاسيت ، وعانيت من خبطه وخطبه ما عانيت »

وهذه الرسالة ليست إلا قصيدة منثورة . وهذا النمط من الكلام لم يكن كثير الوقوع قبل القرن الرابع ، وهو أسلوب من أساليب الهجاء يكثر فى نثر بديع همذان .

ومن أطرف ما كتبه رسالته التى بعث بها إلى شاب كتب إليه بعد أن عزل عن ولاية حسنة يستميل فؤاده ، وهى رسالة مشهورة عارضها كثير من الكتاب ، وأنظر كيف يقول :

« وردت رقعتك — أطال الله بقاءك ! — فأعرتها طرف التعزز ، ومددت إليها يد التقزز ، وجمعت عنها ذيل التحرز ، فلم تند على كبدى ، ولم تحظ بناظرى و يدى ، وخطبت من مودتى ما لم أجدك لها كفؤا ، وطلبت من عشرتى ما لم أرك لها رضى ؛ وقلت : هذا الذى رفع عنا أجفان طرفه ، وشال بشعرات أنفه ، وتاه بحسن قده ، وزها بورد خده ، ولم يسقنا من نوئه ، ولم نسر بضوئه . والآن إذ نسخ الدهر آية حسنه ، وأقام مائد غصنه ، وفثأ غرب عُجبه ، وكف زهو زهره ، واُنتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله ، وأكسفت باله ، ومسخت جماله ، وغيرت حاله ، وكدرت شرعته ، جاء يستقى من جرفنا جرفا ، و يغرف من طيبنا غرفا ، فمهلا يا أبا الفضل مهلا .

أرغبت فينا إذ عـــلا ك الشعر فى خد قحل
وخرجت عن حدّ الظبا ء وصرت فى حدّ الإبل
الآن تطلــب عشرتى عد للعـــــداوة يا خجل

وتناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرا ، وتلحظنا شزرا ، وتجالس من حضر ، ونسترق إليك النظر ، ونهتز لــكلامك ، ونهش لسلامك .

ومن لك بالعين التى كان مدةً إليك بها فى سالف الدهر يُنْظَرُ

أم كنت تمايل ، والأعضاء تتزايل ، وتتغانج ، والأجساد تتفالج ، وتتلفت ، والأكباد تتفتت ، وتخطر وترفل ، والوجد بنا يعــلو و يسفل ، وتدبر وتقبل ، فتمنى وتخبل ، وتصد وتعرض ، فتضنى وتمرض ،

وتبسم عن ألمى كأن منورا تخلل حرّ الرمل غض له ندى

فأقصر الآن ، فإنه سوق كسد ، ومتاع فسد ، ودولة عرضت ، وأيام انقضت ،

وعهـــد نَفاق مضى وخطب كســـاد نزل
وخدّ كأن لم يكن وخـــط كأن لم يزل

ويوم صار أمس ، وحسرة بقيت فى النفس ، وثغر غاض ماؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف ، وتمايل لايعجب ، وتثنّ لا يطرب ، ومقلة لا تجرح ألحاظها ، وشفة لا تفتن ألفاظها . فحتام تدل و إلام ؟ ولم نحتمل وعلام ؟ وآن أن تذعن الآن ! وقد بلغنى ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد العشاء فى الغبيق ، وتشبيه يفتضح عند ذوى البصر ، و إفنائك لتلك الشعرات حفاً وحصاً ، و إشباعك لها نتفاً وقصاً ، وسيكفينا الدهر مؤونة الإنكار عليك ، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته إليك ! فأما ما أستأذنت رأيى فيه من الاختلاف إلى مجلسى فما أقل نشاطى لك ، وأضيق بساطى عنك ، وأشبع قلبى منك ، وأشد أستغنائى عن حضورك ! فإن حضرت فأنت كغاش نروض عليه الحلم ، ونتعلم به الصبر ، ونتكلف فيه الاحتمال ، ونغضى منه الجفن على قذى ، ونطوى منه الصدر على أذى ، ونجعله للعيون تأديباً ، وللقلوب تأنيباً .

« مالك يا أبا الفضل تعتاض من الرغبة عنا رغبة فينا ، ومن ذلك التدلل علينا تذللا لنا ومن ذلك التعالى تبصبصاً ، ومن ذلك التغالى ترخصاً ، وما بال الدهر أبدلك من التزايد تنقصاً ، ومن التسحب على الإخوان تقمصاً ؟ ! ولئن أعتضت عن ذلك الذهاب رجوعا ، لقد أعتضنا عن هذا النزاع نزوعا ، فأنا برحلك وجانبك ، ملق حبلك على غاربك ، لا أوثر قربك ولا أنده سربك ، ولو أحببت أن أوجعك لقلت :

ما يفعل الله باليهودِ ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاهُ ما يفعل الشعر بالخدود(١)

رابعا — عدم التقيد بصيغة خاصة فى بداية الكتب ، فقد كان القدماء يحرصون على الأبتداء بحمد الله والصلاة على نبيه ،بعد عبارة من فلان إلى فلان التى كثر ورودها فى القرن الأول،ولكن كتاب هذا العصر أخذوا يجرون على فطرتهم فى تخير البدايات،فمنهم من يبتدئ

(١) رسائل الزمان ص ٨٤ ، ٨٨ وقد عارضها عبد الوهاب بن حزم برسالة طريفة (الذخيرة ص ٦٦ ج ١)

ببيت من الشعر(١) أو بحكمة مأثورة أو مثل معروف ، أو قصة صغيرة(٢) ، ثم يدخل فى الموضوع . ومنهم من يكتب فى الموضوع مباشرة من غير أن يتقدمه بشىء ، وهم فى ذلك كله يجرون على خطة مقبولة ، ولا يراعون القواعد إلا إذا خاطبوا الوزراء أو الأمراء أو الملوك ، فعند ذلك يبدءون بالعبارات المملوءة بالمجاملة والرفق كقول البديع فى بداية خطاب كتبه إلى الوزير أبى نصر الميكالى :

« قد عرف الشيخ الجليل أسامى بعبوديته ، ولو عرفت مكاناً بعد العبودية لبلغته معه »(٣) .

وبديع الزمان بالرغم مما درج عليه من البساطة فى بداية الكتب يبالغ فى مخاطبة الرؤساء مبالغة ملموسة تظهر فى الجمل الدعائية التى يختص بها من يكتب إليهم ، وكذلك أبو بكر الخوارزمى ، والصابى ، وابن عباد . ومن أمثلة ذلك ما كتبه ابن العميد إلى عضد الدولة يهنئه بولدين :

« أطال الله بقاء الأمير الأجل عضد الدولة — دام عزه وتأييده ، وعلوه وتمهيده ، وبسطته وتوطيده ، وظاهر له من كل خير مزيده »(٤) .

على أنه لا تزال بقية من البدء بحمد الله والصلاة على نبيه تجرى فى رسائل الخوارزمى يجدها القارىء فى عدة مواطن كقوله يخاطب ابن عباد :

« كتابى إلى الوزير وأنا على بعد الدار سالم فى جملته ، مستظهر على الإمام بدولته ، والحمد لله على سلامى فى سلامته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعترته »(٥) .

وكذلك قوله فى كتابه إلى كاتب خوارزمشاه :

« كتابى وأنا بين محنة قد أدبرت ، ونعمة قد أقبلت ، وولىّ قد ملك ، وعدوّ قد هلك والحمد لله الذى ابتلى ثم أبلى فأنعم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الأكرمين »(٦) .

---

(١) راجع رسائل الخوارزمى .
(٢) انظر ص ١٢٢ من رسائل بديع الزمان .
(٣) رسائل البديع ص ٣٤٤
(٤) زهر الآداب ج ٤ ص ١٨٠
(٥) رسائل الخوارزمى ص ١٥٢
(٦) رسائل الخوارزمى ص ٢٠١

وهذه الفقرات ليست بداية خالصة بحمد الله والصلاة على نبيه ، و إنما هى عبارات أُريدَ بها مراعاة التقاليد الدينية .

أما ختام الرسائل فقد درج أكثرهم فى الأغلب على الاكتفاء بعبارة «والسلام» وهى اختصار لكلمة « والسلام عليكم ورحمة الله » التى كانت تختتم بها الرسائل غالباً فى القرن الأول .

٥ — ونعيد ما قلناه من أن هذه الخواص التى امتازت بها الكتابة فى القرن الرابع لم تنشأ فى يوم وليلة حتى صارت من سمات هذا القرن ، و إنما هى صفات نثرية تطورت على مدى القرون التى سبقت هذا القرن ثم ظهرت فيه ظهوراً قوياً لأن كتابه أرادوا متعمدين أن تكون لهم شخصية فنية تظهر فى تجسيم ما كان أسلافهم يشيرون إليه من أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية ، فالسجع مثلا لم يخلق فى القرن الرابع و إنما هو حلية قديمة التزمها كتاب هذا العصر ، وكذلك تضمين الرسائل أبياتاً من الشعر ليس بجديد ، فقد وجد منه شىء فى خطاب عثمان بن عفان الذى كتبه إلى على يستنجد به ، وفى بعض خطب على بن أبى طالب أبيات من الشعر وردت لتأييد ما كان يقوله فى مدافعة خصومه. وأنا أرتاب فى صحة خطاب عثمان ، ولكنه مع ذلك دليل على أنه كان مفهوما أن تضمين النثر شواهد من الشعر كان من التقاليد التى درج عليها المتقدمون ، ومثل هذا يقال فى أخذ النثر لبعض أغراض الشعر ، فقد كانت للمتقدمين جولات فنية فى النثر لا تقل فى طرافة موضوعاتها ورقة حواشيها عن الشعر ، ولكن كتاب القرن الرابع ظهروا فى هذه الناحية ظهوراً جعلها من خواصهم من حيث الغرض والأسلوب .

٢ — السجع والازدواج

١ — بيّنا فى فصل سلف أطوار السجع فى النثر الفنى ، ورأى القارئ كيف كان كتاب القرن الأول والثانى والثالث يتنقلون بين لونين من الصياغة الفنية : هما السجع والأزدواج . فلنذكر الآن أن التزام السجع صار من خصائص النثر الفنى فى القرن الرابع، وأن كتابه لا يتحررون من السجع إلا إلى فن قريب منه هو الأزدواج ، ولم يخرج من كتاب هذا العصر إلى الحرية فى الصياغة الفنية إلا عدد قليل .

٢ — وكتاب هذا العصر ينقسمون إلى ثلاث طوائف : طائفة تلتزم السجع التزاما مطلقاً ولا تخرج عنه إلا فى قليل من الأحيان، ومن أشهر هذه الطائفة بديع الزمان والخوارزمى والثعالبى [1] والصابى والميكالى وابن عباد وابن دريد وابن نباته وابن وشمكير . وطائفة تؤثر الأزدواج وتسجع من حين إلى حين، وعلى رأسهم ابن العميد والتوحيدى والآمدى والرضىّ والباقلانى والعسكرى والحاتمى وابن شُهيد . وطائفة تؤثر الحرّية فى الصياغة الفنية فلا تسجع ولا تزاوج إلا قليلا ، ومن هؤلاء ابن مسكويه والمرزبانى وابن فارس والجرجانى والأصفهانى والتنوخى وأحمد بن يوسف المصرى .

٣ — والطائفة الأولى لا تترك السجع فى جد ولا هزل . وقد رأيت أن أفتح رسائل بديع الزمان وأن أنقل منها شيئاً بدون بحث ولا تخير ، فلما فتح الكتاب على هـذه الحال رأيت الكاتب يقول :

« عافاك الله ! مثَل الانسان ، فى الإحسان ، مثَل الأشجار ، فى الإثمار ، سبيلُ من أتى بالحسنة ، أن يرفه إلى السنة . وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدى ، وهما فؤادى

---

(١) ومع ذلك رأينا للثعالبى صفحات فى كتاب (ثمار القلوب) تمثل النثر المرسل أجمل تمثيل حتى كدنا نحسبه لرجل آخر غير مؤلف اليتيمة وسحر البلاغة ، وقد تعذب لغة الثعالبى وتسلس فى ذلك الكتاب فتذكرنا بالمطمع الممتنع من أساليب البيان .

و يدى ، أما الفؤاد فيعلق بالوفود ، وأما اليد فتولع بالجود ، ولكن هذا الخلق النفيس ، لايساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ، ليس يحمله الغريم ، ولا قرابة بين الأدب ، والذهب ... والأدب لايمكن سرده فى قصعة ، ولاصرفه فى ثمن سلعة، ولى مع الأدب نادرة، جهدت فى هذه الأيام بالطباخ ، أن يطبخ لونا من جيمية الشماخ ، فلم يفعل ، وبالقصاب ، أن يسمع أدب الكتاب ، فلم يقبل ، وأحتيج فى البيت، إلى شىء من الزيت ، فأنشدت شيئاً من شعر الكميت ، ألفا ومائتى بيت ، فلم يغن ، ولو وقعت أرجوزة العجاج ، فى توابل السكباج ، ماعدمتها عندى ، ولكن ليست تقع ، فما أصنع ؟ فإن كنت تحسب أختلافك إلىّ ، إفضالا علىّ ، فراحتى ، أن لاتطرق ساحتى ، وفرجى ، أن لاتجى ، والسلام»[(١)] .

ولأفعل مثل هذا مع الخوارزمى . ولقد فتحت ديوان رسائله عفواً فرأيته يقول :

« فأما الآن ، وقد كان ما كان ، فإنى أرى للشيخ أن يلبس للدهر ثوباً من الصبر ثخيناً، ويولى حوادثه ركناً من التماسك ركيناً، وأن تجده الأيام حراً ، وأن تصيبه الحوادث إذا ذاقه مرًّا ، وأن يدارى مع ذلك سلطانه ، ويصغر بلسانه إساءته ويكبر إحسانه ، ويروض لسانه فى الخلوة على شكره ، لئلا يجمع به فى الجلوة إلى غيره ، فإنما أيام المحنة موج من تطاطا له تخطاه ، ومن وقف على طريقه أرداه ، ومن قابل أيام الإدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال فى أيام كرها هزمته،ومن طالب السلطان بالنصفة طلب عسيراً ، ومن حاسب على قليل من العنت لقى كثيراً»[(٢)] .

٤ — ومما يؤيد إيثار هذا الفريق للسجع أن نرى المؤلفين منهم يهتمون بجمع ما يجرى من الفقرات المسجوعة مجرى الأمثال،وقد صنع هذا الثعالبى غيرمرة فى كتابه (يتيمة الدهر) فاختار مثلا للصاحب بن عباد :

« من نبت لحمه على الحرام ، لم يحصده غير الحسام — من لم يهزه يسير الإشارة ، لم ينفعه كثير العبارة — الشمس قد تغيب ثم تشرق،والروض قد يذبل ثم يورق — الضمائر الصحاح،

(١) رسائل بديع الزمان ص ٢٢١ و ٢٢٢ وقد كتبت هذه الوقعة إلى « مستميح عاوده مراراً » .

(٢) رسائل الخوارزمى ص ٩٨

أبلغ من الألسنة الفصاح — متن السيف لين ، ولكن حده خشن ، ومتن الحية ألين ، ولكن نابها أخشن — عقد المنن فى الرقاب ، لايبلغ إلا بركوب الصعاب — بعض الحلم مذلة ، و بعض الاستقامة مزلة — إنجاز الوعد ، من دلائل المجد . واعتراض المطل ، من أمارات البخل ، وتأخير الإسعاف ، من قرائن الإخلاف — بعض الوعد كنقع الشراب و بعضه كلمع السراب — وقد يبلغ الكلام ، حيث تقصر السهام — ربما كان الإمساك عن الإطالة . أبلغ فى الإبانة والدلالة — إن نفع القول الجميل ، و إلا نفع السيف الصقيل — تلقى الإحسان بالجحود ، تعريض النعم للشرود — قد يقوى الضعيف ، و يصحو النزيف ، و يستقيم المائد ، و يستيقظ الهاجد — قد يصلى البرىء بالسقيم ، و يؤخذ البرّ بالأثيم — ما كل طالب حق يعطاه ولا كل شائم مزن يسقاه »[١] .

٥ — و إذا نظرنا فى نثر ابن العميد وجدنا الحرية غالبة عليه ، ولكنا نراه يلتزم السجع أحياناً ، كأن يقول :

«أنا أشكو إليك — جعلنى الله فداك ! — دهراً خؤوناً غدوراً ، وزمانا خدوعا غروراً ، لايمنح مايمنح إلا ريث ماينتزع ، ولا يبقى فيما يهب إلا ريث مايرتجع ، يبدو خيره لمعا ثم ينقطع ، و يحلو ماؤه جُرعا ثم يمتنع ، وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ، أن يشفع مايبرمه بقرب انتقاض ، و يهدى لما يبسطه وشك انقباض ، وكنا نلبسه على ماشرط ، و إن حاف منه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستنيم بقصده وظلمه ، ونعقد من أسباب المسرة أن لا يجىء محذوره مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتى مكروهه صرفا بلا مزاج . ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ... الخ»[٢] .

٦ — والتوحيدى يمزج بين السجع والمزاوجة — كما كان يفعل الجاحظ الذى ارتضاه إماما فى حياته العقلية والأدبية — ولنذكر مثالا من نثره الذى يعد من أبلغ النماذج فى اللغة

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٨٧ و ٨٨ (٢) ص ٢٤٤ ج ٢ من زهر الآداب .

العربية ، وليكن ما كتبه فى سبب القبض على أبى الفتح بن العميد فإنه من أروع آيات البيان [(١)] :

« لما مات ركن الدولة سنة ٣٦٦ اجتمع ذو الكفايتين أبو الفتح وعلى بن كامه أحد أمراء الديلم والأعيان ، وتعاهدا وتواثقا وتحالفا و بذل كل واحد منهما الإخلاص لصاحبه فى المودة فى السر والعلانية ، والذب والتوقير ، عند الصغير والكبير ، واجتهدا فى الأيمان الغامسة والعقود الموثقة ، ودبرا أمر الجيش ، ووعدا الأولياء وردا النافر ، وركبا الخطر الحاضر ، وعانقا الخطب العاقر ، و باشر كل ذلك أبوالفتح خاصة بجد من نفسه ، وصريمة من رأيه ، وجودة فكره ، وصحة نيته ، وتوفيق ر به ، فلما ورد مؤيد الدولة الرى من أصبهان وصادف الأمر متسقاً ، ولحق كل فتق مرتتقاً ، بما تقدم من الحزم فيه ، ونفذ من الرأى الصائب عنده ، أنكر الزيادة الموجبة للجند فكرهها ، ودمدم بذكرها ، فقال له أبو الفتح : بها نظمت لك الملك وحفظت لك الدولة ، وصنت الحريم ، فإن خالفتْ هذه الزيادة هواك فأسقطها : فاليد الطولى لك ، وكان ابن عباد قد ورد وخطبه رطب ، وتنوره بارد ، وأمره غير نافذ ، هذا فى الظاهر ، فأما فى الباطن فكان يخلو بصاحبه و يوثّبه على أبى الفتح بما يجد السبيل إليه من الطعن والقدح فأحس بذلك ابن العميد فألب الأولياء على ابن عباد حتى كثر الشغْب ، وعظم الخطب ، وهم بقتله ، وقال للأمير : ليس من حق كفايتى فى الدولة وقد انتكث حبلها وقويت أطماع المفسدين فيها ، أن أُسام الخسف ، والأحرار لا يصبرون

(١) آثرنا أن نقدم هذا الشاهد على طوله لأنه مثال للبلاغة القوية التى تمثل ضغائن الرجال وأحقادهم أبشع تمثيل ، وفى الشاهد تظهر براعة الكاتب فى سرد الحوادث بطريقة أخاذة تبدو طبيعية ، على حين يلمس الناقد فيها آثار الصنعة الخفيفة والتكلف المدفون . وفى احتفال التوحيدى بهذه الصورة دليل على أنه كان يجتهد فى مكافحة خصومه عن طريق سرد التاريخ ، فإن لم يتبين القارئ خطر ما فى هذا الشاهد من الدسائس فليقرأ ما كتبناه عن التوحيدى والصاحب فى باب « الرسائل والعهود » بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

وأبو الفتح بن العميد هو ابن الكاتب المبدع أبى الفضل بن العميد ، وكان شاباً أديباً ناصع البيان ، ولكنه لم يرزق ما رزق أبوه من أصالة الرأى ورجاحة العقل ، وكان طيشه من شر ما قاسى أبوه من هموم الحياة .

راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ١٩٩ — ٢٠١

على نظرات الذل ، وغمزات الهوان . فقال له فى الجواب : كلامك مسموع ، ورضاك متبوع فما الذى يبرد فورتك عنه ؟ قال ينصرف إلى أصفهان موفوراً ، فوالله لو طالبته منصفاً برفع الحساب لما نظر فيه ليعرقن جبينه ، ولئن أحس الأولياء ، الذين أصطنعهم بمالى وأفضالى ، بكلامه فى أمرى ، وسعيه فى فساد حالى ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق إذا خطف ، ومن المزن إذا نطف . فقال له : لا مخالف لرأيك ، والنظر لك ، والزمام بيدك . وتلطف ابن عباد فى خلال ذلك لأبى الفتح وقال له : أنا أتظلم منك إليك ، وأتحمل بك عليك ، وهذا الأستيحاش سهل الزوال : إذا تألفت الشارد من حلمك ، وعطفت على الشائع من كرمك ، ولّنى ديوان الانشاء واستخدمنى فيه ، ورتبنى بين يديك ، وأحضرنى بين أمرك ونهيك ، وسمنى برضاك ، فإنى صنيعة والدك ، واتخذنى بهذا صنيعة لك ، وليس يجمل أن تكرّ على مابنى ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه . ومتى أجبتنى إلى هذا ، وآمنتنى ، فانى أكون خادمك بحضرتك ، وكاتبا يطلب الزلفة عندك ، فى صغير أمرك وكبيره ، وفى هذا إطفاء النائرة [1] التى قد ثارت بسوء ظنك وتصديقك أعدائى علىّ ، فقال فى الجواب : والله لا تجاورنى فى بلد السرير ، و بحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ، ولا يكون لك أذن علىّ ، ولا عين عندى ، وليس لك منى رضى إلا بالعود إلى مكانك من أصفهان والسلو عما تحدّث به نفسك . فخرج ابن عباد من الرى ، على صورة قبيحة متنكراً بالليل ، وذلك أنه خاف الفتك والغيلة ، و بلغ أصفهان وألقى عصاه بها ، ونفسه تغلى ، وصدره يفور ، والخوف شامل ، والوسواس غالب . وهمّ أبو الفتح بإنفاذ من يطالبه ، و يؤذيه و يهينه ، و يعسفه ، فأحس هو بالأمر . فحدّثنى أبو النجم قال : عمل على ركوب المفازة إلى نيسابور ما ضاق عطنه ، واختلف على نفسه ظنه ، و إنه لفى هذا وما أشبهه حتى بلغهم أن خراسان قد أزمعت الدلوف إليهم وتشاورت فى الإطلال عليهم . فقال الأمير لأبى الفتح : ما الرأى وقد نمى إلينا ما تعلم من طمع خراسان فى هذه الدولة ، بعد موت ركن الدولة ؟ فقال أبو الفتح:ليس الرأى إلىّ ولا إليك ، ولا الهم علىّ ولا عليك ،ههنا من

---

(١) النائرة : العداوة والشحناء .

يقول لك أنت خليفتى و يقول لى أنت كاتب خليفتى . يدبر هذا بالمال والرجال وهو الملك عضد الدولة أخوك ، قال فاكتب إليه وأشعره ، وأشع ماقد منينا به وأشهره ،وسله يداوى هذا الداء . فكتب أبوالفتح وتلطف فصدر فى الجواب ، إن هذا لأمر عجاب ، رجل مات وخلف مالا ، وله أبن ، فلم يحمل إليه من إرثه شيء زويا عنه ، واستئثاراً دونه ، ثم يخاطب بأن يغرم شيئا آخر من عنده ، قد كسبه بجهده ، وجمعه بسعيه وكدحه ، هذا والله حديث لم نسمع بمثله ، ولئن أستفتى الفقهاء فى هذا لم يكن عندهم منه بتة إلا التعجب والأستطراف ورحمة هذا الوارث المظلوم من وجهين أحدهما أنه حرم ماله بحق الإرث ، والآخر أنه يطالب بإخراج ما ليس عليه ، و إن شاء حاكمت كل من سام هذا إلى من يرضى به . فلما سمع مؤيد الدولة هذا ، قال لأبى الفتح : ما ترى ؟ قال قد قلت ، وليس لى قول سواه ، هذا الرجل هو الملك والمدبر ، والمال كله ماله ، والبلاد بلاده ، والجند جنده ، والكل له ، والاسم والجلالة عنده ، وليس ههنا إرث قد زوى عنه ، ولا مال أستؤثر به دونه ، والنادرة لا وجه لها فى أمر الجد ، وفيما لا تعلق له باللعب . أما خراسان فكانت منذ عشرين سنة تطالبنا بالمال ، وتهددنا بالمسير والحرب ، و نحن مرة نحارب ، ومرة نسالم ، وفى خلال ذلك نفرق المال بعد المال ، على وجوه مختلفة ، فأحسب أن ركن الدولة حى باق ، هل كان له إلا أن يدبر بماله ورجاله ، وذخائره وكنوزه ، أفليس هذا الحكم لازما ، لمن قام مقامه ، وجلس مجلسه ، وألقى إليه زمام الملك ، وأصدر عنه كل رأى ؟ وهل علينا إلا الخدمة ، والنصرة ، والمناصحة ، وكل ماسهل وصعب كما كان عليه ذلك بالأمس ، من جهة الماضى ، فقال مؤيد الدولة : إن الخطب فى هذا أراه يطول ، والكلام يتردد ، والمناظرة تربو ، والفريضة تعول ، والفرصة تفوت ، والعدو يستمكن ، وأرى فى الوقت أن نذكر وجها للمال ، حتى نحتج به ، ثم نستمد فى الثانى منه ، ونرضى الجند فى الحال ، ونتحزم فى الأمر ، ونظهر المرارة والشكيمة ، بالاهتمام والإستعداد . حتى يطير الخبر إلى خراسان بجدنا واجتهادنا ، وحزمنا واعتمادنا ، فيكون ذلك مكسرة لقلوبهم ، وحسما لأطماعهم و باعثا على تجديد القول فى الصلح ورد الحال إلى العادة المؤلوفة ، فقال : نسأل الله بركة

هذا الأمر فقد نشأت منه رائحة منكرة ، ما أعرف للمال وجها ، أما أنا فقد خرجت من جميع ماعندى مرة ، بما خدمت به الماضى تبرعاً حدثان[١] موت أبى ومرة بما طالبنى بهسراً وأوعدنى بالعزل والاستخفاف من أجاه ، ومرة بما عزمت فى المسير إلى العراق ، فى نصرة الدولة ، وهذه وجوه استنفدت قلىّ وكثرى ، وأتت على ظاهرى وباطنى . وقد غرمت إلى هذه الغاية ما إن ذكرته كنت كأنى ممتن على أولياء نعمتى ، وإن سكت كنت كالمتهم عند من يتوقع عثرتى ، فهذا هـذا ، وأما أموال النواحى ، فأحسن أحوالنا فيها أنا نرجئها فى نواحيها مع النفقة الواسعة فى الوظائف والمهمات التى تنو بنا . وأما العامة فلا أحوج الله اليها ، ولا كانت دولة لا تثبت إلا بها ، و بأوساخ أموالها ! فقال مؤيد الدولة ، وكان ملقنا هذا ابن كامه وهو صاحب الذخائر والكنوز والجبال والحصون و بيده بلاد وقد جمع هـذا كله فى دولتنا ، وحازه من مملكتنا وأيامنا و بدولتنا وهو مختوم ما فض مذ كان . ما تقول فيه ؟ قال : مالى فيه كلام. فإن بينى و بينه عهداً ما أخيس به ، ولو ذهبت نفسى ! فقال : اطلب منـه القرض . قال : إنه يستوحش و يراه بابا من الغضاضة ، وقدر القرض لا يبلغ قدر الحاجة . فإن الحاجة ماسة إلى خمسمائة ألف دينار على التقريب ، ونفسه أنفع لنا ، وأردّ علينا ، وأحصن لنا ، و إلينا من موقع ذلك المـال و بعد رأيه وتدبيره وأسمه وصيته فوق المطلوب منه . قال : و إذ ليس ههنا وجه فليس بأس بأن يطالع الملك بهـذا الرأى ليكون نتيجته من ثمّ . قال : أنا لا أكتب بهذا فإنه غدر . قال : يا هذا فأنت كاتبى وصاحب سرى والزمام فى جميع أمرى ، ولا سبيل إلى إخراج هذا الحديث الى أحد من خلق الله . فإن أنت لم تتول حارّه وقارّه ، وغثه وسمينه ، ومحبو به ومكروهه ؛ فمن ؟ قال : يا أيهـا الأمير ! لاتسمنى الخيانة ! فإنى قد أعطيته عهداً يذر الديار بلاقع ، ومع اليوم غد ، ولعن الله عاجلة تفسد الآجلة ! قال : إنى لست أسومك أن تقبض عليه ، أو أن تسيء إليه ، أشر بهذا المعنى إلى الملك عضد الدولة وخلاك ذمّ ! فإن رأى الصواب فيه تولاه دونك ، و إن

---

(١) حدثان الأمر ـ بالكسر ـ أوله وابتداؤه ، والمراد هناعقب موت أبيه .

ضرب عنه أعاضنا رأياً غير مارأيناه ، وأنت على حالك لا تنزل عنها ولا تبدّلها ، وإنما الذى يجب عليك فى هذا الوقت بين يدىّ كتب حرفين أنه لا وجه لهذا المال إلا من جهة فلان ، ولست أتولى مخاطبته عليه ولا مطالبته به ، وفاء له بالعهد ، وثباتا على اليمين ، وجريا على الواجب ، ولا أقل من أن تجيب إلى هذا القدر ، وليس فيه شىء مما يدل على النكث والخلاف والتبديل ، وما زال هذا وشبهه يتردّد بينهما حتى أخذ خطه بهذا على أن يصدره إلى أخيه عضد الدولة بفارس . فلما حصل هذا الخط عنده وجنّ عليه الليل أحضر ابن كامه وقال له : أما عندك حديث هذا المخنث فيما أشار به على الملك فى بابك وأورده عليه فى حقك وأمرك وأطاعه فى مالك ونفسك وتكثيره عنده ما تحت يدك وناحيتك ؟ فقال ابن كامه : هذا الفتى يرتفع عن هذا الحديث ولعل عدوّا قد كاده به وبينى وبينه مالا منفذ للسحر فيه ولا مساغ لظن سيىء به . قال : ما قلت لك إلا بعد أن حققت ما قلت . ودع هذا كله فى الريح هذا كتابه إلى الملك بما عرفتك وخطه بيده فيه . قال على بن كامه : أنا أعرف الخط ولكن هاتوا كاتبى فأحضر كاتبه الخثعمى فشهد أن الخط خطه فحال على بن كامه عن سجيته وخرج من مسكنه وقال : ماظننت بعد الأيمان المغلظة التى بيننا أنه يستجيز مثل هذا . قال الأمير : أيها الرجل إنما أطلعك الملك على سر هذا الغلام فيك لتعرف فساد ضميره لك ، وما هو عليه من هنات أخر وآفات هى أكبر فإنه هو الذى حرك مَن بخراسان وكاتب صاحب جرجان وألقى إلى أخينا بهمذان — يعنى فخر الدولة — أخبارنا وهو عين لبختيار ههنا . وقد أعتقد أنه يعمل فى تحصيل هذه البلاد ويكون وزيراً بالعراق فقد ذاق من بغداد مالا يخرج من ضرسه ، إلا بنزع نفسه ، وكان أبو نصر المجوسى قد قدم من عند الملك عضد الدولة وهو يفتل الحبل ويبرم ، ويهاب مرة ويقْدم ، وكان الحديث قد بيِّت بليل وأهتم به قبل وقته بزمان . فقال على بن كامه : فما الرأى الآن ؟ قال : لا أرى أمثل من طاعة الملك فى القبض عليه ، وقد كنا على ذلك قادرين ، ولكن كرهنا أن يظنّ بنا أنا هجمنا على ناصحنا ، ومربب نعمتنا ، وناشىء دولتنا ، فمهدنا عنك العذر ، وأوضحنا لك الأمر ، قال ، فأنا أكفيكموه !

ثم قبض عليه وكان منه ما كان ، واستدعى ابن عباد من أصفهان ، وولى الوزارة ودبرها برأى وثيق ، وجد رتيق » .

٧ — وعند تأمل هذه الرسالة نجد التوحيدى يمضى على الفطرة فى الإنشاء ، ثم يسجع ويوازن من سطر إلى سطر حين يطيب له ذلك ، وإلى القارئ ماورد فى هذه الرسالة من الأسجاع :

« ردّ النافر ، وركبا الخطر الحاضر ، وعانقا الخطب العاقر » .

« صادف الأمر متسقاً ، ولحق كل فتق مرتتقاً » .

« كلامك مسموع ، ورضاك متبوع » .

« ليكونن هلاكه على أيديهم أسرع من البرق إذا خطف ، ومن المزن إذا نطف » .

« والله لا تجاوزنى فى حضرة السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير » .

« ليس الرأى إلىّ ولا إليك ، ولا أُلهم علىّ ولا عليك » .

« لست أسومك أن تقبض عليه ، أو أن تسئ إليه » .

« ذاق من بغداد مالا يخرج من ضرسه ، إلا بنزع نفسه » .

« ولىَ الوزارة ودبّرها برأى وثيق ، وجد رتيق » .

وما وقع فى هذه الرسالة من المزاوجة واضح يدركه القارئ بأيسر مراجعة .

٨ — والشريف الرضى يسلك هذا المسلك فيسجع قليلا ، ويزاوج كثيراً ، وهو كاتب فحل لم تبق لنا من نثره بقايا كافية لتعيين مذهبه فى أساليب الإنشاء ، وإلى القارئ فقرات من مقدمة (نهج البلاغة) الذى دوّن فيه خطب الإمام على رضى الله عنه :

« أما بعد حمد الله الذى جعل الحمد ثمناً لنعمائه ، ومعاذاً فى بلائه ... فإنى كنت فى عنفوان السن ، وغضاضة الغصن ، ابتدأت بتأليف كتاب فى محاسن الأئمة عليهم السلام يشتمل على محاسن أخبارهم ، وجواهر كلامهم ، حدانى عليه غرض ذكرته فى صدر الكتاب .. وعاق عن إتمام بقية الكتاب محاجزات الزمان ، ومماطلات الأيام ... ومن عجائبه عليه السلام الوارد فى الزهد والمواعظ ، والتذكير والزواجر ، إذا تأمله المتأمل ، وفكر

فيه المتفكر ، وخلع من قلبه أنه كلام مثله ممن عظم قدره ، ونفذ أمره ، وأحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشك فى أنه من كلام من لاحظ له فى غير الزهادة ، ولا شغل له بغير العبادة ، قد قبع فى كسر بيت ، أو انقطع فى سفح جبل ، لا يسمع إلا حسه ، ولا يرى إلا نفسه، ولا يكاد يوقن بأنه كلام من ينغمس فى الحرب مصلتاً سيفه فيقط الرقاب ويجدّل الأبطال ويعود به ينطف دما ، ويقطر مهجا ، وهو مع تلك الحال زاهد الزهاد ، وبدل الأبدال»[١].

٩ — وأحمد بن عبد ربه لا تظهر آثار قلمه إلا فى المقدمات الصغيرة التى يمهد بها لأبواب العقد الفريد ، وهو فى تلك المقدّمات لا يلتزم السجع ، ولكنه لا يكاد يحل بالأزدواج[٢] .

١٠ — أما الطائفة الأخيرة فتكتب فى حرية وطلاقة ، وإن لم تخل آثارها النثرية من السجع والمزاوجة ؛ ومن أشهر هؤلاء أبو الفرج الأصفهانى الذى يترسل فى بعض فقرات (الأغانى) ترسلا سهلا مقبولا لا سجع فيه ولا ازدواج ؛ وابن مسكوية الذى ينطلق إلى غرضه انطلاق السهم إلى رميته ؛ والتنوخى الذى رقت على أسلة قلمه لغة القَصَص المسلسل وأحمد بن يوسف المصرى الذى دوّن مشاهداته فى لغة لا تعتمد فى جمالها إلا على دقة المعنى وصفاء الأسلوب .

وأهم كتاب هذا الفريق إخوان الصفا الذين دونوا ما عُرف لعهدهم من الآراء والمذاهب فى أسلوب طلق خال فى جملته من التصنع والزخرف والغموض .

---

(١) كان الشريف الرضى جديرا بأن يعقد له فصل فى هذا الكتاب ، ولكن الشعر غلب عليه ، وضاعت جملة نثره ، ولسنا من المطمئنين إلى ماقيل من أن أكثر نهج البلاغة من فيض قلمه ، بالرغم من قدم الشبهة ورواجها فى أسواق المستشرقين .

(٢) كلام ابن عبد ربه فى النثر قليل ، ولهذا لم نعقد له فصلا فى هذا الكتاب ، ولكن تمهيداته لأبواب العقد الفريد جزلة ممتعة ، وفيها دلالة على أن قلمه كان حراً من قيود المحسنات البديعة ، بالرغم من غلبتها على كتاب المشرق والمغرب لذلك العهد .

ويمكن القول بأن كتاب المذاهب والآراء هم أخلص الناس من أوضار الصنعة بين كتاب القرن الرابع ، لأن حرية الفكر تفرض حرية القول ، والكاتب المفكر فى شغل بفكره العميق عن تلمس أسباب الترويق والتهويل .

١١ — وليتبين القارئ الفرق بين كاتب يتأنق كالتوحيدى ، وكاتب يترسل كابن مسكويه نعرض نموذجاً مما قصه صاحب تجارب الأمم عن أبى نصر كاتب عضد الدولة إذ قال :

« كان بالقصر جماعة من الغلمان تحمل إليهم مشاهراتهم من الخزانة بالحضرة ، فلما كان فى آخر شهر قد بقى منه ثلاثة أيام استدعانى وقال لى : تقدّم إلى الخازن فى بيت المال بأن يزن كذا وكذا ألف درهم ويسلمها إلى أبى عبد الله بن سعدان ليحملها إلى نقيب الغلمان بالقصر . فقلت : السمع والطاعة . فأنسيت ذلك وسألنى عنه بعد أربعة أيام . فاعتذرت بالنسيان فخاطبنى بأغلظ خطاب ، فقلت : أمس كان أستهلاك الشهر ، والساعة تحمل المادة ، وما ههنا ما يوجب شغل القلب بهذا الأمر ، فقال : المصيبة بما لا تعلم ما فى فعلك من الغلط أكثر منها فيما أستعملته من التفريط ! ألا تعلم أنا إذا أطلقنا لهؤلاء الغلمان ما لهم وقد بقى فى الشهر يوم كان الفضل لنا عليهم ، وإذا أنقضى الشهر وأستهل الآخر حضروا عند عارضهم فأذكروه فيعدهم ، ثم يحضرونه فى اليوم الثانى فيعتذر إليهم ، ثم فى الثالث فتبسط فى أقتضائه ومطالبته ألسنتهم ، فتضيع المنة ، وتحصل الجرأة ، ونكون إلى الخسارة أقرب منا إلى الربح ؟ »[١] .

والقارئ حين يوازن بين الخبر المطول الذى نقلناه عن التوحيدى وبين هذا الخبر القصير الذى نقلناه عن ابن مسكويه لا يمترى فى أن التوحيدى كان خليقاً بأن يجعل من هذا الخبر القصير قصة طويلة يبدئ فيها ويعيد .

ولكن هذا اليسر فى رواية الخبر لم يمنع ابن مسكويه من التأنق فى التعليق عليه إذ قال :

« ولعل عضد الدولة نظر فى هذا الوقت إلى ماوجد فى سيرة المعتصم رضوان الله عليه . وهل ينكر لبنى هاشم أن يقتدَى بأقوالهم ، أو يهتدَى بأفعالهم ، وهم الأصدقون أقوالا ،

(١) تجارب الأمم ج ٣ ص ٤٥

والأكرمون أفعالا ، والأشرفون أنساباً ، جبال الحلوم ، و بحار العلوم ، وأعلام الهدى ، وساسة الدين والدنيا ، وفرسان الحروب والمحاضر ، وأملاك الأسرّة والمنابر ، إلى مكارمهم ينتهى الكرم ، و بمآثرهم تنجلى الظلم ، المعتصم بينهم المعتصم » .

و يتمكن المضىّ فى استقراء الفصول الجيدة مما كتب ابن مسكويه فى التاريخ : فهو يسرد الأخبار فى يسر ملموس ثم يعقب عليها بتأنق مقبول . وانظر قوله فى خواص الملوك :

« ومن حسن سياسة الملوك أن يجعلوا خاصتهم كل مهذب الأفعال ، محمود الخصال ، موصوفا بالخير والفعل ، معروفا بالصلاح والعدل ، فإن الملك لا تخالطه العامة ولا أكثر الجند ، و إنما يرون خواصه : فان كانت طرائقهم سديدة ، وأفعالهم رشيدة ، عظمت هيبة الملك فى نفس من يبعد عنه . لاستقامة طريقة من يقرب منه ... ... و إذا كان خواص الملك ممن يُقْدَح فيهم ، وتذكر مساويهم ، قلّت الهيبة فى النفوس ، فأظهر الجند استقلالا لأمره ، ثم صار الإضمار نجوى بينهم ، ثم زادت الحيرة فصارت النجوى إعلانا ، فعند ذلك تقع المجاهرة ، وترتفع المراقبة ، و يتحكمون عليه تحكم الآمر لا المأمور ، والقاهر لا المقهور »(١) .

١٢ — ومن أحرار الأساليب بين كتاب القرن الرابع إخوان الصفاء — وفى رسائلهم فقرات تمتاز بوضوح المعانى و بسطها . من ذلك قول أحدهم فى وصف الرسول :

«قال النمر للأسد : ما تلك الخصال التى ذكرت ، أيها الملك ، أنها يجب أن تكون فى الرسول ؟ بينها لنا . قال الملك : نعم . أولها يحتاج أن يكون رجلا عاقلا حسن الأخلاق ، بليغ الكلام ، فصيح اللسان ، جيد البيان ، حافظا لما يسمع ؛ محترزا فيما يجيب و يقول؛ مؤدياً للأمانة ، حسن العهد ، مراعيا للحقوق ، كتوما للسر ، قليل الفضول فى الكلام ، لا يقول من رأيه شيئاً غير ما قيل له / إلا ما يرى فيه صلاح المرسل ، ولا يكون شرها ، ولا يكون حريصاً إذا رأى كرامة عند المرسل إليه مال إلى جهته وخان مرسله واستوطن البلد لطيب عيشه هناك ، أو كرامة يجدها أو شهوة ينالها هناك ، بل يكون ناصحاً لمرسله ولإخوانه وأهل بلده وأبناء جنسه ، و يبلغ الرسالة و يرجع بسرعة إلى مرسله فيعرفه جميع ما جرى من أوله

(١) تجارب الأمم ص ١٨٨ .

إلى آخره ، ولا يخاف فى شىء منه فى تبليغ رسالته مخافة من مكروه يناله : فإنه ليس على الرسول إلا البلاغ »[١] .

وهذه القطعة تصور المعنى الذى وضعت له تصويراً صحيحاً ، ولكن النزعة العامية تغلب عليها ، وينقصها ما يسميه علماء النقد « قوة الأسر » وهذا المأخذ تجده أنّى سرّحت بصرك فى رسائل إخوان الصفاء ، فهم يقدمون إليك الموضوعات الفلسفية والأخلاقية والاجتماعية فى أسلوب يغلب عليه الانحلال . ولعل السر فى ذلك يرجع إلى انعدام الشخصية : فالكاتب يعبر عن روح إخوانه وكأنه يلخص آراءهم ، ولو كان يعبر عن نزعاته الذاتية لرجونا أن تكون حماسته أقوى وروحه أظهر ، وعند ذلك تستطيع إغواء عقله ووجدانه فيصطبغ أسلوبه بألوان الخيال . وسترى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب[٢] كلاما كثيراً عن الأسلوب ، وسترى أنه يتكون من عنصرين : المعنى والروح ، فإذا وجد المعنى وحده كانت الكتابة علمية . وإذا أضيف إليه الروح كانت الكتابة أدبية . وذلك ما نعنيه بالنثر الفنى .

١٣ — ولك أن تنظر فيما كتب الفارابى أو ما كتب ابن حزم فى الفلسفة لترى كيف تكون الكتابة العلمية التى يراد بها تقرير الحقائق ، وشرح المذاهب ، وعرض البراهين ، فهى كتابة خالية من السجع والازدواج ، إلا فى أحوال قليلة ، والكاتب مشغول بسرد الحقائق لا بتنميق الإنشاء . وهذه الكتابة صالحة كل الصلاحية للموضوعات العلمية والفلسفية ، وليس خلوها من الفن إلا دليلا على توفيق الكاتب ، فليس كل موضوع بصالح للزخرف والتهويل . وقد يكون من الخير أن نذكر الفرق بين كاتبين يشتغلان بالموضوعات الفلسفية ويختلفان فى الأسلوب ، فيكتب أحدهما كتابة علمية ، ويكتب ثانيهما كتابة أدبية ، كالفارابى والتوحيدى والفرق بين مثل هذين الرجلين أن الأول كان مفكراً قبل أن يكون كاتباً ، والثانى كان كاتباً قبل أن يكون مفكراً : فلما كتب الأول عجز عن التلوين والتزيين ولما كتب الثانى وشّى الفكرة بفنون من التصاوير والتهاويل ، والأول أبقى فى عالم الفكر والثانى أخلد فى عالم البيان ، وكلا الأسلوبين ضرورىٌّ فى حياة العلوم والآداب .

---

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٢ ص ٢٠٦ (٢) راجع الصفحات ٦٧ — ٧٨

١٧/٤/١٩٧٦م

٣ – تصوير الحياة العقلية[1]

١ — إن الكتاب المشاهير الذين تولوا قيادة النثر الفنى فى القرن الرابع قداهتموا اهتماما عظيما بتصوير الحياة العقلية والأدبية والوجدانية التى شملت ذلك العصر ، فمن الخطأ أن يظن أنهم وقفوا عند زخرفة الألفاظ والتعابير ولم يشتركوا فى الأزمات العقلية والمجادلات الحزبية والدينية فى الحدود التى سمحت بها قوتهم الأدبية . وسيرى القارىء كيف شغلوا بالبلاغة ودراسة الشعر والنثر ، فلننظر هنا كيف شغلوا بما كان يجرى لعهدهم من الفتن السياسية والاجتماعية .

من ذلك أننا نجد أثر قوة الحزب الشيعى ممثلة فى رسائل بديع الزمان ورسائل الخوارزمى وفى المقتطفات التى جمعها صاحب زهر الآداب عما قيل فى آل البيت مدحاً ورثاء مما يدل على أن الشيعة كانت لهم قوة صاخبة فى ذلك العصر . وربما كانت رسالة الخوارزمى التى بعثها إلى الشيعة بنيسابور لما قصدهم إليها محمد بن إبراهيم تمثل مأساة الشيعة أصدق تمثيل ، ولننظر كيف يقول :

« وأنتم ونحن — أصلحنا الله وإياكم ! — عصابة لم يرض الله لنا ثواب العاجل ، فأعد لنا ثواب الآجل ، وقسمنا قسمين قسما مات شهيداً ، وقسما عاش طريداً ، فالحى يحسد الميت على ما صار إليه ولا يرغب بنفسه عما جرى إليه ، قال أمير المؤمنين ويعسوب الدين عليه السلام : « المحن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحدور » وهذه مقالة أسست على المحن وولد أهلها فى طالع الهزاهز والفتن ، فحياة أهلها نغص ، وقلوبهم حشوها غصص ، والأيام عليهم متحاملة والدنيا عليهم مائلة ، فإذا كنا شيعة أئمتنا فى الفرائض والسنن ، ومتبعى آثارهم فى كل قبيح وحسن ، فينبغى أن نتبع آثارهم فى المحن : غُصِبت سيدتنا فاطمة صلوات الله عليها وعلى آلها

---

(١) هذا الفصل القصير لايغنى عن مراجعة الفصول المطولة فى باب (الآراء والمذاهب) بالجزء الثانى . ويمكن القول بأن الأدب فى كل عصر صورة للحياة العقلية ، غير أن قوة الحيوية فى كتاب مقرن الرابع ميزتهم بطابع خاص .

ميراث أبيها — صلوات الله عليه وعلى آله — يوم السقيفة ، وأخر أمير المؤمنين عن الخلافة، وسُمّ الحسن رضى الله عنه سراً ، وقتل أخوه كرم الله وجهه جهراً ، وصلب زيد بن على بالكناسة ، وقطع رأس زيد بن على فى المعركة ، وقتل ابناه محمد وابراهيم على يد عيسى بن موسى العباسى ، ومات موسى بن جعفر فى حبس هارون . وسمّ على بن موسى بيد المأمون ، وهزِ إدريس بفخ حتى وقع إلى الأندلس فريدا ومات عيسى بن زيد طريداً شريداً» إلخ .

وفى هذه الرسالة تفاصيل مزعجة عما لقيه العلويون من المحن والمصائب يتلقونها صابرين من خصومهم الذين أصروا على إبادتهم من الوجود، والذى يقرؤها كاملة فى رسائل الخوارزمى يدرك جيدا كيف كانت العصبية للشيعة قوية حادة فى ذلك العصر ؛ وكيف تشبعت عقول بعض الكتاب بالمعانى البديعة فى محاوراتهم العقلية ، فمن الرائع حقاً أن يقرر الخوارزمى أن علىّ بن أبى طالب شتم على المنابر ألف شهر فما شك أنصاره فى وصيته ، وأن النبي محمداً كذب بضع عشرة سنة فما أتهموه فى نبوّته ، وأن إبليس عاش مدة تزيد على العدد فلم يرتابوا فى لعنته .

وفى رأيي أن مثل تلك الرسالة يوضح كثيراً مما غمض من تاريخ الأمم الإسلامية فإن الكتاب الذين ينتسبون إلى أحزاب يدافعون عنها قد تتاح لهم فرص كثيرة تبصرهم بما خفى من تاريخ من يناصرونهم ومن يعادونهم وإن كانوا متهمين فى مدح من يرضون عنه وذم من يخرجون عليه .

٢ — وبجانب الجدل العنيف الذى كان ينشب كل يوم بين العلويين والعباسيين والعداوات التى كانت تقوى وتشتدّ كلما أثيرت ذكرى الخلافة والخلفاء ونراها ممثلة فى الآثار النثرية فى ذلك العهد، كانت تقوم فتنة أخرى هى الخلاف بين العرب والعجم وانقسام الأدباء إلى فريقين فريق يفضل العرب وآخر يفضل العجم ، وهى فتنة قديمة شبت منذ كان للموالى وأنصار الفرس أطماع فى دولة الخلافة ، وظلت تزداد وتقوى بفضل الجهود المتصلة التى كان يبذلها الوزراء الفارسيون لكبح النفوذ العربى راجين أن ينتقل إليهم النفوذ الأدبى والسياسى والمادّى جميعاً .

ولبديع الزمان الهمذانى رسالة جيدة تمثل تلك المناوشات يميل فيها إلى تفضيل العرب على العجم وعلى سائر الأمم إذ كانوا فى رأيه أوفى وأشجع وأعلم وأحلم وإن لم يكونوا أحسن ملابس وأنعم مطاعم ، ويرى أن فضل العرب لا ينكره إلا وقح وأن الله قدّم ملك العجم ليحتج عليها وأخر ملك العرب ليحتج بها ، وأن العجم ما ملكت حتى تواصلت ، والعرب ماملكت إلا حين تصاولت ، وأن العجم ما تواصلت إلا يأساً من نفوسها ، وأن العرب ما تصاولت إلا لما فى رءوسها من النخوة ، وهذا طبيعى فلا تكاد السباع تأتلف كما لا تكاد البهائم تختلف . ثم يمضى بديع الزمان فيتحدّث عن أعياد الفرس وعبادتهم للنار وهو فى ذلك يسخر منهم ويفضل العرب عليهم .

٣ — والذى يهمنا من ذلك كله هو تقرير ما يمثله النثر فى ذلك العهد من الشقاق الذى كان يثور بين العرب والفرس من حين إلى حين ، أما حجج بديع الزمان فى تفضيل العرب على الفرس وحجج خصومه فى تفضيل الفرس على العرب فتلك أشياء لا يهمنا تحقيقها الآن .

وذلك الخلاف له قيمته فى تقدير الحيوية التى كان يحسها رجال الأدب لذلك العهد فقد كانوا يمثلون طوائفهم ودولهم بذلك الدفاع الذى كان يفيض حياة وقوة ، وكان يحتوى أحيانا على مباحث جيدة فى بيان الفضائل النفسية والاجتماعية والأدبية التى تمتاز بها الأمم والشعوب .

٤ — ومما يتصل بتصوير الحياة العقلية طريقة أولئك الكتاب فى شرح حقائق الحياة . ويظهر أنهم كانوا يميلون إلى الصراحة المطلقة فيما يختص بنعيم العقل والحواس ، فما كانوا يخفون أغراضهم بالرمز والإشارة وإنما كانوا يصرحون بما يحبون الخوض فيه ، فكان من ذلك أن أكثروا من الرسائل فى تهادى الخمر وأن وصفوا مجالس الشراب واللهو وصفاً مغرياً لا يترك هفوات الشباب ولا جرائم السكر بدون تصوير ، وعرضوا للجمال الحسى فى الغلمان فوصفوه وصفا جارحا لا نكاد نسيغه اليوم ، فقد حذف الشيخ محمد عبده طائفة من مقامات بديع الزمان لما فيها من الصراحة المفرطة فى تصوير الشهوات . وللببغاء الشاعر رسالة جميلة

فى وصف ليلة أنس ذكرها الثعالبى فى الجزء الأول من اليتيمة لا يقرؤها القارئ بدون أن يدهش من حب أولئك الكتاب لتصوير لذات الحياة . وما نحب أن نطيل فى بيان هذه النقطة لأن لها مكاناً غير هذا . وإنما نقرر أن الذى يراجع آثار الكتاب فى ذلك العصر يقتنع بأنهم لم يكونوا فى الأغلب رجال حشمة ووقار ، وإنما كانوا يفضلون الصراحة العابثة فيما يقولون وما يعملون (١) .

٥ — ومن أهم الجوانب التى تمثل الحياة العقلية فى ذلك العصر الخصومات العنيفة التى قامت بين الكتاب ، فقد كانت بينهم مناوشات ومجادلات نشأت من أطماعهم فى الحياة المادية ، وكانوا يمثلون غالبا طوائف من الأفكار الدينية والحزبية يقومون فى الدفاع عنها بما تقوم به الجرائد المغرضة فى العصر الحاضر ، وكان لهم من القوّة ما كان للشعراء ، فلم يكن بد من أن يتنافس أصحاب الملك فى تقريبهم ، ولم يكن بدّ كذلك من أن يتنافس هؤلاء فى الاستئثار بالحظوة عند الوزراء والرؤساء والملوك .

(١) وقد رأينا بعد البحث أنهم يؤثرون الأدب الصريح ،فيتحدثون عن الهنات والعورات فى عبارات صريحة لا تسترها كناية ولا تلويح ، وأكثرهم يمزج الجد بالهزل فى أساليب مكشوفة ينفر منها الطبع فى بعض الأحيان . ولا نملك هنا إيراد الشواهد ، لأن الذوق فى عصرنا يأبى ذلك . وحسبنا أن نشير إلى ما كتبه الثعالبى عن بعض العورات فقد شعر بشىء قليل من الحرج اضطره إلى أن يعتذر بهذه الكلمات :

« ذكر الأعضاء لا يؤثم ، وإنما الإثم فى ذكرها عند شتم الأعراض وقول الرفث فى أكل لحوم الناس وقذف المحصنات » ثمار القلوب ص ١٨٠

وهذه مشكلة قديمة فى اللغة العربية ، فقد تحدث ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار عن هذا الأسلوب فى التعبير ودافع عنه فى حماسة بكلام طويل نكتفى منه بالأسطر الآتية :

«واعلم أنك إن كنت مستغنياً عن المزاح بتنسكك فإن غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج إليه . وأن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيهيأ على ظاهر محبتك ، ولو وقع فيه توقى المتزمتين لذهب شطر بهائه ، وشطر مائه، ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليك معك ، وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . وإذا مر بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك ، وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم فى شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب » .

راجع مقدمة عيون الأخبار .

وفى الرسالة التى كتبها بديع الزمان إلى أبى نصر بن المرزبان فقرات مُرة تمثل ما كان عليه كتاب ذلك العصر من الطمع فى المناصب الرسمية ومن ضعف الخلق عند الغنى ، ومن النبل عند الفقر ، إذ « تنسيهم أيام اللدونة ، أوقات الخشونة ، وأزمات العذوبة ، ساعات الصعوبة » وقد كانوا كما قال : « ما اتسعت دورهم إلا ضاقت صدورهم ، ولا أوقدت نارهم إلا انطفأ نورهم ، ولا زاد مالهم إلا نقص معروفهم ، ولا ورمت أكياسهم إلا ورمت أنوفهم ، ولا صلحت أحوالهم إلا فسدت أعمالهم ، ولا فاض جاههم إلا غاضت مياههم ، ولا لانت برودهم إلا صلبت خدودهم [1] » وفى تلك المنافسات الشديدة ، وتلك الدسائس الملعونة ، التى كانت تقع بين الكتاب دليلٌ على جشعهم فى حب الحياة وفهمهم لها فهما مادياً يتناسب مع تلك العبقريات الفنية التى ظهرت فى فِقرهم ورسائلهم وأبحاثهم. ومن المؤلم أن تظل قوّة الحقد ويقظة الأثرة، وشدّة العداوة ، فى كل عصر ، من السمات الغالبة على كبار الكتاب ، فمن النادر أن نجد كاتبا كريماً يعطف على زملائه ويحب لهم الخير ويتمنى لهم السداد . وقديماً أفزعت هذه الظاهرة عبد الحميد بن يحيى — وكان رجلا نبيلا — فكتب وصيته المعروفة يدعو بها الكتاب إلى التعاون ونبذ الأحقاد . وفى أيامنا تبعث تلك الشمائل من جديد فلا تجد كاتباً فى العالم العربىّ بحيث يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بحيث نظن أن شبوب العبقرية يوحى بالطمع والاستبداد بالفضل والاستئثار بالجاه .

٦ — وأهم الخصومات التى وقعت بين كتاب ذلك العصر خصومة الهمذانى والخوارزمى خصومة التوحيدى والصاحب بن عباد .

أما خصومة الهمذانى والخوارزمى فترجع إلى رغبة الهمذانى فى الظهور وطمعه فى الانفراد بالشهرة ، وأهم مصدر لهذه الخصومة الرسالة المطولة التى كتبها الهمذانى فى وصف المناظرة التى قامت بينه وبين الخوارزمى ، وهى رسالة مغرضة مملوءة بالتحامل والتهافت ، وليس فيها أفكار جدية تجعل خصومة الرجلين خصومة بين عقلين ، إنما هى محاورات لفظية تدل على

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٤٥

غلبة الزخرف وتمكنه من السيطرة على عقول أهل ذلك الجيل . ولو أن الخوارزمى دون بدوره تلك المناظرة لرأينا وجهين فى بسط ذلك الحادث الأدبى وأستطعنا أن نستخلص من مقابلة النصين نفس الرجلين ، ولكن الهمذانى تكلم وحده فعرفنا فقط مبلغ زهوه وكبريائه وطمعه فى قهر كاتب كان يومئذ على رأس الكاتبين .

أما خصومة التوحيدى لابن عباد فترجع فيما ذكر كتاب التراجم إلى سبب مادىّ ، وذلك أن التوحيدى رغب فى مال ابن عباد وجاهه فضاق عنه صدر هذا ، فكتب التوحيدى كتابه « مثالب الوزيرين » وهو كتاب جارح كشف به عورات ابن العميد وابن عباد . ثم عاد إليهما بالتجريح أيضاً فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » وأسلوبه فى الهجاء أسلوب خطر فظيع إذ يختلق من الحوادث والإشارات وينطقهما برسائل ومقطوعات تهوى بهما إلى الحضيض . ويعدّ التوحيدى من الوجهة الفنية رجلا خصب الذهن ، غنىّ اللغة ، وافر المحصول ، قوىّ الخيال .

وقد تنبه المتأدبون إلى تحامل التوحيدى وإسرافه فى التعصب ضد ذينك الوزيرين وشاع الاعتقاد بأن كتابه مثالب الوزيرين كتاب مشئوم لا يملكه أحد إلا انعكست أحواله ، ويذكر ابن خلكان أنه جرب هذا وجربه من يثق به ![1] فإذا صح هذا الوهم كان التوحيدى قد عوقب على بغيه وظلمه وافترائه : فقد أنطق الصاحب بن عباد بعبارات مخجلة يندى لها وجه القارىء ويفرّ منها الطبع والذوق ، وإن كانت نظمت فى أسلوب شائق خلاب .

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٧٠

٤ — الفكاهات

١ — ليست الفكاهات النثرية مما ابتكره كتاب القرن الرابع ، ولكنها ظهرت فيه ظهوراً واضحاً، وصارت فناً واضح الرسوم ، بحيث يمكن الحكم بأن الكتاب كانوا يقصدون إليها قصداً ، و يتنافسون فى تزو يرها وتحبيرها ، ومن أشهرهم فى هذا الباب بديع الزمان ، فقد كتب فى الفكاهة عدّة مقامات ، منها المقامة الشامية التى أنطق فيها «زوج الاثنين » أمام قاضى الشام ، وكانت إحداهما تدّعى صداقا ، والأخرى تلتمس طلاقا .

القاضى : ما تقول فى الملتمسة صداقها ؟[١]

الزوج : أعز الله القاضى ! صداق ماذا ؟ وأنا غريب من أهل الأسكندرية ، فوالله ما أثقلت لى وتداً ، ولا أشبعت لى كبداً ، ولا عمرت خراباً ، ولا ملأت جراباً .

القاضى . إنك تبطنتها !

الزوج : نعم ! لكنّ فماً غير بارد ، وثدياً غير ناهد ، و بطناً غير والد ، وعيناً غير واجد ، وريقاً غير ريّق ، وطريقاً غير ضيّق .

القاضى — للمرأة — : ما تقولين ؟

المرأة : أيد الله القاضى ! هو أكذب من أمله ، وأكثر فى اللؤم من حيله ، وأفسد عِشرةً من أسفله . والله لقد صادفت من فمه صقرا ، ومن يده صخرا ، ومن ضدره سم خياط ، لا يرشح بقيراط ، ولقد زففت إليه بدنا كالديباج ، ووجها كالسراج ، وعين كعين النعاج ، وثديا كحق العاج ، و بطنا كظهر الهملاج ، وحشًى ضيق الرتاج ، خشن المنهاج ، حار المزاج ، صعب العلاج ، ولكن كيف ألد ، وهو لا ينجز ما وعد ؟ وكيف ينجز ولا يجد ، وهو يجتهد ، لو لم يخنه الوتد !

---

(١) حولنا هذه المقامة والتى بعدها إلى الحوار بتصرف قليل .

القاضى : أيها الرجل ، قد رمتك بالعنة !

الزوج — وقد مال إلى المرأة محتدّا — :

ألم أجعل تسعينك ثلاثين ؟ ألم أعرك فى ليلة عشرين ، حتى أسقطت الجنين ؟

المرأة : إشهد أيها القاضى على هذا الإقرار !

الزوج : خدعتنى يا دَفار !

٢ — والمقامة المضيرية من أنضر ما كتب فى الفكاهات ، وانظر كيف يتحدث عيسى بن هشام :

« كنت بالبصرة ومعى أبو الفتح الاسكندرى رجل الفصاحة والبلاغة ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار ، فقدمتْ إلينا مضيرة تثنى على الحضارة ؛ وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية رضى الله عنه بالإمامة ، فى قصعة يزل عنها الطرف ، ويموج فيها الظرف ، فلما أخذت فى الخوان مكانها ، ومن القلوب أوطانها ، قام أبو الفتح الاسكندرى يلعنها وصاحبها، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطابخها ، وظنناه يمزح ، فإذا الأمر بالضد ، وإذا المزح عين الجد، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه ، وتلمظت لها الشفاه ؛ واتقدت لها الأكباد ، ومضى فى أثرها الفؤاد[1] .

ولكنا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن أمرها ، فقال :

قصتى معها أطول من مصيبتى فيها ، ولو حدثتكم بها أمنت المقت ، وإضاعة الوقت .

قلنا هات .

فقال :

دعانى بعض التجار إلى مَضيرة وأنا ببغداد ، ولزمنى ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم ، إلى أن أجبته إليها . وقمنا ، فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ، ويفديها بمهجته ؛ ويصف حذقها فى صنعتها ، وتأنقها فى طبخها ، ويقول :

---

(١) للقارىء أن يلاحظ الفكاهة فى هذا الموطن .

يا مولاى ، لو رأيتها ، والخرقة فى استها ، وهى تدور فى الدور ، من التنور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبّر فى ذلك الوجه الجميل ، وأثر فى ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظعينته ، ولا سيما إذا كانت من طينته ، وهى ابنة عمى لحًّا طينتها طينتى ، ومدينتها مدينتى ، وعمومتها عمومتى ، وأرومتها أرومتى ، لكنها أوسع منى خُلقا ، وأحسن خَلقا .

وصدعنى بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلته ، ثم قال :

يا مولاى ! ترى هذه المحلة ؟ هى أشرف محال بغداد ، يتنافس الأخيار فى نزولها ، ويتغاير الكبار على حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وإنما المرء بالجار ، ودارى فى السطة[1] من قلادتها ، والنقطة من دائرتها .

كم تقدر يا مولاى أنفقَ على كل دار منها ؟

قله تخمينا ، إن لم تعرفه يقينا .

أبو الفتح : الكثير !

التاجر : ياسبحان الله ! ما أكبر هذا الغلط ! تقول الكثير فقط ؟

(وتنفس الصعداء ، وقال سبحان من يعلم الأشياء !)

قال أبو الفتح : وانتهينا إلى داره .

التاجر : هذه دارى . كم تقدر يا مولاى أنفقت على هذه الطاقة ، أنفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعها وشكلها ، أرأيت بالله مثلها ؟ أنظر إلى دقائق الصنعة فيها ، وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار . وانظر إلى حذق النجار فى صنعة هذا الباب ، اتخذه من كم ؟ قل .

---

(١) السطة : الواسطة ، وهى كلمة يكثر ورودها فى كلام بديع الزمان فى مثل هذا المعنى فقد جاء فى المقامة السجستانية مانصه :

« انتهيت من دائر البلد إلى نقطتها ، ومن قلادة السوق إلى سطتها » .

أبو الفتح : ومن أين أعلم ؟

التـاجر : هو ساج من قطعة واحدة ، لا مأروض ولا عفن ، إذا حرك أنّ ، وإذا نقر طنّ . من اتخذه يا سيدى ؟

أبو الفتح : ... ... ؟

التـاجر : اتخذه أبو إسحاق بن محمد البصرى ، وهو والله رجل نظيف الأثواب ، بصير بصنعة الأبواب ، خفيفُ اليد فى العمل . لله درّ ذلك الرجل ! بحياتى لا استعنت إلا به على مثله . وهذه الحلقة ؟ تراها ؟ اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير معزية . وكم فيها يا سيدى من الشبه ؟ فيها ستة أرطال ، وهى تدور بلولب فى الباب ، بالله دوّرها ، ثم انقرها وأبصرها ، و بحياتى عليك لا اشتريت الحلق إلا منه ، فليس يبيع إلا الأعلاق .

قال أبو الفتح : ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال :

التـاجر : عمرك الله يا دار ، ولا خربك يا جدار ، فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ! تأمل بالله معارجها ، وتبين دواخلها وخوارجها ، وسلنى كيف حصلتها ، وكم من حيلة احتلتها ، حتى عقدتها ؟

أبو الفتح : ... ... ؟

التـاجر : كان لى جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة ، وله من المـال مالا يسعه الخزن ، ومن الصامت مالا يحصره الوزن ، مات رحمه الله وخلف خلفا أتلفه بين الخمر والزمر ومزقه بين النرد والقمر ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، إلى بيع الدار ، فيبيعها فى أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها ، وقد فاتنى شراها ، فأتقطّع عليها حسرات ، إلى يوم الممات ، فعمدت إلى أثواب لا تنض تجارتها ، فحملتهـا إليه ، وعرضتها عليه ، وساومته على أن يشتريها نسيّة ، والمدْبر يحب النسية عطية ، والمتخلف يعتدها هدية ، وسألته وثيقة بأصل المـال ففعل ، وعقدها لى ، ثم تغافلت عن اقتضائه ، حتى كادت حاشية حالة ترق ، فأتيته ، فاقتضيته ، واستمهلنى فأنظرته ، والتمس غيرها

من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره رهينة لدىّ ، ووثيقة فى يدىّ ، ففعل ، ثم درجته بالمعاملات إلى بيعها فحصلت لى بجد صاعد ، وبخت مساعد ، وقوّة ساعد ، ورب ساع لقاعد ! وأنا بحمد الله مجدود فى مثل هذه الأحوال ، وحسبك يا مولاى أنى كنت منذ ليال نائما فى البيت مع من فيه إذ قُرِع علينا الباب ، فقلت من الطارق المنتاب ، فإذا امرأة معها عقد لآل ، فى جلدة ماء ورقة آل ، تعرضه للبيع ، فأخذته منها إخذة خلس ، واشتريته بثمن بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله تعالى .

وإنما حدّثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدى فى التجارة ، والسعادة تنبط الماء من الحجارة ، الله أكبر ! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك ، اشتريت هذا الحصير فى المناداة ، وقد أخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات ، وزمن الغارات ، وكنت أطلب مثله منذ الزمن الأطول فلا أجد ، والدهر حُبلَى ليس يُدرَى ما يلد ، ثم اتفق أنى حضرت باب الطاق ، وهذا يعرض فى الأسواق ، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً . تأمل بالله دقته ولينه وصنعته ولونه ، فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا فى الندر ، وإن كنت سمعت بأبى عثمان الحصيرى فهو عمله ، له ابن يخلفه الآن فى حانوته ، لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده ، فبحياتى لا اشتريت الحصر إلا من دكانه ، فالمؤمن ناصح لاخوانه ، لا سيما من تحرّم بخوانه » .

إلى هنا يتصوّر القارئ ضجر أبى الفتح وهو ينتظر طعام المضيرة .

ولكن التاجر يستأنف الحديث فيقول :

« ونعود إلى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة » .

يا غلام ! الطست والماء .

أبو الفتح — فى سره — الله أكبر ! ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج .

(ويتقدّم الغلام بالماء) .

التاجر : ترى هـــذا الغلام ؟ إنه رومىّ الأصل ،عراقى النشء ، تقدم ياغلام واُحسر عن رأسك ، وشمر عن ساقك ، وأنض عن ذراعك ، وافترّ عن أسنانك ، وأقبل وأدبر .

(و يفعل الغلام ذلك) .

التاجر : بالله من أشتراه ؟

أبو الفتح : ... ... ؟

التاجر : اشتراه والله أبو العباس ، من النخاس ، ضع الطست وهات الابريق .

(يضع الغلام الابريق و يأخذه التاجر فيقلبه و يدير فيه النظر ثم ينقره) .

التاجر : أنظر الى هذا الشبه كأنه جذوة اللهب ، أو قطع الذهب ، شبه [1] الشام وصنع العراق ، ليس من خلقان الأعلاق ، قد عرف دور الملوك . تأمل حسنه وسلنى : متى أشتريته؟

أبو الفتح : ... ... ؟ .

التاجر : اشتريته والله عام المجاعة ، وادخرته لهذه الساعة ، ياغلام الابريق .

(يقدم الغلام الابريق فيأخذه التاجر و يقلبه) .

التاجر : وأنبو به منه ، لا يصلح هـــذا الابريق إلا لهذا الطست ، ولا يصلح هـــذا الطست الا مع هذا الدست ، ولا يصلح هذا الدست الا فى هـــذا البيت ، ولا يجمل هـــذا البيت إلا مع هذا الضيف ، أرسل المـــاء ياغلام ، فقد حان وقت الطعام .

(و يصب الغلام الماء فيتأمله التاجر و يقول :) .

التاجر : ترى هذا الماء ؟ ما أصفاه ! أزرق كعين السنور ، وصاف كقضيب البلور ، استـــقى من الفرات ، واستعمل بعـــد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة ، وليس الشأن فى السقاء ، الشأن فى الإناء ، لا يدلك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه... وهذا المنديل ؟ سلنى عن قصته فهو نسج جرجان ، وعمل أرّجان ، وقع إلى فاشتريته،فاتخذت بعضه امرأتى سراويلا ، واتخذت بعضه منديلا ، دخل فى سراويلها عشرون ذراعا ، وانتزعت

---

(١) الشبه ، بالتحريك : النحاس الأصفر .

من يدها هذا القدر انتزاعا ، وأسلمته الى المطرّز حتى صنعه كما تراه ، وطرزه ثم رددته من السوق ، وخزنته فى الصندوق ، وأدخرته للظراف ، من الأضياف ... يا غـلام ! الخوان ، فقد طال الزمان والقصاع ، فقد طال المصاع ، والطعام ، فقد كثر الـكلام .

(و يأتى الغلام بالخوان فيقلبه التاجر و ينقره ببنانه و يعجمه بأسنانه) .

التاجر : عمر الله بغداد ! فما أجود متاعها ، وأظرف صناعها ، وتأمل بالله هـذا الخوان وانظر الى عرض متنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده ، وحسن شكله .

أبو الفتح — وقد ضاق صدره — :

هذا الشكل ، فمتى الأكل ؟

التاجر : عجل ياغلام ، لـكن الخوان قوائمه منه.

أبو الفتح — وقد جاشت نفسه — :

بقى الخبز وآلاته ، والخبز وصفاته ، والحنطة أين اشتريت أصلا ، وكيف اكترى لها حملا ، وفى أى رحى طحن ، و إجانة عجن ، وفى أى تنور سجر ، وخباز استؤجر ؟ .

و بقى الحطب ، من أين احتطب ، ومتى جلب ، وكيف صفف ، حتى جفف ، وحبس حتى يبس ؟ ؟

و بقى الخباز و وصفه ،والتلميذ ونعته،والدقيق ومدحه ، والخمير وشرحه ، والملح وملاحته.

و بقيت السكرجات من اتخذها ، وكيف انتفذها ، ومن استعملها ، ومن عملها ؟ ؟

والخل كيف انتقى عنبه ، أو اشترى رطبه ، وكيف صهرجت معصرته ، واستخلص لبه ، وكيف قُيِّرحِبه ، وكم يساوى دنه ؟

و بقى البقل كيف احتيل له حتى قطف ، وفى أى مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نظف ؟ و بقيت المضـيرة ، كيف اشترى لحمها ، ووفى شحمها ، ونصبت قدرها ، وأججت نارها ، ودقت أبزارها ، حتى أجيد طبخها ، وعقد مرقها ؟ وهذا خطب يطم ، وأمر لا يتم !

(ويقوم أبو الفتح) .

التاجر : أين تريد ؟

أبو الفتح : حاجة أقضيها !

التاجر : يا مولاى ! تريد كنيفاً يزرى بربيعى الأمير ، وخريفى الوزير ، قد جُصِّص أعلاه ، وصهرجَ أسفله ، وسطِّح سقفه ، وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذر فلا يعلق ، ويمشى على أرضه الذباب فيزلق ، عليه باب غير أنه من خليطى ساج وعاج ، مزدوجين أحسن أزدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه .

أبو الفتح : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف فى الحساب!

(ويمضى أبو الفتح فيقول) .

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت فى الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعنى ويصيح (يا أبا الفتح ، المضيرة ، يا أبا الفتح) وظن الصبيان المضيرة لقبا فصاحوا صياحه ، ورميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقى رجل الحجر بعمامته ، فغاص فى هامته ، فأخذت من النعال بما قدم وحدث ، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت إلى الحبس، فأقمت عامين فى ذلك النحس ،فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت، فهل أنا فى ذا يا آل همدان ظالم ؟

قال عيسى بن هشام :

فقبلنا عذره ، ونذرنا نذره ، وقلنا : قديماً جنت المضيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الأخيار !

٣ — ومن الفكاهات التى صيغت صياغة فنية ما كتبه أبو الخطاب الصابى فى صفة حمَلَ أهداه إليه أبو العباس بن سابور :

« وصلت رقعتك ففضضتها عن خط مشرق ، ولفظ مونق ، وعبارة مصيبة ، ومعان غريبة ، واتساع فى البلاغة يعجز عنه عبد الحميد فى كتابته ، وسحبان فى خطابته ، وتصرف بين جدّ أمضى من القدَر ، وهزل أرق من نسيم السحَر، وتقلب فى وجوه الخطاب ، الجامع

للصواب ، إلا أن الفعل قصر عن القول: لأنك ذكرت حملا ، جعلته بصفتك جملا ، فكان المعيدىّ الذى تسمع به ولا أن تراه. وحضر فرأيت كبشاً متقادم الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد أفنته الدهور ،وتعاقبت عليه العصور ، فظننته أحد الزوجين اللذين جعلهما نوح فى سفينته ، وحفظ بهما جنس الغنم لذريته ، صغر عن الكبر ، ولطف عن القدم ، فبانت دمامته ، وتقاصرت قامته ، وعاد ناحلا ضئيلا ، باليًا هزيلا ، بادى السقام ، عارى العظام ، جامعاً للمعايب ، مشتملا على المثالب ، يعجب العاقل من حلول الحياة به ، وتأتّى الحركة فيه ، لأنه عظم مجلد ، وصوف ملبد . لا تجد فوق عظامه سلباً ، ولا تلقى يدك منه إلا خشباً . لو ألقى إلى السبع لأباه ، ولو طرح إلى الذئب لعافه وقلاه ، قد طال للكلأ فقده ، و بعد بالمرعى عهده ، لم ير القت إلا نائماً ، ولا عرف الشعير إلا حالماً . وقد خيرتنى بين أن أقتنيه فيكون فيه غنى الدهر ، أو ذبحه فيكون فيه خصب الرحل ، فملت إلى استبقائه لما تعرف من محبتى فى التوفير ، ورغبتى للتثمير ، وجمعى للولد ، وادخارى للعتد ، فلم أجد فيه مستمتعاً للبقاء ، ولا مدفعاً للفناء ، لأنه ليس بأنثى فتحمل ، ولا بفتى فينسل ، ولا بصحيح فيرعى ، ولا بسليم فيبقى ، فملت إلى الثانى من رأييك ، وعولت على الآخر من قوليك ، وقلت : أذبحه فيكون وظيفة للعيال ، وأقيمه رطباً مقام قديد الغزال، فأنشدنى وقد أضرمت النار ، وحدّت الشفار ، وشمر الجزار :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وقال : ما الفائدة لك فى ذبحى ، وأنا لم يبق منى إلا نفس خافت ، ومقلة إنسانها باهت لست بذى لحم فأصلح للأكل ، لأن الدهر قد أكل لحمى ، ولا جلدى يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت أدمى ، ولا لى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصّت و برى ! ! فإن أردتنى للوقود فكف بعر أبقى من نارى ، ولن تفى حرارة جمرى بريح قتارى ! فلم يبق إلا أن تطلبنى بذحل ، أو بينى و بينك دم ! فوجدته صادقا فى مقالته ، ناصحاً فى مشورته ، ولم أعلم من أى أمريه أعجب ؟ أمن مماطلته الدهر بالبقاء ؟ أم صبره على الضر واللأواء ؟

أم قدرتك عليه مع إعواز مثله ، أم تأهيلك الصديق به مع خساسة قدره ! و ياليت شعرى إذ كنت و إليك سوق الغنم ، وأمرك ينفذ فى الضأن والمعز،وكل كبش سمين ، وحمل بطين، مجلوب إليك ، مقصور عليك ، تقول فيه قولا فلا تردّ ، وتريده فلا تصدّ ، وكانت هديتك هذا الذى كأنه ناشر من القبور ، أو قائم عند النفخ فى الصور ، فما كنت مهديا لوأنك رجل من عرض الكتاب ، كأبى على وأبى الخطاب ، ما كنت تهدى إلا كلباً أجرب ، أو قرداً أحدب !! »[1] .

٤ — وكتب أبو إسحاق الصابى يعزى أبا بكر بن قريعة عن ثور أبيض جلس للعزاء عليه تراقعاً وتحامقاً :

« التعزية على المفقود — أطال الله بقاء القاضى ! — إنما تكون بحسب محله من فاقده ، من غير أن تراعَى قيمته ، ولا قدره ، ولا ذاته ، ولا عينه ، إذ كان الغرض منها تبريد الغلة ، و إخماد اللوعة ، وتسكين الزفرة، وتنفيس الكربة ، فربّ ولد عاق،وأخ مشاق ، وذى رحم أصبح لها قاطعاً ، وقريب قوم قد قلدهم عاراً ، وناط بهم شناراً ، فلا لوم فى ترك التعزية عنه وأحرِبها أن تكون تهنئة بالراحة منه . ورب مال صامت غير ناطق ، قد كان صاحبه به مستظهراً ، وله مستثمرا،فالفجيعة به إذا فقد موضوعة موضعها ، والتعزية عنه واقعة منه موقعها وقد بلغنى أن القاضى أصيب بثور كان له فجلس للعزاء عنه شاكياً ، وأجهش عليه باكياً ، وللندم عليه والهاً ، وحكيتْ عنه حكايات فى التأبين له ، و إقامة الندبة عليه، وتعديد ما كان من فضائل البقر التى تفرقت فى غيره ، واُجتمعت فيه وحده ، فكان كما قال أبونواس ، فى مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحدِ

لأنه يكرب الأرض مغمورة ، و يثيرها مزروعة ، و يدور فى الدواليب ساقياً ، وفى الأرحاء طاحناً،و يحمل الغلات مستقلا ، والأثقال مستخفاً ، فلا يؤوده عظيم،ولايعجزه جسيم ولايجرى فى الحائط مع شقيقه ولا فى الطريق مع رفيقه ، إلا كان جلداً لا يسبق ، ومبرزاً

---

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٣

لايلحَق ، وفائتنا لاينال شأوه وغايته ، ولايبلغ مداه ونهايته . و يشهد الله أن ماساءه ساءنى ، وما آلمه آلمنى . ولم يجز عندى فى حق وده ، استصغار خطب جل عنده فأرمضه وأرقه ، وأمرضه وأقلقه ؛ فكتبت هذه الرقعة فأصابها من الجوى فى مصابه هـذا بقدر ما أظهر من إكباره إياه ، وأبان من إعظامه له ، وأسأل الله تعالى أن يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر ، عن البقر ، وأن يفرد هذه البهيمة العجماء بأثرة من الثواب ، يضيفها إلى المكلفين من ذوى الألباب ، فإنها و إن لم تكن منهم ، فقد اُستحقت أن لاتفرد عنهم ، بأن مس القاضى سببها ، وصار إليه منتسبها ، حتى إذا أنجز الله ما وعد به من تمحيص سيآتهم ، وتضعيف حسناتهم ، والإفضاء بهم إلى الجنة التى رضيها لهم داراً ، وجعلها لجماعتهم قراراً ، وأورد القاضى أيده الله تعالى موارد أهل النعيم ، مع أهل الصراط المستقيم ، جاء وثوره هـذا مجنوب معه ، مسموح له به ! وكما أن الجنة لايدخلها الخبث ، ولا يكون من أهلها الحدث ، ولـكنه عَرَق يجرى من أعراضهم ؛ كذلك يجعل الله ثور القاضى مركباً من العنبرالشحرىّ ، وماء الورد الجورىّ ، فيـكون له جونة عطر ونور ! وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر ، ولا مستصعب ولا متعذر ، إذ كانت قدرته بذلك محيطة ، ومواعيده لأمثاله ضامنة ، بما أعده الله فى الجنة لعباده الصادقين ، وأوليائه الصالحين ، من شهوات أنفسهم ، وملاذ أعينهم ، ما هو منحة من غامر فضله ، وفائض كرمه لاعاقبة ذلك مع صالح مساعيه ، ومحمود شيمه ، وقلبى بمعرفة خبره — أدام الله عزه ! — فيما أُدرعه من شعار الصبر ، وأُحتفظ به من إيثار الأجر ، ورفع إليه من السكون لأمر الله تعالى فى الذى طرقه ، والشكر له فيما أزعجه وأقلقه ؛ فليعرفنى القاضى من ذلك ما أكون ضاربا معه بسهم المساعـدة عليه ؛ وآخـذا بقسط المشاركة فيه »(١) .

٥ — ومن أظرف ما كتب على طريق الهزل والفـكاهة « عهد التطفل » وهو عهد أنشأه أبو إسحاق الصابى على لسان طفيلى اسمه (عليكا) كان يقع على مائدة معين الدولة بن بويه . والظريف فى هذا العهد أنه يجرى على نمط العهود السلطانية فيبدأ بعرض خصائص المعهود إليه ؛ و يعين المهمات التى كتب من أجلها العهد فيقول :

(١) راجع جواب الخطاب فى زهر الآداب ج ٤ ١٠٣

« هـذا ما عهد به علىّ بن أحمد المعروف بعليكا إلى على بن عرس الموصلى ، حين استخلفه على إحياء سننه ، واُستنابه فى حفظ رسومه ، من التطفل على أهل مدينة السلام ومايتصل بها من أرباضها وأكنافها ،ويجرى معها فى سوادها وأطرافها ، لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ورآه أهلا له من سد مكانه...».

ثم يأخذ الأمر بالجد فيقول :

« أمره بتقوى الله التى هى الجانب العزيز والحرز الحريز ، والركن المنيع ، والطود الرفيع ، والعصمة الكالئة ، والجنة الواقية ، والزاد النافع يوم المعاد . . . وأن يستشعر خيفته فى سره وجهره ، و يراقبه فى قوله وفعله ... » .

و بعد كلام طويل فى هذه النصائح الجدية ينتقل إلى صدر الموضوع فيقول :

« وأمره أن يتأمل اُسم التطفيل ومعناه، و يعرف مغزاه ومنحاه...فإن كثيراً من الناس قد استقبحه ممن فعله ؛ وكرهه لمن استعمله ، ونسبه فيه إلى الشره والنهم ، وحمله منه على التنفه والقرم ، فمنهم من غلط فى استدلاله، فأساء فى مقاله ، ومنهم من شح على ماله ، فدافع عنه باحتياله ، وكلا الفريقين مذموم ، وجميعهما ملوم ، ومنهم الطائفة التى ترى فيها شركة العنان فهى تتدله إذا كان لها ؛ وتتدلى عليه إذا كان لغيرها، وترى أن المنة فى المطعم للهاجم الآكل وفى المشرب للوارد الواغل ، وهى أحق بالحرية، وأخلق بالخيرية ... وقد عُرفتَ بالتطفيل ولا عار فيه عند ذوى التحصيل ؛ لأنه مشتق من الطَّفَل وهو وقت المساء ، وأوان العشاء ، فلما كثر استُعمل فى صدر النهار وعجزه ،وأوله وآخره ؛ كما قيل للشمس والقمر: قمران وأحدهما القمر ، ولأبى بكر وعمر : العمران وأحدهما عمر ؛ وقد سبق إمامنا (بيّان)[1] رحمة الله عليه إلى هذا الأمر سبقاً أوجب له خلود الذكر ، فهو باق بقاء الدهر، ومتجدد فى كل عصر وما نعرف أحداً نال من الدنيا حظاً من حظوظها فبقى له منه أثر يخلفه وصيت يستبد به

(١) لانذكر أنا اطلعنا على شى من نوادر (بيان) هـذا ولكن يظهر أنه كان من الشخصيات المشهورة بالتطفل فى الأزمان الماضية .

إلا هو وحده ، فبيَّان رضوان الله عليه[١] يذكر بتطفيله كما تذكر الملوك بسيرها فمن بلغ إلى نهايته ، أو جرى إلى غايته ، سعد بغضارة عيشه فى يومه ، ونباهة ذكره فى غده . جعلنا الله جميعاً من السابقين إلى مداه ، والمذكورين كذكراه ! » .

ويقول فيمن يجب أن يغشاهم المتطفلون :

« وأمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بغزاياه ، وسُمُط الأمراء والوزراء بسراياه ، فإنه يظفر منها بالغنيمة الباردة ، ويصل عليها إلى الغريبة النادرة ، وإذا استقراها وجد فيها من طرائف الألوان ، الملذة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائغة فى الحلقوم ، مالا يجده عند غيرهم ، ولا يناله إلا لديهم ، لحذق صناعتهم ، وجودة أدواتهم ، وانزياح عللهم ، وكثرة ذات بينهم ، والله يوفر من ذلك حظنا ، ويسدد نحوه لحظنا ، ويوضح عليه دليلنا ، ويسهل إليه سبيلنا » .

ويقول فى أخلاق الموسرين من التجار :

« وأمره أن يعرض لموسرى التجار ، ومجهزى الأمصار ، من وكيرة[٢] الدار ، والعرس والإعذار[٣] ، فإنهم يوسعون على نفوسهم فى النوائب ، بحسب تضييقهم عليها فى الراتب ، وربما صبروا على تطفيل المتطفلين ، وأغضوا فى تجهم الواغلين ، ليتحدثوا بذلك فى مجالسهم الرذلة ، ويعدوه فى مكارم أخلاقهم النذلة ، ويقول قائلهم الباجح باتساع طعامه ، المباهى بكثرة حطامه : إننى كنت أرى الوجوه الغريبة فأطعمها ، والأيدى الممتدة فأملؤها . وهذه طائفة لم ترد بما فعلته الكرم والسعة ، وإنما أرادت المن والسمعة فإذا اهتدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بغيته من إعلان قضيتها ، وفاز بمراده من ذخائر حسنتها ، إن شاء الله» .

ويقول فيما يجب على المتطفل من مصادقة المدبرين والطباخين والحمالين :

« وأمره أن يصادق قهارمة[٤] الدور ومدبريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم

(١) تأمل الفكاهة فى عبارة (رضوان الله عليه) . (٢) الوكيرة طعام يعمل ابتهاجا بالفراغ من بناء البيت (٣) الإعذار : الختان ، وهو أيضا تقديم طعام الختان .
(٤) القهارمة: جمع قهرمان وهو رئيس الخدمة المنزلية .

ومعارفهم . و إذا عدّت هذه الطائفة أحداً من الناس خليلا من خلانها ، واتخذته أخا من إخوانها ، سعد بمرافقتها ، ووصل إلى محابِّه من جهاتها ، ومآربه فى جنباتها » .

وأوصاه بعد ذلك أن يتعهد الأسواق ليتوسم من يتهيأون لإقامة الولائم . ونصحه بأن ينصب الأرصاد على منازل المغنين والمغنيات ، وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين ، ومحافل الرعاع المقترين ، لأن التطفيل على المعوزين إجحاف ، وفيه إزراء بمروءة المتطفلين !

ثم قال فى سياسة الأكل :

« وأمره أن يحزر الخوان إذا وضع، والطعام إذا نقل، حتى يعرف بالحدس والتقريب، والبحث والتنقيب ، عدد الألوان فى الكثرة والقلة ، وافتنانها فى الطيب واللذة ، فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها ، و ينتهى منها عند انتهائها ، ولا يفوته النصيب من كثيرها وقليلها ، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها ، ومتى أحس بقلة الطعام ، وعجزه عن الأقوام ، أمعن فى أوله إمعان الكيّس فى سعيه ، الرشيد فى أمره ، المالىء لبطنه ، من كل حار وبارد وخبيث وطيب ، فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأغمار الذين يكمّون تطرفا ، ويُقلّون تأدبا ، و يظنون أن المادة تبلغهم فى آخر أمرهم ، وتنتهى بهم إلى غاية سعيهم ، فلا يلبثوا أن يخجلوا خجلة الوائب ، و ينقلبوا بحسرة الخائب . أعاذنا الله من مثل مقامهم ، وعصمنا من شقاء جدودهم ، إن شاء الله ! » .

ثم قال يوصيه باحتمال الضيم فى سبيل البطن :

«وأمره أن يروض نفسه و يغالط حسه ، و يضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً ،و يطوى دونه كشحاً ، و يستحسن الصمم عن الفحشاء ، و إن أتته اللكزة فى حلقه ، صبر عليها فى الوصول إلى حقه ، و إن وقعت به الصفعة فى رأسه ، صبر عليها لموقع أضراسه ، و إن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء ، إذ كان قد ولج الأبواب ، وخالط الأسباب ، وجلس مع الحضور ، وامتزج بالجمهور ، فلا بد أن يلقاه المنكر لأمره ، و يمر به المستغرب لوجهه ، فإن كان حراً حيياً أمسك وتذمم، و إن كان فظاً غليظاً همهم وتكلم ، وتجنب عند ذلك المخاشنة، واستعمل مع المخاطب له الملاينة ، ليبرّد غيظه ، و يفل حده ، و يكف غربه ، و يأمن شغبه،

ثم إذا طال المدى تكررت الألحاظ عليه فعرف ، وأنست النفوس به فألف ، ونال من الحال المجتمع عليها ، منال من حشم وسئل الذهاب إليها .

وقد بلغنا أن رجلا من العصابة كان ذا فهم ودراية ، وعقل وحصافة ، طفل على وليمة لرجل ذى حال عظيمة . فرمقته فيها من القوم العيون . وصرفت بهم فيه الظنون ، فقال له قائل منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعى إلى هذا الحق ، فقيل له : وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : إذا رأيت صاحب الدار عرفنى وعرفته نفسى . فجيء به إليه . فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك أن يصنع طعاماً زائداً على عدد الحاضرين ، ومقدار حاجة المدعوين ؟ قال : نعم ! قال : فإنما تلك الزيادة لى ولأمثالى وبها يستظهر لمن جرى مجراى ؛ وهى رزق لنا أنزله الله على يدك وبك . فقال له : كرامة ورحباً ، وأهلا وقربا ! والله لا جلست إلا مع علية الناس ووجوه الجلساء ، إذ أطرفت فى قولك ، وتفننت فى فعلك . فليكن ذلك الرجل إماما يقتدى به ، إن شاء الله ! »

وأوصاه بعد ذلك أن يكثر من تعاهد الأشياء المقوية للمعدة المشهية للطعام « فإنها عماد أمره وقوامه . وبها انتظامه والتئامه » إذ كانت تعين على حضور دعوتين . وتنهض المتطفل لأن يأكل فى اليوم الواحد أكلتين !

وختم عهد التطفل بهذا الختام الطريف :

« هذا عهد عليكا بن أحمد إليك ، وحجته لك وعليك ، لم يألك فيه إرشاداً وتوقيفاً ، وتهذيباً وتثقيفاً ، وبعثاً وتبصيراً ، وحقاً وتذكيرا ، فكن بأوامره مؤتمراً ، وبزواجره مزدجراً ، ولرسومه متبعا ، وبحفظها مضطلعاً ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » (١) .

٦ — وذوق الفكاهة يغلب على كتاب القرن الرابع . ولكن المهم فى هذا الفصل أن يعرف القارىء أنهم كانوا يعمدون إلى هذا الفن . وعهد التطفل الذى لخصناه يدل أوضح الدلالة على أن الفكاهة صارت فناً من فنون القول . وكان بودنا أن نكثر من الشواهد . ولكن هذا الباب فى جملته لا يراد منه إلا عرض النواحى البارزة فى الأساليب والأغراض .

(١) صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٦٠ — ٣٦٥

٥ – النسيب

١ — النسيب من الموضوعات التى احتكرها الشعر عند العرب . وتلك نزعة طبيعية : فإن النسيب والغزل من أرق ألحان الغناء . وذلك يفرض أن تؤدَّى تلك المعانى فى كلام مقفًّى موزون . ولم نجد فى المجموعات الأدبية مختارات نثرية فى النسيب ، لأن مصنفى المجموعات كانوا يفهمون أن الغزل لا يخرج عن الأنفاس الشعرية .

غير أننا نجد فى النثر لأقدم عهوده نماذج غزلية ، كالذى وقع فى القرآن وصفاً للحور والولدان ، نحو :

« وحُورٌ عِين[1] كأمثال اللؤلؤ المكنون »

ونحو :

« ويطوف عليهم ولدان مخلَّدون ؛ بأكواب وأباريق ؛ وكأس من معين »

وكما جاء فى سورة الوقعة :

« إنا أنشأناهن إنشاء : فجعلناهن أبكاراً ، عُرُبا[2] أتراباً » .

فهذه كلها أوصاف تدخل فى باب النسيب ، ونسب إلى إحدى النساء حديث فى وصف الرسول هو أيضا نسيب لأنها تكلمت عن أوصافه الحسية التى تعين أنه إنسان جميل ، ووصف الجمال من ألوان النسيب .

٢ — ثم جاء القصَصَ الغرامى الذى شاع فى عصر بنى أمية وأوّل عصر بنى العباس .

---

(١) الحور ــ جمع حوراء بالتحريك ــ وهو أن يشتد بياض بياض العين وسواد سوادها وتستدير حدقتها وترق جفونها . والعين ــ جمع عيناء ــ وهى سوداء العين فى سعة .

(٢) العرب ــ جمع عروب ــ وهى العاشقة لزوجها أو المتحببة إليه .

وهو قصص كثير تجد أطايبه مبعثرة فى كتب الأدب هنا وهناك ، وفيه فقرات من الغزل الصرف تؤدى مايؤديه الشعر من مليح الأوصاف ، وإلى القارئ شاهداً من تلك الأقاصيص :

« خرج أناس من بنى حنيفة يتنزهون إلى جبل لهم ، فبصر فتى منهم يقال له عباس بجارية فهويها ، وقال لأصحابه : والله لا أنصرف حتى أرسل إليها ، فطلبوا إليه أن يكف وأن ينصرف معهم فأبى، وأقبل يراسل الجارية حتى وقع فى نفسها، فأقبل فى ليلة إضحيانة[1] متنكباً قوسه وهى بين إخوتها نائمة ، فأيقظها فقالت : انصرف ، و إلا أيقظت إخوتى فقتلوك . فقال : والله للموت أيسر مما أنا فيه . ولكن لله على إن أعطيتينى يدك حتى أضعها على فؤادى أن أنصرف . فأمكنته من يدها ، فوضعها على فؤاده ثم انصرف . فلما كان من القابلة أتاها وهى فى مثل حالها ، فقالت له مثل مقالتها ، ورد عليها وقال : إن أمكنتينى من شفتيك أرشفهما انصرفت ثم لا أعود إليك . فأمكنته من شفتيها فرشفهما ثم انصرف . فوقع فى قلبها منه مثل النار . ونذر به الحى[2] فقالوا : مالهذا الفاسق فى هذا الجبل ! انهضوا بنا إليه حتى نخرجه منه . فأرسلت إليه : إن القوم يأتونك الليلة فاحذر . فلما أمسى قعد على مرقب ومعه قوسه وأسهمه . وأصاب الحىّ من آخر النهار مطرٌ وندى فلهوا عنه ، فلما كان فى آخر الليل وذهب السحاب وطلع القمر خرجت وهى تريده وقد أصابها الطل فنشرت شعرها وأعجبتها نفسها ومعها جارية من الحى ، فقالت : هل لك فى عباس ؟ فخرجتا تمشيان ، ونظر إليهما وهو على المرقب فظن أنهما ممن يطلبه ، فرمى بسهم فما أخطأ قلب الجارية ففلقه! وصاحت الأخرى فانحدر من الجبل و إذا هو بالجارية فى دمها، فقال :

نعب الغراب بما كرهـت ولا إزالة للقـدر
تبكى وأنت قتلتها فاصبر و إلا فانتحر

(١) إضحيانة : مقمرة .
(٢) نذر به الحى : علموا به .

« ثم وجأ [١] فى أوداجه بمشاقصه [٢] ، وجاء الحى فوجدوهما مقتولين » [٣] .

ففى هذه الأقصوصة تعابير غزلية لا تخفى على فطنة القارئ .

٣ — ويتصل بهذا الفن ما جاء فى وصف المخطوبات كقولهم أحدهم لصاحبه :

« ابغنى امرأة بيضاء البياض ، سوداء السواد ، طويلة الطول ، قصيرة القصر » [٤] .

وقول آخر :

«ابغنى امرأة لا تؤهل داراً [٥] ، ولا تؤنس جاراً [٦] ، ولا تنفث ناراً [٧] » .

وقول إعرابى لابن عمه:

« أطلب لى امرأة بيضاء، مديدة [٨] فرعاء [٩] ، جعدة [١٠] تقوم فلا يصيب قميصها منها إلا مشاشة [١١] منكبيها ، وحلمتى ثدييها ، ورانفتى [١٢] أليتيها ، ورضاف ركبتيها ، إذا استقلت فرميت تحتها بالأترجة [١٣] العظيمة نفذت من الجانب الآخر »

فقال له ابن عمه : وأنىّ بمثل هذه إلا فى الجنان ! [١٤]

٤ — وأثرت عن الأعراب كلمات غزلية كقول أحدهم فى وصف الهوى :

«هو أعظم ملكا فى القلب من الروح فى الجسم ، وأملك بالنفس من النفس ؛ يظهر ويبطن ، ويكثف ويلطف ، فامتنع عن وصفه اللسان ، وعمىّ عنه البيان ، فهو بين السحر والجفون ، لطيف المسلك والكمون » [١٥] .

---

(١) وجأ : ضرب . (٢) المشاقص جمع مشقص وهو نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض . (٣) راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ١٣٣ و ٣٤ . (٤) يريد : كل شىء منها أبيض فهو شديد البياض ، وكل شى منها أسود فهو شديد السواد . وكذلك الطول والقصر — راجع عيون الأخبار ج ٤، ص ٥ (٥) لا تجعل دارها آهلة بدخول الناس عليها .
(٦) لا تؤنس الجيران بدخولها عليهم . (٧) أى لا تنم ولا تعرى بين الناس — راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ (٨) طويلة . (٩) الفرعاء : ذات الفرع وهو الشعر .
(٩) جعدة : مجتمعة الخلق . (١١) المشاشة : رءوس العظام . (١٢) مثنى رانفة وهى أسفل الألية الذى يلى الأرض عند القعود . (١٣) الأترجة : ثمر شجر من جنس الليمون .
(١٤) راجع عيون الأخبار ج ٤ ص ٥ و ٦ (١٥) زهر الآداب ج ٤ ص ٩٢

وسمع الأصمعىّ امرأة من العرب تصف امرأة وهى تقول :

« بيضاء غضة[١] ، وذماء[٢] رخصة[٣] ، قباء طفلة ، تنظر بعينى شادن ظمآن ، وتبسم عن منثور الأقحوان ، فى غب التهتان ، بأساريع[٤] الكثبان ، خلقها عميم ، وكلامها رخيم ».

ووصف أعرابى امرأة يحبها فقال:

« هى زينة الحضور ، وباب من أبواب السرور ، ولذكرها فى المغيب ، والبعد من الرقيب ، أشهى الينا من كل ولد ونسيب ، بها عرف فضل الحور العين واشتيق بها إليهن يوم الدين » .

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت:

« لا متع الهوى بملكه ، ولا ملّى بسلطانه ! وقبض الله يده ، وأوهن عضده ! فإنه جائر لا ينصف فى حكم ، ولا يقصر فى ظلم ، ولا يرعوى للذم ، ولا ينقاد لحق ، ولا يبقى على عقل وفهم . لو ملك الهوى وأطيع لردّ الأمور على أدبارها ، والدنيا على أعقابها » .

وقال أعرابى :

« دخلت بغداد فرأيت فيها عيونا دعجاً[٥] ، وحواجب زجًّا[٦] ، يسحبن الثياب ، ويسلبن الألباب » .

وقال رجل من فزارة لرجل من بنى عذرة : تعدون موتكم فى الحب مزية ، وإنما ذلك من ضعف البنية ، وعجز الروية .

فقال العذرى : أما أنكم لو رأيتم المحاجر البلج[٧] ، ترشق بالأعين الدعج ، فوقها الحواجب الزج ، وتحتها المباسم الفلج[٨] ، والشفاه السمر ، تفتر عن الثنايا الغر ، كأنها برد الدر ، لجعلتموها اللات والعزى ورفضتم الإسلام وراء ظهوركم » .

---

(١) غضة : بضة . (٢) ذماء : جسمها ريان . (٣) رخصة : لينة (٤) الأساريع : جمع أسروع ، وهو نوع من دود الرمل تشبه به الأنامل . (٥) الدعج : جمع دعجاء ، من الدعج بالتحريك وهو سواد العين مع سعتها . (٦) زج جمع أزج ، من الزج بالتحريك وهو دقة الحاجبين فى طول . (٧) البلج جمع أبلج وهو الأبيض.

(٨) الفلج جمع أفلج بالتحريك وهو تباعد مابين الأسنان .

وذكر أعرابى نساء فقال :

« ظعائن فى سوالفهن طول ، غير قبيحات العطول[1] ، إذا مشين أسبلن الذيول ، وإن ركبن أثقلن الحمول » .

ووصف آخر نساء فقال :

« يتلثمن على السبائك ، ويتشحن على النيازك[2] ، ويتزرن على العوانك[3] ، ويرتفقن على الأرائك ، ويتهادين على الدوانك ، ابتسامهن وميض ، عن ثغر كالإغريض ، وهن عن الصبا صُوْر[4] ، وعن الحيا حُوْر » .

٥ — ولم نجد فيما طالعناه رسالة غرامية لأحد كتاب القرن الأول ، أما القرن الثانى فنجد فيه شواهد ، من ذلك ما حدّث مخارق المغنى إذ قال :

« لقينى أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم[5] قبل نسكه فقال : أنا والله صب بك ، ولوع إليك ، مغمور القلب بشكرك ، واللسان بذكرك ، متشوف إلى رؤيتك ومفاوضتك ، وقد طالت الأيام على ما أعد به نفسى من الاجتماع معك . ومن قضاء الوطر منك . فما عندك . أنا الفداء لك ! أتزورنى أم أزورك ؟ قلت : جعلنى الله فداك ! ما يكون عند من هو منك بهذا الموضع ، وفى هذا المحل ، إلا الأنقياد إلى أمرك ، والسمع والطاعة لك ، ولولا أن أسىء الأدب فى أمر بدأت فيه بالفضل لقلت إن كثير ما أبتدأت به من القول يقل عما عندى من الشوق إليك ، والشغف بك ، فوجبت لك به المنة علىّ ، وأنا بين يديك : فاثن عنانى إلى ما أردت ، وقدنى كيف شئت » .

وكان أبو العتاهية من المفتونين بغناء مخارق ، سمعه يوماً يغنى فجعل يبكى ، ثم قال :

« يا دواء المجانين ! لقد وقفت حتى كدت أن أحسوك ! »[6] .

وهذه العبارة جذوة من جذوات التشبيب .

---

(١) أى أن العطل من الحلى لا يغير من حسنهن . (٢) النيازك : جمع نيزك ، وهو الرمح القصير . (٣) العوانك : جمع عانك أوهو الرمل المعقد . (٤) صور : منحرفات .
(٥) هو أبو العتاهية . (٦) نهاية الأرب ج ٤ ص ٣٣٤

وقال على بن عبيدة الريحانى وقد رأى جارية يهواها :

« لولا البقيا على الضمائر ، لبحنا بما تجنه السرائر ، لكن نيران الحب تتدارك بالإخفاء ، ولا تعاجَل بالإبداء ، فإن دوامها مع إغلاق أبواب الكتمان ، وزوالها فى فتح مصارع الإعلان » .

وقال :

« لولا حركات من الأبتهاج أجد حسها عند رؤيتك فى نفسى لا أعرف لها مثيراً من مظانها إلا مؤانستك لى ، لأبقيت عليك من العناء ، وخففت عنك مؤونة اللقاء . لكنى أجد من الزيادة بك عندى أكثر من قدر راحتك فى تأخرك عنى ، فأضيق عن احتمال الخسران بالوحدة منك » .

والكلمة الأولى غزل خالص ، والثانية بين الغزل والاخوانيات ، ولكنها تفيض بروح النسيب .

وكان علىّ بن عبيدة رقيق الإحساس يتحوّل الودّ عنده إلى عشق ، وهو صاحب هذه الحكمة الغالية :

« اجعل أنسك آخر ما تبذل من ودّك ، ومن الأسترسال منك ، حتى تجد له مستحقاً . فإن الأنس لباس العِرض ، وتحفة الثقة ، وحِباء الأكفاء ، وشعار الخاصة ، فلا تخلق جدّته إلا لمن يعرف قدر ما بذلت له منك »[(١)] .

وكتب إسحاق بن إبراهيم الموصلى إلى علىّ بن هشام القائد :

« جعلت فداك ! بعث إلىّ أبو نصر مولاك بكتاب منك إلىّ يرتفع عن قدرى ، ويقصر عنه شكرى ، فلولا ما أعرف من معانيه ، لظننت أن الرسول غلط بى فيه ، فما لنا ولك يا أبا عبد الله ، تدعنا حتى إذا نسينا الدنيا وأبغضناها ، ورجونا السلامة من شرها ، أفسدت قلوبنا ، وعلقت أنفسنا ، فلا أنت تريدنا ، ولا أنت تتركنا ! .

وما ذكرته من شوقك إلىّ لولا أنك حلفت عليه لقلت :

(١) زهر الآداب ص ١٨٥ ج ١

يا من شـكا عبثاً إلينا شوقه   شـكوى المحب وليس بالمشتاق
لو كنت مشتـاقاً إلىّ تريدنى   ما طبت نفساً سـاعة بفراق
وحفظتنى حفظ الخليـل خليله   ووفيت لى بالعهـد والميثاق
هيهات قد حدثت أمور بعدنا   وشغلت باللذات عن إسحاق

قد تركت ، جعلت فداك ، ما كرهت من العتاب فى الشعر وغيره وقلت أبياتاً لاأزال أخرج بها إلى ظهر المر بدوأستقبل الشمال وأتنسم أرواحكم فيها ثم يكون ما الله أعلم به، و إن كنت تكرهها تركتها إن شاء الله :

ألا قد أرى أن الثواء قليـلُ   وأنْ ليس يبقى للخليل خليـلُ
و إنى و إن مُلِّيت فى العيش حقبة   كذى سفر قد حان منه رحيل
فهل لى إلى أن تنظر العين مرة   إلى ابن هشام فى الحياة سـبيل
فقد خفت أن ألقى المنايا بحسرة   وفى النفس منه حاجة وغليـل

وأما بعد فإنى أعلم أنك و إن لم تسأل عن حالى تحب أن تعلمها ، وأن تأتيك عنى سلامة فأنا يوم كتبت إليك سالم البدن ، مريض القلب ... الخ »[(١)] .

والشعر فى هذه الرسالة أغلب ، وفقاً للتقاليد الأصلية فى النسيب .

وقال أحمد بن يوسف : كتب غلام من ولد أنو شروان ممن كان أحد غلمان الديوان إلى آخر منهم وكان قد علق به وكان شديد الكلف به والمحبة له :

« ليس من قدرى ، أدام الله سعادتك، أن أقول لمثلك جعلت فداك ، لأنى أراك فوق كل قيمة نضيرة ، وثمن معجز ، ولأن نفسى لا تساوى نفسك ، فتقبل فىّ فديتك على كل حال ، فجعلنى الله فداء ساعة من أيامك ! اعلم أيها السيد العلىّ المنزلة أنه لو كان لعبدك من شدّة الخطب أمر يقف على حدّه النعت لأجتهد أن يصف من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قلبك، وتحنو على الرقة والتحفى أثناء جوانحك، ولـكن الذى أصبحت وأمسيت ممتحنا

---

(١) ياقوت ص ٢١٩ و ١٢٠ ج ٢

به فيك منع من كل بيان ، ونزع عن كل لسان . والحب ، أيها الملك ، لم يشبه قذى ريبة ، ولم يختلط به قلب معاب ، فلا ينبغى لمن كرمت أخلاقه أن يعاف مقاربة صاحبه المدل بحزم نيته ، والذى أتمناه أيها المولى اللطيف مجلس أقف فيه أمامك ، ثم أبوح بما أضنى جسدى، وفتت كبدى، فإن خف ذلك عليك، ورأيت نشاطاً من نفسك إليه ، كنت كمن فك أسيراً، وأبرأ عليلا ، وسلك من الخير سبيلا يتوعر سلوكها على من كان قبله ، ويكون بعده ، ثم أضاف إلىّ منة لا يطيقها جبل راس ولا فلك دائر . فرأيك أيها السيد المعتمد الإسعاف قبل أن يبذرنى الموت فيحول بينى و بين ما خدعت إليه النفس مواصلا براً . إن شاء الله تعالى » .

فأجابه :

«تولى الله ما جرى به لسانك بالمزيد، ولا أوحش ما بيننا بطائر فرقة ، ولا حافر تشتت، وضمنا و إياك فى أوثق حبال الأنس، وأوكد أسباب الألفة . وقفت على ما لخصته من العجز عن بلوغ ما خامر قلبك، وانطوى فى ضميرك، من الشغف المقلقل، والهوى المضْرِع ، ولعمرى لو كشف لك عن معشار ما عليه مضمر صدرى ، لأيقنت أن الذى عندك إذا نسبته إلى ما عندى كالمتلاشى الزائل . ولكنك بفضل الإنعام سبقتنا إلى كشف ما فى الضمير . وأما طاعتى لك ، وذمامى إليك ، فطاعة العبد المقتنى ، الطائع لما يحكم له وعليه مولاه ومالكه . وأنا سائر إليك وقت كذا ، فتأهب لذلك بأجهد عافية ، وأتم عاقبة ، وأسعد نجم جرى بالألفة إن شاء الله تعالى »[1] .

وهذا ، كما يرى القارىء ، غزل عفيف يفيض بأرق أنفاس الوجدان .

وفى نسبته إلى غلمان من أولاد أنو شروان دليل على أن هذا الفن وصل إلى العرب من الفرس، والفرس المستعربون نقلوا إلى اللغة العربية فنوناً من القول كان يتحرّج منها العرب، فهم الذين أذاعوا غزل المذكر فى الشعر ، وهم كذلك الذين أذاعوه فى النثر ، لأن هذه

---

(١) راجع ص ١٣٩ و ١٤٠ ج ١ من زهر الآداب .

العواطف الرقيقة كانت مما يتحاماه العرب فى بداوتهم ، فلما تحضروا أقبلوا على هذه الفنون الناعمة التى سبقهم إليها الفرس واليونان بأزمان طوال .

٦ — وفى القرن الثالث نجد الغزل أخذ يظهر فى النثر ، ونرى الجاحظ يكتب إلى إبراهيم ابن المدبر(١) :

« ما ضاء لى نهار ولا دجا ليل ، منذ فارقتك ، إلا وجدت الشوق إليك قد حزّ فى كبدى ، والأسف عليك قد أسقط فى يدى ، والنزاع نحوك قد خان جلدى ، فأنا بين حشا خافقة ، ودمعة مهراقة ، ونفس قد ذبلت بما تجاهد ، وجوانح قد بليت بما تكابد ، وذكرت وأنا على فراش الأرتماض ، ممنوع من لذة الأغتماض ، قول بشار :

إذا هتف القمرىّ نازعنى الهوى ... بشوق فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفـــرق بيننا ... وكنا كماء المزن شِيب مع الشهد
لقـــد كان ما بينى زماناً و بينها ... كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه ، ونجرى فى مودتنا إليه ، فى شعره هذا ، وذكرت أيضاً ما رمانى به الدهر من فرقة أعزائى من إخوانى الذين أنت أعزهم ، ويمتحننى بمن نأى من أحبائى وخلصائى الذين أنت أحبهم وأخلصهم ، ويجرّعنيه من مرارة نأيهم ، وبُعد لقائهم ، وسألت الله أن يقرن آيات سرورى بالقرب منك ، ولين عيشى بسرعة أوبتك ، وقلت أبياتاً تقصر عن صفة وجدى ، وكنه ما يتضمنه قلبى ، وهى :

بخدىَ من قطر الدموع نُدوبُ ... و بالقلب منى مذ نأيت وجيبُ
ولى نَفَس حتى الدجى يصدع الحشا ... ورجع حنـــين للفؤاد مذيب
ولى شاهد من ضر نفسى وسقمه ... يخـــبر عنى أننى لكئيب
كأنىَ لم أفجع بفرقة صـــاحب ... ولا غاب عن عينى سواك حبيب »

---

(١) راجع أخبار هذه الرسالة فى ياقوت ص ٦٧ و ٦٨ ج ٦

وقد قرئت هذه الرسالة فى مجلس ابن المدبر فقال أحد الحاضرين : هذه رقعة عاشق لا رقعة خادم ، ورقعة غائب لا رقعة حاضر ! فضحك ابن المدبر وقال : نحن نتبسط مع أبى عثمان إلى ما هو أدق من هذا وألطف .

وقال ابن المعتز : كان لنا مجلس حظ أرسلت بسببه خادمة إلى قينة فأجابت ، فلما مرت فى الطريق وجدت فيه حارساً فرجعت ، فأرسلت إليها أعاتبها فكتبت إلىّ :

« لم أتخلف عن المسير إلى سيدى فى عشية أمس لأرى وجهه المبارك ، وأجيب دعاءه ، إلا لعلة قد عرفتها فلانة ، ثم خفت أن يسبق إلى قلبه الطاهر أنى قد تخلفت بغير عذر ، فأحببت أن تقرأ عذرى بخطى ، ووالله ما أقدر على الحركة ، ولا شىء أسرّ إلىّ من رؤيتك ، والجلوس بين يديك ، وأنت يا مولاى جاهى وسندى ، لا فقدت سندى ! ولك رأيك فى بسط العذر موفقاً » .

وكتبت فى أسفل الكتاب :

أليس من الحرمان حظ سلبته وأحوجنى فيه البلاء إلى العذر !
فصبراً فما هـــذا بأوّل حادث رمتنى به الأقدار من حيث لا أدرى

فأجابها ابن المعتز :

« كيف أردّ عذر من لا تتسلط التهمة عليه ، ولا تهتدى الموجدة إليه ؟ وكيف أعلمه قبول المعاذير ، ولا آمن بعض جواهره إلىّ يسير إلى انتهاز فرصة فيما عاد إلى الفرطة . فإن سلمت من ذلك فمن يجيرنى من توكله على تقديم العذر ، ووقوعه موقع التصديق فى كل وقت ، فتتصل أيام الشغل والعلة ، وتنقضى أيام الفراغ والصحة ، فتطول مدة الغيبة ، وتدرس آثار المودة »[1] .

وكتب آخر الرقعة :

إذا غبت لم تعرف مكانىَ لذةٌ ولم يلق نفس لهوها وسرورها

(١) زهر الآداب ص ٢٧ ج ٤

وبدّلت سمعاً واهياً غير ممسك لقول ، وعيناً لا يرانى ضميرها

وفى القرن الرابع يظهر الغزل فى النثر ظهوراً رائعاً بحيث يمكن مقارنة الرسائل الغرامية بأقوى قصائد التشبيب ، ولا يمكن الارتياب فى قدرة كتاب القرن الرابع على إجادة هذا الفن وتفوقهم فيه وتصرفهم فى ضرو به تصرف المبدعين .

وأى حسن فات ابن العميد إذ يقول :

« سألتنى عمن شغفنى وجدى به ، وشغفنى حبى له . وزعمت أنى لو شئت لذهلت عنه ، أو لو أردت لاعتضت منه ، زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم ! كيف أسلو عنه وأنا أراه ، وأنساه وهو لى تجاه ، هو أغلب علىّ ، وأقرب إلىّ ، من أن يرخى لى عنانى ، أو يخلينى واختيارى ، بعد اختلاطى بملكه ، وانخراطى فى سلكه ، و بعد أن ناط حبه بقلبى نائط ، وساطه بدمى سائط ، وهو جار مجرى الروح فى الأعضاء ، متنسم تنسم الروح للهواء ، إن ذهبت عنه رجعت إليه ، و إن هربت منه وقعت عليه ، وما أحب السلو عنه مع هناته ، وما أوثر الخلوّ منه مع ملاته . هذا على أنه إن أقبل على بهتنى إقباله ، و إن أعرض عنى لم يطرقنى خياله ، يبعد عنى مثاله ، و يقرب من غيرى نواله . و يرد عينى خاسية ، و يثنى يدى خالية ، وقد بسط آفات العيون المقاربة ، وصدق مرامى الظنون الكاذبة ، وصله ينذر بصده ، وقربه يؤذن ببعده ، يدنى عند ما ينزح ، و يأسو مثل ما يجرح ، لحالته أحوال ، وخلته خلال ، وحكمه سجال ، الحسن فى عوارفه ، والجمال من منائحه ، والبهاء من أصوله وصفاته ، والسناء من نعوته وسماته ، اسمه مطابق لمعناه ، وفحواه موافق لنجواه (١) » .

وأرسل قابوس بن وشمكير إلى بعض أودّائه :

« كتبت ، أطاء الله بقاء مولاى ، وما فى جسمى جارحة إلا وهى تودّ لو كانت يداً تكاتبه ، ولساناً يخاطبه ، وعيناً تراقبه ، وقريحة تعاتبه ، بنفسى ولهى ، و بصيرة ورهى ،

---

(١) ص ١٣٠ و ١٣١ ج ٤ من زهر الآداب .

وعين عبرى ، وكبد حرى ، منازعة إلى ما يقرب منه ، وتمسكا بما يتصل عنه ، ومثابرة على أمل هو غايته ، وتعلقاً بحبل عهد هو نهايته ، وخاطرى يميل نحوه ، ونفسى تأمل دنوّه ، وترجو وتقول : أتراه ، بل لعله وعساه ، يرق لنفس قد تصاعد نفَسها ، ويرحم روحاً قد فارقها روحها ومؤنسها ، وكيف بقلبه لو عاين صورةً هذه صورتها ، وشاهد مهجةً هذه جملتها ، فليرفق — جعلت فداه ! — بمن عاند برحا عظيما ، وكابد قرحاً أليماً ، وليرق لكبد مزقها البعاد ، وعين أرقها السهاد ، وأحشاء محرقة بنار الفراق ، وأجفان مقروحة بدمعها المهراق ، وقلب فى أوصابه متقلب ، ولب فى عذابه معذب ، فلو أنى أسعدت فأعطيت الرضى ، وخيرت فاخترت المنى ، لتمنيت أن أتصوّر صورتك ، وأطالع طالعتك ، وأمثل لها مثالى لتراه ، فأخبرها بكنه حالى ومعناه ، لترفق لإزالة ما أزله الدهر إلىّ ، ولتتلطف لإماطة ما أماطه علىّ ، وأشكو بعض ما نابنى من نوائبه ، وأطلقنى من أشراكه وحبائله »[1] .

٨ — وأمثال هاتين الرسالتين مما يكثر وجوده فى نثر القرن الرابع ، وهو فن وسط بين الغزل والاخوانيات . وهناك نماذج عديدة من الغزل الصريح ، كالذى تخيره الثعالبى مما جاء فى رسائل معاصريه وصفاً لمحاسن النساء ومحاسن الغلمان . وإلى القارىء شواهد تعيّن مناحيهم فى هذا الباب :

— هى روضة الحسن ، وضرة الشمس ، وبدر الأرض .

— هى من وجهها فى صباح شامس ، ومن شعرها فى ليل دامس ، كأنها فلقة قمر على برج فضة ، بدر التم يضىء تحت نقابها ، وغصن البان يهتز تحت ثيابها .

— ثغرها يجمع الضريب والضرب ، كأنه نثر الدر .

— قد أنبت صدرها ثمر الشباب .

— خرطت لها يد الشباب حقين من عاج .

— كأنها البدر قرط بالثريا ، ونيط بها عقد من الجوزاء .

---

(١) ياقوت ج ٦ ص ١٤٥ و ١٤٦

— أعلاها كالغصن ميال ، وأسفلها كالدعص منهال .

— لها عنق كابريق اللجين ، وسرة كمدهن العاج .

— نطاقها مجدب ، و إزارها مخصب .

— مطلع الشمس من وجهها ، ومنبت الدر من فمها ، وملقط الورد من خدّها ، ومنبع السحر من طرفها ، ومبادى الليل من شعرها ، ومغرس الغصن من قدها ، ومهيل الرمل من ردفها .

— شادن فاتر طرفه ، ساحر لفظه .

— غلام تأخذه العين ، و يقبله القلب ، وترتاح إليه الروح .

— تكاد القلوب تأكله ، والعيون تشر به .

— جرى ماء الشباب فى عوده فتمايل كالغصن ، وأستوفى ماء الحسن ، ولبس ديباجة الملاحة .

— كأن البدر قد ركب على أزراره ، لا يشبع منه الناظر ، ولا يروى منه الخاطر .

— شادن منتقب بالدر ، ومكتحل بالسحر .

— ما هو إلا نزهة الأبصار ، ومخجل الأقمار ، و بدعة الأمصار .

— غمزات طرفه ، تخبر عن ظرفه ، ومنطقته تنطق عن وصفه .

— تخال الشمس تبرقعت غرته ، والليل ناسب أصداغه وطرته .

— الحسن ما فوق أزراره ، والطيب ما تحت إزاره .

— شادن يضحك عن الأقحوان ، و يتنفس عن الريحان .

— له عينان حشو أجفانهما السحر ، كأنه قد أعار الظبي جيده ، والغصن قده ، والراح ريحه ، والورد خده .

— الشكل فى حركاته ، وجميع الحسن بعض صفاته .

— قد ملك أزمّة القلوب ، وأظهر حجة الذنوب ، كأنما وسمه الجمال بنهايته ، ولحظه الفلك ، فصاغه من ليله ونهاره ، وحلاه بنجومه وأقماره ، ونقشه ببدائع آثاره ، ورمقه بنواظر سعوده ، وجعله بالكمال أحد جنوده .

— قد صبغ الحياء غلالة وجهه ، ونشر لؤلؤ العرق عن ورد خده .

— له طرّة كالغسق ، على غرة كالفلق .

— جاءنا فى غلالة تنمّ على ما يستره ، وتحنو مع رقتها على ما يظهره .

— وجهٌ بماء الحسن مغسول ، وطرف بمرود السحر مكحول .

— السحر فى ألحاظه ، والشهد فى ألفاظه ، كأنه خاصم الولدان ، ففارق الجنان .

— اختلس قامة الغصن ، ووشح بمطارف الحسن ، وحكى الروض غب المزن .

— الجنة مجتناة من قربه ، وماء الجمال يترقرق فى خدّه ، ومحاسن الربيع بين سَحره ونحره .

— ما هو إلا خالٌ فى خدّ الظرف ، وطراز على علم الحسن ، ووردة فى غصن الدهر ، ونقش على خاتم الملك ، وشمس فى فلك اللطف[١] .

٩ — وأوضح ما يكون النسيب المنثور إذا اُتصل بأهل الفنون ، كقول أحد الكتاب فى وصف جارية كاتبة :

« كأن خطها أشكال صورتها ، وكأن مدادها سواد شعرها ، وكأن قرطاسها أديم وجهها ، وكأن قلمها بعض أناملها ، وكأن بنانها سحر مقلتها ، وكأن سكينها غنج لحظها ، وكأن مِقطها قلب عاشقها »[٢] .

١٠ — هذا ، ولعل القارئ لاحظ أن أكثر ما مرّ به فى هذا الفصل يرجع إلى غزل المذكر ، وهو كذلك ، فقد تحوّل النسيب فى العصر العباسى إلى هذا الفن ، وقل التشبيب بالنساء أو كاد ، وخفّ خطاب المذكر على ألسن الشعراء ، حتى رأينا من يصف محبوبه ، وهو يعنى محبوبته ، كأن خطاب المذكر أخف فى اللغة وأسهل فى توجيه الضمائر والإشارات أو كأنه متابعة لما يقع من هذا النوع فى اللغة الفارسية .

---

(١) راجع زهر الآداب ج ٣ ص ١٤٧ — ١٤٩ وسحر البلاغة ص ٢٩

(٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٩٣

وقد وضع الراغب الأصفهانى فى محاضراته [١] هـذا العنوان :

« الاستحياء من المحبوب بظهر الغيب لتذكره »

ثم جاء بشواهد من شعر جميل، وأشجع، ومجنون ليلى، وكلها فى المحبوبة لا فى المحبوب[٢].

ولنذكر أن غزل المذكر فى النثر نوع من الثورة على التقاليد الأدبيـة ، فإن أبا هلال يحدثنا أن صاحب الرياسة لو خطب بذكر عشيق له ووصف وجده به وحنينه إليه وشهرته فى حبه و بكاه من أجله لاستهجن منـه ذلك ، ولو قال فى ذلك شعراً لكان حسناً [٣]. فكأن غزل المذكر فى الشعر مستحسن مقبول ، ولكنه فى النثر مستهجن مرذول . فكيف يتفق هـذا مع ما رأيناه من الغزل المنثور فى رسائل ابن العميد ؟ الجواب سهل ، وهو أن أبا هلال يقول : « لو خطب » ولم يقل « لو كتب » ومن الواضح أن من يلقى خطبه فى الحنين إلى معشوق يعد سخيفاً ، ولا كذلك من يحن إلى محبوبه بأوتار القصيد :

ولا ينس القارىء أن موقفنا دائماً موقف المؤرخ ، وليس فى مقدورنا أن نحكم ذوق اليوم ، ذوق القرن الرابع عشر ، فى ذوق القرن الرابع ، فكتاب عصرنا لا يتغزلون بالنثر ومنهم

---

(١) ص ٢٥ ج ٢ (٢) وكتاب العصر الحاضر ، على عكس ذلك ، يفرون من خطاب المذكر فى الغزل ، ويحرفون الكلم عن مواضعه أحيانا : فقد كتب الدكتور طه حسين فصلا عن شعر الأستاذ عباس العقاد تعرض فيه لتحليل إحدى مقطوعاته فقال: «أحسن العقاد وصف صاحبته » مع أن العقاد كان يصف صاحبه لا صاحبته . وكتب الأستاذ الشيخ عبد الله عفيفى فصولا عن شعراء مصر فكان ينفق له كثيراً أن يقول : «وقال فى وصف محبوبته» على حين يتحدث الشاعر عن محبوبه لا محبوبته . وهذا وذاك نوع من التجميل المقبول . والذى يهمنا هو تقييد هذه الظواهر الأدبية لدلالتها على تطور التعابير وفقا لتطور الأذواق .

ومما يحسن ذكره بهذه المناسبة أن المستشرقين الذين اهتموا بترجمة بعض القصائد الفارسية والعربية إلى الفرنسية ينقلون الخطاب من المذكر إلى المؤنث وفقا لتقاليدهم الأدبية فإن الكلام عن المعشوق بالتذكير غير مقبول فى لغة الفرنسيس وقـد اتفق لى وأنا أكتب هذا الكتاب بالفرنسية أن أجارى ذلك الذوق فقهرت بعض الضمائر ونقلتها من المذكر إلى المؤنث للتقاليد الفرنسية . والعرف يطغى أحياناً فيأخذ قوة القانون .

(٣) الصناعتين ص ١٠٤

من يلوّن عواطفه فى شعره وفقاً لتقاليد العصر الحاضر فيخاطب المؤنث وهو يريد المذكر ، كما كان يتفق لبعض القدماء أن يخاطب المذكر وهو يريد المؤنث . ومؤرخ الأدب تفرض عليه الأمانة العلمية أن يصور الأدب كما كان ، لا كما توجب تقاليد عصره أن يكون .

ومما سلف يتبين أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى أخطأ حين قرّر فى مقدّمة كتابه (أوراق الورد) أن العرب لم تؤثر عنهم رسائل الحب ، لتصح دعوى التفرّد بالسبق إلى هذا الفن الجميل ، وهو يقف عند ما كُتب فى الشوق إلى المحبوبة ، وذلك خطأ من الوجهة التاريخية ، فإن أقطاب النثر الفنى وجهوا غزلهم إلى المحبوب . وللأستاذ الرافعى أن يطعن فى هـذا باسم الأخلاق ، أما نحن فنؤرخ الأدب فى حيدة مطلقة ، ونسايره أين سار ، والأدب لا يفرق بين الخير والشر ، ولا يميز بين الجدّ والمجون .

٦ – الاخوانيات

١ — هـــذا الفن لا يحتاج إلى تمهيد مطـول فى بيان أطواره النثرية ، كما صنعنا فى النسيب ، فإنه فن قديم فى اللغة العربية ، وجد فى النثر كما وجد فى الشعر ، غير أنه فى النثر يسمى العتاب .

ومن المؤلفين من يطلق الاخوانيات والعتاب ، بدون تمييز ، على ما يقال شعراً أو نثراً فى مناجاة الأصدقاء .

وقِدَم هـذا الفن فى اللغة العربية لا يمنع أنه صار فى القرن الرابع فناً قوياً يخيل إلى القارىء أنه فن جديد ، لـكثرة ما جدّ فيه من الصور والتعابير . وهو فى جوهره قريب من الغزل لا يفرق بينهما إلا اختلاف ما يردان عنه من أحوال النفس . وقد أفصح عن ذلك التوحيدى إذ قال :

« الصداقة أذهب فى مسالك العقل،وأدخل فى باب المروءة ، وأبعد من نوازى الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة ، ... فأما العلاقة فهى من قِبَل العشق والمحبة والـكلف والشغف والهوى والصبابة ... الخ »[1] .

٢ — وقد بلغ من ذيوع هذا الفن فى القرن الرابع أن عقد له الثعالبى فصولا فى سحر البلاغة جمع فيها ماتخيره من عبارات الـكتّاب ، كما اهتم فى يتيمة الدهر بجمع الفقرات الخاصة بالاخوانيات ، و إلى القارىء شذرات من تلك التعابير الإخوانية :

— مودة سكنت الصدر ، وحلت سواد القلب .

— ودٌّ سليم الصفحة ، أملس الجلدة ، مشرق السحنة ، واضح الجبهة .

---

(١) الصداقة والصديق ص ٤٠

— مودة أدين بها عن خالصة النفس ، وأُودعها واسطة القلب ، وأجمع عليها نواحى الصدر ، وأحرسها من لواحظ الدهر .

— قد اتخذنا المودة بيننا ديناً وخليقة ، ورأيناها بين الناس مجازاً فأعدناها حقيقة .

— لا أحول عن عهدك و إن حالت النجوم عن ممارّها ، ولا أزول عن ودك و إن زالت الجبال عن مقارّها .

— عهدك سجير فكرى ، وودك سمير ذكرى .

— صدرى وعاء ودك ، ولسانى ناشر فضلك وضميرى وقفٌ على عهدك .

— الحال بيننا أربت على المودة والحرمة ، وأرمت[1] على المشاركة والخلة ، وعُدّت فى شواجر الرحم واللحمة ، ومزجت الدم بالدم والمهجة بالمهجة .

— محبة لا تتميز معها الأرواح ، إذا ميزت الأشباح ، ومخالصة لا تتباين بها النفوس والمهج ، و إن تباينت الأشخاص والصور .

— نحن كالنفس الواحدة : لا تجزؤ ولا انقسام، ولا تميز ولا انفصام .

— لا أعظم لحق مودته حقاً ، ولا أرى بين النفسين فكيف بين المالين فرقاً .

— أنت جارٍ منى مجرى أبعاض جسمى ، وأعشار قلبى ، وأنت جزء من نفسى ، وناظم شمل أنسى .

— أنت منى كالعين الناظرة التى تصان عما يقذيها، واليد الباطشة التى تحفظ ممايدويها .

— هو شقيق روحه ، وعديل حياته ، وشريك دولته ، وقسيم نعمته .

— ما زال مستودَع سرى وجهرى ، ومشتكى بثى وحزنى .

— هو منى بمنزلة الولد ، والعضو من الجسد .

— العشرة رَضاع تثبت حرمته ، والمودة لبان تلزم ذمته .

— قد تقلبنا فى أعطاف العيش ، بين الوقار والطيش .

---

(١) أرمت : زادت .

— إخوان تطابقوا فى الآراء ، وتآلفوا فى الأهواء، وتمالحوا فى الطعام ، وتراضعوا بالمدام

— أنا أتهم عليك عينى ، وإن كنت لا أتهم قلبى ، وأرضى لمودتك نيتى ، وإن كنت لا أرضى لها طاقتى .

— لا مرحباً بعيش أتفرّد به عنك ، ويوم لا أكتحل فيه بك .

— وددت أن أضرب بحضرتك أطناب عمرى ، وأنفق على خدمتك أيام دهرى .

— لا أزالّ أحن إليك ، وأحنو عليك . ياليت قلبى يتراءى لك فتقرأ فيه سطور ودى ، وتقف منها على رأيى فيك !

— إنى لآسف على كل يوم فارغ منك ، وكل لحظة لا تؤنسها برؤيتك .

— أنت مَن لا يسافر ودى إلا إليه ، ولا يرفرف طير محبتى إلا عليه .

— قد ملت إليك فما أعتدل ، ونزلت بك فما أرتحل ، ووقفت عليك فما أنتقل .

— أنا أتصبّح باسمك،وأتفاءل بذكرك ، وأحلم بوجهك،وأحتلب ضرع الشعر بذكرك.

— مافى نفسى بقعةٌ أعمر من محلك ، وأنضر من مسكنك ، ولا فى قلبى مكان إلا موشًّى بذكرك ، مطرز باُسمك .

— عهدى لك أكرم العهود ، ووفائى لك وفاء العِرق للعود.

— شوقى إليك زادى فى سفرى وعتادى فى حضرى .

— شوقٌ لو خُوِّف المجرمون بحره ، وتُوعِّد المشركون بجمره ، لما عُبِد صنم ، ولا نقلت فى الضلال قدم .

— فرحة الأديب بالأديب ، كفرحة المحب بالمحبوب ، والعليل بالطبيب .

— حالى بعدك حال عود ذوى بعد ارتوائه ، ونجم هوى بعد اعتلائه .

— ودعت بوداعك العافية ، وفارقت من فراقك العيشة الراضية .

— يا أسفى على غَفَلات العيش ، ولحظات الأنس ، إذ ظهائرنا أسحار ، ولياليا نهار وشهورنا أيام ، وسنوننا قصار .

— سقى الله أياماً لو كان دهرى عِقـداً كانت واسطته ، أو كان عمرى جِيداً كانت قلادتـــه .

— أيامٌ حسنتْ فكأنها أعراس ، وقصرتْ فكأنها أنفاس .

— سلامٌ كأنفاس الأحباب ، وأيام الشباب .

— صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك ، واسمه من صحيفة حفظك .

— أنت سخىٌّ بمالك على من يطالبك ، بخيلٌ بكتابك على من يكاتبك ، تتوسع فى ألوف ، وتضايق فى حروف (١) .

٣ — وهذه فقرات قليلة تخيرناها مما تخير الثعالبى لأقطاب عصره ، ويجب أن نشير إلى أن هذه الثروة الأدبية ليست ملكا خالصا لكتاب ذلك العهد ، فبعضها أُنتُهِب من ألفاظ الشعراء ، فقول أحد أولئك الكتاب(٢) :

« فى الأرض مَجالٌ إن ضاقت ظلالك ، وفى الناس واصلٌ إن رثت حبالك »

مأخوذ من قول معن بن أوس :

وفى الناس إن رثت حبالك واصلٌ وفى الأرض عن دار القلى متحوَّلُ

ولا يقدح فى هذا المأخذ أن يحدثنا الثعالبى فى مقدّمة سحر البلاغة أنه حل بعضه من نظم أمراء الشعر فى زمانه ، فإن ألفاظ الشعراء تواجه القارئ فى أكثر ما ترك كتاب القرن الرابع ، وعمل الثعالبى نفسه شاهد على ذلك .

٤ — وأفضل مَن كتب فى الاخوانيات أبو حيان التوحيدى ، وكتابه عن (الصداقة والصديق) من أنفس ذخائر اللغة العربية ، وقد تكلمنا عنه فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (٣) وتعجبنا المحاورات التى أنشأها فى تحليل معانى الصداقات والعلاقات والمودات . واسمع كيف يقول :

---

(١) راجع سحر البلاغة ص ١٢٤ — ١٣٤ (٢) هو بديع الزمان .

(٣) ص ١٤٠ — ١٤٣

« قلت للهائم أبى على : من تحب أن يكون صديقك ؟ قال : من يطعمنى إذا جعت ، ويكسونى إذا عريت ، ويحملنى إذا كللت ، ويغفرلى إذا زللت . فقال له على بن الحسين العلوى : أنت إنما تريد إنساناً يكفيك مؤونتك ، ويكفلك فى حالك ، كأنك تمنيت وكيلا فسميته صديقاً . فما أحار جوابا .

« وقلت للبنوى — ولقيته بالدسكرة سنة خمس وستين — من تحب أن يكون صديقك؟ قال : من يقيلنى إذا عثرت ، ويقومنى إذا ازوررت ، ويهدينى إذا ضللت ، ويصبر علىّ إذا مللت ، ويكفينى مالا أعلم وما علمت .

« وسمعت أبا عامر النجدى يقول : الصديق من صدقك عن نفسه لتكون على نور من أمرك ، ويصدقك أيضاً عنك لتكون على مثله ، لأنكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء ، فى السراء والضراء ، والشدّة والرخاء ، فليس لكما فرحة ولا ترحة إلا وأنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق والانكماش والمساعدة على اجتلاب الحظ فى طلب المعاش»[1] .

٥ — ويمتاز التوحيدى بتأريخ أكثر ما ينقل من الإخوانيات ، فهو بهذا أفضل من الثعالبى الذى يهمل التأريخ حتى حين يترجم للشعراء والكتاب . من ذلك ماحدّثنا أنه لما استوزر أبو محمد المهلبى سنة أربعين بعد وفاة أبى جعفر الصيمرى كتب إلى أبى الفضل العباس بن الحسين وكان بينهما تواصل :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

إنى — حفظك الله وحفظنى لك ، وأمتعك بى وأمتعنى بك — قد بلوتك طول أيام أبى جعفر ، قدّس الله روحه ، فوجدتك ذا شهامة فيما يناط بك ، حسن الكفاية فيما يوكل إليك ، كتوما للسر إذا استحفظته ، حسن المساعدة فيما يجمل بك الوفاق عليه . وقد حدانى هذا كله على اجتبائك وتقريبك ، وإدنائك وتقديمك . وغالب ظنى أنك تعيننى على ذلك بميمون نقيبتك ، ومأمون ضريبتك . وجعلت دعامة هذا كله أنى أجريك مجرى الصديق

(١) الصداقة والصديق ص ٦٠

الذى يفاوَض فى الخير والشر ، و يشارَك فى الغث والسمين ، و يستنام إليه فى الشهادة والغيب ولى معك عينان إحداهما مغضوضة عن كل ما ساءنى منك ، والأخرى مرفوعة إلى كل ماسرنى فيك ، فإن كنت تجد فى نفسك على قولى هذا شاهداً صدوقاً ، وأمّاراً نطوقاً، فعرفنى لأعلم أن فراستى لم تفلْ ، وحدسى عن طريق الصواب لم يمل . والحالة التى قد جددها الله لى هى محروسة لك ، ومفرغة عليك ، ومستقلة بك ، فأشركتنى فيها بخالصة الوفاء ، أو تفرد بها إن شئت بحقيقة الصفاء . فلك الأمنة من حيلولة الاعتقاد ، والسكونُ إلى عفو الإجتهاد . وثق بأن الذى خطبته منك ، إنما أريده لك ، فلا يقعنّ فى وساوس صدرك أن لكاشح لنا فيما نحن عليه طريقاً لنقص ، أو لمحب لنا فيه باباً إلى الزيادة . واكتف بهذا القدر الذى دللتك عليه ، واستقبل أمرى وأمرك بالذى أرشدتك إليه . وإياك أن تستشير فيه غير نفسك فإنك بعرض حسد يكون عقالا لحظك . والله يهدينى للحسنى ، و يقينى فيك غوائل العيون المرضى . والسلام[1] .

وهذا كلام أفصح من أن يحتاج إلى تعليق ، و إليك ماهو أحلى منه وأعذب :

« قلت لأبن الأبهرى : من الصديق ؟ قال : من سلم سره لك ، وزين ظاهره بك ، و بذل ذات يده عند حاجتك ، وعف عن ذات يدك عند حاجته ، يراك منصفاً و إن كنت جائراً ، ومفضلا و إن كنت ممانعاً ، رضاه منوطٌ برضاك ، وهواه محوطٌ بهواك ، إن ضلت هداك ، و إن ظمئت أرواك ، و إن عجزت آداك[2] . يبين عنك بالجسم والرسم ، و يشاركك فى القسم والوسم » .

« قلت : أما الوصف فحسن ، وأما الموصوف فعزيز » .

قال :

« إنما عز هذا فى زمانك ، حين خبثت الأعراق ، وفسدت الأخلاق، واستعمل النفاق فى الوفاق ، وخيف الهلاك فى الفراق ، والله لقد شاهدت لشيخنا ابن طاهر أصدقاء ينطوون

---

(١) ص ٧٠ و ٧١ (٢) آداك : أعانك .

له على مودة أذكى من الورد والعنبر ، إذا لحظهم بطرفه تهللوا ، و إذا ناقلهم بلفظه تدللوا ، و إذا تحكم عليهم تعجلوا ، و إذا أمسك عنهم تولوا وخزلوا ، وكانوا يجدون به ما لا يجدون بأهليهم وأولادهم ، رحمة الله عليهم ! فلقد كانوا زينة الأرض ، فى كل حال من الشدة والخفض ، و إنى لأذكرهم فأجد فى روحى روحا من حديثهم »(١) .

والكلام فى إخوانيات التوحيدى يطول إذا شئناه ، فلنكتف بهذه الكلمات الطيبات .

٦ — ومن الذين أكثروا من الإخوانيات بديع الزمان الهمذانى ، وكلامه فى ذلك موصول بباب العتاب ، كقوله من رسالة ابتدأها بهجاء خصومه الواشين :

«أنا أطال الله بقاء الشيخ الإمام بصير بأبناء الذنوب ، وأولاد الدروب، أعرفهم بشامة ، وأثبتهم بعلامة ، والعلامة بينى و بينهم أن يفسدوا الصنيع على ماصانعه ، و يحرفوا الكلم عن مواضعه ، و يرموا فى الحكاية، سهم الشكاية ، و يجيلوا فى الشكاية ، قدح النكاية، ثم لا يرون النكاية ، إلا السعاية ، و إن أعوزهم الصدق مالوا الى الكذب ، و إن حلم لهم الجد عرضوا باللعب . ومن علاماتهم ، قبح مقاماتهم ، و إيراد ظلاماتهم ، مورد النصيحة لكبرائهم . ومن آياتهم كثرة جناياتهم على الفضلاء ، وشدة حنقهم على من لا يخطرهم بباله ، ولا يحطبهم فى حباله ... والذى فاوضنى القاضى فى معناه ، جلى فى بابه ماحكاه ، يجمع هذه الخصال وقيادة ، و ينظم هذه الأوصاف وزيادة . فلم يبعد الشيخ عن مثله أن يكذب ؟ ألطهارة أصله أم نجابة نسله ، أم حصانة أهله ، أم رجاحة عقله ، أم ملاحة شكله ، أم غزارة فضله ؟ ! ولم يجوز علىّ ما حكاه ؟ ألم يؤونى طريداً ، و يلمنى حصيداً ، و يؤنسنى وحيداً ، و يصطنعنى مبدياً ومعيداً ؟ وكان بقدرى أنه إذا رآنى أفعل شنيعاً ، أو سمع أنى ألفظ بنكر ، لم يأل فى تحسين أمرى ، فعل الوالد بولده ، ونظر المولى لصنيعه أقرب » .

« والآن ، إذ عاد الأمر إلى العتاب ، فهلم الى الحساب ، إن كنتى أخللت بطرف من طاعتى من جهة فقد نقصنى ما عودنى من وجوه : وذلك أنه كان لا يتجاسر أحد على أن يفرينى عنده ، فقد صار يفرينى و يبرىء جلده ، وكان يقوم قناتى ، فقد صار يخبط حسناتى ،

(١) الصداقة والصديق ص ١٢٤ و ١٢٥

وكان يثمر مالى ، فقد صار يبطل آمالى ، وكان يحتشد لأمرى احتشاده لأمره ، فقد نبذت وراء ظهره ، وقد كان يحمل فصار يتحامل ، وكان لايضايقنى فى الألوف والدنانير ، فقد ضايقنى فى الشعير ، فى حمل بعير ... إلخ»[1].

وله من رسالة ثانية :

« ليسوا سواء : فئة بالباب تسعد بالخضرة ، وأخرى بالمغيب تكمد بالحسرة ، والله ما للساعة من ولىّ النعمة ثمن ، ولا كالاعتياض من لقائه غبْن وغبَن ، فليت كتاب الإذن شفى مما نجد ، وليت هنداً أنجزتنا ماتعد ! معاذ الله أن أشتاق إلى حضرته ، لكنى أفتقر إليها افتقار الجسد إلى الحياة ، والحوت إلى الفرات ، وإنما مَثَل العبد مع الأصحاب ، مَثَل الأرض مع السحاب ، أفيسمّى القحط شوقا ، أم يكون الموت وجداً ؟ إنى عبدالشيخ واسمى أحمد ، وهمذان المولد ، وتَغلِب المورد ، ومضر المحتد[2] . وعبدٌ بهذه الصفة غريبٌ نادر ، وللصدور والملوك بغريب الأعلاق ولوع ... إلخ»[3] .

٧ — وأبو نصر العتبي له رسائل جيدة فى الإخوانيات ، نختار منها قوله فى الاستزارة :

« هذا يوم رقت غلائل صحوه ، وخنثت شمائل جوه ، وضحكت ثغور رياضه ، واطرد زَرد الحسن فوق حياضه ، وفاحت مجامر الأزهار ، وانتثرت قلائد الأغصان عن فرائد الأنوار وقام خطباء الأطيار ، فوق منابر الأشجار ، ودارت أفلاك الأيدى بشموس الراح ، فى بروج الأقداح ، وقد سبينا العقل فى مرج المجون ، وخلعنا العذار بأيدى الجنون . فمن طالعنا بين هذه البساتين ، وأنواع الرياحين ، طالع فتياناً كالشياطين ، ونصارى يوم الشعانين ، فبحق الفتوة التى زان الله بها طبعك ، والمروءة التى قصر عليها أصلك وفرعك ، إلا تفضلت بالحضور ، ونظمت لنا بك عقد السرور»[4] .

وقد ترق الرسائل الإخوانية حتى تعود وكأنها رسائل حب ، كالذى اتفق لأبى الفضل الميكالى وأبى الفضل بن العميد ، وقد أشرنا إلى بعض ذلك فى ترجمة هذين الكاتبين فى الجزء الثانى فليرجع إليه القارئ هناك .

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٠٧ و ١٠٨

(٢) فى هذا رد على من يظنون بديع الزمان فارسى الأصل .

(٣) ص ٨ و ٩

(٤) اليتيمة ج ٤ ص ٢٨٤

٧ – الوصف

١ — أظهر ميزة فى ذلك العصر هى إجادة الوصف : فقد اهتم كتابه اهتماماً عظيما بوصف ما رأته أعينهم ، أو جرى فى خواطرهم ، أو ارتابت فيه عقولهم . ولم يكن الوصف عندهم مما يأتى عفواً عند المناسبات الطارئة — كما كان الحال فى أوائل العصر الإسلامى — لا ، بل تعمدوا استقصاء الموضوعات الوصفية : فأطالوا الحديث عن الأزهار والرياض والنبات ، والليل والنجوم ، والجداول والغدران ، والأنهار والبحار ، والبرك[1] والأحواض ، والمنازل والقصور ، ومطارح القصف ، ومجالس الشراب، والنساء والغلمان ، والجوارى السود ، والقيان وآلات الطرب ، ومحاسن الشباب ، وأهوال المشيب ، والرعد والبرق ، والنسيم والريح ، والمطر والثلج ، والصحو والغيوم ، والبلاغة والشعر والنثر ، والخيل والسيوف ، والنار ، والأفاعى والثعابين ، والطيور والأطعمة ، والفواكه ، والسكاكين ، والكئوس ، والخواتم والحلى والقلائد ، والمحابر[1] والأقلام ، والسفن ، والدواب ، والجيوش والأساطيل ، وأيام الصيف والشتاء والربيع .

٢ — وأطنبوا فى وصف المعانى الوجدانية — كما أطنبوا فى وصف المرئيات — فتكلموا عن أهواء النفوس ونزعاتها ، كوصف الحب والوجد ، والحقد والبغض ، والكرم والنبل ، وعرضوا لما يقع لأهل المهن وللرؤساء من الهنّات والعورات .

---

(١) البرك جمع بركة ، والبركة صارت كلمة مبتذلة ، ولكنها كانت ظريفة ، ومعناها الحوض «الفسقية» وكانت مما تزان به صحون القصور ، والصحن ابتذل أيضاً ، ويعبرون عنه بالفناء – بكسر الفاء – وفى لغة التخاطب يقولون « الحوش » وهى لفظة عراقية كما فى القاموس . وفى بركة قصر المتوكل يقول البحترى :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها   والآنسات إذا لاحت مغانيها

(٢) أكثر كتاب القرن الرابع من وصف المحابر والأوراق والأقلام وذلك يدل على فهمهم لخطر هذه الأدوات وأثرها فى نفسية الكاتب ، وقد فصلنا هذا الموضوع تفصيلا فى البحث الذى نشرناه بالفرنسية عن فن الإنشاء ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث . وقد طبع هذا البحث مع (الرسالة العذراء) .

كل ذلك بطريقة مقصودة تدل على أنه كان لهم برنامج خاص لم يعرفه أسـلافهم. ولهـذا المذهب عيوبه ومزاياه: فعيبه أنه حملهم على التـكلف والإسراف، ومزيته أنه دفعهم إلى تنظيم أفكارهم، وترتيب أغراضهم، فإن القـارئ يرى لهم قوّة فى تصوير المرئيات والمعنويات لا يجدها إلا قليلا عند من سبقهم من الـكتاب. وذلك بفضل هـذا الاتجاه الذى جعل من عصرهم (مدرسـة وصفية) لا نراها فى عصر الخلفاء، ولا عهـد بنى أمية، ولا أوائل أيام بنى العباس.

ولا ننكر أن الـكتاب السابقين أجادوا الوصف فى كثير من الموضوعات، ولـكنا نقرر أن كتاب القرن الرابع عمدوا إلى كل ما يقع عليه الحس، أو يجرى فى الخاطر، أو ينقده العقل، فوصفوه وصفاً مفصلا مقصوداً بطريقة لم يفكر فى مثلها المتقدمون.

٣ — ولقد مكننا الثعالبى فى كتابه (سـحر البلاغة) من تعابير كثيرة عن الأوصاف التى عنى بها كتاب ذلك العصر، نثبت شيئا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ صدق ما نراه من قصد كتاب ذلك العهد إلى إجادة الوصف.

من ذلك قولهم فى وصف الماء:

« ماء كالزجاج الأزرق — غدير كعين الشمس.

—ماء كلسان الشمعة، فى صفاء الدمعة، يسبح فى الرضراض، سبح النضناض.

— ماء أزرق كعين السِّنور، صاف كقضيب البلور.

— غدير ترقرقت فيه دموع السحائب، وتواترت عليه أنفاس الرياح الغرائب».

وقولهم فى وصف النثر والنظم:

« نثر كنثر الورد، ونظم كنظم العقد— نثر كالسحر أو أدق، ونظم كالماء أو أرق.

— رسالة كالروضة الأنيقة، وقصيدة كالمخدّرة الرشيقة.

— نثر كما تفتح الزهر، ونظم كما تنفس السَّحر».

وقولهم فى وصف سكين:

« سكين كأن القدر سائقها، والأجل سابقها، مرهفـة الصدر، مخطفة الخصر، يجول عليها فرند العتق، ويموج فيها ماء الجوهر، كأن المنية تبرق من حدّها، والأجل يلمع من

متنها ، ركبت فى نصاب أبنوس ، كأن الحدق نفضت عليه صبغها ، وحب القلوب كسته لباسها ، أخذ لها حديدها الناصع بحظ من الروم ، وضرب لها نصابها الحالك بسهم من الزنج ، فكأنها ليل من تحت نهار ، أو مجمر أبدى سنا نار ، ذات غِرار ماض ، وذباب قاض.

— سكين أحن من التلاق ، وأقطع من الفراق ، تفعل فعل الأعداء ، وتنفع نفع الأصدقاء »[1] .

٤ — وقد ظلت أمثال هذه التعابير الوصفية منبعاً يستقى منه الكتاب والشعراء إلى العصر الحديث . والنقاد فى مصر يعجبون بقول حافظ إبراهيم فى وصف الصهباء :

خمـــــرةٌ قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم عرس

وقد حسب الدكتور طه حسين أن هذا الخيال من مبتكرات حافظ وناله بشىء من الملام لأن عصير الخدود فى زعمه مما تعافه النفوس ، فلينقل اللوم إن شاء إلى كتاب القرن الرابع ؛ لأن هذا الخيال سُرق من هناك[2] !

و يعجب النقاد كذلك بقول توفيق البكرى فى وصف النساء :

« صدور كالإغريض ، أو صدور البزاة البيض » .

وهى عبارة مأخوذة من قول الثعالبى فى وصف آثار السرى الرفاء :

« كأنها أطواق الحمام ، وصدور البزاة البيض ، وأجنحة الطواويس ، وسوالف الغزلان ، ونهود العذارى الحسان ، وغمزات الحدق الملاح » .

وقول توفيق البكرى :

« فمٌ كأنه أقحوانة لم تتصوّح ، ووردة لم تتفتح ، يضحك عن جمان ، و يتنفس عن ريحان ، و ينطق عن ألحان ؛ وخدود ، كنار أخدود ، أو تفاح ، أو ماء وراح ، أو الشفق فى الصباح » .

---

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٤١

(٢) ورد هذا المعنى أيضاً فى شعر ابن خفاجة الأندلسى وورد قبل ذلك فى شعر ديك الجن .

مأخوذ أيضا من كُتاب ذلك العهد .

وقوله فى وصف كِبْر أحد الرؤساء :

« كأنه جاء برأس خاقان ، أو أدال دولة بنى مروان ، أو أن الإيوان داره ، والهرمين آثاره ، وعصام بن شهبر حاجبه ، وعمرو بن بحر كاتبه ، والحجاج غلامه ، والحماسة كلامه » .

مأخوذ من قول أحد كتاب القرن الرابع :

« قد أسكرته خمرة الكبر ، واستغرقته لذة التيه ، كأن كسرى حامل غاشيته ، وقارون وكيل نفقته ، و بلقيس إحدى داياته ، وكأن يوسف لم ينظر إلا بطلعته ، وداود لم ينطق إلا بنغمته ، ولقمان لم يتكلم إلا بحكمته ، والشمس لم تطلع إلا من جبينه ، والغمام لم يبد إلا من يمينه » .

وكذلك يمكن رد أكثر التعابير الوصفية التى كان يغرم بها فريق من كتاب الصنعة فى العصر الحاضر أمثال المبكىّ على أدبهم الرفيع : محمد المويلحى ومحمد السباعى ومحمد هلال.

٥ — وكأن القرن الرابع يؤدِّى للقرون التى تليه ما أخذه عن القرون التى سبقته ، فقد كان كتابه مولعين بحل الشعر القديم : لا يرون معنى بديعا ولا خيالا طريفا إلا اقتبسوه وأضافوه إلى ثروتهم النثرية ، يشهد بذلك ما أشار إليه الثعالبى فى مقدمة (سحر البلاغة) من أنه ضمن كتابه بعض ألفاظ الجاحظ وابن المعتز ، وما نجده فى مقامات بديع الزمان من حل بعض الأبيات الجاهلية ، وكانوا كذلك يغيرون على شعراء عصرهم فيأخذون معانيهم الجيدة ، كما فعل الصاحب بن عباد حين اغتصب بعض معانى المتنبى وأدخلها فى رسائله ، وكذلك فعل الصابى والخوارزمى وابن العميد .

٦ — وقد أشاع كتاب القرن الرابع نظرية « الفن للفن » فقد عودوا القراء تذوق الكتابة البليغة ، وحببوا إليهم النثر المصنوع ، فأصبح المتأدبون يتأملون مواقع الألفاظ ، وقرار التراكيب، وصارت فنون البديع من تورية وجناس وطباق أصولا فنية يجد القارئ لذة ومتعة حين يراها وقعت موقعاً حسناً ، وأصابت الغرض الذى وضعت له ولو كان غرضاً لفظياً لا يتوقف عليه تمام المعنى المراد .

وإذا كان كتاب العصر الحاضر لا يستطيبون أكثر آثار ذلك العصر ، ويرون بلاغتها بلاغة لفظية ، فلأنهم أسرفوا فى مهاجمة النثر الفنى الذى غلبت عليه الصنعة ، حتى صارت صدورهم تضيق كلما رأوا سجعاً أو جناساً أو طباقاً ، أو أى محسّن وقع عن قصد ، مع أن المتأدب لا يقبل على آثار ذلك العصر إلا عجب لتلك القرائح القوية ، وتلك الطبائع السليمة ، التى سمحت لأولئك الناس بالتعمق فى وصف ما شهدته أعينهم ، وأحسته أنفسهم ، من غرائب العوالم المحسوسة والمعقولة ، بطريقة فنية هى وحدها تتطلب دقة فى الفهم ، وقوّة فى العقل ، وسلامة فى الذوق .

٧ — ومن أظهر الدلائل على ميل كتاب ذلك العصر إلى الإغراب فى الوصف ما جاء فى نعت البلاغة بصور مختلفة على ألسنة جماعة من أرباب الصناعات[1] :

(١) لم نعرف واضع هذا الحديث ، ولم يزد صاحب زهر الآداب على نسبته إلى «بعض من ولد عقائل هذا المنثور ، وألف فواصل هذه الشذور » وقد رأيت صورة منه فى كتاب اسمه « الفرائد والقلائد » منسوب إلى الثعالبى ، ومن المحتمل أن يكون من وضعه ، وكتاب «الفرائد والقلائد » طبع على هامش « نثر النظم وحل العقد » للثعالبى أيضاً ــ المطبعة الأدبية بالقاهرة سنة ١٤١٧ هجرية .

وملاحظة كلام أهل المهن والصناعات مما تنبه له الجاحظ قال : قلت لملاح لى ــ وذلك بعد العصر فى رمضان ــ انظر ، كم بين عين الشمس وبين موضع وغروبها من الأرض ؟ قال : «أكثر من مرديين ونصف»ــ والمردى عود يدفع به الملاح السفينة ــ وقال آخر : وقع علينا اللصوص ، فأول رجل دخل علينا السفينة كان فى طول هذا المردى ، وكان فخذه أغلظ من هذا السكان ، واسود وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سواداً من هذا القير .

وأردت الصعود مرة فى بعض القناطر وشيخ ملاح جالس ، وكان يوم مطر وزلق ، فزلق حمارى فكاد يلقينى بجنبى ، لكنه تماسك فأقعى على عجزه ، فقال الشيخ الملاح : « لا إله إلا الله ! ماأحسن ماجلس على كوثله ! » ــ والكوثل : مؤخر السفينة .

وفى دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة (رقم ٨٢ م أدب) تحدث فيها أربعة وخمسون رجلا (فشرط كل منهم أنه لايكلم رفيقه إلا بعبارة تناسب حرفته ، وكلما فرغ من نثره أتبعه بيتين من شعره) وهى رسالة جاءت بعد القرن الرابع بزمان طويل وتظهر عليها النزعة المصرية فى الألفاظ والتعابير ، وفيها أحياناً نزعة شامية .

ومن طريف مافى هذه الرسالة ما جاء على لسان الجزار :

« ذبحتمونى ذبح ، ونحرتمونى نحر ، انتو عندكم مغنى أحسن من خروف ! بالله استغنموا أيام البدارى قبل انسلاخها عنكم،وأنت ياساقى ،بافلك منعجة وكبش المراح ،مالناعنك مراح» =

قال الجوهرى : أحسن الكلام نظاماً ما ثقبتـه يد الفـكرة والفطنة ، ووصل جوهر معانيه فى سموط (١)ألفاظه ، فاحتملته نحور الرواة .

وقال العطار : أطيب الكلام ما عجن عنبر ألفاظه بمسك معانيه ، ففاح نسيم نشقه ، وسطعت رائحة عبقه ، فتعلقت به الرواة ، وتعطرت به السراة .

وقال الصائغ : خير الـكلام ما أحميته بكير الفـكر ، وسبكته بمشاعل النظر، وخلصته من خبث الإطناب ، فبرز بروز الإبراز ، فى معنى وجيز .

وقال الصيرفى : خير الكلام ما نقدته البصيرة ، وجلتـــه عين الروية ، ووزنته بمعيار الفصاحة ، فلا نظر يزيفه ، ولا سماع يبهرجه .

وقال الحدّاد : أحسن الـكلام ما نصبت عليه منفخة القريحة ، وأشعلت عليـــه نار البصيرة ، ثم أخرجته من فحم الإفحام(٢) ، ورققته بفطيس(٣) الإفهام

وقال النجار : خير الكلام ما أحكمت نجر معناه بقدوم التقدير ، ونشرته بمنشار التدبير فصار بابا لبيت البيان ، وعارضة لسقف اللسان .

وقال النجاد : أحسن الـكلام ما لطفت رفارف ألفاظه ، وحسنت مطارح معانيه ، فتنزهت فى زرابى(٤) محاسنه عيون الناظرين ، وأصاخت لنمارق(٥) بهجته آذان السامعين.

= وما جاء على لسان للبرادعى :

« أنا معكم كل ساعة فى مذلة ، وكم فى بردعتى منكم مسلة ، أنا أخيش وأتعب ، وغيرى ينط ويركب فما أقبح حشو كلامكم ، قطع الله حزامكم ، وأنت ياساقى ما بتـكرمنا ، اسقينـــا حتى تلجمنا :

عدمت عليكم ما حييت تجلدى وقد ضاع عمرى فيكمو وتصرما
وحل حزام الصبر منى ولم يزل فى فيكمو عن شرح حالى اللجما

والرسالة طويلة وفيها شواهد على البراعة فى النكتة اللفظية .

(١) السموط جمع سمط بالكسر وهو الخيط الذى تنظم فيه القلادة (٢) الأفحام : العجز عن الأفصاح . (٣) الفطيس ، على وزن سكيت ، المطرقة العظيمة :

(٤) الزرابى جمع وهى الأبسطة أو كل مابسط وانكىء عليه ، الواحد زربى بالـكسر ، ويضم . والزرابى من النبت ماأصفر أو ماأحمر وفية خضرة .

(٥) النمارق : الوسائد الصغيرة ، والمفرد نمرق ونمرقة بالتثليث

وقال الماتح[١] : أبين الكلام ما علقت وذم[٢] ألفاظه بكرة معانيه ، ثم أرسلته فى قليب[٣] الفطن ، فمتحت به سقاء يكشف الشبهات ، واُستنبطت به معنى يروى من ظمأ المشكلات .

وقال الخياط : البلاغة قميص : فجربانه[٤] البيان ، وجيبه المعرفة ، وكماه الوجازة ، ودخاريصه[٥] الإفهام ، ودروزه[٦] الحلاوة ، ولابس جسده اللفظ ، وروحه المعنى .

وقال الصباغ : أحسن الكلام مالم تنض بهجة إيجازه ، ولم تكشف صبغة إعجازه ، وقد صقلته يد الروية من كمود الإشكال ، فراع كواعب الآداب ، وألف عذارى الألباب .

وقال الحائك : أحسن الكلام ما اُتصلت ألفاظه بسدى معانيه ، فخرج مفوفاً منيراً ، وموشى محبراً .

وقال البزاز : أحسن الكلام ما صدق رقم ألفاظه ، وحسن نشر معانيه ، فلم يستعجم عنك نشر ، ولم يستبهم عليك طى .

وقال الرائض : خير الكلام مالم يخرج عن حد التخليع[٧] ، إلى منزلة التقريب[٨] ، إلا بعد الرياضة ، وكان كالمهر الذى أطمع أول رياضته ، فى تمام ثقافته .

وقال الجمال : البليغ من أخذ بخطام كلامه ، فأناخه فى مبرك المعنى ، ثم جعل الاُختصار له عقالا ، والإيجاز له مجالا ، فلم يندّ عن الآذان ، ولم يشذ عن الأذهان .

وقال المخنث : خير الكلام ما تكسرت أطرافه ، وتثنت أعطافه ، وكان لفظه حلة ، ومعناه حلية .

---

(١) من متح الماء نزعه . (٢) الوذم بالتحريك السيور بين آذان الدلو .
(٣) القليب : البئر . (٤) الجربان بتشديد الباء القميص ، إذا كسرت الجيم والراء ، فإذا ضممتهما فهو الجيب ، كما فى القاموس ، وظاهر من نص هذا الحديث أن جربان القميص شيء غير الجيب . (٥) الدخاريص طيات القميص . (٦) دروز الثوب طرائق الخيط فيه . ومنه — ولا مؤاخذه ! — قيل للقمل بنات الدروز . وأولاد درزة : هم السفلة ، وهم أيضا الحاكة والخياطون . (٧) التخليع نوع من سير الفرس تتخلع فيه الأليتان .
(٨) التقريب ضرب من العدو . أو هو أن يرفع الحصان يديه معا ويضعهما معا .

وقال الحمار : أبلغ الـكلام ما طبختْه مراجل العلم ، وصفّاه راووق الفهم ، وضمته دنان الحـكمة ، فتمشت فى المفاصل عذوبته ، وفى الأفـكار رقته ، وفى العقول حدته .

وقال الفقاع[1] : خير الـكلام ما أزاحت ألفاظه غباوة الشك ، ودفعت رقته فظاظة الجهل ، فطاب حساء فطنته ، وعذب مص جرعته .

وقال الطبيب : خير الـكلام ما إذا باشر دواء بيانه سقم الشبهة اُستطلقت طبيعة الغباوة فشفى من سوء التفهم ، وأورث صحة التوهم .

وقال الـكحال : كما أن الرمد قذى الأبصار فـكذا الشبهة قذى البصائر ، فاكحل عين اللـكنة بميل البلاغة ، واُجل رمص الغفلة بمرود اليقظة » .

٨ — وقد يقال : إن هذا حديث يدل على ذوق واضعه : فلا يكون دليلا على الاتجاهات الوصفية فى عصره ، ونجيب بأنا نجد هذا الاتجاه فى عدّة مواطن من آثار ذلك العصر فى الموضوع نفسه وهو وصف البلاغة ، مثل :

« البليغ من يجتنى من الألفاظ أنوارها ، ومن المعانى ثمارها .

— فلان يعبث بالكلام ، ويقوده بألين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد فى التسابق إلى خواطره ، والمعانى تتغاير فى الانثيال على أنامله »[2] .

ونجد مثل هذا الاتجاه فى الرسائل التى تبادلها كتاب ذلك العصر ، كقول أبى الفضل الميكالى يخاطب الثعالبى :

« وصل كتاب سيدى ومولاى أبدع الـكتب هوادى وأعجازا[3] ، وأبرعها بلاغة وإعجازا ، فحسبت ألفاظه دَر[4] السحاب ، أو أصفى قطراً وديمة ، ومعانيه دُر السخاب[5] ، بل أوفى قدرا وقيمة »[6] .

---

(١) الفقاع : بائع الشراب . (٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٥٤ (٣) الهوادى جمع هاد ، وهو العنق،والأعجاز جمع عجز،والمراد بالهوادى والأعجازفى وصف الـكتاب الفواتح والخواتم .
(٤) الدر بالفتح هو فى الأصل اللبن ، ومنه : لله درفلان : تمدح الأصل الذى نبت منه .
(٥) السخاب ، على وزن كتاب : قلادة من قرنفل . (٦) زهر الآداب ج ١ ص ١١٤

٩ — ولكن أليس لهذا الزخرف قيمة فى فهم ذلك العصر ؟

بلى . إنه يدلنا على أن أولئك الناس عرفوا لغتهم معرفة جيدة ، ووقفوا على أسرارها ، وطرائق تعبيرها ، وكان من همهم أن يرتبوا الألفاظ والمعانى والتعابير والأخيلة حتى أستطاع كاتبهم أن يحشر أرباب الصناعات فى صعيد واحد ، ثم ينطقهم بأسرار البلاغة ، فيتحدث كل واحد على طريقته و بأسلوبه الذى يختاره فى مقرّ مهنته ، وموطن عمله . وما نحسب كتاب القرن الأوّل مثلا كانوا يفكرون فى جمع شتات اللغة لتصبح طوع أفكارهم وأقلامهم على هذا النحو الفضفاض ، و إنما كانوا يكتفون فى الوصول إلى أغراضهم بالعبارة الواضحة الموجزة التى يفهمها خاصة الناس وعامتهم بلا عناء . أما كتاب هذا القرن فقد أصبحوا فى حاجة إلى صفوة من المتأدبين تقرأ لهم ، وتفهم عنهم ، وتنقل إلى الجماهير أسرار ما يكتبون ، لأن لغتهم أصبحت من القوّة بحيث لا يفهمها الجمهور بلا دليل ، فليس كل قارئ ولا كل سامع يستطيع أن يتذوّق تشبيه الخط الجميل بأزهار الربيع ، والألفاظ بقلائد النحور ، والمعانى باللآلئ ، ولا أن يدرك كيف تتمنى كل جارحة أن تكون أذناً تلتقط درر الكلام وجواهره ، أو عينا تجتلى مطالعه ومناظره ، أو لساناً يدرس محاسنه ومفاخره .

إذن فالصنعة التى عرف بها كتاب القرن الرابع لها وجهان : وجهٌ جميل يدل على حذقهم و براعتهم ، ووجه آخر يدل على بعدهم من غاية البيان وهى الوضوح ، فإن الإغراق فى الصنعة باب من الغموض .

٨ – المبتذل والطريف فى التعابير الأدبية

١ — نكتب هذا الفصل رداً على الأستاذ ديمومبين الذى يرى أن التعابير الأدبية عند العرب أكثرها مبتذلات(١) . ولنشر أولا إلى أنه يذكر كلمة « كليشيه » وقد بحثنا فيما يقابل هذه الكلمة فى العربية فرأينا كلمة « مبتذل » تؤدى معناها أفصح أداء . وهى كلمة استعملها علماء البلاغة حين قسموا التشبيه باعتبار الوجه إلى مبتذل وغريب ، وعرفوا المبتذل بأنه ما ينتقل فيه الذهن من المشبه إلى المشبه به من غير احتياج إلى شدة نظر لظهور وجهه ، وعرفوا الغريب بأنه ما احتاج فى الانتقال من المشبه إلى المشبه به إلى فكر ودقة نظر لخفاء وجهه . وفى هذا التفسير بعدٌ قليل بين كلمة مبتذل وكلمة كليشيه ، لأن الكليشيه هو الصورة التى تقع لأول وضعها جميلة ثم تسخف بكثرة الاستعمال ، فلنقرر إذن أن كلمة « مبتذل » كلمة اصطلاحية أردنا وضعها مقابل كلمة كليشيه لأنها أصلح الألفاظ لأداء المعنى الذى نريده فى وصف التعابير التى هجنها طول الاستعمال .

٢ — والحق أنه توجد فى اللغة العربية — كسائر اللغات — مبتذلات . فقد يقع التعبير موقع القبول عند ظهوره ثم لا يزال الناس يلحون فى استعماله حتى يسمج ويبوخ من ذلك « شحط النوى » و « شط المزار » وهى كلمات كثر ورودها فى قصائد الشعراء ورسائل الكتاب حتى ابتذلت ، وكان من ذلك أن لا يهش لها الذوق فى قول ابن زيدون :

شحطنا وما بالدار نأىٌ ولا شحط   وشط بمن نهوى المزار وما شطوا

---

(١) أرسلت إلى المسيو ديمومبين — وكنت فى باريس وكان فى هوتو Hautot — فصولا من رسائلى ، فأرسل إلى كتابا قيما فى ثلاث صفحات عن ملاحظاته ، وجاء فيه قوله عن التعابير فى اللغة العربية :

La Littérature arabe est par essence une littérature de jolis clichés.

وقد رددت عليه فى الأصلى الفرنسى ، وعدت إلى الموضوع فى هذه الطبعة بهذا التفصيل .

وكلمة « عَبْل الشوى » يجدها القارىء فى أكثر ماجاء فى وصف الخيل بحيث تصح إضافتها إلى المبتذلات. وعبارة « أنشبت المنيه أظفارها » استجادها الناس فى قول الهذلى :

و إذا المنيــة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفــعُ

ثم عادت مبتذلة بكثرة الأستعمال بحيث يتحاماهـا الشعراء والـكتاب ، ومثلها عبارة « استشعر الندم » وعبارة « حذوك النعل بالنعل » مع أن العبارة الثانيــة كانت مستجادة جداً فى قول عمر بن أبى ربيعة :

فلمـا فلاقينـــا عرفت الذى بهـا كمثل الذى بى حذوك النعل بالنعل

وقد وقعت مرة على لسان خطيب من خطباء الثورة المصرية فقابله السامعون بالسخرية والصفير [1]. وعبارة «بكرت تلومك» كثر ورودها فى الشعر الجاهلى والأموى حتى ابتذلت وتناساها الشعراء . وكلمة « نؤوم الضحى » كانت من أجمل ما توصف به المرأة ، وهى اليوم من سقط المتاع . وكان القدماء يستجيدون قول أُمرىء القيس :

ونعطــو برخص غير شــثن كأنه أساريع ظبى أو مساويك إسحل

والأساريع دوابّ ظهورها ملســاء تكون فى الرمل أو فى الحشيش وتشبه بها أنامل الحسان وكان هذا التشبيه مستملَحاً لأوّل ظهوره ثم أخذ يثقل بكثرة الأستعمال حتى كاد يضاف إلى القبيح المرذول فى قول أبى تمام :

بسطت إليك بنانة أسروعا تصف الفراق ومقلة ينبوعا

ومن المبتذلات أيضاً قولهم « نسج على منواله » وقولهم «لا يفرق بين الغث والسمين» وهناك مبتذلات ماتت موتاً لا نشور بعده كقولهم : « كثير الرماد » و « جبان الكلب » و «مهزول الفصيل» مع أنها كانت من أطيب الصفات فى شعر من قال :

وما يك فىّ من عيب فإنى جبان الـكلب مهزول الفصيلِ

---

(١) كان ذلك فى خطبة ألقاها الدكتور محجوب ثابت على قبر شهيد الوطنية محمد بك فريد .

٣ — على أن بعض التعابير قد تستثقل لسبب آخر غير كثرة الاستعمال ، وذلك حين ينحرف التعبير عما كان يراد به بعض الانحراف ، فقد كان القدماء يستحسنون وصف المرأة بطيب الأنياب ، كالذى يقول :

وما أنشد الرعيان إلا تعلةً ... بواضحة الأنياب طيبة النشرِ

أو الذى يقول :

لئن كان يهدَى برد أنيابها العلى ... لأفقر منى إننى لفقيرُ

ولو أن أحد شعراء اليوم وصف فتاة ببرد الأنياب لعدّ من السخفاء ، لأن «الأنياب» أخذت معنى أخشن وأقرب إلى الوحشية . وكذلك لفظة « النسوان » كانت حلوة فى قول بعض الشعراء :

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحةً ... وحسناً عن النسوان أم ليس لى عقلُ

ولكنها اليوم فى مصر كلمة «هجاء» ولا تؤدى فى الذوق ماتؤديه كلمة « نساء ».

وكذلك وصف الدمع وتشبيه العين الباكية بالقربة المخروقة فى قول ذى الرمة :

مابال عينك منها الماء ينسكب ... كأنه من كلى مفرية سرب[1]

وقوله من كلمة ثانية :

وما شنتا خرقاء واهية الكلى ... سقى بهما ساق ولما تبللا[2]

بأضيع من عينيك للدمع كلما ... تذكرت ربعاً أو توهمت منزلا

ويلحق بهذا قولهم : « نزل المطر كأفواه القِرَب » فإنه أُبتُذل لأنصراف الأذهان عن تلك الصورة البدوية . وكان الشعراء فى عصور كثيرة يشبهون مشية المرأة بانسياب الحية كقول ابن أبى ربيعة :

خرجت تأطر[3] فى الثياب كأنها ... أيم يسيب على كثيب أهيلا

---

(١) الكلى جمع كلية بضم الكاف وسكون اللام ، وهى من المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة والمفرية المشقوقة . (٢) الشن والشنة : القربة .

(٣) تأطرت الحسناء : تثنت وتمايلت .

www.books4all.net

ولكن هذا الخيال عاد مما تنبو عنه الأذواق لبعد ما بين مشية المرأة وأنسياب الحية ، و إن كنت أعجب كيف سرى هذا التشبيه حتى نراه عند الفرنسيين فى شعر بودلير ، وأنا لا أعرف صلة بين المرأة والحية من جهة الحسن ، إلا أن يكون أتفاقهما فى البغى مما يقرّب بينهما فى خيال الشعراء ! والمرأة والحية هما اللتان أخرجتا أبانا آدم من فراديس الجنان !

٤ — ولنقيد هنا أن المبتذلات أو الكليشهات تنتقل من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة ثم تذوى وتموت، ومن شواهدها فى عصرنا ما كانت تختم به أكثر المقالات فى الصحف المصرية قبل سنين من مثل عبارة :

« ولله فى خلقه شؤون »

وقد تنوسيت هذه العبارة منذ مدّة بعد أن أملّت القرّاء والكتاب . ومن طريف هذا النوع ما كان الدكتور طه حسين يبدأ به محاضراته فى الجامعة المصرية من مثل عبارة « قلنا فى المحاضرة الماضية » وقد أتفق له أن علا المنصة وتأهب للكلام فسمع بعض الطلبة يقول فى همس : « قلنا فى المحاضرة الماضية » فأبتسم وقال :

« سمعتم فى الدرس الماضى » .

وهو تخلص لطيف !

وهناك تعابير تحيا على ألسنة أصحابها فقط كقول المرحوم سعد باشا « أخجلتم تواضعى» وقوله « فى ميدان الضحايا متسع للجميع » فإن الكتاب أنصرفوا عن أستغلال أمثال هذه التعابير لدلالتها على صاحبها دلالة عنيفة قوية بحيث يشعر القارىء أنها لاتقع فى الكلام إلا نهباً وأختلاساً . وكذلك قوله « إن الوطن غفور رحيم » وهو تعبير قرآنىّ نقله سعد باشا من الصيغة الدينية إلى الصيغة الوطنية ، فأخذ فى كلامه صورة حية ، ولكنه من التعابير التى تأبى الأنقياد لكثير من الناس ، إلا أن يتفق للمحاكين ما أتفق لسعد باشا من علوّ الكلمة ورهبة الجلال .

٥ — تنقسم المبتذلات إلى أقسام : قسم مفهوم هجنته كثرة الاستعمال وقد ذكرنا له عدّة أمثلة ، وقسم غير واضح لا يفهم إلا فى غموض ، ولا يزال الناس يستعملونه بدون أن

يتبينوا تماماً وضع صورته و إن أدركوا معناه ، كقولهم « جاءوا على بكرة أبيهم » فإنهم يفهمون المراد من هذا التعبير و إن كانوا لا يدركون صورته الأولى ، وقولهم « رفع عقيرته وغنى » وهى عبارة ماتت وحاول المنفلوطى إحياءها فتابعه بعض الكتاب ، و إن كانوا لا يدركون الصورة الأصلية ، وقولهم « شالت نعامته » إذا مات ، وقولهم :

« إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم » .

وهى عبارة لا تزال حية ، و إن كان الجمهور لا يدرك صورتها الأولى على الإطلاق . وقولهم « سبق السيف العذل » وهى كلمة لا تزال تجرى على ألسنتنا ، و إن كان الناس لا يلتفتون إلى موردها الأوّل . وقولهم « لأيا عرفت الدار » وهى عبارة جاهلية تنوسيت طويلا ثم حاول المنفلوطى إحياءها فلم تنهض إلا قليلا . وقولهم « ينحتون أثلته و يصدعون مروته » وهى جملة نستجيدها أحياناً و إن كان الجمهور لا يتمثل صورتها إلا بجهد شديد .

وهناك قسم ثالث من الكليشهات جهل أصله منذ زمن طويل فانصرف عنه الكتاب والشعراء كقولهم « يا عيد مالك » و « يا هيىء مالك » و « ياشىء مالك[1] » وقولهم فى الإغراء « كذبك كذا » و « كذبك العسل » و « كذب عليك الحج » و « كذبت عليكم أوعدونى[2] » وقولهم « عنك فى الأرض » و « عنك شيئاً » وقولهم « أعمد من سيد قتله قومه ؟ » أى هل زاد ؟ وقول ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادى حين فُلّت نيوبها

وفسره الخليل فقال : « معناه هل زدنا على أن كفينا ؟ » وهذا لا يغنى شيئاً فى توضيح ذلك التعبير . ومثل هذا قولهم « بعين ما أرينّك » فى موضع « عجل[3] » وقولهم « لعا » فى الدعاء

---

(١) ذكره ابن فارس فيما لم يستطع تفسيره العلماء . انظر الصاحبى ص ٣٥.

(٢) من قول الشاعر :

كذبت عليكم أوعدونى وعللوا بى الأرض والأقوام قردان موظبا

(٣) ارجع إلى الصاحبى ص ٣٤ — ٣٧

للعاثر ، وهى جملة ماتت منذ أزمان وحاول شوقى إحياءها فى رواية مجنون ليلى ، وقولهم « مخرنبق لينباع » وهى عبارة تحاماها المتكلمون منذ عصور طوال، وحاول بعض الكتاب أن يمدح صدق باشا فوصفه بها فظنها الناس من الهجاء ، وما يدرى أحد أأصابوا أم كانوا من المخطئين / وكان العرب يستنهضون العاثر بقولهم « دعدع ولعلع » فنهاهم النبى عن ذلك واستحب لهم أن يقولوا « اللهم ارفع وانفع» فما معنى دعدع ولعلع ؟ كانت هاتان الكلمتان مفهومتين بالطبع حتى صح النهى عنهما ثم أدركهما الموت فاندثر ما كان لهما من معنى ومدلول . وكذلك قول الشاعر :

وما كان على الجيء ولا الهيء امتداحيكا

فما هو الجيء والهيء؟ تلك مبتذلات أو كليشهات ضاعت معانيها فسحب عليها الزمان أذيال العفاء .

٦ — وفى اللغة العربية تعابير تفيض قوّة وحياة، ولكن الكتاب والشعراء ينصرفون عنها عامدين ، ومن ذلك عبارة « والذى نفسى بيده » وهو قسم ظريف انفرد به الرسول عليه السلام ، وقد وقع منذ سنوات فى خطاب أذاعه الأستاذ على ماهر باشا وكان وزير المعارف ، فابتسم الناس ، وقيل إنها عبارة نمقها الأستاذ عبد العزيز البشرى وكان الكاتب البرلمانى لوزارة المعارف حينذاك . ومن هذا الباب الأقسام القرآنية التى تقرن بحرف « لا » مثل « فلا أقسم بالشفق » و « فلا أقسم بمواقع النجوم » وهى أيمان لو عاد إليها المتأدبون لكانت ظريفة، ولكن القرآن انفرد بها وقصر جمالها على آياته البينات ، بحيث لو وقعت فى كلام غيره لشعر القارىء بغربتها عن مواطنها، وبذلك قضى عليها أن تظل رهينة المصحف لا يعرفها الناس إلا فى الصلوات. وقد يكون من أسباب هجرها وتناسيها أنها كانت تشير إلى معان أو حوادث كانت معروفة لعرب الجاهلية فكانوا يجدون فى تذوقها ما لا نجد بعد أن تطوّرات العقائد والأهواء والأذواق والميول ، فلسنا ندرك اليوم ما كان يدركه العرب من جلال هذا اليمين « والتين والزيتون وطور سينين » ولا نسمى هذه مبتذلات ولا كليشيهات

لأن الناس انصرفوا عن استعمالها كل الانصراف ، وإنما نسميها الطوابع القرآنية ، لأنها تجمل فيه وحده ، ولا تنقاد لكلام سواه بعد أن حفظت فيه ما كانت ترمى إليه من دقائق الأغراض .

٧ — لنترك المبتذلات التى ماتت ، والتى يحاول بعض المعاصرين إحياءها فى غير نفع، من مثل «يحرقون الأُرَّم» وما أشبه ذلك من التعابير البالية ، ولنأخذ فى ذكر نوع من الصور لا يبلى ولا يموت، لأن الضرورات اللغوية تفرض حياته على اختلاف الأزمان . والضرورات اللغوية هذه مشكلة إنسانية : لأن الناس لا يستطيعون فى سبيل التنوّ أن يخلقوا فى كل جيل ألفاظاً جديدة يتميزون بها عمن سبقوهم فى تلوين الخيال . ومن أجل ذلك نرى الشعراء والكتاب فى جميع العصور يتلاقون عند تشبيه الخدّ بالورد، والعين بالنبل، والثغر بالأقحوان ، والسن بالبرَد ، واللفظ بالسحر ، والنفَس بالريحان ، والقدّ بالغصن ، والطرّة بالغسق، والغرّة بالفلق ، والخال بالمسك ، والشفة بالعقيق ، والريق بالرحيق ، وتشبيه العذار بطراز العنبر ، والعنق بإبريق اللجين ، والسرة بمدهن العاج ، والوجه بالصبح ، والشعر بالليل ، ووصف العيون بالدعَج ، والمباسم بالفلَج ؛ ونراهم كذلك يتلاقون عند الكلمات الواضحة الدلالة والتى أقرها العرف والذوق ، مثل : أشر الصبا ، وسكر الحداثة ، وشرخ الشبيبة ، وريعان العمر ، وعنفوان الشباب ، وكبد السماء ، وقرارة الماء ، ومطلع الفلق ، ومجمع الغسق ، واضطراب النفس ، واضطرام الصدر ، وصروف الدهر ، وغدرات الزمان . ونجدهم يتوافقون أيضاً عند الصفات الغالبة ، كالعقاب الكاسر ، والبرج الشاهق ، والنجم الثاقب ، والشعرى العَبور ، والأسد الهصور ، والجبل المنيع ، والحصن الحصين ، والصبح الشامس ، والليل الدامس ، والقلب الخافق ، والماء الدافق ، والهواء العليل ، والنسيم البليل ، والطرف الكحيل ، والخد الأسيل ، والخصر النحيل ، والقوام الأهيف ، والطرف الأحور ، والوعد الخلَّب ، والزمن القلَّب ، والرسم الدارس، والطلل الطامس، والغيم الجهام، والسيف الكهام، والبأس الشديد، والعذاب الأليم ، والروض الضاحك ، والسراب الخادع ، والغصن الرطيب ، والوادى

الخصيب ، والصخرة الصماء ، والدرة العصماء ، والحية الرقطاء ، والداء العضاء ، والموت الزؤام والروضة الغناء ، والجنة الفيحاء .

ولو شئنا لمضينا فى سرد ما تداوله الشعراء والكتاب من الأوصاف والتشبيهات ، بدون أن يجرؤ ناقد على أخذهم بإعادة ماسبق إليه الأدباء الأقدمون لأنهم فى الواقع يلجأون إلى صفات وتشبيهات لا يُستغنَى عنها إلا بخلقٍ من اللغة جديد ، واللغات لا تخلق فى أعوام معدودة ، وإنما تنمو وتتطور فى أجيال طوال ، فليس من المعقول إذن أن نرفض تشبيه الخد بالورد مثلا بحجة أن هذا كلام معاد درجت عليه القرون . ولو نظرنا لرأينا النقاد فى أكثر اللغات يحاكمون الكتاب والشعراء إلى المصطلح عليه من الألفاظ والتعابير ، ويظهر ذلك واضحاً عند نقادنا فى القديم والحديث ، حين نراهم يقولون «العرب لاتقول ذلك» أو «لاتعرف العرب ذلك» وثلاثة أرباع ما كتب الباحثون فى النقد والبيان يرجع فى جملته إلى المقابلة بين القوالب الجديدة والقوالب القديمة فى الألفاظ والمعانى والتعابير والأساليب ، ومتى راعينا ذلك سهل علينا أن ندرك أن لا وجه لاتهام الأدب العربى بأنه ركام من المبتذلات كما يظن المسيو ديمومبين .

٨ — على أن الكليشيه بمعناه المفهوم عند النقاد الفرنسيين لايوجد عند شعرائنا وكتابنا إلا قليلا ، ذلك بأن التعبير لا يسمى كليشيه عند الفرنسيين إلا حين يبتذل ويفقد الحياة مثل قولهم فى المستثقل من الأشياء أو الأشخاص Embêtant comme la pluie .

ونحن إذا رجعنا إلى الصور الأدبية عند كبار الكتاب والشعراء من العرب وجدناها تتوثب من فيض القوّة والحياة ، ونستطيع أن نقدّم نماذج من الشعر والنثر ليس فيها تعبير مبتكر ، ولايوجد فيها من الصفات والتشبيهات إلا ما ألفه الناس وتطاولت عليه السنون ، ومع ذلك تبدو طريفة أخاذة وكأنها عذراء لم يمسسها كاتب ولا شاعر ولا خطيب ، وإنما كانت كذلك لأنها صدرت عن نفس حية مفعمة بالشعور والإحساس ، ومن ذا الذى ينكر أن الكلمة الواحدة قد ينطق بها رجلان فتقابل من أحدهما بالتبلد والجمود ، وتقابل من ثانيهما بالتأثر والقبول ، وكذلك الأغنية الواحدة يغنيها اثنان على أصولها الفنية بحيث لا تسقط منها

نبرة ولا يشذ فيها صوت ، ومع ذلك يكون الفرق بين المغنيين بعيداً ، لأن أحدهما ينقل الصوت نقل المحاكاة ، على حين يشعر ثانيهما بمعنى ما يغنيه و يساير صاحب الصوت فيما يعبر عنه من ألوان المشاعر والأحاسيس ، فلو كانت المعانى تبتذل بمجرّد التكرار لوجب أن ننصرف عن أشياء كثيرة عرفها الأولون ، فإن كلمات الحب والعبادة والتقديس قد تكررت وتكررت فى مئات الأجيال ، ومع ذلك يقول المحب لحبيبته « أحبك وأعبدك وأقدسك » فتظهر هذه الجمل على طول العهد بها حارة قوية كأنها موجهة من أوّل آدم إلى أوّل حواء ، وهذه الجمل بعينها قد يوجهها رجل إلى أمرأة فتتلقاها فى خمود ، لا لأنها جمل مبتذلة أضيفت إلى الكليشيهات ، ولكن لأنها صدرت عن قلب خامد ولسان كذوب !

فالمعول عليه إذن فى التعابير الأدبية هو حياتها فى أنفس قائليها . ولا عبرة بالقدم والحدوث فى هذا الباب ، و إن كان الأدباء يتفاضلون بما يبتكرون من الصور والأخيلة ، كما يتفاضلون فى المعانى والأساليب .

و إلى القارىء قطعة من شعر ابن هانىء الأندلسى فى وصف زهرة رمان قطفت قبل عقدها :

وبنت أيك كالشباب النضر كأنها بين الغصون الخضر
جَنان باز أو جنان صقر قد خلّفته لقوة[1] بوكر
كأنما سحت دما من نحر أو نبتت فى تربة من جمر
أو سقيت بجدول من خمر لو كف عنها الدهر صرف الدهر
جاءت كمثل النهد فوق الصدر تفتر عن مثل اللثات الحمر
فى مثل طعم الوصول بعد الهجر

فالتشبيهات والصفات فى هذه القطعة قديمة تداولها الكتاب والشعراء ، ولكن من الذى ينكر أن هذه القطعة من نوادر الشعر البليغ ؟ فإن سألت ماسر الحياة فى هذه القطعة فإنى أجيبك بأن سر حياتها هو الحياة فى روح مَن نظم الوصف وهو متأثر بجمال الموصوف .

(١) اللقوة : بالفتح ، هى العقاب ، بضم العين .

و إلى القارئ قطعة أخرى من شعر ابن المعتز فى ضاحية كانت ملعب صباه ثم غيرها الزمان:

لا مثل منزلة الدويرة(١) منزلٌ   يادار جادك وابلٌ وسقاكِ
بؤساً لدهر غيرتك صروفه   لم يمح من قلبى الهوى ومحاك
لم يحل للعينين بعدك منظر   ذُمَّ المنازل كلهن سواك
أى المعاهد منك أندب طيبه   ممساك بالآصال أم مغداك
أم بردظلك ذى الغصون وذى الجنى   أم أرضك الميثاء أم رياك
وكأنما سعطت مجامر عنبر   أو فُتَّ فار المسك فوق ثراك
وكأنما حصباء أرضك جوهر   وكأن ماء الورد دمع نداك
وكأن درعاً مفرغا من فضة   ماء الغدير جرت عليه صباك

فأى جديد من التشبيهات والصفات فى هذه القطعة ؟ لاشىء ! ومع ذلك لاينكر أحد أنها من الشعر المرقص المطرب الذى يندر أن تجود بمثله قرائح الشعراء ، فما هو السر فى هذه العذوبة التى تسكر أرواحنا كلما أصطبحنا أو أغتبقنا بهذه القطعة الرائعة ؟

السر هو أن الشاعر ينطق عن نفسه فى قوة وحياة ، بحيث تبدو تلك التعابير على لسانه وكأنها من فيض روحه ومن صنع بيانه ، وكأنْ لم يسبقه إليها أحد من صاغة الكلام .

ولنقدم الكلمة الآتية من نثر بديع الزمان :

« أنا و إن لم ألق تطاول الإخوان إلا بالتطول ، وتحامل الأحرار إلا بالتحمل، أحاسب الشيخ أيده الله على أخلاقه ضناً بما عقدت يدى عليه من الظن به ، والتقدير فى مذهبه ، ولولا ذلك لقلت فى الأرض مجالٌ إن ضاقت ظلالك ، وفى الناس واصلٌ إن رثت حبالك ، فإن أعارنى أذنا واعية ، ونفساً مراعية ، ونزوعاً عن هذا الباب الذى يقرعه ، ونزولا عن الصعود الذى يفرعه ، فرشت لمودته خوان صدرى ، وعقدت عليه جوامع خصرى ، ومجامع عمرى ،

---

(١) الدويرة محلة كانت ببغداد .

و إن ركب من التعالى غير مركبه ، وذهب من التغالى فى غير مذهبه ، أقطعته خطة أخلاقه وأوليته جانب إعراضه ، فإنى و إن كنت فى مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهرى البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر، وصافحت يدى النفع والضر وضربت إبطى العسر واليسر ، و بلوت طعمى الحلو والمر ، ورضعت ضرعى العرف والنكر ، فما تكاد الأيام ترينى من أفعالها غريباً ، وتسمعنى من أحوالها عجيباً ، ولقيت الأفراد ، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحداً إلا ملأت حافتى سمعه وبصره ، وشغلت حيزى فكره ونظره ، فمالى صغرت هـذا الصغر فى عينه ، وما الذى أزرى بى عنده حتى أحتجب وقد قصدته ، ولزم أرضه وقد حضرته ؟ أنا أحاشيه أن يجهل قدر الفضل ، أو يجحد فضل العلم ، و يتمطى ظهر التيه ، على أهليه ، وأسأله أن يختصنى من بينهم بفضل إعظام إن زلت بى مرة قدم فى قصده ، وكأنى به غضب لهـذه المخاطبة المجحفة ، والرتبة المتحيفة ، وهو فى جنب جفائه يسير » .

وقد تخيرنا هذه القطعة لـكثرة ماورد فيها من الصور والتعابير القديمة لندل القارئ على أن ذلك لم يمنع من ظهور شخصية بديع الزمان إذ كان يعاتب وهو مضطرم الصدر مهتاج الفؤاد . ولنقدم كلمة أخرى من نثر أبى الفضل بن العميد :

« وصل كتابك فصادفنى قريب العهد بانطلاق ، من عنت الفراق ، ووافقنى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق ، فإن الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل الأحوال ومضى على رسمه المعروف فى تبديل الأشكال ، وأعتقنى من مخالتك عتقا لاتستحق به ولاء وأبرأنى من عهدك براءة لا تستوجب معها دركا ولا استثناء ، ونزع من عنقى ربقة الذل فى إخائك، بيدى جفائك، ورش على ما كان يضطرم فى ضميرى من نيران الشوق بالسلو، وشن على ما كان يلتهب فى صدرى من الوجد ماء اليأس ، ومسح أعشار قلبى فلاءم فطورى بجميل الصبر ، وشعب أفلاذ كبدى فلاحم صدوعها بحسن العزاء ، وتغلغل فى مسالك أنفاسى فعرض عن النزاع نزوعا عنك ، ومن الذهاب فيك رجوعا دونك ، وكشفت عن عينى ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى ، ورفع عنها غيابات ماسد له الشك دون نظرى ،حتى حدر النقاب

عن صفحات شيمك ، وسفر عن وجوه خليقتك ، فلم أجد إلا منكراً ، ولم ألق إلا مستكبراً ، فوليت منها فراراً ، وملئت رعباً ، فاذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك ، ورددت إليك ذمم عهدك » .

وللقارئ أن يتأمل هذه القطعة فسيرى صورها جميعاً منتهبة من غرر الشعر القديم بحيث لا يبقى لابن العميد معنى واحد خلا من لباس معروف ، ومع هذا فمن ينكر أنها من طرائف النثر الجميل ؟ إن الكاتب أفاض عليها من روحه كما تفيض الحسناء من سحر الملاحة على ماتحمل من دمالج وأساور وعقود .

٩ — ونستطيع أن نضرب المثل ببعض ما ظهر من أطايب الأدب الحديث ، فهناك كتاب صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى وهو كتاب نفيس لايختلف فى استجادته اثنان ، ولا أقول لاينتطح فيه عنزان ، فراراً من الكليشيه ! وهذا الكتاب مع جودته قلما يقع فيه تشبيه إلا وهو مسروق من القدماء ، وخاصة رجال القرن الرابع ، وما نظرت فيه إلا تذكرت ماقاله أحد النقاد المتقدمين فى سعيد بن حميد :

« لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع إلى أهلك لما بقى معه شىء ! »

ولكن هذا لايمنع من أننا نقرأ نثر السيد توفيق البكرى مأخوذين بإبداعه وافتنانه حتى لنحسب أنه صاحب مايطالعنا به من الصور والتشابيه ، ولننظر كيف يقول فى شواطئ الآستانة :

« فإذا رأيت ثم حين دلوك الشمس ، وقد شعشع نورها كل بناء وغرس ، وقد عكس فى الماء ، صور مايحيط به من الأشياء ، أبصرت فى الماء قبابا من ذهب ، وأهلة من لهب ، وكثباناً من زمرد ، ووديانا من زبرجد ، وجبالا وأيفاعاً ، وحصوناً وقلاعاً ، وسقوفاً من جوهر ، وعمداً من مرمر ، وصرحاً من قوارير ، وتماثيل وتصاوير ، ودوراً وحوراً ، وناراً ونوراً ، وحللا تطوى وتنشر ، وسيوفاً تغمد وتشهر ، وأقماراً تصاغ وتكسر ، فكأنما تقرأ فى البر ، قصيدة من شعر ، وتنظر فى البحر ، قاموساً من سحر » .

أفيعد هذا من المبتذلات ؟ هيهات هيهات !

١٠ — لقد آن أن نفهم أن الدأب على إحياء الصور القديمة يزيد اللغة قوة ورسوخا ويحببها إلى أذواقنا وقلوبنا ، ألسنا نشعر أحياناً بالرغبة فى وضع بعض الصور الفصيحة فى صور عامية ؟ بلى ! وإن ذلك ليقع فى كل يوم . فما هو سر ذلك ؟ لا شيء أكثر من أن التعابير العامية صقلتها الألسنة فاستطابتها الأذواق .

وقد تناقل الناس أن أبا العلاء المعرّى وضع كتاباً فى معارضة القرآن ، فقيل له :

إن كتابك لجيد ، ولكن تنقصه حلاوة القرآن ! فأجاب حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة وعند ذلك انظروا كيف يكون !

وليس المهم هنا أن نعرض لهذا الرأى برفض أو قبول ، ولكن المهم أن نسجل أثر الترديد والتقليب فى حياة البلاغات ، فإن البلاغة كالموسيقا تبقى صورها فى النفس وفقاً لما يقدر لها من الذيوع . والقلب أكثر ميلا للصوت الذى يداعب أذنيه فى الصباح والمساء ، وكذلك كانت الموسيقا القومية ألصق بالقلوب، وأعلق بالنفوس، وإن كانت فى تأليفها وسطاً لا تسمو إلى اللحاق بكثير من مستجاد الأصوات . وهذا هو أيضاً السر فيما يُعرَف من استعصاء الشعر على الترجمة فى كثير من الأحيان ، لأن المعنى قد يتصل بألفاظه اتصال الروح بما فى الجسم الذى يلابسه من أعصاب وحواس . فالألفة لها أهمية عظيمة فى استجادة ما نقرأ وما نسمع ، وإليها يرجع الفضل فى استحسان ما ترصّع به البلاغات من الحكم والأشعار والأمثال . ولو دققنا النظر فى الصلات النفسية لوجدنا لتداعى المعانى دخلا فى هذه المشكلة البيانية ، لأن الصور المختلفة الألوان تهيىء الذهن والذوق تهيئة خاصة لاستقبال ما يتقدّم به الشعراء والكتاب والخطباء من فنون البيان .

وليس من التحامل فى شيء أن نحكم بأن المستشرقين أقل منا إدراكا لما فى التعابير الأدبية من قوى الحياة ، لأنهم يرون من التعابير شياتها وأعراضها ولا يدركوا ما توحى إلى النفوس إلا بجهد شديد ، فإذا وقع لأحدهم فعل «عجم» مثلا فى عدّة مواطن ظن تنقله من هنا إلى هناك

سمة من سمات الفقر اللغوى ، ونسى الصورة الأولى التى أُخذت عن عجم العود قبل أن تصنع منه الرماح فصعب عليه تبعا لذلك أن يدرك سر البلاغة فى مثل قول ابن المعتز :

وكم عاجم عودى تكسر نابه   إذا لان عيدان اللئام وخاروا

١١ — بقيت نقطة أخيرة فى هذا الموضوع ، وهى تتصل بما نراه من أن حياة التعبير هى التى تمنع من إضافته إلى المبتذلات . ذلك أن كتاب اللغة العربية وخاصة رجال القرن الرابع كان من همهم دائماً أن يرتفعوا عن الجماهير بما يبدعون من المعانى والأساليب ، وكانت وسيلتهم إلى ذلك أن يظهروا بالغنى فى ثقافتهم الأدبية بحيث لا يتذوق أدبهم إلا خواص الخواص ، من أجل ذلك كثرت عندهم الإشارات إلى الحوادث السياسية والاجتماعية ، وبالغوا فى تضمين الآيات والأحاديث والأسجاع والأمثال ، لينقلوا قراءهم إلى جِواء بعيدة لا يتنفس فيها إلا المثقفون . وذلك كله يفرض إدراكهم الحىّ لما يشيرون إليه من حوادث التاريخ ، وتأثرهم بما يعرضون له من إثارة ما اُندفن من قديم الصور فى مختلف الأغراض .

وهذا التسامى فى خَلق بيئة أدبية عالية كان ولا يزال من هموم الأدباء العظام ، فإن الأدب فى ذاته نوع من الترف العقلىّ وهو يفرض وجود أرستوقراطية فكرية يتفيأ ظلالها الكتاب والشعراء . وكذلك كان رجال الأدب العربى فى عصور كثيرة من أصحاب المطامع الكبار ، ومن رجال السياسة والملك ، ومن أقطاب المجتمع الفكرى والعقلى ، بحيث لا يفهَم عنهم إلا مَن يدرك ما كانت ترمى إليه هممهم فى مطارح الحقائق ، أو مدارج الظنون .

الباب الثالث

كتاب الأخبار والأقاصيص

١ – المقامات

١ — العرب كجميع الأمم لهم قصص وأحاديث وأسمار وخرافات وأساطير يقضون بها أوقات الفراغ ، ويصورون بها عاداتهم وطباعهم وغرائزهم من حيث لا يقصدون. ففي أي بقعة من البقاع العربية تجد الناس يسمرون تحت ضوء القمر في ليالي الصيف ، أو حول المواقد في الشتاء . ولو استمعنا إليهم لوجدنا لهم على سذاجتهم طرائف من القصص تدل على لباقة وذكاء . وقد أتيح لي في أحيان كثيرة أن أختبر طبقات العامة من المصريين والسوريين والحجازيين والتونسيين فرأيت لهم نوادر غريبة تشوق الخيال . وتلك القصص الطليقة التي تقال في غير تحفظ ومن غير فن هي المصدر الأول لكتاب ألف ليلة وليلة الذي شغل الأوربيين والأمريكيين بما فيه من المفاجآت المدهشة والأحلام العجيبة التي صورت بها النزعات المكبوتة في تلك الطبقات التي أضناها الاستعباد واليأس والرق الاجتماعي زمنا غير قليل . ولو أن كاتبا أراد أن يجمع كتابا على طراز ألف ليلة وليلة لوصل إلى ما يريد من غير مشقة ولا عناء ، فلا تزال تلك الطبقات تحلم وتتخيل وتبتكر ما شاءت لها حياتها الاجتماعية من أنواع القصص الخلاب الذي يمثل ما ترجو وما تخاف . ولكن هذا النوع من القصص ليس هو النوع الذي نريد أن نتحدث عنه في هذا الباب ، إنما نريد أن نتكلم عن القصص الذي وضع قصداً ، والذي أراد أصحابه أن يدونوا به بعض الأوصاف عن طريق الحكايات الصغيرة ، أو يذيعوا بعض النوادر والفكاهات ، أو يعطوا بعض الجوانب التاريخية صورة مغرضة يخدمون بها بعض الأحزاب ، أو يشرحوا بعض النظريات الفلسفية والأدبية أو يصفوا بعض الحوادث الغرامية ، وما إلى ذلك مما يشوق القلوب والعقول والأذواق .

٢ — وأظهر أنواع الأقاصيص في القرن الرابع هو فن المقامات ، وهي القصص القصيرة التي يودعها الكاتب ما يشاء من فكرة أدبية ، أو فلسفية ، أو خطرة وجدانية ، أو لمحة

من لمحات الدعابة والمجون . وكان المعروف أن بديع الزمان الهمذانى هو أول من أنشأ فن المقامات ، ولم أجد فيمن عرفت من رجال النقد من أُرتاب فى سبق بديع الزمان إلى هذا الفن ، و إنما رأيت من يعلل سبقه بنزعته الفارسية ، إذ كان الفرس فيما يظن بعض الناس أحرص من العرب على القصص وأعرف بمصنوع الأحاديث .

٣ — وفى رأيى أن الحريرى هو الذى أذاع هذا الغلط ، ثم آمن النـاس بقوله ، إذ كان أشهر مَن أقبل الجمهور عليهم من كتاب المقامات ، وهو فى مقدّمة مقاماته ينسب إلى بديع الزمان فضل السبق إذ يقول :

« و بعد فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التى أُبتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان ، رحمه الله تعالى ، وعزا إلى أبى الفتح الاسكندرى نشأتها ، و إلى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . فأشارة من إشارته حُكْم ، وطاعته غُنْم ، إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، و إن لم يدرك الظالع شأو الضليع »[١] .

إلى أن قال :

« هذا مع اعترافى بأن البديع رحمه الله سباق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدّى بعده لإنشاء مقامة ، ولو أوتى بلاغة قدامة ، لا يغترف إلا من فُضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته . ولله در القائل :

فلو قبل مبكاها بكيت صـبابة ... بعدى شفيت النفس قبـل التندم
ولـكن بكت قبلى فهيج لى البكا ... بكاها فقلت الفضـل للمتقدّم[٢]

٤ — وقد وصلت إلى أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، و إنما أُبتكره ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ و إلى القارىء النص الذى اعتمدت عليه فى تحرير هذه المسألة :

(١) الظالع : الذى يغمز فى مشيته . والضليع القوى الأضلاع .
(٢) راجع مقدمة مقامات الحريرى .

قال أبو إسحاق الحصرى حين عرض لكلام بديع الزمان :

« كلامه غضّ المكاسر ، أنيق الجواهر . يكاد الهواء يسرقه لطفا ، والهوى يعشقه ظرفا . ولما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثا وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر ، فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبها الأسماع ، وتوسع فيها ، إذ صرف ألفاظها ومعانيها ، فى وجوه مختلفة ، وضروب متصرفة ، عارضها بأربعمائة مقامة فى الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها بين رجلين : سمى أحدهما عيسى بن هشام ، والآخر أبا الفتح الاسكندرى ، وجعلهما يتهاديان الدر ، ويتنافثان السحر ، فى معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ، يتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما أفرد أحدهما بالحكاية ، وخص أحدهما بالرواية »[1] .

وقد دهش المسيو مرسيه حين عرضت عليه هذا النص فى باريس ، وعجب كيف اتفق الناس مع هذا على أن بديع الزمان هو منشىء فن المقامات ، ثم سألنى : ألا يمكن الارتياب فى قيمة كلام الحصرى فى هذا الموضوع ؟ فأجبته بأنه تحدّث بأسلوب يدل على أنه كان مفهوما فى أوائل القرن الخامس أن بديع الزمان إنما عارض ابن دريد وحاكاه . فارتضى هذا الجواب ثم قال : يظهر أنه ضاع علينا من تاريخ الأدب العربى شىء كثير .

وقد واصلت البحث لأرى صدى هذه الفكرة فى مؤلفات القدماء فلم أجد من أفردها بجهد خاص وإن كنت رأيت ياقوت الحموى نقل ما كتبه صاحب زهر الآداب حين ترجم لبديع الزمان ، ونقلُ ياقوت لهذا النص من غير تعقيب مظهر من مظاهر القبول .

وعندى أن من أسباب غفلة مؤرخى الآداب عن كشف هذا الخطأ أن ابن دريد سمى قصصه (أحاديث) فى حين أن بديع الزمان سمى قصصه مقامات .

---

(١) راجع ص ٣٠٧ ج ١ من زهر الآداب (الطبعة الثانية) .

٥ — وقد دهش الدكتور طه حسين أيضا حين أطلعته على ما وصلت إليه فى تحرير هذه الفكرة ، وقال : إن ابن دريد كان رجل لغة ورواية ، ولم يعرف عنه أنه كان كاتباً ممتازاً ، فكيف أثار بديعَ الزمان بما ابتكر من الأحاديث ؟ ثم عاد فقال : ارجع إلى كتاب الأمالى للقالى وانظر الأحاديث التى نقلها عن الأعراب ، فإن رأيته يروى عن ابن دريد — وكان أستاذه — فاعلم إذن أن الأربعين حديثاً التى ذكر صاحب زهر الآداب أنه اخترعها لم تكن شيئا آخر غير هذه القصص التى حلَّى بها القالى كتابه . فلما رجعت إلى كتاب القالى وجدت حقاً أن القصص التى احتواها مروية عن ابن دريد . من ذلك مثلا حديث البنات اللائى وصفن أزواجهن[1] ، وحديث العاشق الجميل[2] ، وقصة خنافر الكاهن[3] ، والرواد الذين أرسلتهم مذحج لوصف بعض أقطار الجزيرة العربية . وكذلك يمكن المضىّ فى استقصاء ما ذكره القالى من القصص العربية المسجوعة ، وإن كان هذا لا يعيِّن أنها نفس القصص التى عارضها بديع الزمان[4] .

٦ — ولكن يظهر مما جاء فى « الرسالة العذراء » لابن المدبر أن أهل القرن الثالث كانوا يعرفون نوعا من المحاورات الأدبية يسمى المقامات إذ رأيناه يوصى المتأدب فيقول :

---

(١) ج ١ ص ١٧ (٢) ج ١ ص ٣٨ (٣) ج ١ ص ١٣٣ طبع بولاق .

(٤) لم يكن أحد تنبه إلى قيمة النص الذى نقلته آنفاً عن زهر الآداب ووصلت منه إلى نشأة فن المقامات ، وقد اتفق أن المسيو ديموبين وجه نظرى أخيراً إلى إشارة وردت فى دائرة المعارف الإسلامية تدل على أن المسيو بروكلمان كان تنبه إلى ذلك النص فكتبت فى هامش ص ٧٦ من الأصل الفرنسى هذا الاستدراك :

J'ai etudié cette question directement, M. Demombynes aprés avoir lu ce chapitre a attiré mon atteniton sur l'opiuion exprimée sur le même sujet par les auteurs de l'Encyclopédie de l,Islam. J'y ai trouvé ceci (pp. 71, Livraison 39):

(... à savoir qu'Al-Hamadanî se serait inspiré des Arbaïm d,Ibn Doraïd, nous ne pouvons porter ancun Jugement, car cette ceuvre ne nous a pas été conservée).

ومعنى هذا الكلام أن المسيو بروكلمان الذى كتب عن المقامات فى دائرة المعارف الإسلامية يرتاب فى أن يكون بديع الزمان تأثر بأحاديث ابن دريد ، لأن هذه الأحاديث لم تصل إلينا حتى نستطيع أن نصدر حكما . وسيرى القارئ فيما سنكتب عن (أحاديث ابن دريد) كيف ترجح لدينا وجود طائفة من تلك الأحاديث .

« وانظر فى كتب المقامات والخطب ، ومحاورات العرب »(١).

غير أن « المقامات » فى كلام ابن المدبر قد تكون جمع مقام بالتذكير وهو الخطبة أو العظة يلقيها الرجل فى حضرة الخليفة أو الملك ، وقد عقد ابن قتيبة فصلا سماه (مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك) وذكر نماذج كثيرة منها مقام صالح بن عبد الجليل بين يدى المهدى ، ومقام عمرو بن عبيد بن يدى المنصور ، ومقام خالد بن صفوان بين يدى هشام ، ومقام الحسن عند عمر بن هبيرة (٢) . وقد تؤنث كقول بديع الزمان فى أحد الواعظين : « غريب قد طرأ لا أعرف شخصه ، فاصبر عليه إلى آخر مقامته ، لعله ينبئ بعلامته » (٣).

وقد انتقلت المقامات بعد ذلك إلى كلام المتعفين الذين يتوسلون إلى الأغنياء بكلام مسجوع ، وكثيراً ما نجد عندهم أمثال عبارة « ارحموا مقامى هذا » يريدون الموقف ، ثم صار المقام يطلق على ما يقال من الكلام فى تلك المواقف . والمقام فى الأصل المجلس ، ففى القرآن « أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً »(٤) وفى شعر زهير :

وفيهم مقاماتٌ حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعلُ

ومن المؤكد أن بديع الزمان حين أنشأ المقامات كان يتمثل مقامات السائلين فى المساجد والأسواق ، ولذلك نجد راويته مشرداً فى جميع الأحيان (٥).

٧ — ومع أن ابن دريد هو المبتكر لفن المقامات فإن عمل بديع الزمان فى هذا الفن أقوى وأظهر ، وطريقته فى القَصص تختلف عن طريقة ابن دريد ، والذين كتبوا مقامات بعد ذلك لم يكن فى أذهانهم غير فن بديع الزمان ، فهو بذلك منشىء هذا الفن فى اللغة العربية ، ولم تسمّ تلك القصص بعد ذلك أحاديث كما سماها ابن دريد وإنما سميت مقامات كما سماها بديع الزمان .

---

(١) راجع ص ٧ من الرسالة العذراء (طبع دار الكتب المصرية) . (٢) ص ١٤٣ من المقامات (طبع بيروت) . (٣) راجع عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٣ — ٣٤٣

(٤) سورة مريم آية ٧٢

(٥) راجع ما كتبه بروكلمان فى دائرة المعارف الإسلامية ص ١٧٠ (Livraison 30) .

٨ — وأوّل من تأثر خطواته فى القرن الرابع أبو نصر عبد العزيز بن نباته السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ ولم تحفظ عنه إلا مقامة واحدة كما أشار بروكلمان ، ثم جاء ابن ناقيا عبد الله ابن محمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٨٥ فأنشأ عدّة مقامات تختلف فى أسلوبها عن مقامات بديع الزمان بعض الاختلاف [1] .

ثم جاء الحريرى فصير فنّ المقامات شريعة أدبية ، وقد انتشرت مقاماته فى جميع الأقطار العربية ، وصارت مضرب المثل فى الفصاحة والبيان ، ويعدّ الحريرى أشهر من نظم المقامات وإليه يرجع الفضل فى ذيوع هذا الفن الجميل .

ومضى الكتاب بعد ذلك يترسلون على هذه الطريقة فى جميع الصور حتى اليوم ، ولم يمض عصر لم تحفظ فيه مقامات، ونظرةٌ فيما كتب بروكلمان فى دائرة الإسلامية ، أو مادوِّن فى فهرس دار الكتب المصرية ، ترينا كيف افتنَّ الكتاب فى تلك الأقاصيص.

٩ — وقد لاحظنا أن كل ما كتب من المقامات يرجع فى جوهره إلى فن بديع الزمان، فالصورة واحدة من حيث السجع والأزدواج ، وطريقة القَصص واحدة ، والافتنان فى الموضوعات هو كذلك من مبتكرات بديع الزمان ، حتى الطريقة التعليمية التى عرفت فى مقامات السيوطى وابن الجوزى والقلقشندى هى أيضاً مما ابتكر بديع الزمان ، والفرق يرجع إلى صور الثقافات فى مختلف العصور ، فبديع الزمان صوّر مشكلات عصره ، والحريرى مثَّل معضلات زمانه ، والسيوطى فصّل أوهام الناس وعلومهم فى أيامه ، وجاء محمد المويلحى فى العصر الأخير فوضع كتابا فى نقد الحياة الاجتماعية فى مصر تأثر فيه سجع بديع الزمان وحفظ من رسومه من أسم راويته عيسى بن هشام .

١٠ — وفن المقامات الذى نشأ فى القرن الرابع لم يعرف وطناً عربياً ، وإنما عاش فى جميع الأقطار الإسلامية ، فكان من أهل فارس والعراق والشام واليمن والحجاز ومصر

---

(١) لم يبق من آثار ابن ناقيا إلا تسع مقامات محفوظة بمكتبة (الفاتح) فى استانبول .

والمغرب والأندلس كتّاب برعوا فى فن المقامات ، وتفصيل هذه النقطة يحتاج إلى كلام طويل ، على أنها أوضح من أن تحتاج إلى تفصيل .

١١ — ومن طريف ما قرأت ما أشار إليه بروكلمان فى دائرة المعارف الإسلامية فقد حدّثنا أن هذا الفن انتقل بفضل بديع الزمان إلى اللغة الفارسية ، وكان الدكتور أحمد ضيف يظن أنه انتقل من الفارسية إلى العربية ، وأشهر أصحاب المقامات فى الأدب الفارسى القاضى حميد الدين أبو بكر بن عمر بن البلخى المتوفى سنة ٥٩٩ وهى تحتوى على مناظرات مختلفة بين الشباب والشيخوخة ، و بين أهل السنة والشيعة ، و بين الطبيب والمنجم ، وفيها وصف للربيع والخريف ، والحب والجنون ، وفيها مناقشات فقهية وصوفية ، وهى كالمقامات العربية تصاغ فى قوالب فنية [(١)] .

وأشار بروكلمان كذلك إلى أن هذا الفن دخل اللغة العبرية بفضل اليهودى الربانى يهودا بن شلومو الحريزى الذى ترجم مقامات الحريرى إلى العبرية وأنشأ على نمطها خمسين مقامة سماها (سِفر تَحْكِمونى)[(٢)] وضمّنها كثيراً من آيات التوراة [(١)] .

ودخل هذا الفن أيضاً إلى اللغة السريانية ، فقد نظم أحد السريان من مدينة نصيبين خمسين قصيدة على نمط مقامات الحريرى ضمنها جملة من العظات والأخلاق ، فى لغة مثقلة بالزخارف والتهاويل ، ونشرها جبريل قرداحى فى بيروت سنة ١٨٨٩ [(١)] .

١٢ — وعند مقارنة مقامات البديع بمقامات الحريرى يتبين لنا أنّ لغة بديع الزمان خالية من التكلف والاعتساف ، ولا كذلك لغة الحريرى التى تعدّ من أغرب نماذج النثر المصنوع وعند الرجوع إلى آثار من تأثروا بفن المقامات نراهم فى الأغلب تلامذة الحريرى لا تلامذة البديع ، فقد أولع أكثرهم بالصنعة والزخرف ، ولم يأنس منهم إلى فطرته إلا القليل .

---

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية ص ١٧٢ و ١٧٣ من (**Livraison 30**) .
(٢) كلمة عبرية معناها « كتاب الحكمة » .

١٣ — ونتيجة ما سلف أن القرن الرابع دان اللغة العربية بفن من فنون القَصص هو فن المقامات ، وذيوع هذا الفن يرجع إلى أنه وافق السليقة العربية التى تميل إلى القصص القصيرة ، والتى تميل إلى الزخرف فى الإنشاء .

وقد ظن ناس أن فن المقامة هو فن القصة ، وكذلك نراهم يذكرون المقامات كلما أُثير موضوع القصة فى اللغة العربية ، والواقع أن العرب بفطرتهم لم يكونوا يميلون إلى القصص المعقد الذى وجد كثير منه فيما أُثِر عن اليونان القدماء ، والذى ذاع عند الانجليز والروس والفرنسيس والألمان .

ولا عيب فى أن تخلو آثار العرب من القصص الطويل ، فإن الفن الصحيح يرتكز أوّلا على الفطرة ، ولم يكن العرب مفطورين على القصة التى تقرأ فى أيام أو أسابيع ، ولذلك خلا شعرهم ونثرهم من الآثار القصصية التى وجدت عند معاصريهم فى الشرق والغرب .

وليس معنى هـذا أن آثار العرب خلت خلواً تاماً من القصة ، ولـكن معناه أن فن القصـة من الفنون الدخيلة على اللغة العربية ، وقد يكون لبساطة الطبائع العربية أثر فى وقوفهم عند القصص القصير ، ومَثَل القصة فى ذلك مَثَل الموسيقا ، فقد كانت موسيقاهم بسيطة لأن نفوسهم كانت بسيطة ، فلمـا أخذت العواطف تتعقد وتشتبك أخذ القصص والموسيقا فى التعقد والاُشتباك .

ولهذا السبب عينه لم يفكروا فى التمثيل ، ولم ينقلوا عن اليونان شيئاً يذكر من القصص التمثيلية ، لأن أسمارهم كانت تغنيهم عن التمثيل .

ولا ينس القارئ أن موقفنا دائماً موقف المؤرخ للفنون الأدبية ونحن من وجهة التاريخ نرى أن إبداع فن المقامات يعـدّ فتحاً عظيما فى اللغـة العربية ، ولا بد أن يكون معاصرو بديع الزمان تلفتوا إلى فـنّه تلفت الدهشة والاستغراب وعـدّوه من كبار المبدعين .

وحسب بديع الزمان من المجد أنه ألهم الحريرى مقاماته التى كانت سبباً فى خلود هذا الفن الجميل ، وقد ظلمه شوقى حين قال فى رثاء المويلحى :

رب سجع كرقص الروض لما يختلف لحنه ولا إيقـــاعه
أو كسجع الحمام لو فصلته وتأنت به ودقّ اختراعه
هـو فيه بديع كل زمان مابديع الزمان ؟ ماأسجاعه ؟(١)

إن بديع الزمان شخصية نادرة المثال ، وأسجاعه أحيانا أرق من الزهر المطلول ، ولـكن المنصفين فى الناس قليل .

ألم يجرؤ أحد المتحذلقين على ادعاء أن نثر بديع الزمان لا يقرأ إذا ترجم إلى لغة أجنبية؟ لقد ترجمنا نماذج من مقاماته ورسائله إلى اللغة الفرنسية فكانت تحفة فى عين من رآها من الفرنسيس ، ولـكن أكثر المحدَثين عندنا لا يعرفون أسرار الأدب القديم .

(١) انظر ما كتبه الأستاذ محمد لطفى فى جريدة البلاغ « ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٠ » .

٢ – مقامات بديع الزمان [1]

١ — ألفّ بديع الزمان مقاماته بعد وصوله إلى نيسابور سنة ٣٨٢ [2] — والمتفق عليه عند كتاب التراجم أنها كانت أربعمائة ، ونحن نرجح أنها كانت خمسين ، بدليلين :-

الأوّل : أنه عارض بها أربعين حديثاً أنشأها ابن دريد ، والمعارضات كانت تتقارب دائماً فى الكمية .

الثانى : أن مقاماته لم يحفظ منها غير خمسين ، فليس بمعقول أن يضيع من آثاره خمسون وثلثمائة مقامة ، مع أن آثاره لم يضع منها إلا القليل.

يضاف إلى ذلك أن الحريرى حين عارض بديع الزمان لم ينشىء فى معارضته غير خمسين مقامة،ثم صار عدد الخمسين هو الرقم المتبع فيما كتب فى هذا النوع من الأقاصيص .

٢ — فى مقامات بديع الزمان نماذج من القصة القصيرة ، ففيها « العقدة » وتحليل الشخصيات والمقامة المضيرية التى تكلمنا عنها فى « الفكاهات » تمثل هذا الفن ، وكذلك المقامة البغدادية التى أشرنا إليها فى الجزء الثانى [3] ، وهاتان المقامتان هما أبرع ما قص بديع الزمان .

وفيما عدا ما وفق إليه فى نظم بعض الأقاصيص نراه يقف حيث وقف من قبله ابن دريد ، فيرسل العظة ، أو يسوق الوصف ، أو ينمق الفكاهة ، أو يقضى بأحكام أدبية أو فلسفية ، من دون أن يهتم بالعقدة القصصية ، و إليك هذا المثال :

حدّثنى عيسى بن هشام قال : بينا نحن بجرجان فى مجمع لنا نتحدث ومعنا يومئذ رجل العرب حفظاً ورواية وهو عصمة بن بدر الفزارى . فأفضى بنا الكلام إلى ذكر من أعرض عن خصمه حلماً ، ومن أعرض عنه احتقاراً ، حتى ذكرنا الصلَتان العبدى والبعيث وما كان

---

(١) انظر ترجمة بديع الزمان فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٣٢٥ وما يليها من الصفحات . (٢) راجع يتيمة الدهر ج ٤ ص ١٦٩ (٣) ص ٣١٥ و ٣١٦

من احتقار جرير والفرزدق لها ، فقال عصمة : سأحدثكم بما شاهدته عينى ، ولا أحدّثكم عن غيرى ، بينما أنا أسير فى بلاد تميم مرتحلا نجيبة ، وقائدا جنيبة[١] ، عنّ لى راكب على أورق[٢] جَعْد اللغام[٣] ، فحاذانى حتى إذا صك الشبح بالشبح ، رفع صوته بالسلام عليك ، فقلت : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ! مَن الراكبُ الجهير الكلام ، بتحية الإسلام ؟ فقال : أنا غيلان بن عقبة . فقلت : مرحباً بالكريم حسبُه ، الشهير نسبُه ، السائر منطقُه ! فقال : رحُب واديك ، وعزّ ناديك ، فمن أنت ؟ قلت : عصمة بن بدر الفزارى . قال : حياك الله نعم الصديق ، والصاحب والرفيق ! وسرنا فلما هجّرنا[٤] قال : ألا تغوّر[٥] يا عصمة ، فقد صهرتنا الشمس ؟ فقلت : أنت وذاك ! فملنا إلى شجرات ألاء[٦] ، كأنهن عذارى متبرجات ، قد نشرن غدائرهن ، لأثلاث تناوحهن . فحططنا رحالنا ونلنا من الطعام ، وكان ذو الرمة زهيد الأكل ، وصلينا بعد ، وآل كل واحد منا إلى ظل أثلة يريد القائلة ، واضطجع ذو الرمة ، وأردت أن أصنع مثل صنيعه ، فوليت ظهرى الأرض ، وعيناى لا يملكهما غمض ، فنظرت غير بعيد إلى ناقة كوماء[٧] قد ضحيتْ ، وغبيطها ملقى ، وإذا رجل قائم ، يكلؤها كأنه عسيف أو أسيف[٨] ، فلهيت عنهما — وما أنا والسؤال عما لا يعنينى ! — ونام ذو الرمة غِرارا[٩] ، ثم انتبه وكان ذلك فى أيام مهاجاته لذلك المرىّ ، فرفع عقيرته وأنشأ يقول :

أمن مَيّةَ الطلل الدارسُ ... ألظ[١٠] به العاصف الرامسُ[١١]

فلم يبق إلا شجيج القذال[١٢] ... ومستوقَدٌ ما له قابس

وحوض تثلّم من جانبيه ... ومحتفَل دارس طامس

وعهدى به وبه سكنه[١٣] ... وميّة والأنس والآنس

---

(١) الجنيبة الفرس يقودها الرجل إلى جنبه (٢) الأورق من الإبل مافى لونه بياض إلى سواد . (٣) جعد اللغام : متراكم الزبد . (٤) هجر بالتشديد صادف وقت الهجر ، وهو حر الظهيرة . (٥) التغوير : النوم عند الغائرة وهى القائلة . (٦) الألاء : شجر مر . (٧) كوماء : عظيمة السنام . (٨) العسيف الأجير ، والأسيف العبد . (٩) قليلا . (١٠) ألظ به لازمه . (١١) من رمس الشىء دفنه . (١٢) الشجيج المكسور . والقذال الرأس ، والمراد به هنا الوتد الذى كانت تربط فيه الأطناب .
(١٣) السكن بفتح فسكون : الساكنون .

كأنى بميـــة مستنفر غزالا تراءى له عاطس(١)
إذا جئتهـا ردنى عابس رقيب عليهـا لهـا حارس
ستأتى أمرأ القيس مأثورة يغنى بها العـابرَ الجالس
ألم تر أن أمرأ القيس قد ألظ به داؤه النـاجس(٢)
هم القوم لا يألون الهجاء وهل يألم الحجر اليـابس ؟
فما لهمُ فى العـلا مركب ولا لهـمْ فى الوغى فارس
ممرطلة(٣) فى حيـاض الملام كما دَعس الأَدَم الداعس
إذا طمح الناس للمكرمات فطرفهـم المطرق الناعس
تعـاف الأكارم إصهارهم فكل أياماهمُ عانس(٤)

فلما بلغ هذا البيت تنبه ذلك النـائم وجعل يمسح عينيه و يقول : أذو الرميمة يمنعنى النوم بشعر غير مثقف ولا سائر ؟ فقلت : يا غيلان من هذا ؟ فقال : الفرزدق ، وحمىَ ذو الرمة فقال :

وأما مجاشـع الأرذلون فـلم يسق منبتهم راجس(٥)
سيعقلهم عن مساعى الكرام عقـال ويحبسهم حابس

فقلت : الآن يَشرق(٦) ويثور(٧) ، و يعم هذا وقبيلته بالهجاء . فوالله ما زاد الفرزدق على أن قال : قبحا لك يا ذا الرميمة أتعرض لمثلى بمقال منتحل ؟ ثم عاد فى نومه كأن لم يسمع شيئا ، وسار ذو الرمة وسرت معه ، و إنى لأرى فيه انكسارا حتى افترقنا » .

فهذه المقامة ليست أقصوصة ، و إنما هى خبر من الأخبار التى كثر أختراعها فى الأدب القديم ، والتى تمثل بعض العادات والتقاليد ، وتصف مايقع بين الناس من ألوان الخصومات

---

(١) العاطس : الصبح ، ونفرة الغزال فى الصباح شديدة لقرب عهده بوحشة الليل .
(٢) الناجس الداء العضال . (٣) ممرطلة : ملطخة . (٤) الأيامى جمع أيم وهى التى لازوج لها ، بكراً أوثيباً ، والعانس التى لم تتزوج أصلاً . (٥) الراجس : السحاب الراعد
(٦) يشرق : يغص بريقه ، كناية من شدة الغيظ . (٧) يهيج .

والأحقاد . وقد يمكن مع ذلك إضافتها إلى الأقاصيص الوصفية التى لا يراد بها الإغراب فى العقدة والشخصيات ، وإنما تجرى على نمط الأحاديث .

٣ — ومن مظاهر الضعف عند بديع الزمان ومن حاكاه وقوفه عند شخصية واحدة ، فأبو الفتح الاسكندرى ينتقل من قصة إلى قصة ، وعيسى بن هشام يحدثنا فى كل مرة عن دهشته من كشف شخصيته ، مع أنه كان يكفى أن يشتبه عليه أمره مرة أو مرتين، ولكنه فى جميع الأحوال يضل عن عرفانه ، ولا يتبينه إلا بعد كشف اللثام . غير أن لعيسى بن هشام مواقف لا يذكر فيها أبو الفتح ، كما وقع فى المقامة الأهوازية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الصفرية، والمقامة الخلفية.

٤ — و بديع الزمان مغرى برسم السوآت ، والمقامة الشامية والرصافية والدينارية من شواهد ذلك، وله غرام بالأهاجى المقذعات — وكان هذا الفن مما يقصد إليه كتاب القرن الرابع[1] — فقد اتفق لعيسى بن هشام أن يفكر فى التصدق بدينار على أشحذ رجل فى بغداد ، وذُكر له اسم أبى الفتح الاسكندرى فمضى إليه فوجده فى رفقة ، قد اجتمعت فى حلقة ، فقال : يابنى ساسان ؟ أيكم أعرف بسلعته ،وأشحذ فى صنعته ، فأعطيه هذا الدينار ؟ فقال الاسكندرى : أنا وقال الآخر من الجماعة : لا ، بل أنا ! ثم تناقشا وتهارشا ، فقال عيسى ابن هشام : ليشتم كل منكما صاحبه ، فمن غلب سلب ، ومن عزّ بزّ !

فقال الاسكندرى يهجو صاحبه :

يا برد العجوز ، يا كربة تموز ، يا وسخ الكوز ، يا درهما لا يجوز ! يا فسوة التنين ، ياخجلة العِنِّين ، يا حديث المغنين ! يا سنة البوس[2] ، يا ضرطه العروس ، يا كوكب النحوس ، يا وطأة الكابوس ، ياتخمة الرءوس ! يا أم حُبَين[3] ، يا رمد العين ، ياغداة البين ، يافراق المحبَّين ، يا ساعة الحَين ، يا مقتل الحسين ، يا ثقل الدين ، يا سِمة الشين !

(١) كما سترى فى حكاية أبى القاسم البغدادى التى حللناها فى آخر هذا الباب .
(٢) مخففة عن البؤس . (٣) دويبة كريهة المنظر .

يا بريد الشؤم ، يا طريد اللوم ، يا ثريد الثوم ، يا دية الزقوم ! يا منع الماعون ، يا سنة الطاعون ! يا بغى العبيد ، يا آية الوعيد ، يا كلام المعيد ! يا أقبح من حتى ، فى مواضع شتى! يا دودة الكنيف ، يا فروة الصيف ، يا تنحنح المُضيف ، إذا كُسر الرغيف! ياجشاء المخمور ، يا نكهة الصقور ، يا وتد الدور ، يا خزونة[1] القدور ، يا أربعاء لاتدور ، ياطمع المقمور ! يا ضجر اللسان ، يا بول الخصيان ، يا مؤاكلة العميان ، يا شفاعة العريان ، ياسبت الصبيان ! يا كتاب التعازى ، يا قرارة المخازى ، يا بخل الأهوازى ، يافضول الرازى ! والله لو وضعت إحدى رجليك على أروند ، والأخرى على دماوند ، وأخذت بيدك قوس قُزَح وندفت[2] الغيم فى جباب الملائكة ما كنت إلا حلاجا ! !

وقال الآخر :

ياقُراد القرود ، يالبود اليهود ، يا نكهة الأسود، يا فسوة السود ، يا ضرطة فى السجود، يا عدما فى وجود ! يا كلبا فى الهراش ، يا قردا فى الفراش ، يا قرعية بماش[3] ، يا أقل من لاش ! يا دُخان النفط ، يا صنان الأبط ، يا زوال الملك ، يا هلال الهلاك ! يا أخبث ممن باء بذلّ الطلاق، ومنع الصداق ! يا وحل الطريق، يا ماء على الريق ! يا محرك العظم[4] ، يا معجل الهضم ، يا قلح الأسنان[5] ، يا وسخ الآذان ! يا أجرّ من قَلس[6] ، يا أقل من فَلْس ! يا أفضح من عَبرة ، يا أبغى من إبرة ! يا مهب الخف ، يا مدرجة الأكف ! يا كلمة ليت ، يا وكف البيت ، يا كيت وكيت ! والله لو وضعت أُستك على النجوم ، ودليت رجليك فى التخوم ، واتخذت الشِّعرَى خفاً ، والثريا رفاً ، وجعلت السماء منوالا ، وحكت الهواء سربالا ، فسدّيته بالنسر الطائر ، وألحمته بالفلك الدائر ، ما كنت إلا حائكا ! » .

(١) الخزونةالتغير والفساد . (٢) ندفه ضربه بالمندفة التى يطرق بها الوتر ليرق القطن .

(٣) القرعية طعام يصنع من القرع،والماش حب يقرب من حب الباقلاء يقرب فى طعمه من العدس فإذا خلط بالقرع كان كريه المذاق . (٤) محرك العظم هو الحمى الشديدة المصحوبة بالبرد والقشعريرة . (٥) قلح الأسنان مايعلوها من خضرة أو صفرة .

(٦) القلس بفتح فسكون الحبل يجر به المركب .

وهنا يحدّثنا عيسى بن هشام أنه لم يدر أيهما يؤثر ؛ فما منهما إلا بديع الكلام ، عجيب المقام ، ألد الخصام .

وهذا النمط من الإنشاء لا يراد به الظهور بقوة القريحة ، وغنى اللغة ، وخصب الخيال . وهو يمثل هذر الحضريين وسفاهاتهم وميلهم إلى شناعة القيل والقال . وعند مراجعة هذه الأهاجى نجد فيها عبارات طريفة تبعث الضحك إلى ثغر الحزين .

وهل فى الدنيا أبرد من « تنحنح المُضيف ، إذا كُسِر الرغيف » ؟ !

وهل فى الحياة أثقل من « شفاعة العريان ، وسبت الصبيان » ؟

٥ — والوصف من الفنون المقصودة فى مقامات بديع الزمان ، وهو يعتنّ فيه من موضع إلى موضع ، وانظر قوله فى المقامة الأسدية :

« ... إلى أن اتفقت لى حاجة بحمص ، فشحذت الحرص ، فى صحبة أفراد كنجوم الليل ، أحلاس [(١)] لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق تنتهب مسافته ، ونستأصل شأفته ، ولم تزل أسنمة النجاد [(٢)] ، بتلك الجياد ، حتى صارت كالعِصىّ ، ورجعتْ كالقِسِىّ ، وتاح [(٣)] لنا واد فى سفح جبل ذى ألاء وأثل كالعذارى يسرحن الضفائر ، و ينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا إليها ونزلنا نغور [(٤)] ونغوِّر [(٥)] ور بطنا الأفراس ، بالأمراس ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا إلا صهيل الخيل ، ونظرت إلى فرس يجذّ قوى الحبل بمشافره ، و يخد خد الأرض بحافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال ، وقطعت الحبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا إلى سلاحه فإذا السبع فى فروة الموت قد طلع من غابه ، منتفخاً فى إهابه كاشراً عن أنيابه ، بطرف قد مُلىء صلفاً ، وأنف قد حُشِىَ أنفاً ، وصدر لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب ، وقلنا : خطب والله ! وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتًى :

أخضر الجلدة [(٦)] فى بيت العرب   يملأ الولو إلى عَقد الكَرَبْ

---

(١) الأحلاس جمع حلس بالكسر وهو البرذعة . (٢) النجاد جمع نجد وهو ما أرتفع من الأرض . (٣) تاح : عرض . (٤) نغور : تنزل الغور . (٥) نغور : ننام
(٦) أخضر الجلدة : أسمر اللون .

بقلب ساقه قدر ، وسيف كله أثر ، وملكته سورة الأسد فخانته أرض قدمه ، حتى سقط لِيده وفمه، وتجاوز الأسد مصرعه ، إلى من كان معه ، ودعا الحَين أخاه ، بمثل مادعاه، فصار إليـــه ، وعقل الرعب يديه ، فأخذ أرضه ، وافترش الليث صدره . ولـكنى رميته بعمامتى ، وشغلت فمه ، حتى حقنت دمه ، وقام الفتى فوجأ بطنه ، حتى هلك الفتى من خوفه ، والأسد للوجأة فى جوفه . ونهضنا فى أثر الخيل فتألفنا منها ما ثبت ، وتركنا ما أفلت، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه .

فلمـا حثونا الترب فوق رفيقنـا جزعنا ولـكن أىّ ساعة مجزع

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها ، حتى إذا ضمرت المزاد ، ونفد الزاد أو كاد يدركه النفاد ، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع ، وخفنا القاتلَين الظمأ والجوع ، عنّ لنا فارس فصمدنا صمده ، وقصدنا قصده . ولما بلغنا نزل عن حرّ فرسه ينقش الأرض بشفتيه ، و يلقى التراب بيديه ، وعمدنى من بين الجماعة فقبل ركابى ، وتحرّم بجنابى ، ونظرت فإذا وجه يبرق برق العارض المتهلل ، وقوام متى ما ترقّ العين فيه تسهّل ، وعارض قد اخضر ، وشارب قد طر ، وساعد ملآن ، وقضيب ريان ، ونجاد تركى ، وزى ملكى ، فقلنا : مالك ، لاأبا لك ! فقال : أنا عبد بعض الملوك همّ من قتلى بهمّ(٣) ، فهمت على وجهى إلى حيث ترانى . وشهد شواهد حاله ، على صدق مقاله . ثم قال : أنا اليوم عبدك ، ومالى لك . فقلت بشرى لك وأدّاك سيرك إلى فناء رحب ، وعيش رطب! وهنأتنى الجماعة ، وجعل ينظر فتقتلنا ألحاظه ، و ينطق فتفتننا ألفاظه ، والنفس تنازعنى فيه بالمحظور ، والشيطان من وراء الغرور ، فقال : يا سادة ! إن فى سفح الجبل عيناً وقد ركبتم فلاة عوراء(٤)، فخذوا من هناك الماء، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار، و بلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركب الجنادب العيـدان ، فقال : ألا تقيلون فى هــذا الظل الرحب ، على هذا المـــاء العذب ؟ فقلت : أنت وذاك ! فنزل

---

(١) أى عن فرسه الحر العتيق .

(٢) وقع هذا التعبير فى كلام بديع الزمان غير مرة وهو فى الأصل من كلام امرىء القيس.

(٣) الهم : العزم . (٤) عوراء : قليلة العيون فليس بها ماء .

عن فرسه ونحىّ منطقته[١]، وحلّ قُرطُقته[٢] . فما استتر عنا إلا بغلالة تنم على بدنه ، فما شككنا أنه خاصم الولدان ، ففارق الجنان ، وهرب من رضوان ، وعمد إلى السروج فحطها ، وإلى الأفراس فحشها[٣] ، و إلى الأمكنة فرشها ، وقد حارت البصائر فيه ، ووقفت الأبصار عليه[٤] ، .. وقلت : يافتى ! ماألطفك فى الخدمة ، وأحسنك فى الجملة ! فالويل لمن فارقته ، وطوبى لمن رافقته ! فكيف شكر الله على النعمة بك ؟ فقال : ماسترونه منى أكثر! أتعجبكم خفتى فى الخدمة ، وحسنى فى الجملة ، فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة ؟ أريكم من حذقى طرفا ، لتزدادوا بى شغفاً ؟ فقلنا : هات ! فعمد إلى قوس أحدنا وفوق سهما فرماه فى السماء ، وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء ، وقال : سأريكم نوعا آخر ، ثم عمد إلى كنانتى فأخذها وإلى فرسى فعلاه ، ورمى أحدنا بسهم أثبته فى صدرد ، وطيّره من ظهره . فقلت : ويحك ، ما تصنع ؟ ! فقال أُسكت يالُكَع ! والله ليشدّن كل منكم يد رفيقه ، أو لأُغصِّنه بريقه ! فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة ، وسروجنا محطوطة ، وأسلحتنا بعيدة،وهو راكب ونحن رجالة ، والقوس فى يده يرشق بها الظهور ، ويمشق بها البطون والصدور ، وحين رأينا الجدّ ، أخذنا القد[٥] فشد بعضنا بعضاً ، وبقيت وحدى ، لاأجد من يشد يدى ، فقال : اخرج بإهابك ، عن ثيابك ! فخرجت ، ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر ، ويقول : أقمت قضيبك ، فخذ نصيبك ! ... الخ » .

والقصة فى جملتها فكاهة . ولكن الوصف ظاهر فيها كل الظهور ، وفيها فقرات تعد من آيات الوصف السابغ ، والحركة قوية فى تلك الأقصوصة ، والمناظر تتوارد فى حياة وانسجام . وعند تأمل ما انتهت إليه نجد الغرض فى غاية من التفاهة ، فكأن بديع الزمان ما كان يقصد غير هذه الأوصاف .

---

(١) المنطقة : الحزام .

(٢) القرطقة : مؤنث قرطق وهو قباء ذو طاق واحد وأصله (كرته) بالفارسية (راجع شرح المقامات للشيخ محمد عبده ص ٣٩) . (٣) ألقى لها الحشيش .

(٤) حذفنا من هذا الموطن كلمات فيها مجون .

(٥) القد، بالكسر، سير من جلد غير مدبوغ .

والمقامة الخمرية وضعت قصداً لوصف الصهباء ، فيحدثنا عيسى بن هشام : أنه كان فى عنفوان شبيبته عدّل ميزان عقله ، وعدل بين جِده وهزله ، فجعل النهار للناس ، والليل للكاس ، وأنه أُجتمع فى بعض لياليه مع إخوان الخلوة فما زالوا يتعاطون نجوم الأقداح ، حتى نفد ما معهم من الراح، ثم دعتهم دواعى الشطارة، إلى حان الخمارة،والليل أخضر الديباج مغتلم الأمواج ، فلما أخذوا فى السبح ، ثوب منادى الصبح،فخنس شيطان الصبوة، وتبادروا إلى الدعوة ، وقاموا وراء الإمام ، قيام البررة الكرام ، بوقار وسكينة ، وحركات موزونة ، وإمامهم يجد فى خفضه ورفعه ، ويدعوهم بإطالته إلى صفعه ! حتى إذا راجع بصيرته ، ورفع بالسلام عقيرته ، تربع فى ركن محرابه ، وأقبل بوجهه على أصحابه ، وجعل يطيل إطراقه ، ويديم استنشاقه ، ثم قال : أيها الناس ! من خلط فى سيرته ، وابتلى بقاذورته ، فليسعه ديماسه[1] ، دون أن تنجسنا أنفاسه ، إنى لأجد منذ اليوم ، ريح أم الكبائر من بعض القوم ، فما جزاء من بات صريع الطاغوت ، ثم ابتكر إلى هذه البيوت ؟ !

وأشار إمام المسجد إلى عيسى بن هشام وأصحابه فتألبت عليهم الجماعة حتى مزقت أرديتهم ، وأدمت أقفيتهم ، فأقسموا لاعاودوا الشراب ، وأفلتوا وما كادوا يفلتون ، وسألوا من مر بهم من الصبية ، عن إمام تلك القرية ، فأجابهم الصبية : بأنه الرجل التقى أبو الفتح الاسكندرى ؛ فقالوا : سبحان الله ! ربما أبصر عِمّيت ، وآمن عفريت ! والحمد لله لقد أسرع فى أوبته ، ولاحرمنا الله مثل توبته . وجعلوا بقية يومهم يعجبون من نسكه ، مع أنهم كانوا يعجبون من فسقه ... ثم شرع عيسى بن هشام فى الوصف فقال :

« ولما حشرج النهار أو كاد ، نظرنا فإذا برايات الحان أمثال النجوم ، فى الليل البهيم ، فتهادينا بها السراء ، وتباشرنا بليلة غراء ، ووصلنا إلى أفخمها بابا ،وأضخمها كلابا ،وقد جعلنا الدينار إماما، والاستهتار لزاما ، فدُفِعنا إلى ذات شكل[2] ودل ، ووشاح منحل ، إذا قتلت

---

(١) الديماس البيت .

(٢) الشكل الغزل .

ألحاظها ، أحيت ألفاظها ، فأحسنت تلقينا ، وأسرعت تقبل رءوسنا وأيدينا،وأسرع من معها من العلوج ، إلى حط الرحال والسروج ، وسألنا عن خمرها فقالت :

خمرٌ كريقى فى العذو بة واللذاذة والحلاوة
تـذر الحليم وما عليـه لحلمه أدنى طلاوة

كأنما اعتصرها من خدى ، أجداد جدى ، وسربلوها من القار بمثل هجرى وصدى ، وديعة الدهور ،وخبيئة جيب السرور ، وما زالت تتوارثها الأخيار ، ويأخذها الليل والنهار، حتى لم يبق إلا أرج وشعاع،ووهَج لذّاع،ريحانة النفس،وضرة الشمس،فتاة البرق[1]، عجوز الملق ، كاللهب فى العروق ، وكبرد النسيم فى الحلوق ، مصباح الفكر ، وترياق سم الدهر ، بمثلها عُزِّر[2] الميت فانتشر ، ودووى الأكمه فنظر .

ثم ينتقل عيسى بن هشام فيحدثنا بعد هذا الوصف أنهم قالوا :

« هذه الضالة وأبيكِ، فمن المطرب فى ناديكِ ؟ ولعلها تُشعشَع للشَّرب ، من ريقك العذب ! ».

وأنها أجابتهم بأن لها شيخاً ظريف الطبع طريف المجون ، مر بها يوم الأحد فى دير المربد ، فوقعت بينهما الخلطة ، وتكررت الغبطة ، وذكر لها من وفور عرضه ، وشرف قومه فى أرضه ، ما عطفها عليه . واشتاق عيسى بن هشام إلى رؤية هذا الشيخ الذى يجمع بين ظرف الطبع وطرافة المجون فإذا هو أبو الفتح الاسكندرى إمام المسجد فى صباح الأمس !

أكان بديع الزمان يريد بهذه المقامة أن يعرّض ببعض الأشياخ الذين يظهرون بسمت مشرق ، وينطوون على زيغ موبق ؟

لا ، إن بديع الزمان نفسه مرتاب ، ولذلك نراه ينطق أبا الفتح بهذه الأبيات :

دع من اللوم ولكن أى دكاك[3] ترانى
أنا من يعرفه كل تهـام ويمـانى

---

(١) البرق بالتحريك : التزين . (٢) عزر : أعين . (٣) الدكاك : المحتال .

أنا من كل غبـار أنا من كل مـكان
ساعـةً ألزم محـراً باً وأخرى بيت حان
وكذا يفعل من يعـــقل فى هذا الزمانِ

ومن المقامات التى أريدَ بها مجرد الوصف المقامة الحمدانية ، وهى فى وصف الخيـل ، وهى مشهورة ، وقد شرحها صاحب « زهر الآداب » [١] .

٦ — أكثر بديع الزمان فى مقاماته من الكلام على الشعر والشعراء ، فأنطق أبا الفتح فى المقامة العراقية بهذه الأسئلة الطريفة :

هل قالت العرب بيتاً لا يمكن حله [٢]؟
وهل نظمت مدحاً لم يعرف أهله [٣] ؟
وهل لها بيت سمج وضعه، وحسن قطعه [٤]؟
وأى بيت لا يرقأ دمعه [٥] ؟
وأى بيت يثقل وقعه [٦] ؟
وأى بيت يشج عروضه ، ويأسو ضربه [٧] ؟

---

(١) راجع ص ٢٨ و٢٩ من الجزء الثانى .

(٢) مثاله قول الشاعر :
دراهمنـا كلها جيد فلا تحبسنا بتنقادها
فإن هذا البيت كالمنثور ، لاتقديم فيه ولا تأخير .

(٣) مثاله قول الهذلى :
ولم أدر من ألقى عليـه رداءه على أنه قد سل عن ماجد محض

(٤) مثاله قول أبى نواس :
فبتنا يرانا الله شر عصـــابة نجرر أذيال الفسوق ولا فخر

(٥) مثاله قول ذى الرمة :
ما بال عينك منها المـاء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

(٦) مثاله قول ابن الرومى :
إذا من لم يعنن بمن يمنـه وقال لنفسى أيها النفس أمهلى

(٧) مثاله قول الشاعر :
دلفت إليهـا بأبيض مشرفى كما يدنو المصافح للســـلام

وأى بيت يعظم وعيده و يصغر خطبه[١] ؟

وأى بيت هو أكثر رملا من يبرين[٢] ؟

وأى بيت هو كأسنان المظلوم[٣] ، والمنشار المثلوم[٤] ؟

وأى بيت يسرك أوله و يسوءك آخره[٥] ؟

وأى بيت يصفعك باطنه ، و يخدعك ظاهره[٦] ؟

وأى بيت لا يخلق سامعه ، حتى تذكر جوامعه[٧] ؟

وأى بيت لا يمكن لمسه[٨] ؟

وأى بيت يسهل عكسه[٩] ؟

---

(١) مثاله قول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم مخاريق بأيدى لاعبينا

(٢) مثاله قول ذى الرمة :

معروريا رمض الرضراض يركضه والشمس حيرى لهـــا فى الجو تدويم

(٣) المظلوم هو الذى كسر ظلمه ، أى : أسنانه .

(٤) مثاله قول الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاء مشل شليل شلشل شول

(٥) مثاله قول امرئ القيس :

مكر مفر مقبـــل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

(٦) مثاله قول الشاعر :

عاتبتها فبكت وقالت يا فتى نجاك رب العرش من عتبى

(٧) مثاله قول طرفة :

وقوفا بهـــا صحبى على مطيهم يقولون : لا تهلك أسى وتجلد

فإن السامع يظن أنك تنشد قول امرئ القيس .

(٨) مثاله قول الخبزرزى :

تقشع غيم الهجر عن قمر الحب وأشرف نور الصلح من ظلمة العتب

وقول أبى نواس :

نسيم عبـــير فى غلالة ماء وتمثال نور فى أديم هواء

(٩) مثاله قول حسان :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

وأى بيت هو أطول من مثله ، وكأنه ليس من أهله[١] ؟

وأى بيت هو مهين بحرف ، ورهين بحذف[٢] ؟

وفى المقامة الشعرية ينطقه بهذه الأمثلة :

أى بيت شطره يرفع ، وشطره يدفع[٣] ؟

وأى بيت نصفه يغضب ، ونصفه يلعب[٤] ؟

وأى بيت إن حرّك غصنه ، ذهب حسنه[٥] ؟

وأى بيت مدحه ذم[٦] ؟

وأى بيت يأكله الشاء ، متى شاء[٧] ؟

وأى بيت حله عقد ، وكله نقد[٨] ؟

---

(١) مثاله قول المتنبي :

عش ابق اسم سد جد قد مر انه اسر فه تسل   غظ ارم سب احماغز اصب رع زع دل اثن نل

(٢) مثاله قول أبى نواس :

لقد ضاع شعرى على بابكم   كما ضاع در على خالصه

فإذا أنشدت « ضاع » كان هجاء ، وإذا أنشدت « ضاء » كان مدحا .

(٣) مثاله قول الشاعر :

ولله عندى جانب لا أضيعه   وللهو عندى والخلاعة جانب

(٤) كقول الشاعر :

كأن سيوفنا منا ومنهم   مخاريق بأيدى لاعبينا

(٥) مثاله قول الشاعر :

لك قد لولا جوارح عينيك لغنت عليه ورق الحمام

(٦) مثاله قول الشاعر :

فإن قومى وإن كانوا ذوى عدد   ليسوا من الشر فى شئ وإن هانا

(٧) مثاله قول الشاعر :

فياللنوى جد قطع النوى   رأيت النوى قطاعة للقرائن

(٨) مثاله قول الأعشى :

دراهمنا كلها جيد   فلا تحبسنا بتنقادها

www.books4all.net

وأى بيت نصفه مدّ ، ونصفه رد ؟[١]
وأى بيت إن أفلتناه ، أضللناه ؟[٢]
وأى بيت قام ، ثم سقط ونام ؟[٣]
وأى بيت أوله يطلب ،وآخره يهرب ؟[٤]
وأى بيت ضاق ، ووسع الآفاق ؟[٥]
وأى بيت كاد يذهب فعاد ؟ .[٦]

وفى المقامة القريضية ينطق عيسى بن هشام وأبا الفتح الإسكندرى بأسئلة وأجوبة تعيّن خصائص الشعراء المتقدّمين . و إليك هذا الحوار .

عيسى بن هشام — مخاطباً أبا الفتح — يافاضل! أُدنُ فقد منّيت ، وهات فقد أثنيت.

أبو الفتح — سلونى أجبكم ، واسمعوا أعجبكم !

عيسى بن هشام — ما تقول فى أمرئ القيس ؟

---

(١) مثاله قول البكرى :

أتاك دينار صدق ينقص ستين فلسا
من أكرم الناس إلا أصلا وفرعا ونفسا

(٢) مثاله قول الشاعر :

ألا إننى بال على جمل بال يقود بنا بال ويتبعنا بال

(٣) كقول الآخر :

ألا أيها النوام ويحكمو هبوا أسائلكم هل يقتل الرجل الحب ؟

(٤) مثاله :

بجهل كجهل السيف والسيف منتضى وحلم كحلم السيف والسيف مغمد

(٥) كقول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

(٦) كقول المتنبى :

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

أبو الفتح — هو أوّل من وقف بالديار وعرصاتها ، وأغتـــدى والطير فى وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغباً ، ففضل من تفتق للحيلة لسانه وانتجع للرغبة بنانه .

عيسى بن هشام — فما تقول فى النابغة ؟

أبو الفتح — يثلب إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتـــذر إذا وهب ، ولا يرمى إلا صائباً .

عيسى بن هشام — فما تقول فى زهير ؟

أبو الفتح — يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه .

عيسى بن هشام — فما تقول فى طَرَفة ؟

أبو الفتح — هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغلاق خزائنه .

عيسى بن هشام — فما تقول فى جرير والفرزدق ، وأيهما أسبق ؟

أبو الفتح — جرير أرق شعراً وأغزر غزراً ، والفرزدق أمتن صخراً ، وأكثر فخراً ، وجرير أوجع هجواً ، وأشرف يوماً ، والفرزدق إذا افتخـر أجزى ، وإذا احتقر أزرى وإذا وصف أوفى .

عيسى بن هشام — فما تقول فى المحَدَثين من الشعراء والمتقدّمين منهم ؟

أبو الفتح — المتقدّمون أشرف لفظاً ، وأكثر من المعانى حظاً ، والمتأخرون ألطف صنعاً ، وأرق نسجاً .

وهذا وذاك يبين كيف كان كُتّاب القرن الرابع يعنَون بدراسة الشعر وتعقب أخبار الشعراء ، وإنما لنجد مصداق ذلك فى مكان آخر إذ يحدثنا عيسى بن هشام بأن «البليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره» وقد أسلفنا القول بأن مدرسة القرن الرابع النثرية تعتمد فى أسسها على المذاهب الشعرية من حيث الصنعة والخيال .

٧ — ولم يكتف بديع الزمان بالخوض فى الشئون الأدبية ، بل تعداها إلى المعضلات الكلامية ؛ فعرض لمذهب المعتزلة بالتحقير والتسفيه ، واتخذ المتكلم من بين المجانين ، إذ حدثنا أن عيسى بن هشام قال :

دخلت مارستان البصرة ومعى أبو داود المتكلم فنظرت إلى مجنون تأخذنى عينه وتدعنى فقال: إن تصدق الطير[١] فأنتم غرباء . فقلنا كذلك . فقال: من القوم ، لله أبوهم ؟ فقلت : أنا عيسى بن هشام ، وهــذا أبو داود المتكلم . فقال : العسكرى ؟ قلت : نعم ، فقال : شاهت[٢] الوجوه وأهلها ! إن الخيرة لله لا لعبده ، والأمور بيده[٣] ، وأنتم يامجوس هذه الأمة تعيشون جبرا[٤] ، وتموتون صبرا[٥] ، وتساقون إلى المقدور قهرا ، ولو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم[٦] . أفلا تنصفون ؟ إن كان الأمر كما تصفون، وتقولون خالق الظالم ظالم ، أفلا تقولون خالق الهلك هالك ؟ أتعلمون يقينا ، أنكم أخبث من إبليس دينا ، قال رب بما أغويتنى ، فأقر وأنكرتم، وآمن وكفرتم ، وتقولون خُيِّرفاختار وكلا فان المختار لايبعج بطنه ،ولا يرمى من حالق ابنه ؛ فهل الإكراه ، إلاماتراه ،والاكراه مرة بالمرة[٧] ومرة بالدرة ، فليخزكم أن القرآن نغيضكم ، وأن الحديث يغيظكم ، إذا سمعتم « من يضلل الله فلا هادى له » ألحدتم ، و إذا سمعتم « زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » جحدتم ، و إذا سمعتم « عرضت علىّ الجنةحتى هممت أن أقطف ثمارها وعرضت علىّ النار حتى اتقيت حرها بيدى » أنغضتم[٨] رءوسكم ، ولويتم أعناقكم ، و إن قيل عذاب القبر تطيرتم ، و إن قيل الصراط تغامزتم ، و إن ذكر الميزان قلتم : من الفِرغ كفناه ، و إن ذكر الكتاب قلتم : من القِد دفتاه . ياأعداء الكتاب والحديث بم تطيرون؟

---

(١) يريد : إن تصدق الفراسة . (٢) شاهت : قبحت .
(٣) رد على المعتزلة الذين يقولون بأن المرء مختار فى أفعاله .
(٤) أى : مقهورون على الحياة .
(٥) الموت صبراً أن يحبس الرجل حتى يموت ، والمراد أنهم محبوسون فى آجالهم .
(٦) إشارة إلى جواب القرآن فى الرد على من قالوا : « لو كان لنا من الأمر شئ ما قتلنا هاهنا » .
(٧) المرة ، بالكسر ، العقل . (٨) حركتموها كالمتعجبين .

أبالله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ انما مرقت مارقة فكانوا خَبَث الحديث ، ثم مرقتم منها فأنتم خَبَث الخبيث . يامخانيث الخوارج ترون رأيهم إلا القتال ، وأنت يا ابن هشام تؤمن ببعض وتكفر ببعض . سمعت أنك افترشت منهم شيطانة [١] ، ألم ينهك الله عز وجل أن تتخذ منهم بطانة ؟ ويلك هلا تخيرت لنطفتك ، ونظرت لعقبك ! ثم قال : اللهم أبدلنى بهؤلاء خيرا منهم وأشهدنى ملائكتك ! » [٢]

ثم يحدثنا ابن هشام أنه بقى هو وأبو داود لايحيران جوابا ، ويتبين بعد المراجعة أن ذلك المجنون كان أبا الفتح الاسكندرى « ينبوع العجائب »

٨ — ولبديع الزمان مقامة تدل على نحو من فساد الحياة الاجتماعية فى بغداد لذلك الحين هى المقامة الرصافية ، وقد شرح فيها حيل اللصوص ، وهى حيل فيها القبيح والطريف عددتها فرأيتها تجاوز السبعين حيلة وما أظن قرائى ينتظرون أن ألخص تلك المقامة الشريرة فهم عنها أغنياء ؟ على أن أكثر تلك الحيل لاينفع اليوم — فلا يأسف بعض الناس! — لأن أوضاع الناس وطرق المعاش تغيرت فى الدنيا عما كانت عليه منذ عشرة قرون فى بغداد ، ولعل اللصوص المحدثين اخترعوا من الحيل مالو رآه بديع الزمان لبدت له حيل بغداده ألاعيب صبيانية !

وفى المقامة الرصافية قصة ماجنة أظرف المجون ، ولكنها لا تروى فى هذا الكتاب ، وقد أسقطها المرحوم الشيخ محمد عبده من طبعته ، وبقيت فى طبعة استانبول ، وخلاصتها أن عيسى بن هشام عن له على سطح البيت سواد فنظر فإذا هو غلام كانت له مع ابن هشام سابقة إدلال . فتحدث مع جاريته حديثا فهم منه اللص أن فى البيت ذخائر يهون بجانبها العرض. وتمت الخديعة ، وخرج من البيت وهو خزيان ، وصح لابن هشام أن يقول :

« وفتش الغلام البيت ؛ فلم يجد سوى البيت » .

وهو تهكم ظريف !

---

(١) المراد إحدى نساء المعتزلة ، والافتراش هنا الزواج .

(٢) يريد أن الموت خير من صحبة هؤلاء .

٩ — و بديع الزمان مفطور على الفكاهة ، وهى منثورة فى رسائله ومقاماته ، وفى هذا الكتاب طرف مما تخيرناه[١] . فلنشر فى هذا الفصل إلى حديث عيسى بن هشام حين طال شَعره ، وأُتسخ بدنه ، فقد سأل غلامه أن يختار له حماماً وحجاماً « وليكن الحمام واسع الرقعة ، نظيف البقعة ، طيب الهواء ، معتدل الماء ، وليكن الحجام خفيف اليد ، حديد الموسى ، نظيف الثياب ، قليل الفضول » .

ودخل الحمام ، فدخل على أثره رجل وعمد إلى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه ، ثم خرج ودخل آخر فجعل يدلكه دلكا يكد العظام ، و يغمزه غمزاً يهدّ الأوصال و يصفر صفيراً يرش البزاق . ثم عمد إلى رأسه يغسله ، وما لبث أن دخل الأول فلطم الثانى لطمة قعقعت أنيابه وقال : يالُكَع! مالك ولهذا الرأس وهو لى ؟ ثم عطف الثانى على الأول فضربه ضربة هتكت حجابه وقال: بل هذا الرأس حقى وملكى وفى يدى . ثم تلاكما حتى عييا . وتحاكما إلى صاحب الحمام فقال الأول : أنا صاحب هذا الرأس ، لأنى لطخت جبينه، ووضعت عليه طينه ، وقال الثانى : بل أنا مالكه ، لأنى دلكت حامله ، وغمزت مفاصله !

فقال الحمامى : إئتونى بصاحب الرأس أسأله ، ألك هذا الرأس أم له ؟

وأتيا عيسى بن هشام فقالا : لنا عندك شهادة .

الحمامى — مخاطباً عيسى بن هشام — يارجل ! لا تقل غير الصدق ، ولا تشهد بغير الحق ، وقل لى : هذا الرأس لأيهما ؟

عيسى بن هشام — يا عافاك الله ! هذا رأسى قد صحبنى فى الطريق ، وطاف معى بالبيت العتيق ، وما شككت أنه لى !

الحمامى — اسكت يا فضولى !

ثم مال الحمامى إلى أحد الخصمين وقال :

(١) ونوصى القارئ بالرجوع إلى مناظرة بديع الزمان للخوارزمى المثبتة فى آخر الجزء الثانى من هذا الكتاب ففيها شواهد كثيرة على روح الفكاهة عند بديع الزمان .

يا هذا إلى كم هذه المنافسة مع الناس ، بهذا الرأس ! تسل عن قليل خطره ، إلى لعنة الله وَحر سقره . وهبْ أن هذا الرأس ليس ، وأنا لم نر هذا التيس !

وكانت النتيجة أن خجل عيسى بن هشام ولبس ثيابه وآنسل من الحمام .

وللقارئ أن يتأمل الدعابة فى هذه الأقصوصة فإنها فى غاية من الظرف .

أما قوله « اسكت يا فضولى ! » فهو فى هذا الموضع من وثبات الخيال .

١٠ — و بجانب الأوصاف والفكاهات وضع بديع الزمان طائفة من العظات ، كأنه أراد أن يودع مقاماته أظهر ضروب البيــان ، من ذلك ما حدثنا أن أبا الفتح الإسكندرى لمــا جهز ولده للتجارة أوصاه فقال :

« يا بنى ! إنى و إن وثقت بمتانة عقلك ، وطهارة أصلك ، فإنى شفيق ، والشفيق سىء الظن ،ولست آمن عليك النفس وسلطانها ،والشهوة وشيطانها ، فاستعن عليهما نهارك بالصوم، وليلك بالنوم ، إنه لَبوسٌ ظهارته الجوع ، و بطانته الهجوع ، وما لبسهما أســد إلا لانت سورته، أفهمتهما يابن الخبيثة ؟ ! وكما أخشى عليك ذاك فلا آمن عليك لصين أحدهما الــكرم واُسم الآخر القرم[1] ، فإياك و إياهما . إن الــكرم أسرع فى المال من السوس ، و إن القرم أشأم من البسوس[2] . ودعنى من قولهم : إن الله كريم . إنها خدعة الصبى عن اللبن . بلى إن الله الــكريم ، لــكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه ، و ينفعنا ولا يضره، ومن كانت هذه حاله ، فلتــكرم خصاله . فأما كرمٌ لا يزيدك حتى ينقصنى ، ولا يريشك حتى يبرينى ، فخذلان لاأقول عبقرى ، ولــكن بقرى[3] . أفهمتهما يا ابن المشئومة ؟! إنما التجارة ، تنبط الماء من الحجارة ، و بين الأكلة والأكلة ريح البحر ، بيد أن لا خطر ، والصين غير أن لاسفر ، أفتتركه وهو معرض ثم تطلبه وهو معوز ؟ أفهمتهما لا أم لك ؟ ! إنه المــال ، عافاك الله ! . فلا تنفقن إلا من الربح ، وعليك بالخبز والملح ، ولك فى الخل والبصل رخصة ما لم تُذِمهما[4] ،ولم تجمع

(١) القرم ، بالتحريك ، اشتداد الشهوة إلى اللحم .
(٢) امرأة عربية ثارت بسببها الحرب أربعين عاما بين قبيلتين فضرب بها المثل فى الشؤم.
(٣) منسوب إلى بقر بضم ففتح وهو الداهية .
(٤) من أذمه وجده ذميا .

بينهما . واللحم لحمك وما أراك تأكله ، والحلو طعام من لا يبالى على أى جنبيه يقع ، والوجبات عيش الصالحين ، والأكل على الجوع واقية الفوت ، وعلى الشبع داعية الموت ، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج ، خُذ كل ما معهم واُحفظ كل مامعك !

يا بنى قد أسمعت وأبلغت ، فإن قبلت فالله حسبُك ، وإن أبيت فالله حسيبك »[1] .

وهناك المقامة الوعظية وقد رصعها بأبيات من الشعر متحدة القافية والوزن ، وهو فن يجيده بديع الزمان .

١١ — وهناك مقامات كثيرة نحسبها اُنتُهبتْ من رسائله ، وهى بعيدة عن منحى القصص ، وأغلب الظن أنها رتبت كذلك على أيدى بعض النساخ .

١٢ — وبديع الزمان فى مقاماته رجلُ حرص وحذر واُرتياب ، ولا يُنطِق أبا الفتح بالحكمة إلا اقتناصاً للمال ، ففى المقامة الكوفية يُطرَق باب عيسى بن هشام فيسأل من المنتاب ؟ فيجيب الطارق : « وفد الليل وبريده ، وفلّ الجوع وطريده وحرٌّ قاده الضر ، والزمن المر ، وضيفٌ وطؤه خفيف وضالّته رغيف ، وجار يستعدى على الجوع ، والجيب المرقوع ، وغريب أوقدت النار على سفره ، ونبح العوّاء فى أثره ، ونبذتْ خلفه الحصيات ، وكنستْ بعده العرصات ، نِضوُ دطليح ، وعيشُه تبريح ، ومن دون فرخيه مهامه فيح »[2] .

ويهش عيسى بن هشام لهذا السائل الأديب فينفحه بالمال ويقول : زدنى سؤلا أزدك نوالا ! فيقول الطارق :

ماعُرض عَرف العود ، على أحر من نار الجود ، ولا لُقى وفد البر ، بأحسن من بريد الشكر ، ومن ملك الفضل فليواس ، فلن يذهب العرف بين الله والناس » .

---

(١) ولهذه الوصية أشباه فى أدب بديع الزمان ، ورسالته فى وصيته لابن أخته معروفة ، وقد ترجمناها إلى الفرنسية « انظر الأصل الفرنسى ص ١٥٤ و١٥٥ » .

(٢) المهامه جمع مهمه وهو البيداء ، وفيح جمع أفيح وفيحاء ، أى واسعة ، والمعنى مأخوذ من قول ابن محلم الشيبانى :

وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخى مهامه فيح

ويطرب عيسى بن هشام لهذا السجع الجميل ويفتح الباب فيرى السائل أبا الفتح فيقول : « شدّ والله يا أبا الفتح ما بلغتْ منك الخصاصة ! » :

فيتبسم أبو الفتح وينشئ يقول :

لا يغـرنّك الذى أنا فيـه من الطلبْ
أنا فى ثروة تشـقّ لهـا بردة الطـرب
أنا لو شئت لأتخـذ ت سقوفاً من الذهب
أنا طورا من النبيـــط وطورا من العرب

وفى المقامة القردية يفضل الحمق على العقل ويقول :

الذنب للأيام لا لى فأعتب على صرف الليالى
بالحمـــق أدركت المنى ورفلت فى حلل الجمال

١٣ — وخلاصة القول أن مقامات بديع الزمان تحفة من تحف النثر الفنى فى القرن الرابع ، وقد أردنا أن نطيل بها الطواف ليتعرف إليها القارئ فقد كان مفهوماً عند كثير من الناس أن ألاعيب لفظية ليس فيها من المعانى ما يستحق الدرس ، ولكنا بعد مواجهتها مرة ومرة رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفة الروح ما يوجب الإعجاب ، وكنا نحفظها فى الحداثة ، غير أنا لم نكن ندرك خطرها كما تمثلت لنا فى هذه الأيام .

فى تلك المقامات بعض العيوب ، ولكن أىّ عمل فنىّ سلم سلامة مطلقة من العيوب؟

ونؤكد للقارىء أننا لم نكشف من محاسنها إلا القليل، فليعد إليها يطالعها فى فهم وروية، وليتأمل بصفة خاصة قرار الألفاظ والتراكيب وصوغ الأمثال .

وسيرى القارئ فى الجزء الثانى لمحات من سيرة بديع الزمان وتحليل رسائله ، ولكن ذلك لا يغنى عن العودة إلى مقارنة المقامات بالرسائل واستخلاص صور الحياة الاجتماعية لذلك العهد من آثار ذلك الكاتب الثجاج .

٣- أحاديث ابن دريد

رأى القارئ أن بديع الزمان الهمذانى ليس المنشئ الأوّل لفن المقامات ، وإنما حاكى أحاديث ابن دريد ، فمن هو ابن دريد ؟ وما عسى أن تكون الأربعون حديثاً التى أنشأها وفتح بها باب القَصص لبديع الزمان ؟

١ — ولد أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد بالبصرة فى خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ ثم صار إلى عمان فأقام بها مدّة ، ثم صار إلى فارس فسكنها مدة ، ثم قدم بغداد فأقام بها إلى أن مات سنة ٣٢١

ولسنا هنا بصدد الإفاضة فى حياة ابن دريد وما وقع فيها من مختلف الأحداث ، وما عُرف به من قوة الحفظ وكثرة الإملاء ، وما أُخذ عليه من افتعال العربية وتوليد الألفاظ ، وإدخال ماليس من كلام العرب فى كلامها [١] ، وإنما يهمنا أن نذكر بعض الجوانب الدقيقة من تلك الشخصة القوية التى حسبها الناس لا تحسن غير رواية اللغة والشعر وتصريف الأفعال . وسنرى أن ابن دريد بالرغم من شغله باللغة والرواية وكلفه بالبحوث الجافة التى تحتم على القلب ، كان رجلا دقيق الحس ، عذب الروح ، وليس يكبر عليه أن يكون فناناً بارعا يدين له أمثال بديع الزمان ممن طُبعوا على جودة الفهم وحسن البيان .

٢ — كان ابن دريد شاعراً . ولكن أى شاعر ؟ شاعر مُقلّ ، تحفظ له الأبيات والمقطوعات ، وبعض القصائد ، ولكنه كان يسكب روحه فيما ينظم من الشعر ، فتسرى معانيه قوية سحارة بلا جلبة ولا ضوضاء ، كما تفعل الجفون النواعس بألباب الشعراء . خرج مرة يريد عمان فنزل تحت نخلة فإذا فاختتان تزقوان فى فرعها فقال :

أقول لورقاوين [٢] فى فرع نخلة وقد طفل الإمساء أو جنح العصرُ

---

(١) ص ٤٨٦ ج ٦ ياقوت .

(٢) مثنى ورقاء ، وهى الحمامة .

وقد بسطت هاتا لتلك جناحها ومال على هاتيك من هذه النحر
ليهنكما أن لم تُراعا بفرقة وما دبّ فى تشتيت شملكما الدهر
فلم أر مثلى قطّع الشوق قلبه على أنه يحكى قساوته الصخر

وهى أبيات تفيض بالرفق والحنان ، وتمثل أئتلاف الطير أرق تمثيل ، ولا يعرف قيمتها إلا من ألف مناغاة الطير فى ضحوات الربيع وأصائل الخريف .

ومن شعر ابن دريد هذان البيتان:

عانقت منه وقد مال النعاس به والكاس تقسم سكراً بين جلاسى
ريحانة ضمخت بالمسك ناضرة تمج برد الندى فى حر أنفاسى

وفى هذين البيتين صورة شعرية جذابة ، والبيت الثانى يبدو كأنه وثبة من وثبات الخيال

٣ — فإذا تجاوزنا أمثال هذه الشواهد من شعر ابن دريد — وفيها وحدها الدلالة على التفوق فى الأفتنان والأبتداع — ثم انتقلنا إلى حياة الرجل الخاصة رأيناها شهيدة بدقة فهمه وحلاوة نكته ، وجرأته فى الخروج على ما ألفت الجماهير . جاءه يوماً سائل فلم يكن عنده غير دَن نبيذ فوهبه له . فجاء غلام وأنكر عليه ذلك، فاحتج بقوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون[1] ». وهى نكتة تدل على خفة الروح ولطف النسيم وتذاكر جماعة يوماً المتنزهات فى مجلس بعض الأمراء وابن دريد حاضر ، فقال بعضهم أنزه الأماكن غوطة دمشق وقال آخرون : نهر الأُبلَّة ، وقال آخرون بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم نهروان بغداد ، وقال بعضهم شِعب بوّان بأرض فارس وقال آخر نوبهار بلخ : فقال ابن دريد: هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : وما هى يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبار لابن قتيبة ، والزهرة لابن داود ، وقلق المشتاق لابن أبى طاهر ، ثم أنشد :

ومن تك نزهته قينةً وكأس تُحثّ وكأس تصبّ
فنزهتنا واستراحاتنا تلاقى العيون ودرس الكتب[2]

(١) ص ٤٨٩ ج ٦ ياقوت .
(٢) ص ٤٩٣ ج ٦ ياقوت .

وهذا حديث طريف كانت لفتةُ ابن دريد فيه لفتة الشاعر الفيلسوف إذ يقول « هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب» على أن فى الشعر الذى أنشده كلمة تستوقف النظر ، تلك كلمة «تلاقى العيون» التى قدمها فى متعة القلب على «درس الكتب» فهو رجل يرى الجمال فى الطبيعة الناطقة طبيعة الإنسان الجذاب التى يؤثرها على جمال الأنهار والبحار والمروج الفيحاء ، والرياض الغناء .

٤ — من الدلائل على خفة روحه وحلاوة نكته تلك الرؤيا التى قصصها علينا إذقال :

« سقطت من منزلى بفارس فانكسرت ترقوتى ، فسهرت ليلى ، فلما كان آخر الليل حملتنى عيناى فرأيت فى نومى رجلا طويلا أصفر الوجه دخل علىّ وأخذ بعضادتى الباب وقال : أنشدنى أحسن ما قلت فى الخمر . فقلت : ما ترك أبو نواس شيئاً . فقال : أنا أشعر منه . فقلت ومن أنت ؟ قال أنا أبو ناجية من أهل الشام ، ثم أنشدنى :

وحمراء قبل المزج صفراء بعـــدهُ ... بدت بين ثوبَىْ نرجس وشقائقِ
حكت وجنة المعشوق ِصرفا فسلطوا ... عليها مزاجا فاكتست لون عاشق

فقلت له : أسأت . قال : ولِمَ؟ قلت لأنك قلت : (وحمراء) فقدمت الحمرة ، ثم قلت: (بدت بين ثوبى نرجس وشقائق) فقدمت الصفرة . فألاّ قدمتها على الأخرى كما قدمتها على الأولى ! فقال : وما هذا الاستقصاء فى هذا الوقت يابغيض ! وقد رويتْ هذه القصة على نحو آخر فى كتاب طبقاة النحاة لأبن الأنبارى ص ٣٢٤ فلتراجع هناك .

٥ — وكان ابن دريد فوق هذه المرونة العقلية جريئاً فى بيته وفى درسه جرأة جامحة لا يسمو إليها ولا يقوى على تكاليفها إلامن وثق بأنه أمةوحده وأن على الناس أن يسمعوا له طائعين . فإذا سمعت أنه ألف أكثر من عشرين كتاباً فى اللغةوالأدب وأنه كان أعرف أهل زمانه بما ترك الأولون فاذكر بجانب ذلك أنه كان رجلا مرحاً طروباً ، وأن نفسه اللعوب

(١) ص ٤٨٧ ج ٦ ياقوت .

أوحت إليه أفانين من الأدب بهرت معاصريه وأعطته فى النثر قوة بارعة تجعله فى الصف الأوّل من صفوف المبدعين .

٦ — ولكن ماهى آثاره النثرية ؟

هى تلك الأربعون حديثاً التى حدّثنا عنها الحصرى فى زهر الآداب ، والتى هاجت بديع الزمان وحملته على أن يكتب فى معارضتها أربعمائة مقامة لم يبق منها إلا أربعون . وقد شقيت فى البحث عن تلك الأحاديث ، ثم عدت أتلمس الصواب فيما افترضه الدكتور طه حسين وأخذت أتتبع كل ما رواه القالى عن ابن دريد فوجدته روى عنه أكثر من ستين حديثاً بعضها قصير و بعضها طويل . ثم قابلت تلك الأحاديث بالحديث الشائق الذى نقله عنه حمزة الأصفهانى جامع ديوان أبى نواس فصحت لدى النتائج الآتية :

أولا — حديث ابن دريد فى حج أبى نواس حديث ممتع خلاب كتب بطريقة روائية تصلح تمام الصلاحية لأن تكون أساسا لفن المقامات . ولست أشك الآن فى أن هذا الحديث جزء من الأربعين حديثاً التى ابتكرها ابن دريد .

ثانياً — الأحاديث التى نقلها القالى عن ابن دريد تشتمل على طائفة من القصص المسجوعة تقرب فى وضعها من قصته عن حج أبى نواس وتصلح أيضاً أن تكون أساساً لفن المقامات ، فلا بأس من الاطمئنان إلى أنها شطر من الأربعين حديثاً التى عارضها بديع الزمان .

ثالثاً — إذا غضضنا النظر عن الأحاديث القصيرة جداً التى نقلها القالى عن ابن دريد وعددناها مما رواه عن شيوخه أو مما وقع إليه من كلام الأعراب ، كان ما بقى من أحاديثه المتشابهة فى القدر والوضع والأسلوب قريباً من الأربعين .

رابعاً — يلاحظ أن أكثر ما روى القالى عن ابن دريد من الأحاديث جرى على ألسنة ناس مجهولين : فأشخاصه يكونون حينا من الأعراب ، وتارة يكونون من أقيال اليمن الذين لا يعرف لهم اسم ولا يحفظ لهم تاريخ ، وأحيانا يكونون من النكرات التى لا يعرف لها وجود وهذا دليل على الوضع والاختراع .

خامسا — لاحظ صاحب زهر الآداب أن الأربعين حديثاً التى أُبتكرها ابن دريد (جاء أكثرها مما تنبو عن قبوله الطباع،ولاترفع له حجبها الأسماع) وأنها وقعت «فى معارض عجمية وألفاظ حوشية» ولو أننا تتبعنا ما نقله القالى من تلك الأحاديث لوجدنا الصنعة والإغراب ظاهرين فيها كل الظهور . وربما ساغ لنا أن نفترض أن ابن دريد تعمد أن يدس فى أحاديثه بعض الألفاظ التى اُتُّهِم بافتعالها وتوليدها ، فقد اتهمه أبومنصور الأزهرى فى مقدمة كتاب التهذيب بادخال ماليس من كلام العرب فى كلامها ، فكان من همه إذن أن يجرى ما أُتُّهِم بافتعاله على ألسنة الإعراب لتسقط عنه تهمة الاختلاق .

٧ — بعد ذلك نرى من المهم أن نتناول بالتحليل بعض أحاديث ابن دريد ، ولنذكر أولا أن تلك الأحاديث فى جملتها تمثل جانب الدعابة والفن من ذلك الرجل الخليع . وأى نكتة أدق وأرشق من قصة توضع مثلا عن حج أبى نواس ؟ إن رحيل أبى نواس إلى بيت الله الحرام هو فى نفسه قصيدة من قصائد المجون ، فكان من الحتم أن يعنى بعض الكتاب المازحين بعرض تلك الشخصية عرضا تلتقى فيه الفكاهة والسخرية بصورة توهم القارئ أن ماتحت عينيه جِدٌ صراح . وكذلك فعل ابن دريد فأنطق أبا نواس بقصة طريفة حدثنا فيها أنه لقى فى طريقه نصبا إذ انهمل المطر فى أرض بنى فزارة ففزع إلى بعض الخيام فإذا جارية مبرقعة ترنو بطرف مريض الجفون ساحر النظر ، فاستسقاها ، فمضت تتهادى فى جسم خصب رشيق ، وأحضرت إليه الماء ، ثم كان منه حوار مملوء بالسفه واللؤم أراد به الوصول إلى معاينة ما تحت تلك الثياب من أسرار الجمال . ولكن طبل الرحيل صرفه فانصرف ، وفى قلبة حسرة كامنة وكربٌ دخيل ، فلما قضى حجه ورجع مر بتلك الخيام طامعا فى الصيد ولكن مطامعه انتهت بخيبة مخجلة نكتفى فى الإبانة عنها بهذه الإشارة ، ونحيل القارئ على مقدمة الديوان ليرى كيف برع ابن دريد فى السخرية من أبى نواس .

٨ — ثم ننظر بعد فنرى ابن دريد اهتم بتصوير الشمائل العربية وكلف بنوع خاص بتقديم طائفة من الصور المختلفة من أحلام النساء فى فهم الرجال ، وإعجاب البنات بأعمال

الآباء ، ومايقع من الملاحاة بين الأزواج ، والتواصى بين الشباب والكهول . كل ذلك بطريقة قوية أخاذة تجعل له مكانا بين العالمين بالغرائز وأهواء النفوس . ونلاحظ أنه يميل إلى الفكاهة حين يعرض للهواجس الجنسية فينطق النساء والبنات بألفاظ وتعابير تغلب عليها النكتة ، وبخاصة حين يتكلم عن فتاتين تتبادلان الأمانى أو زوجين يتقارضان الهجاء، فتلك فتاة تصف الزوج المشتهى بأنه إن ضم قضقض وإن دسر أغمض[1] ، وتلك امرأة تخاصم زوجها فتصمه بأنه يشبع ليلة يضاف ، وينام ليلة يخاف[2]، وأولئك بنات عنسهن أبوهن فتهامسن بحيث يسمع بأبيات من الشعر قهرته على أن يعجل لهن بالزواج[3] .

٩ — فإذا تحدث ابن دريد عن شجعان العرب وفرسانهم وأجوادهم رأيناه رجلا جزل الرأى بعيد الغور ينطق بالحكم وفصل الخطاب ، فنراه تارة يقول على لسان أوس بن حارثة «المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لاالتبلد ، والقبر خير الفقر ، ومن قلّ ذل ومن أمر فل[4] ، والدهر يومان فيوم لك ويوم عليك»[5] . ونراه أخرى ينطق رجلا أعمى من أزد السراة يقوده شاب جميل فيقول « يا ابن أخى ! إن اغترارك بالشباب كالتذاذك بسمادير الأحلام ، ثم تنقشع فلا تتمسك منها إلا بالحسرة عليها . ثم تعرى راحلة الصبا وتشرب سلوة الهوى . واعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قدم ذخيرة ، وأشدهم اغتباطا يوم الحسرة[6] من أحسن سريرة »[7] .

١٠ — وبمراجعة أحاديث ابن دريد نلاحظ أنه يتعقب أعيان الجاهلية فينطقهم بألوان من الحوار تمثل ما كان يحب العرب أن يعرف عن أسلافهم من كرم الطباع وشرف الأحساب ولو بقيت لنا مقامات بديع الزمان كاملة لعرفنا إلى أى حد حا كى ابن دريد فى هذا الباب . فإن قصة بشر بن عوانة التى اخترعها بديع الزمان نموذج طريف فى ابتداع الأقاصيص ...

إلى هنا عرفنا الفرق بين مقامات بديع الزمان وأحاديث ابن دريد . وعرفنا من السابق ومن المسبوق ، فلننظر ماترك معاصروهم من هذا البدع الجديد .

---

(١) ص ١٧ ج ١ أمالى . (٢) ص ١٠٤ (٣) ص ١٠٧ ج ٢
(٤) أمر الرجل : كثر عدده . (٥) ص ١٠٢ ج ١
(٦) ربما كان الصواب « الحشر » بدل الحسرة . (٧) ج ٢ ص ٣١٦

نموذج من أحاديث ابن دريد

أخبرنا عبدالرحمن عن عمه قال :

دُفعتُ يوما فى تامسى بالبادية واد خلاء لاأنيس به إلا بيت معتنز[١] ، بفنائه أعنز ، وقد ظمئت ، فيممته ، فإذا عجوز قد برزت كأنهـا نعامة راخم[٢] ، فقلت : هل منْ ماء ؟ فقالت : أو لبن ؟ فقلت ما كان بغيتى إلا الماء ، فإذا يسر الله اللبن فإنى إليه فقير . فقامت إلى قعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله ، ثم جاءت إلى الأعنز فتغبرتهن حتى احتلبت قراب ملء القعب ، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطفت ثمالته كأنها غمامة بيضاء ، ثم ناولتنى إياه فشربت حتى تحببت[٣] ريا ، واطمأننت . فقلت إنى أراك معتنزة فى هذا الوادى الموحش، والحلة[٤] منك قريب ، فلو انضممت إلى جنابهم[٥] فأنست بهم . فقالت : يا ابن أخى ! إنى لآنس بالوحشة ، وأستريح إلى الوحدة ، ويطمئن قلبى إلى هذا الوادى الموحش ، فأتذكر من عهدت فكأنى أخاطب أعيانهم ، وأتراءى أشباحهم، وتتخيل لى أندية رجالهم، وملاعب ولدانهم ، ومندى أموالهم . والله يا ابن أخى لقد رأيت هذا الوادى بشع[٦] اللديدين[٧] بأهل أدواح[٨] وقباب ، ونعم كالهضاب[٩] ، وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ، يبارون الرياح ، ويحمون الصباح ، فأحال عليهم الجلاء قمًّا بغرفة[١٠] فأصبحت الآثار دارسة ، والمحال طامسة، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به. ثم قالت: ارم بعينيك فى هذا الملا[١١] المتباطن[١٢]. فنظرت فإذا قبور نحو أربعين أو خمسين . فقالت ألا ترى تلك الأجـداث ؟ قلت نعم . قالت : ما انطوت إلا على أخ أو عم أو ابن عم ، فأصبحوا قد ألمأت عليهم[١٣] الأرض، وأنا أترقب ماغالهم . انصرف راشداً رحمك الله !

---

(١) معتنز : منفرد . (٢) الراخم : التى تحضن بيضها . (٣) تحببت : امتلأت .
(٤) والجمع الحلال : وهى بيوت الناس. (٥) الجناب : فناء الدار. (٦) بشع: ملان.
(٧) اللديدان : الجانبان . (٨) الأدواح : جمع دوحة ، وهى الشجرة العظيمة .
(٩) الهضاب : الجبـال الصغار . (١٠) قماً : كنساً ، قممت البيت : كنسته . والغرفة واحدة الغرف ، وهو ضرب من الشجر. (١١) الملا : الفضـا. (١٢) متباطن: متطامن.
(١٣) ألمـأت عليهم : احتوت عليهم ، وتلمأت عليه الأرض : احتوت عليه ووارته .

٤ - روايات الأغانى

١ — من مشاهير الـكتاب فى القرن الرابع أبو الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ فى خلافة المطيع لله (١) . والأصبهانى هـذا يعدّ فى رأيى أكبر مؤلف عرفته اللغة العربية . ولا يوجد فى المؤلفين من بعـده مَن لم يعوّل عليه ، ويندر أن نجـد باحثاً فى تاريخ الأدب أو تاريخ الإسلام لم يتخذ كتاب الأغانى مرجعاً له . والأغانى هذا كتاب عظيم فى ٢١ مجلد ألفـــه الأصبهانى فى خمسين سنة وكتبه مرة واحده فى عمره وأهداه إلى سـيف الدولة ابن حمدان (٢).

٢ — وشهرة الأصبهانى وكتابه مستفيضة فلا حاجة لإعادة ما يعرفه الناس . وإنما أريد هنا أن أنص على ناحيتين فى الأصبهانى وكتابه لم أجد من تنبه لهما من الباحثين . ولهاتين الناحيتين أهمية عظيمة فى فهم الحياة الأدبية ، وسيكون لهما أثر عظيم فى دعوة المؤلفين إلى الاحتياط حين يرجعون إلى كتاب الأغانى يتلمسون الشواهد فى الأدب وفى التاريخ.

الناحية الأولى خاصة بالأصبهانى : تلك الناحية هى خلقه الشخصى . فقد كان الأصبهانى مسرفاً أشنع الإسراف فى اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلقى أثر ظاهر فى كتابه، فإن كتاب الأغانى أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون .وهو حين يعرض للـكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية ، ويهمل الجوانب الجدّية إهمالا ظاهراً يدل على أنه قليل العناية بتدوين أخبار الجدّ والرزانة والتحمل والاعتدال وهذه الناحية من الأصبهانى أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه المرحوم جورجى زيدان فى كتابه تاريخ أدب اللغة العربية،وما كتبه الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء تكفى للاقتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغانى جرّ هذين الباحثين إلى الحط

---

(١) ص ياقوت ١٤٩ ج ٥

(٢) ياقوت ج ٥ ص ١٤٩

من أخلاق الجماهير فى عصر الدولة العباسية ، وحملها على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر شك وفسق ومجون.

٣ — ولا أريد بهذا أن أحكم بأن الأصبهانى كان يتعمد الاختلاق ، وأن الجمهور فى العصر العباسى كان مغموراً بالطهر والعفاف ، كلا ، فقد قلت غير مرة إن الحياة الانسانية مزيج من الشك واليقين ، والحلم والجهل ، والهدى والضلال ، وإن الإنسان لا يكون خيراً محضاً ولا شراً محضاً ، وإنما بقاؤه فى أن تكون سرائره مسرحاً لنوازع الغىّ والرشد ، والبر والفجور ، ولكنى أريد أن أقول: إن إكثار الأصبهانى من تتبع سقطات الشعراء ، وتلمس هفوات الكتاب ، جعل فى كتابه جوّا مشبعاً بأوزار الإثم والغواية ، وأذاع فى الناس فكرة خاطئة هى اقتران العبقرية بالنزق والطيش والخروج على ما ألفت الجماهير من رعاية العرف والدين.

٤ — أما الناحية الثانية فهى خاصة بكتاب الأغانى: تلك الناحية هى نظم ذلك الكتاب ففى مقدمته عبارات صريحة فى الدلالة على أن مؤلفه قصر اهتمامه أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق . فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ . وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدّم لأهل عصره أكبر مجموعة تُغذّى بها الأندية ومجامع السمر ومواطن اللهو ومغانى الشراب . وإنه ليحدثنا فى المقدمة بأنه أتى فى كل فصل من كتابه بفقرَ إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة إلى مثلها ومتصرفا فيها بين جد وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الإسلام . وأخبرنا بعد ذلك أنه اهتم بالغناء الذى عرف له قصة تستفاد وحديثاً يستحسن وعلل ذلك بقوله : « : إذ ليس لكل الأغانى خبر نعرفه ولا فى كل ماله خبر فائدة ، ولا لكل مافيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهى السامع » (١).

وأحب أن يتأمل القارئ قوله : « رونق يروق الناظر ويلهى السامع » فهذا التعبير هو الوصف الصادق لما اختار الأصبهانى أن يدور عليه كتابه حين أراد أن يقدّم ماراقه من أيام

(١) ص ٢

العرب وقصص الملوك فى الجاهلية والخلفاء فى الإسلام ، وخصوصاً إذا لاحظنا أن كلامه يشعر بأنه مستعد لإهمال ما فيه بعض الفائدة إذا خلا من ذلك الرونق الذى « يروق الناظر ويلهى السامع » . فهو إذن يساير القراء المتطلعين إلى النواحى الطريفة من أخبار الملوك والخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء . ولهذا النحو فى التأليف قيمه عظيمة جداً إذا فهمه القارىء على وجهه الصحيح ، فهو دليلٌ على خصوبه التصوّر والخيال ، وبرهان على أن كتاب اللغة العربية لم يحرَموا من القَصص الشائق الخلاّب ، ولم يفتهم أن يقدّموا لأوقات اللهو والفراغ ما تحتاج إليه العقول المكدودة والنفوس المحزونة من طرائف الأقاصيص وغرائب الأسمار . ولكن الخطر كل الخطر أن يطمئن الباحثون إلى أن لروايات الأغانى قيمة تاريخية ، وأن يبنوا على أساسها ما يشاءون من حقائق التاريخ . لا سيما وصاحب الأغانى يصارحنا بأن « فى طباع البشر محبة الانتقال من شىء إلى شىء ، والاستراحة من معهود إلى مستجدّ وكلٌّ منتقَل إليه أشهى إلى النفس من المنتقَل عنه ، والمبتكر أغلب على القلب من الموجود »[1] وأن « انتقال القارىء من خبر إلى غيره ومن قصة إلى سواها ومن أخبار قديمة إلى محدثة ومليك إلى سوقة وجدّ إلى هزل » أدعى إلى نشاطه وأبعث على شهوته لتصفح مافى الكتاب من مختلف الفنون .

٥ — ولأضرب المثل بما قصه صاحب الأغانى من أخبار عمر بن أبى ربيعة ، وهى أخبار ظنها كثير من الباحثين صورة لحياة الحجاز فى القرن الأوّل للهجرة ، وقد حدّثنى المسيو ماسيون بأن لأشعار عمر بن أبى ربيعة وحوادثه أهمية عظيمة من هذه الناحية . وأنا قد اعتمدت بالفعل على كتاب الأغانى حين فصّلت أحاديث مَن عرف ذلك الشاعر من الملاح فى الطبعة الثالثة من كتابى « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ولكننى دعوت القارىء إلى الاحتراس وبينت له أننى أريد أن أرسم من ابن أبى ربيعة صورة جذابة تشبه صورة ميسيه عند الفرنسيين وجوت عند الألمان وبيرون عند الإنجليز . وأنا أستبيح هذا النحو من استغلال كتب الأدب والتاريخ ، فإن الأدب يقصد به إمتاع القلوب كما يراد به إقناع العقول . ومتى نص الكاتب

(١) ص ٤

على أن وجهته فنية محضة وأن منحاه أدبيّ صِرف فقد أبرأ ذمته عند من يريد أن يتخذ من أقاصيص الأدب صورة صادقة لحياة الأشخاص وما أحاط بهم من مختلف البيئات وشتى الظروف . وكذلك فعلت حين قلت :

« إن كثيرا من حوادث ابن أبى ربيعة الغرامية من صنع الخيال . وقد قبلناه على علاته واكتفينا بتلك الإشارة عند التمهيد لأخبار الملاح ، إذ كانت حوادث ابن أبى ربيعة التى أضيفت إليه تدلنا على شيئين : فهى أوّلا علامة على أن المتقدّمين أنسوا بروحه وأسلموا قلوبهم لوحيه فأبدعوا فى ظلال ذكراه ما شاء الخيال من أحاديث الحب الظافر والهوى الغلاّب ، وهى ثانيا دليل على أنه كان للمتقدّمين ميلٌ إلى القصص الغرامى وحظ من الإجادة فيه ، فكان من الخير أن نستغل تلك الباكورة القصصية ونحن نتحدث عن هَوِىَ ذلك الشاعر من حسان النساء »(١) .

لكن صاحب الأغانى لم يفعل شيئا من ذلك ، وإنما ساق أخبار ابن أبى ربيعة كلها على أنها حقائق ، وساقها مروية بالسند ، والرواية بالسند شىء ساحر فُتن به كثير من الناس وظنوه علماً دقيقاً له آداب وشروط ، واعتماداً على هذا العلم الدقيق اُطمأن أكثر الباحثين إلى روايات الأغانى فضلوا وأضلوا فى حقائق التاريخ .

٦ — قلت إن صاحب الأغانى كان يهتم بالنواحى الطريفة من السير والأخبار . فلأذكر من أدلة ذلك أنه حدّثنا بسنده عن ابن أخى زرقان عن أبيه قال : أدركت مولى لعمر بن أبى ربيعة شيخاً كبيراً فقلت له : « حدّثنى عن عمر بحديث غريب » وكلمة « حديث غريب » هذه لها معناها فيما نحن بسبيله من أخذ الرواة بالتلفيق والاُختلاق ، فإن البحث عن الأوضاع الغريبة من أحاديث عمر بن أبى ربيعة يدل على ظمأ تلك النفوس إلى النادر المستطرف من القصص والأحاديث . وما عسى أن يكون ذلك الخبر الغريب ؟ هو خبر يشبه من أكثر نواحيه قصة حج أبى نواس التى اخترعها ابن دريد . فأبو نواس

(١) راجع كتاب « حب ابن أبى ربيعة وشعره » ص ٢٩٥ من الطبعة الثالثة .

حين رجع من حجه اجتذبه جماعة من حسان النساء . وما كاد يطمئن إلى ظفره بما كان يشتهى من جميل الصيد حتى دخل عليه جماعة من العبيد فى حالة جارحة بدّدت ما نظم من ساحر الأحلام . وابن أبى ربيعة فى حجه تعرض لنسوة من جوارى بنى أمية فخلبنه ووعدنه بتذكرة طيبة تكون تحفة له كما تذكر أنسه بهن فى أيام الطواف ، فلما بعث غلامه ليتسلم التذكرة عاد ومعه صندوق لطيف مقفل مختوم كان يظن أنه أودع طيبا أو جواهرا ، ففتحه فإذا هو مملوء من المضارب وهى الكيرنجات وإذا على كل واحد منها اسم رجل من مجان مكة وفيها اثنان كبيران على أحدهما الحارث بن خالد وهو يومئذ أمير مكة وعلى الآخر عمر بن أبى ربيعة . وإذا كانت المضارب والكيرنجات هى آلات السفاد فقد تم التشابه بين قصة عمر وقصة أبى نواس .

وتجد صاحب الأغانى فى مكان آخر يروى بسنده عن عثمان بن إبراهيم الحاطبى أنه قال :

« أتيت عمر بن أبى ربيعة بعد أن نسك بسنين وهو فى مجلس قومه من بنى مخزوم ، فانتظرت حتى تفرّق القوم ثم دنوت منه ومعى صاحب لى ظريف وكان قد قال لى : تعال حتى نهيجه على ذكر الغزل فننظر هل بقى فى نفسه منه شىء ؟ فقال له صاحبى : يا أبا الخطاب ، أكرمك الله ! لقد أحسن العذرىّ وأجاد فيما قال ، فنظر عمر إليه ثم قال له : وماذا قال ؟ قال حيث يقول :

لو جُذَّ بالسيف رأسى فى مودّتها لمرّ يهوى سريعا نحوها راسى

ثم مضى يهيجه بالشعر حتى طرب ، وحدثهما بحديث وُصِف بأنه «حديث حلو» وتلك الحلاوة لها معناها أيضاً فهى نص على أنه وضع ليكون فكاهة طريفة يتنقل بها السامرون فى مجالس الشراب . ويتلخص الحديث فى أن خالدا الخرّيت صاحب عمر حدثه عن نسوة مررن به قبيل العشاء لم ير مثلهن فى بدو ولا حضر ، فيهن هند بنت الحارث المرية ، وأشار عليه بأن يأتى متنكرا ليسمع من حديثهن ويتمتع بالنظر إليهن ولا يعلمن من هو . فقال له عمر : ويحك! وكيف أخفى نفسى ؟ فأشار إليه بأن يلبس لبسة أعرابى ثم يجلس على قعود فلا يشعرن إلا به وقد هجم عليهن : فأطاع عمر ثم وقف بقرب النسوة وأنشدهن ما سألن إنشاده

من شعر كثيِّر وجميل والأحوص و نُصيْب . و بعد لحظات تغامز النساء وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هـذا الأعرابى ! ما أشبهه بعمر بن أبى ر بيعة ! ثم مدت هند يدها فانتزعت عمامته وألقتها عن رأسه ثم قالت : هيه ياعمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه إليك لتأتينا فى أسوأ هيئة ونحن كما ترى ! ثم قالت بعـد أن أخذا فى الحديث : و يحك يا عمر ؟ اسمع منى ، لو رأيتنى منذ أيام وأصبحت عند أهلى فأدخلت رأسى فى جيبى فنظرت إلى جرى فإذا هو ملء الـكف ومنية المتمنى فناديت يا عمراه يا عمراه ! فصاح عمر : يا لبيكاه يا لبيكاه ! ومد فى الثالثة صوته ، إلى آخر الحديث .

ونحن نجد لهذه القصة أشباها كثيرة من حيث الغرض والأسلوب . فقد حدث ابن در يد أن رجلا جلس إلى مجنون ليلى فى ظل شجرة فقال : ما أشعر قيسا حيث يقول :

يبيت و يضحى كل يوم وليلة على منهج تبكى عليه القبائلُ
قتيلٌ للبنى صدَّع الحب قلبهُ وفى الحب شغلٌ للمحبين شاغل

فقال المجنون أنا أشعر منه حيث أقول :

سلبت عظامى لحمها فتركتها معرَّقة تضحَى لديك وتخصَرُ
وأخليتها من مخها فكأنهـا قوارير فى أجوافها الريح تصفر
إذا سمعت ذكر الفراق تقطعت علائقها ممـا تخاف وتحذر
خذى بيدى ثم أنهضى بى تبينى بىَ الضر إلا أننى أتستر[1]

وللحديث بقية ، وفى هـذا ما يكفى لبيان الأسلوب الذى كان يجرى عليه الرواة فى تصوير العشاق الذين تسلوا أو يئسوا ، وما كان يعمل أرباب الفضول فى تهييج ما كانوا يكتمون من أسرار الوجد الدفين ...

و يشبه هذين الحديثين ما رواه محمد بن خلف بسنده عن على ابن عاصم إذ قال :

---

(١) ص ١٦٣ ج ١ أمالى .

«قال لى رجل من أهل الكوفة من بعض إخوانى : هل لك فى عاشق تراه ؟ فمضيت معه فرأيت فتى كأنما نزعت الروح من جسده وهو مؤتزر بإزار ومرتد بآخر و إذا هو مفكر وفى ساعده وردة فذكرنا له بيتا من الشعر فتهيج وقال :

جعلت من وردتها تميمة فى عضدى
أشمها من حبها إذا علانى كمدى ـ الخ[(١)]

وما روى عن هند بنت الحارث فى استدراجها لعمر واستقدامه بأسوأ هيئة يشبه ماروى عن الثريا بنت على حين دست من يخبره بأنه سمع عند رحيله عن الطائف صوتا وصياحا عالياً على امرأة من قريش اسمها اسم نجم فى السماء وقد ذهب عنه اسمه . فقال عمر : الثريا ؟ قال : نعم ، وكان قد بلغ عمر قبل ذلك أنها عليلة ، فوجه فرسه إلى الطائف يركضه ملء فروجه وسلك طريق كداد وهى أخشن الطرق وأقربها حتى انتهى إلى الثريا وقد توقعته وهى تتشوف له فوجدها سليمة . فأخبرها الخبر فضحكت وقالت : أنا والله أمرتهم لأختبر مالى عندك !

ومن أحلى القصص التى رواها صاحب الأغانى عن محمد بن خلف قصة عمر مع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وخلاصتها أن امرأة أقبلت عليه وهو فى فناء مضربه وغلمانه حوله فسلمت عليه وسألته : هل لك فى محادثة أحسن الناس وجها وأتمهم خلقا وأكملهم أدبا وأشرفهم حسبا ؟ قال : ما أحب ذلك إلىّ ! فاشترطت عليه أن تمكنه من عينيه فتشدهما وتقوده حتى إذا توسط الموضع الذى تريد حلّت الشد ثم تفعل به ذلك عند إخراجه حتى تنتهى به إلى مضربه . فقبل عمر ، ثم قادته إلى امرأة لم ير مثلها قط جمالا وكمالا ، فسلم وجلس ، ثم كان بينها و بينه حوار انتهى بطرده ، فعاد إلى مضربه كاسف البال ، ثم عادت المرأة فى اليوم التالى فقادته مرة ثانية انتهت بمثل ماانتهت به المرة الأولى من الإخفاق، وظلت الحال على ذلك أياما حتى اهتدى عمر إلى أنها فاطمة بنت عبد الملك ، فى حديث شائق طويل .

---

(١) ص ٧ مصارع العشاق ، وقد وردت هذه الحكاية فى الأمالى ج ٣ ص ١٤٦ مروية عن عبد الله بن خلف .

وقد استمر صاحب الأغانى ينقل من أخبار عمر بن أبى ربيعة ما طاب له من غير نقد ولا تمحيص . ولكنه فطن فى بعض ما رواه إلى تلفيق الرواة حين عرض إلى تزويج الثريا وخروجها إلى مصر وعمر غائب ، فقال : « وهذا الخبر عندى مصنوع ، وشعره مضعف يدل على ذلك . ولكنى ذكرته كما وقع إلىّ »(١) .

٧ — هنا دلنا صاحب الأغانى على ارتيابه فى بعض الأخبار ، ولكن لماذا يذكر ما يرتاب فيه كما يقع إليه ؟ يذكره لأنه يريد أن يقدّم ما يروق الناظر ويلهى السامع ، كما أشرنا من قبل . ولكن لا يفوتنا أن نشير إلى أن هذا الخبر الذى حدثنا الأصبهانى بأنه مصنوع هو كذلك منقول عن جماعة من الرواة ، كان يصح أن يحتج بروايتهم من يصدّقون كل شىء روى بأسانيد ، لو لم ينص الأصبهانى على أنه مدسوس .

وفى رأيى أن أكثر أخبار عمر بن أبى ربيعة وُضع تفسيراً لشعره ، لأن كل قصيدة من قصائده تشير إلى حادثة من حوادثه الغرامية ، وقد صنع الرواة مثل هذا الصنع فى أخبار أبى نواس ، فقد لفقوا حديثاً يشرح قوله فى جِنان :

ياذا الذى عن جنان ظل يخبرنا ... بالله قل وأعدْ يا طيب الخبرِ
قال اشتكتك وقالت ما ابتُليتُ به ... أراه من حيث ما أقبلت فى أثرى
ويُعمِل الطرف نحوى إن مررت به ... حتى ليخجلنى من حدة النظر
وإن وقفت له كيما يكلمنى ... فى الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بى هذا ويدمنه ... حتى لقد صار من همى ومن وطرى(٢)

واخترع الرواة كذلك قصة طريفة لتفسير أبيات أبى نواس التى مطلعها :

أسأل القادمين من حكمان ... كيف خلفتما أبا عثمان(٣)

---

(١) ٢٣٦ ج ١ « وما قيمة تضعيف الشعر فى هذا الخبر ؟ كان ينبغى تحقيقه من وجهة تاريخية إن أمكن » .

(٢) الأغانى ج ٨ ص ٤ طبع الساسى .

(٣) ج ١٨ ص ٥ .

وقد تنبه كثير من الباحثين إلى ما دُسّ على أبى نواس ، ولم أجد من أشار إلى مادس على عمر بن أبى ربيعة ، مع أن الرجلين يشتركان فى أن كلا منهما قضى معظم حياته فى اللهو والعبث والمجون . وإذا جارينا صاحب الأغانى فى الاستدلال على وضع الشعر بضعفه ، فإن فى شعر ابن أبى ربيعة قصائد كثيرة يغلب عليها الضعف والانحلال ، حتى ليبعد معظم شعره عن المتانة التى عرفتْ فى عصره وطبع عليها عدد من قصائده الطِّوال .

هذا . ولو مضينا نحصى مافى روايات الأغانى من التلفيق لطال بنا القول ، فلنكتف بهذا ، ولنسجل مرة ثانية أن الأصبهانى أراد أن يكون كتابه معرضاً لما تجمّع بين أيدى معاصريه من طرف الأقاصيص ، فليعتبره القارىء كتاب أدب لا كتاب تاريخ.

٨ — بقيت مسألة لها خطر فى هذا الباب : قد يتوهم القارىء أننا نجزم بأن صاحب الأغانى اخترع ما دوّنه من أخبار عمر بن أبى ربيعة ، فلننف هذا الوهم ، ولنذكر أننا رأينا فى إرشاد الأريب لياقوت أن ابن بسام كان ألف كتابا فى أخبار عمر ، وقد روى فيه عن الزبير بن بكار وعمر بن شبة وحماد بن اسحق ومحمد بن حبيب ويعقوب بن أبى شيبة وأحمد ابن الحارث الخراز [1] .

وبعض من روى عنهم ابن بسام يكثر النقل عنهم فى كتاب الأغانى ، وخاصة عمر بن شبة والزبير بن بكار . وابن بسام هذا من رجال القرن الثالث . وفى كتابه عن عمر دليل على أخبار ذلك الشاعر كانت معروفة قبل الأصبهانى بنحو قرن أو يزيد ، وكانت موضع عناية المؤلفين .

ولو وصل إلينا كتاب ابن بسام لعرفنا الفرق بين طريقته وطريقة أبى الفرج فى صياغة الأخبار ، ولكننا على أى حال نرجح أن أبا الفرج له يدٌ فى تلوين الأخبار ووضعها فى قوالب يغلب عليها اللهو والمجون ، فهو لم يخلقها كلها ، لأن عبث ابن أبى ربيعة كان مشهوراً قبل ذلك ، ولكنه نفخ فيها من روحه ، وصاغها بلباقة وافتنان .

---

(١) انظر ص ٣١٩ ج ٥

* * *

ولو خلينا الأخبار المروية جانباً ، ونظرنا فيما حدث به أبو الفرج عن نفسه ، لعرفنا مبلغ حذقه فى وضع الأقاصيص .

و إلى القارى هاتين النادرتين :

١ — قال أبو الفرج : خرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن ابراهيم بن على بن عيسى رحمه الله ماضيين إلى دير الثعالب فى يوم من سنة ٣٤٥ للنزهة ، ومشاهدة اجتماع النصارى هناك ، والشرب على نهر يزدجرد الذى يجرى على باب هـذا الدير ، وفيه جماعة من أولاد كتاب النصارى من أحداثهم ، و إذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش تمايل وتتثنى كغصن الريحان فى نسيم الشمال . فضربت بيدها إلى يد أبى الفتح وقالت : يا سيدى ! تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط هـذا الشاهد ، فمضينا معها ، و بنا من السرور بها و بظرفها وملاحة منطقها ما الله به عليم . فلما دخلت البيت كشفت عن ذراع كأنه الفضة وأومات إلى الموضع فإذا فيه مكتوب :

خرجتْ يوم عيدها فى ثياب الرواهبِ
فتنت باختيالها كل جاءٍ وذاهب
لشقائى رأيتها يوم دير الثعالب
تتهادى بنسوة كاعب فى كواعب
هى فيهم كأنها الـ ـبدر بين الكواكب

فقلت لها : أنت والله المقصودة بهذه الأبيات . ولم نشك أنها كتبت الأبيات ، ولم نفارقها بقية يومنا . وقلت لها هذه الأبيات وأنشدتها إياها ففرحت :

مرّت بنا فى الدير خمصانه ساحرةُ الناظر فتانه
أبرزها الذكران من خدرها تعظّم الدير ورهبانه
مرّتْ بنا تخطر فى مشيها كأنما قامتها بانه
هبت لنا ريح فمالت بها كما تَثَنَّى غصن ريحانه
فتيمت قلبى وهاجت له أحزانه قدما وأشجانه

وحصلت بينها و بين أبى الفتح عشرة بعد ذلك ، ثم خرج إلى الشام وتوفى بها ، ولا أعرف لها خبراً بعد ذلك (١) .

٢ — وقال فى كلمة ثانية : كنت فى أيام الشبيبة والصبى آلف فتى من أولاد الجند فى السنة التى توفى فيها معز الدولة ، وولّى بختيار ، وكانت لأبيه حال كبيرة ومنزلة من الدولة ورتبة ، وكان الفتى فى نهاية حسن الوجه ، وسلاسة الخلق ، وكرم الطبع ، ممن يحب الأدب و يميل إلى أهله ، ولم يترك قريحته حتى عرف صدرا من العلم وجمع خزانة من الكتب حسنة . فمضت لى معه سِيَر لو حفظت لكانت فى كتاب مفرد من مكاتبات ومعاتبات ، وغير ذلك مما يطول شرحه . منها أننى جئته يوم جمعة غدوة فوجدته قد ركب إلى الحلبة . وكانت عادته أن يركب إليها فى كل يوم ثلاثاء و يوم جمعة . فجلست على دكة على باب دار أبيه فى موضع فسيح كان عمرّها وفرشها . فكنا نجلس عليها للمحادثة إلى ارتفاع النهار . ثم ندخل إذا أقمت عنده إلى حجرة لطيفة كانت مفردة له لنجتمع على الشراب والشطرنج وما أشبههما . فطال جلوسى فى ذلك اليوم منتظراً له ، فأبطأ وتصبَّح من أجل رهان كان بين فرسين لبختيار ، فعرض لى لقاء صديق ، فقمت لأمضى ثم أعود إليه ، فهجس لى أن كتبت على الحائط الذى كنا نستند إليه هذه الأبيات :

يا من أظل بباب داره ... و يطول حبسى لانتظاره
وحياة طرفك واُحوراره ... ومجال صدغك فى مداره
لا حُلتُ عمرى عن هوا ... ك ولو صَليتُ بحرّ ناره

وقمت . فلما عاد قرأ الأبيات وغضب من فعلى لئلا يقف عليه من يحتشمه . وكان شديد الكتمان لما بينى و بينه مطالباً بمثل ذلك مراقبةً لأبيه ، إلا أن ظرفه وكيد محبته لى وميله إلىّ لم يدعه حتى أجاب بما كتب تحتها . ورجعت من ساعتى فوجدته فى دار أبيه فاستأذنت عليه فخرج إلىّ خادم لهم فقال : يقول لك : لا التقينا حتى تقف على الجواب عن الأبيات ، فإنه تحتها . فصعدت الدكة فإذا تحت الأبيات بخطه :

---

(١) ياقوت ج ٥ ص ١٥٨ و ١٥٩

« ما هذه الشناعة ؟ ومن فسّح لك فى هذه الإذاعة ؟ وما أوجب خروجك عن الطاعة؟ ولكن أنا جنيت على نفسى وعليك : ملّكتك فطغيت ، وأطعتك فتعدّيت، وما أحتشم أن أقول : هذا تعرّض للاعراض عنك . والسلام» .

فعلمت أننى قد أخطأت ، وسقطتْ — شهد الله — قوّتى وحركتى ، فأخذتنى الندامة والحيرة ، ثم أذن لى فدخلت فقبلت يده فمنعنى ، وقلت : يا سيدى ! غلطة غلطتها ، وهفوة هفوتها ، فإن لم تتجاوز عنها وتعفُ هلكت . فقال لى : أنت فى أوسع العذر بعد أن لا يكون لها أخت . وعاتبنى على ذلك عتابا عرفت صحته . ولم تمض إلا مُديدة حتى قُبض على أبيه وهرب . فاحتاج إلى الأستتار فلم يأنس هو ولا أهله إلا بكونه عندى . فأنا على غفلة إذ دخل فى خف و إزار ، وكادت مرارتى تنفطر فرحا ، فلقيته أقبّل رجليه وهو يضحك ويقول : يأتيها رزقها وهى نائمة! هذا ياحبيبى بخت من لا يصوم ولا يصلى فى الحقيقة — وكان أخف الناس روحا وأقلعهم لبادرة . و بتنا فى تلك الليلة عروسين لا نعقل سكراً ! واصطحبنا وقلت هذه الأبيات :

بتّ وبات الحبيب ندمانى ... من بعد نأى وطول هجران
نشرب قفصية معتقة ... بحانة الشط منذ أزمان
وكلما دارت الكؤوس لنا ... ألثمنى فاه ثم غنانى
الحمد لله لا شريك له ... أطاعنى الدهر بعد عصيان

ولم يزل مقيما عندى نحو الشهر حتى استقام أمر أبيه ، ثم عاد إلى داره . (١)
فهذه الأخبار التى رواها أبو الفرج عن نفسه تعيّن اتجاهاته الذوقية فى الحياة .
ومن هنا جاء غرامه بتعقب أخبار الخلاعة والمجون فيمن ترجم لهم من الشعراء .

(١) ص ١٦٠ و١٦٢ ج ٥ ياقوت .

٥ – أخبار ابن دريد

١ — لقد تكلمت عن ابن دريد في فصل سبق ، وإني لعائد إليه لأستقصي أمره ، إذ كنت أول من كشف الغطاء عن محاولاته في النثر الفني ، ولأذكر أولا أن الذي كان يريب الدكتور طه حسين من ابن دريد هو روايته عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي ، وكان يرى في كلمة « ابن أخي الأصمعي » مثاراً للشك . وقد رأيت أن أتعقب هذه الفكرة فوصلت إلى أن رواة العرب كانوا يستعملون مثل هذا التعبير ، فاننا نجد الأصفهاني ينقل « حدثني أبو مسلم عن ابن أخي رزقان »(١) .

وفي معجم ياقوت « قال أبو حيان : وكان يختلف إلى مجلس أبي سعيد على بن المستنير وكان هذا ابن بنت قطرب » وكلمة « ابن بنت قطرب » تدل على أنهم كانوا يعطون قيمة لمن يتصلون بكبار العلماء اتصال قرابة . ومثل هذا ما نقل ياقوت : « حدث يموت بن المزرع عن خاله الجاحظ »(٢) . وفي الأغاني : « أخبرني محمد بن جعفر صهر المبرد »(٣) . وكان مثار الشك أن عبد الرحمن هذا لم يذكر أحد من أبوه ، وقد وصلت بعد البحث إلى أنه عبد الرحمن بن عبد الله(٤) وقد ذكره ابن الأنباري في طبقات النحاة بين من أخذ عنهم ابن دريد(٥) لكن بقيت مسألة تثير الشك : ذلك أن هناك راوية ادعى أنه ابن أخت الأصمعي وهو أحمد بن حاتم وأنكر عليه ذلك(٦) . وأحمد هذا الذي استباح لنفسه أن ينسب إلى الأصمعي كذباً كان أثبت من عبد الرحمن فيما نقل ياقوت . فعبد الرحمن إذن متهم في روايته ، وهذا الاتهام له خطره فيما نقله عنه ابن دريد .

---

(١) ص ١٦٩ طبع دار الكتب المصرية ، وفي معجم ياقوت ص ٩٨ ج ١

(٢) ص ٧٨ ج ٦ — وفي بغية الوعاة أخذ عبد القاهر بن عبد الرحمن النحو عن « ابن أخت » الفارسي ولم يأخذ عن غيره — ٣١٠

(٣) ص ٤ ج ١٨ (٤) وفيات الأعيان ص ٣١٠ ج ٢

(٥) ص ٣٢٢ (٦) ياقوت ص ٤٠٥ ج ١

٢ — وقد وصلت إلى نصوص مهمة تبين اُختلاق اُبن دريد وتلفيقه وتثبت أنه راع معاصريه بكثرة ما يروى من الأخبار حتى اُضطروا إلى الارتياب فى أمانته . ولننظر مانقل ياقوت من خط أبى على المحسن : سألت القاضى أبا سعيد السيرافى رحمه الله عن الأخبار التى يرويها عن ابن دريد ، وكنت أقرؤها عليه ، أكان يمليها من حفظه ؟ فقال : لا ، كانت تجمع من كتبه وغيرها ثم تقرأ عليه ، وسألت أبا عبد الله محمد بن عمران المرزبانى — رحمه الله — عن ذلك ، فقال : لم يكن يمليها من كتاب ولا حفظ ولكن كان يكتبها ثم يخرجها إلينا بخطه فإذا كتبناها خرق ما كانت فيه[1] .

وعبارة « لم يكن يمليها من كتاب ولا حفظ » عبارة خطيرة الدلالة على اُتهام ابن دريد بالتلفيق وأخذه بوضع الأقاصيص .

وقال ابن خلكان فى أخبار ابن دريد : « سئل عنه الدارقطنى : أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيل إنه كان يتسامح فى الرواية فيسند إلى كل واحد مايخطر له »[2] .

وهذا النص صريح فى أن ابن دريد كان متهماً بين معاصريه ، وأنهم أطالوا القول فيه وأنه كان مأخوذاً بعدم الثقة فيما ينسبه إلى الرواة ، فإذا أضيف هذا إلى ماحدّثنا به الحصرى من اُختراعه الأحاديث عرفنا إن له يداً فى صنع ما نسبه إلى العرب القدماء .

٣ — وهناك جانب عقلى من اُبن دريد لا بُدّ من الإشارة إليه : ذلك أنه مع سعة علمه وقوّة ذكائه كان يطمئن إلى بعض الحقائق المزيفة التى يتداولها النـاس ، فـكان يذكر أن أوّل من أقوى فى الشعر أبونا آدم عليه السلام فى قوله :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرٌّ قبيحُ
تغير كل ذى طعم ولون وقل بشاشة الوجه المليح[3]

وهى سذاجة مطبقة أن يظن أن آدم كان يتكلم العربية حتى يؤخذ عليه أنه أوّل من وقع فى الإقواء .

---

(١) ص ٢٤٨ ج ٦ (٢) ٣١٠ ج ٢ وفيات الأعيان . (٣) ص ١٠٣ ج ٣ ياقوت .

٤ — وهناك قصة نقلها ابن دريد عن العكلى قال :

كان لقمان بن عاد الذى عمرٍّ عمر سبعة أنسر مبتلى بالنساء ، وكان يتزوّج المرأة فتخونه ، حتى تزوّج جارية صغيرة لم تعرف الرجال ، ثم نقر لها بيتاً فى سفح جبل وجعل له درجة بسلاسل ينزل بها ويصعد ، فإذا خرج رفعت السلاسل ، حتى عرض لها فتى من العماليق فوقعت فى نفسه فأتى بنى أبيه فقال : والله لأجنينّ عليكم حرباً لا تقومون لها . قالوا : وما ذاك ؟ قال : إمرأة لقمان بن عاد هى أحب الناس إلىّ . قالوا : فكيف نحتال لها ؟ قال : اجمعوا سيوفكم ثم اجعلونى بينها وشدّوها حزمة عظيمة ، ثم ائتوا لقمان فقولوا : إنا أردنا أن نسافر ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع ، وسموا له يوماً ، وأقبلوا بالسيوف فدفعوها إلى لقمان فوضعها فى ناحية بيته وخرج ، وتحرّك الرجل فخلت الجارية عنه ، فكان يأتيها ، فإذا أحست بلقمان جعلته بين السيوف حتى انقضت الأيام . ثم جاءوا إلى لقمان فاسترجعوا سيوفهم ، فرفع لقمان رأسه بعد ذلك فإذا نخامة تنوس فى سقف البيت ، فقال لامرأته : من نخم هذه ؟ قالت : أنا . قال : فتنخمى ، ففعلت فلم تصنع شيئا ، فقال : يا ويلتاه ! والسيوف دهتنى ! ثم رمى بها من ذروة الجبل فتقطعت قطعاً وانحدر مغضباً ، فإذا ابنة له يقال لها صحر فقالت له : يا أبتاه ، ما شأنك ؟ قال : وأنت أيضاً من النساء ؟ فضرب رأسها بصخرة . فقالت العرب : ما أذنبت إلا ذنب صحر(١) .

ولقمان بن عاد الذى عمرٍّ عمر سبعة أنسر من الشخصيات الخرافية ، والقصة مخترعة يراد بها إثبات أن كيد النساء عظيم وأنه لا ينجو من مكرهنّ مخلوق . وقد تكون القصة وضعت تفسيراً لذلك المثل : « ما أذنبت إلا ذنب صحر » فهناك أمثال كثيرة جُهلتْ مواردها فاحتال الرواة وألبسوها أقاصيص جديدة لتتم بها العبرة وليفهمها الناس موصولة بأسباب الحياة .

٥ — وهذا العصر الذى دهش فيه المتأدّبون من الأخبار التى كان يرويها ابن دريد كانت تجرى فيه أشياء أخرى تدل على أن الرواة كانوا ألفوا التلفيق ، فى ترجمة السيرافى

(١) ص ٤٨ و ٤٩ مصارع العشاق .

أن نصر بن نوح — وكان من أدباء ملوك آل ساسان كتب إليه كتاباً سأله فيه عن أمثال مصنوعة على العرب شك فيها »[١] .

ولو وقفنا على تلك الأمثال المصنوعة لاُستطعنا أن نفهم ما بينها و بين الأخبار التى اُفتعلها ابن دريد من قرب أو بعد ، ولكن ذلك الكتاب ضاع كما ضاع ما نقله السيرافى من أخبار ابن دريد ، وفى معجم ياقوت إشارة إلى أن الحسن بن الحسين أملى بصيدا حكايات مقطعة بعضها عن ابن خالويه[٢] . وابن خالويه هذا من تلامذة ابن دريد ، أفنستطيع أن نفترض[٣] أن لتلك الحكايات قيمة أدبية ، وكان ابن دريد يتخير لأخباره وأحاديثه أدق الأساليب ؟

وتعقب روح العصر له أهمية فى فهم هذا الموضوع ، وقد كان ابن فارس يقول : سمعت أبا أحمد بن أبى التيار يقول : أبو أحمد العسكرى يكذب على الصولى مثلما كان الصولى يكذب على الغلابى مثلما كان الغلابى يكذب على سائر الناس[٤] ، وقد يمكن أن نقول على أساس هذه النكتة : ابن دريد يكذب على عبد الرحمن بن عبد الله مثلما كان عبد الرحمن يكذب على الأصمعى مثلما كان الأصمعى يكذب على سائر الناس !

٦ — وقد عاصر ابن دريد رجل ملفق هو أبو عمر الزاهد محمد بن عبد الواحد راوية ثعلب ، بلغ من شهرته بالاختلاق أن قيل فيه : « لو طائر طار فى الجوّ لقال أبو عمر الزاهد حدّثنا ثعلب عن ابن الأعرابى ويذكر فى معنى ذلك شيئاً »[٥] . وله حادثة عجيبة دهش لها معاصروه : ذلك أن معز الدولة بن بويه قلد شرطة بغداد غلاما تركياً من مماليكه اسمه خواجا فبلغ ذلك أبا عمر الزاهد وكان يملى كتابه اليواقيت فى اللغة فقال للجماعة فى مجلس الإملاء : اكتبوا « ياقوتة خواجا : الخواجة فى أصل اللغة الجوع » ثم فرّع على هذا باباً وأملاه عليهم فاستعظموا كذبه وتتبعوه[٦] . وقد أخذ على السيرافى أنه كان يشهد كذباً

(١) ص ١٠٠ ج ٣ ياقوت . (٢) ص ٢٢٩ ج ٦ (٣) ص ٣٨٣ طبقات النحاة .
(٤) ص ١١ ج ٢ ياقوت . (٥) ص ٢٦ ج ٧ ياقوت .
(٦) ص ٢٧ ج ٧ ياقوت .

إذ يكتب بخطه فى ذيل الكتب أنه راجعها وأنها صحيحة لتشترى بأكثر من ثمن مثلها[١]، وهذا نوع من التهاون له خطره فى تقدير أمانة العلماء .

٧ — وأكبر مجموعة باقية من أخبار ابن دريد هى ما نقله عنه أبو على القالى فى أماليه . وهذه المجموعة منقولة بصيغ مختلفة فبعضها يصل إلى ابن الكلبى و بعضها إلى الأصمعى ، وجزء منها مروىّ عن أبى حاتم السجستانى . والجزء الذى وصله بابن الكلبى يتحدث فى الأغلب عن شئون يمنية . منها ذلك الحديث الذى يصف كيف كان قَيَلٌ من أقيال حمير مُنِـع الولد دهراً ثم ولدت له بنت فبنى لها قصراً منيفاً بعيداً من الناس ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها و يؤدبنها حتى بلغت مبلغ النساء فنشأت أحسن منشأ وأتمه فى عقلها وكمالها فلما مات أبوها ملكها أهل مخلافها فاصطنعت النسوة اللواتى ر بينها وأحسنت إليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمراً دونهن ، فقلن لها يوماً : « يا ابنة الكرام لو تزوّجت لتم لك الملك ! فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عز فى الشدائد ، وفى الخطوب مساعد ، إن غضبْتِ عطف ، و إن مرضتِ لطف . قالت : نعم هذا الشىء ! فقالت الثانية : الزوج شعارى حين أَصرد[٢] ، ومتكئى حين أرقد ، وأنسى حين أفرد . فقالت : إن هذا لمن كمال العيش ! فقالت الثالثة : الزوج لما عنانى كاف ، ولما شفَّنى شاف ، يكفينى فقد الألاّف ، ريقه كالشهد ، وعناقه كالخلد ، لا يمل قِرانه ، ولا يخاف حِرانه . فقالت : أمهلننى أنظر فيما قلتن ، واُحتجبت عنهن سبعا ثم دعتهن فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتنى أملّكه رقى ، وأبثه باطلى وحقى ، فإن كان محمود الخلائق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بغيتى ، و إن كان غير ذلك فقد طالت شقوتى ، على أنه لا ينبغى إلا أن يكون كفؤاً كريماً يسود عشيرته ، و يربُّ فصيلته ، لا أتقنع به عاراً فى حياتى ، ولا أرفع به شناراً لقومى بعد وفاتى . فعليكن فابغينه ، وتفرّقن فى الأحياء ، فأيتكن أتتنى بما أحب فلها أجزل الحِباء ، وعلىّ لها الوفاء »[٣] .

وقد عاد النساء بعد البحث فوصفت كل واحدة منهن الزوج الذى فضلته فى عبارات جميلة أراد بها الكاتب أن يدوّن أخلاق الرجال .

---

(١) ص ١٠٥ ج ٣ ياقوت (٢) من الصرد وهو البرد. (٣) ص ٨٠ ج ١ أمالى .

٨ — وهناك أخبار أراد بها الكاتب أن يوجِّه قراءه وجهة علمية صرفة كحديث الرواد الذين أرسلتهم مذحج حين أجدبت فقد وصف كل رائد واديا وصفاً يمتاز من وصف غيره ، فى عبارات مصنوعة أنيقة تؤدّى ما رمى إليه الكاتب من جمع الأوصاف الحسية للوديان المعشبة[١] . و يشبه هذا الحديث من الوجهة التعليمية ما نقله ابن دريد بسنده عن أبى عبيدة من أنه اجتمع عند يزيد بن معاوية أبو زبيد الطائى وجميل بن معمر العذرى والأخطل التغلبى فقال لهم : أيكم يصف الأسد فى غير شعر ؟ فوصفوه بالتعاقب وصفاً فنياً فى عبارات جزلة مسجوعة تذكر بما رواه ابن دريد منسوبا إلى الأعراب[٢] .

٩ — أما ما وصله ابن دريد بالأصمعى فهو فى جملته يتحدّث عن أهل البادية ، ومن طريفه هذه الأقصوصة التى حكاها الأصمعى إذ قال :

« مررت بحمى الربذة فإذا صبيان يتقامسون[٣] فى الماء ، وشاب جميل الوجه ملوّح الجسم قاعد . فسلمت عليه فرد علىّ السلام . وقال من أين وضح الراكب ؟ قلت من الحمى. قال : ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحاً . قال : وأين كان مبيتك ؟ قلت : أدنى هذه المشاقر[٤] . فألقى نفسه على ظهره وتنفس الصعداء ، فقلت : تفسأ[٥] حجاب قلبه ، وأنشأ يقول :

سقى بلداً أمست سليمى تحـلّه ... من المزن ما تروى به وتسيمُ
و إن لم أكن من قاطنيه فإنه ... يحـلّ به شخص علىّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربهُ ... لدىّ و إن شط المزار نعيم
ومن لامنى فيه حميم وصاحب ... فرُدَّ بغيظ صاحب وحميم

ثم سكت سكتة كالمغمى عليه فصحت بالأصيبية فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصب الغريب رأى خشوعى ... وأنفاسى تزين بالخشوع

(١) انظر ص ١٨٣ ج ١ أمالى . (٢) راجع ص ١٨٣ ، ١٨٤ ج ٣ .
(٣) يتقامسون : يتغاطون . (٤) المشاقر : منابت العرفج . (٥) تفسأ : تشقق .

ولى عينٌ أضرَّ بها التفاتى إلى الأجراع مطلقة الدموع
إلى الخلوات تأنس فيك نفسى كما أنس الوحيـــد إلى الجميع[١]

وفيما وصله ابن دريد بالأصمعى أخبار تتجه وجهة تعليمية كحديث الأعرابى الذى وصف بنيه[٢] والأعرابى الذى وصف قومه[٣] والأعرابى الذى وصف المطر[٤]. وهناك حديث وصله بالأصمعى وردت فيه القصة المشهورة التى روت كيف مات الشاعر الجاهلى عَبيد بن الأبرص وهى فى رأينا قصة موضوعة أريد بها شرح المثل المعروف « حال الجريض دون القريض » وقراءة هذه القصة تعطى فكرة احتيال الكتاب والقصاصين فى إحيـــاء العهود الجاهلية[٥].

أما ما ينقله ابن دريد عن أبى حاتم السجستانى فهو فى الأكثر من كلام الأعراب الذين يفدون على الحواضر كحديث الأعرابى الذى وقف بالمسجد الحرام يصف ما وقع فيه قومه من القحط ويطلب الإحسان ، وهو حديث منمق يجرى بنفس اللغة التى كتبت بها أحاديث ابن دريد[٦] وهناك حديث وصف به ما وقع من الملاحاة بين الوليد بن عقبة وعمرو ابن سعيد فى مجلس معاوية وهو كذلك حديث مصنوع[٧].

١٠ — وهناك حديث احتفل به ابن دريد ليسبغ عليه ثوب الجلال ، إذ ذكر أن أبا حاتم كان يضن به ويقول «ماحدّثنى به أبو عبيدة حتى اختلفت إليه مدة،وتحملت عليه بأصدقائه من الثقفيين وكان لهم مواخياً » وسنرى مثل هذه العبارة حين ينقل التوحيدى حديث السقيفة، فالجوّ واحد ، وطريقة التشويق تكاد تكون واحدة عند أولئك الكتاب . وهذا الحديث مهم من حيث دلالته على تصور كاتبه لطائفة من الأخلاق الاجتماعية فى ذلك الحين ، والحديث يقع بين عامر بن الظَّرِب العَدوانى وحممة بن رافع الدوسى وقد اجتمعا عند ملك من ملوك حمير ، فقال الملك تساءلا حتى أسمع ما تقولان ،فقال عامر لحممة : أين تحب أن

---

(١) ص ٣٨ ج ١ أمالى . (٢) ص ٥٣ ج ١ (٣) ص ١٣٩ ج ١ (٤) ص ١٧٣ ج ١
(٥) ارجع إلى هذه القصة فى ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ج ٣ من الأمالى .
(٦) راجع ص ١١٣ ج ١ أمالى . (٧) انظر ص ٤٠ ج ٢ أمالى .

تكون أياديك ؟ قال : عند ذى المرض العديم ، وذى الخلة الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعَف الهضيم . قال : من أحق الناس بالمقت ؟ قال : الفقير المختال ، والضعيف الصوال ، والعيىّ القوال . قال : فمن أحق الناس بالمنع ؟ قال : الحريص الكاند[١] ، والمستميد الحاسد ، والملحف الواجد . قال : من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال : من إذا أُعطى شكر ، وإذا مُنع عذر ، وإذا موطل صبر ، وإذا قدم العهد ذكر . قال : من أكرم الناس عِشرة ؟ قال : من إن قرب منح ، وإن بعد مدح ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمح . قال : من ألأم الناس ؟ قال : من إذا سأل خضع ، وإذا سئل منع ، وإذا ملك كنع[٢] : ظاهره جشع ، وباطنه طَبع . قال : فمن أحلم الناس ؟ قال : من عفا إذا قدر ، وأجمل إذا انتصر ، ولم تطغه عزة الظفر . قال : فمن أحزم الناس ؟ قال : من أخذ رقاب الأمور بيديه ، وجعل العواقب نصب عينيه ، ونبذ التهيب دبر أذنيه[٣] .

وللحديث بقية ، ولكنى اكتفيت بهذا القدر . وقد لفت نظرى قوله بعد ذلك :

« قال : فمن أبلغ الناس ؟ قال : من جلَّى المعنى المزيز ، باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز » .

ففى ذلك إشارة إلى أنه كان مفهوماً عندهم أن الجاهليين كانوا يدركون ماهية البلاغة ويتساءلون عن الكلام البليغ .

---

(١) الكاند : الجاحد . (٢) كنع : انقبض . (٣) راجع ص ٢٨٠ ج ٢ أمالى .

٦ — حكايات ابن الأنبارى

١ — ابن الأنبارى هو أبو بكر محمد بن القاسم المتوفى سنة ٣٢٨ ببغداد . كان من أعلم الناس باللغة والشعر وعلوم القرآن . والذى ترجموا له ذكروا أنه كان صدوقا ثقة[١] . ومن شعره :

إذا زِيد شراً زاد صبراً كأنما ... هو المسك ما بين الصلاية والفِهرِ
لأن فتيت المسك يزداد طيبهُ ... على السحق اُصطباراً على الضر

وأنا لا أتهمه بالاختراع . ولكنه روى أحاديث قصيرة تلوح عليها علامات الصنع ، من ذلك ما رواه أنه مات رجل كان يعول اُثنى عشر ألف إنسان ، فلما حمل على النعش صرّ على أعناق الرجال ، فقال رجل فى الجنازة :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ... ولكنه أعناق قوم تقصف
وليس فتيق المسك ما تجدونه ... ولكنه ذاك الثناء المخلَّف

وعبارة : « مات رجل كان يعول اثنى عشر ألف إنسان » صريحة فى خلق هذه الحادثة للإشادة بنبل الأخلاق العربية .

٢ — وقد روى عن أبيه قصة طريفة فقال : كان بمكة رجل سفيه يجمع بين الرجال والنساء فشكا ذلك أهل مكة إلى الوالى فغربه إلى عرفات فاتخذها منزلا ، ودخل مكة مستتراً ، فلقى حُرفاءه من الرجال والنساء فقال : ما يمنعكم ؟ قالوا وأين بك وأنت بعرفات ؟ فقال : حمار بدرهمين وقد صرتم إلى الأمن والنزهة ! قالوا : نشهد أنك صادق ، وكانوا يأتونه ، وكثر ذلك حتى أفسد على أهل مكة أحداثهم وسفهاءهم وحواشيهم ، فعادوا بالشكاية إلى أمير مكة فأرسل إليه فأتى به ، فقال : أىْ عدوّ الله ! طردتك من حرم الله فصرت إلى

(١) وفيات الأعيان ص ٣١٩ ج ٢ و٩١ بغية الوعاة .

المشعر الأعظم تفسد فيه وتجمع الفساق ، فقال أصلح الله الأمير يكذبون علىّ ويحسدوننى ! قالوا : بيننا وبينه واحدة ، قال ماهى ، قالوا : تجمع حمير المكارين وترسلها بعرفات ، فإن لم تقصد إلى بيته لما تعرف من إتيان الخراب والسفهاء إياه فالقول ما قال . فقال الوالى : إن فى هذا لدليلا . وأمر بحمير فجمعت ثم أرسلت فقصدت نحو منزله فأتاه بذلك أمناؤه ، فقال : مابعد هذا شىء ، جردوه ، فلما نظر إلى السياط قال : لابدّ من ضربى أصلح الله الأمير ؟ قال لابدّ منه ! قال : اضرب ، فوالله مافى هذا شىء أشدّ علينا من أن تسخر منا أهل العراق فيقولون : أهل مكة يجيزون شهادة الحمير ! فضحك الأمير وقال : والله لا أضربك اليوم ، وأمر بتخلية سبيله(١) .

ولنقيد أن مايرويه ابن الانبارى لا صنعة فيه فهو يجرى فى لغة مقبولة لا يلتزم فيها السجع ولا الازدواج . ويمكن الاطمئنان إلى أنه كان يتحدث عن أخبار كانت معروفة فى عصره بشىء يسير من الترتيب لم يصل قط إلى مثل هذا ما صنعه ابن دريد .

٣ — وفى مجموعة (التحفة البهية والطرفة الشهية) المطبوعة فى الآستانة سنة ١٣٠٢ ﻫ ما نصه :

ومن غرائب هذا الأسلوب وعجائبه ما أورده محمد بن القاسم الأنبارى رحمه الله قال :

إن سواراً صاحب رحبة سوار وهو من المشهورين قال : انصرفت يوما من دار الخليفة المهدى فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام فلم تقبله نفسى . فأمرت به فرفع ، ثم دعوت جارية أحدثها واشتغل بها فلم تطب نفسى، فدخل وقت القائلة فلم يأخذنى النوم ، فنهضت وأمرت ببغلة لى فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت استقبلنى وكيل لى ومعه مال ، فقلت ماهذا ؟ فقال : ألفا درهم جئت بها من مستغلك الجديد ، قلت أمسكها معك واتبعنى. فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر، ثم مضيت فى شارع الرقيق حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت الى باب الأنبار وانتهيت إلى باب دار نظيف عليه شجرة وعلى الباب خادم فعطشت

---

(١) ص ٣١١ ج ٢ أمالى .

فقلت للخادم : أعندك ماء تسقينيه ؟ قال نعم ، ثم دخل وأحضر قلة نظيفة طيبة الرائحة عليها منديل فناولنى فشربت وحضر وقت العصر فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يتلمس فقلت ما تريد يا هذا ؟ قال : إياك أريد ، قلت : فما حاجتك ؟ فجاء حتى جلس إلى جانبى وقال : شممت منك رائحة طيبة فظننت أنك من أهل النعيم فأردت أن أحدّثك بشىء ، فقلت قل ، قال : ألا ترى إلى باب هذا القصر ؟ قلت: نعم ، قال هذا قصر كان لأبى فباعه وخرج إلى خراسان ، وخرجت معه فزالت عنا النعم التى كنا فيها وعميت ، فقدمت هذه المدينة ، فأتيت صاحب هذه الدار لأسأله شيئاً يصلنى به فأتوصل إلى سوار فإنه كان صديقاً لأبى ، فقلت ومن أبوك ؟ قال فلان بن فلان فعرفته ، وإذا هو كان أصدق الناس إلىّ ، فقلت له يا هذا إن الله تبارك وتعالى قد أتاك بسوّار ومنعه من الطعام والنوم والقرار حتى جاء به فأقعده بين يديك ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتها إليه وقلت إذا كان غد فسر إلى منزلى ثم مضيت وقلت ما أحدّث أمير المؤمنين بشىء أظرف من هذا فتيته فاستأذنت عليه فأذن لى فلما دخلت إليه حدّثته بما جرى لى فأعجبه ذلك وأمر لى بألف دينار فأُحضرتْ فقال : ادفعها إلى الأعمى ، فنهضت فقال : اجلس ، فجلست ، فقال : أعليك دين ؟ قلت نعم . قال : كم دينك؟ قلت :خمسون ألفا،فحدثنى ساعة ،وقال : امض إلى منزلك ، فمضيت إلى منزلى ، فإذا بخادم معه خمسون ألفاً وقال: يقول لك أمير المؤمنين : اقض بها دينك، قال : فقبضت ذلك منه . فلما كان من الغد أبطأ علىّ الأعمى وأتانى رسول المهدى يدعونى فجئته فقال : قد فكرت البارحة فى أمرك ، قلت يُقضَى دينه ثم يحتاج إلى القرض أيضاً . وقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى ، قال : فقبضتها وانصرفت ، فجاءنى الأعمى فدفعت إليه الألف دينار ، وقلت له : قد رزق الله تعالى بكرمه وكافأ على إحسان أبيك وكافأنى على إسداء المعروف إليك . ثم أعطيته شيئاً آخر فأخذه وانصرف .

وهذه القصة أطول من سابقتيها ، وهى خالية من الشعر الذى حُليّت به الأولى والفكاهة التى بنيت عليها الثانية ، وتتضمن الدعوة إلى البر والمعروف بما اشتملت عليه من حسن الجزاء .

وهذا النمط من القَصَص الأخلاقى كان كثير الذيوع فى القرن الثانى والثالث والرابع ، ومن أشهر من كتب فيه أبو جعفر أحمد بن يوسف أحد كتاب الدولة الطولونية ، وسنعود إليه فى بحث خاص .

٤ — وتلك القصص المتفرقة فى كتب الأدب منسوبةً إلى ابن الأنبارى تدل على أنه كان مغرماً بتصوير الشخصيات عن طريق القصص الأخلاقى والوصفى والفكاهى ، وهو منحى طريف كنا نود لو ظفرنا بما يميزه من الشواهد الوافية ، ولكن فى ذلك القليل المبعثر هنا وهناك ما يكفى للاطمئنان إلى أن ابن الأنبارى كانت له يد فيما نسب إلى الخلفاء والوزراء والقضاة والأعراب من طرائف القصص وروائع الأحاديث .

(١) ص ١٩٦ — ١٩٧

٧ — التوابع والزوابع

سياحة شاعر فى وادى الشياطين

معنى التوابع والزوابع — متى ألف ابن شهيد رسالته — متى ألفت رسالة الغفران — التشابه بين موضوع الرسالتين — كيف اتصل ابن شهيد بعالم الجن — هل كان للكتاب والخطباء شياطين ؟ — الفكاهة فى رسالة التوابع — بغال الجن وحميرهم يتعاشقون ويتغزلون — بغلة أبى عيسى تتباكى مع ابن شهيد وتسأله عن حاله وعن اخوانه — أوزة من أهل العلم والأدب تناظر ابن شهيد — دقة ابن شهيد فى نقل آراء الكتاب — رأى ابن شهيد فى لغة معاصريه من أهل الأندلس — توجع ابن شهيد من حقد معاصريه وحسدهم — شكواه من زمانه — غرامه بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه — ملاحاة ابن شهيد لشيطان أنف الناقة — حرصه على إظهار فضله وتفوقه — إجازة الجن إياه وتقديمهم له — رأيه فى أن البيان نفحة سماوية لا صلة لها بالنحو والتصريف — ابن شهيد عند نفسه أشعر الناس وخاصة فى الرثاء .

١ — التوابع جمع تابع وتابعة وهو الجنىّ والجنية يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب ، والزوابع جمع زوبعة وهو اسم شيطان أو رئيس للجن ، ومنه سمى الإعصار زوبعة إذ يقال فيه شيطان مارد كما جاء فى القاموس المحيط .

٢ — والتوابع والزوابع اسم رسالة نفيسة — لم يبق منها إلا شذرات فى كتاب مخطوط هو الذخيرة — ألفها أبو عامر ابن شهيد الأندلسى[1]، ولم نجد لها صدى يذكر فى كتب القدماء ، وأول من وجه نظرنا اليها هو المرحوم الأستاذ محمد المهدى فى محاضراته بالجامعة المصرية سنة ١٩١٥ ثم عاد الدكتور أحمد ضيف فحدثنا عنها فى سنة ١٩٢٢ ومن رأى الدكتور ضيف أن التوابع والزوابع محاكاة لرسالة الغفران وأن ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون

---

(١) انظر ترجمة ابن شهيد فى الجزء الثانى ص ٢٠٢ وانظر تحليل نثره ص ٣١٠ وراجع آراءه فى النقد الأدبى ص ٤٨

أهل المشرق فى كل شىء. وأقوى حجة عند الدكتور ضيف أن عصر ابن شهيد يندرج فى عصر أبى العلاء، فقد عاش من سنة ٣٨٢ إلى سنة ٤٢٦ وعاش المعرى من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٤٤٩[١]

٣ — وقد رأينا أن نحقق هـذه المسألة فبحثنا طويلا عن التاريخ الذى وضعت فيه رسالة التوابع والزوابع فلم نهتد، ولـكنا رأينا فى الرسالة نفسها ما يدل على أنه وضعها وهو كهل: فقد جاء على لسانه ما يشير إلى أن من إخوانه (من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة)[٢] وألقى إليه على لسان أوزة جِنّية هذا السؤال:

« ما أبقت الأيام منك؟ »[٢].

وفى هذا السؤال إشارة إلى أنه كان قد ودع نضارة الشباب.

ولـكن لا ينبغى أن تخدعنا هذه التعابير، فهناك نص يدل على أنه وضعها وهو شاب فقد حدّثنا فى (التوابع والزوابع) أن الجن قالوا له: « قد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك، ولا يمَلّ من الطعن عليك، والاُعتراض لك، فمن أشدهم عليك؟ » وأنه أجاب « جاران دارهما صقب، وثالث نابته نوب، فامتطى ظهر النوى، وألقت به فى سرقسطه العصا، انتضى علىّ لسانه عند المستعين، وساعدته زرافة من الحاسدين ... الخ »[٣].

وهذا الكلام يشعر بأنه كتب هذه الرسالة فى عهد المستعين. والمستعين هذا هو سليمان ابن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموى، الذى بويع بقرطبة منتصف ربيع الأوّل سنة ٤٠٠ بعد مقتل هشام بن سليمان وجدّدت له البيعة سنة ٤٠٣ ثم مات مقتولا سنة ٤٠٧[٤].

ومن هنا يمكن أن نرجح أن رسالة (التوابع والزوابع) كتبت بين سنة ٤٠٣ وسنة ٤٠٧ هذا جانب من المسألة، أما الجانب الآخر فهو التاريخ الذى وضعت فيه رسالة الغفران.

وقد بحثنا طويلا فى كتب التراجم عن التاريخ الذى كتب فيه المعرى رسالة الغفران فلم نهتد، ولـكنا وصلنا بعد التأمل إلى تقريب التاريخ، ذلك أن رسالة الغفران جواب على

(١) راجع بلاغة العرب فى الأندلس ص ٤٨ (٢) الذخيرة ج ١ ص ١٥٢

(٣) الذخيرة ج ١ ص ١٣٨ (٤) فى الذخيرة تفاصيل مزعجة لما وقع بين المستعين وبين هشام بن سليمان، وصور شنيعة لما كان يجرى فى الأندلس من اشتعال الفتنة واغتلاء العصبية لذلك العهد. أنظر ص ١٧ — ٢٤ ج ١

رسالة ابن القارح ، وقد عدنا إلى رسالة ابن القارح فدرسناها فقرة فقرة حتى انتهينا إلى قوله : « وكيف أشكو من قاتنى وعالنى نيفا وسبعين سنة »[١] . فعرفنا أنه وضعها بعد أن جاوز السبعين ، ثم نظرنا فوجدناه ولد سنة ٣٥١ ـ فإذا أضفنا إلى هذا الرقم ـ ٧٠ ـ وجدناه كتب رسالته حوالى سنة ٣٢١ وتكون النتيجة أن رسالة الغفران كتبت حوالى سنة ٤٢٢ ؛ و إذا قدرنا أن ابن القارح قال نيفاً وسبعين ، وللنيف دلالته ، وقدرنا أن أبا العلاء اعتذر عن تأخير الإجابة بأنه مستطيع بغيره كان من الممكن أن تكون رسالة الغفران كتبت بين سنة ٢٢ و ٢٤[٢] .

ونتيجة هذا التحقيق أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع بنحو عشرين سنة ، وبذلك يتبين أن الدكتور ضيف لم يكن مصيباً حين افترض أن ابن شهيد قلد أبا العلاء ، وصار من المرجح أن يكون أبو العلاء هو الذى قلد ابن شهيد ، وكما كان الأندلسيون يقلدون أهل المشرق فى كل شىء كان أهل المشرق يحرصون أشد الحرص على متابعة الحركة الأدبية فى الأندلس ، بدليل أن رسائل ابن شهيد ذاعت فى الشرق ودوّنها المؤلفون الشرقيون قبل أن يموت وقبل أن توضع رسالة الغفران .

٤ — والواقع أن التشابه تام بين الرسالتين ، فالموضوع واحد وهو عرض المشاكل الأدبية والعقلية بطريقة قصصية ، والخلاف فى جوهر الموضوع يرجع إلى روح الكاتبين : فأبو العلاء يحرص أولا وقبل كل شىء على عرض المعضلات الدينية والفلسفية ، وابن شهيد يحرص على عرض المشكلات الأدبية والبيانية ، ويتفق كلا الرجلين على التعريض بمعاصريه وشرح ما أخذ على المتقدّمين من أساطين العقل والبيان . والمسرح واحد تقريباً : فهو عند ابن شهيد وادى الجن فى الدنيا ، وهو عند أبى العلاء وادى الإنس فى الآخرة : أى الفردوس

(١) رسائل البلغاء ص ١١٢ (٢) بعد تحرير هذه المسألة وصلنا إلى نص فى رسالة الغفران يدل على أنها كتبت سنة ٤٢٤ إذ يقول المعرى : « ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرسها الله فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة اسمه فلان ابن فلان » راجع ص ٤٨ ج ٢ من الطبعة الثانية لرسالة الغفران شرح الأديب كامل كيلانى .

والجحيم . فالممثلون عند ابن شهيد جنٌّ يسخرون الناس ، وعند أبى العلاء إنس تسخرهم الملائكة والشياطين ، وكان لكل إنسان فى عرفهم ملك وشيطان .

٥ — وجّه ابن شهيد رسالته إلى أبى بكر بن حزم فبين فى فاتحتها أنه كان فى حداثته يحن إلى الآداب و يصبو إلى تأليف الكلام ، فأبتاع الدواوين وجلس إلى الأساتيذ فنبض فيه عرق الفهم ودرّ له شريان العلم وأنه كان له فى أوائل صبوته هوى أشتد له كلفه ثم لحقه ملل فى أثناء ذلك الميل ، فاتفق أن مات من كان يهواه مدّة ذلك الملال فجزع وأخذ فى رثائه فقال :

تولى الحمام بظبى الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير

إلى أن أنتهى إلى الاعتذار من الملل الذى كان فقال :

وكنت مللتك لا عن قلى ولا عن فساد ثوى فى الضمير

ثم أرتج عليه فإذا هو بفارس بباب المجلس على فرس أدهم قد أتكأ على رمحه وصاح به : « أعجزٌ يا فتى الإنس ؟ » .

فأجاب : « لا وأبيك ! للكلام أحيان وهذا شأن الإنسان » فقال : قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته وقال : « و بأبى من أنت ؟ » قال : « زهير بن نمير من أشجع الجن ، تصوّرت لك رغبة فى أصطفائك » .

فقال ابن شهيد : « أهلاً بك أيها الوجه الوضاح ! صادفت قلباً إليك مقلوباً ، وهوى نحوك مجنوباً »[1] وهنا ينطلق ابن شهيد فيقص علينا أنهما تحادثا وتذاكرا أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع وأنه سأل صاحبه زهير بن نمير أن يحتال له فى لقاء من أتفق من الشياطين ، فيمضى زهير ليستأذن شيخ الجن و يعود وقد أذن له فيركب ابن شهيد مع صاحبه على متن الأدهم و يسيران كالطير يجتاب الجوّ

(١) ص ١٢٥ و ١٢٦

فالجوّ ، و يقطع الدوّ فالدوّ ، حتى يلمحا أرضاً لا كأرضنا ، و يشارفا جواً لا كجونا ، منفرع الشجر ، عطر الزهر . وهناك يقول الجنى مخاطباً ابن شهيد :

« حللت أرض الجن ، أبا عامر ؟ فبمن تريد أن تبدأ » .

فيجيب ابن شهيد :

« الخطباء أولى بالتقديم ، ولـكنى إلى الشعراء أشوق » .

ومن هنا نفهم أنه كان للخطباء والـكتاب شياطين ، كما كان للشعراء شياطين ، وهذه أول مرة أرى فيها أن العرب كانوا يعتقدون وجود شياطين للـكتاب والخطباء ، وقد حدّثنا ابن شهيد أنه صادف فى أرض الجن شيطان الجاحظ ، وشيطان بديع الزمان ، وشيطان عبد الحميد . فهل كان العرب يرون ذلك أم هو اختراع ابن شهيد ؟[1]

٦ — رسالة التوابع نفيسة جداً ومؤلفها خفيف الظل إلى حدّ بعيد ، وقد وقعت له فيها فكاهات تبعث الأنس إلى النفس ، من ذلك ما قصه علينا من أنه أشرف بأرض الجن « على قرارةٍ عيناء ، تفترّ عن بركة ماء ، وفيها عانة من حمير الجن و بغالها قد أصابها أولق[2] : فهى تصطك بالحوافر ، وتنفخ من المناخر ، وقد اشتد ضراطها ، وعلا شحيجها ونهاقها » .

فلما بصرت بهم أجفلت إليهم وهى تقول :

« جاءكم على رجليه » .

فارتاع ابن شهيد وتبسم زهير وقد عرف القصد وقال له : تهيأ للحكم .

قال ابن شهيد : فلما لحقتْ بنـا بدأتنى بالتفدية ، وحيتنى بالسكينة . فقلت : ما الخطب ، حمى حماك أيتها العانة وأخصب مرعاك ! قالت : شعران لبغل وحمار من عشاقنا اختلفنا فيهما وقد رضيناك حـكما . قلت : حتى أسمع ! فتقدمت إلىّ بغلة شهباء عليها

(١) فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ١٥٩ مايفيد أنه كان للـكهان شياطين ، وكان فيهم الـكتاب والخطباء . (٢) الأولق : الجنون .

جلها و برقعها لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء العجلة وسخف الحركة — فقالت : الشعر لبغل من بغالنا وهو :

على كل صبٍّ من هواه دليلُ سقامٌ على جِدّ الهوى ونحولُ
وما زال هذا الحب داء مبرحا إذا ما اُعترى بغلا فليس يزول
بنفسى التى أما مَلاحظ طرفها فسحرٌ وأما خدها فأسيل
تعبتُ بما حُمّلت من ثقل حبها وانى لبغلٌ للثقال حمول
وما نلت منها نائلا غير أننى إذا هى بالت بُلْت حيث تبول

والآخر لدكين الحمار وهو :

دهيت لهذا الحب منذ هويثُ وراثت إرادتى فلست أريثُ
كلفت بإلفى منذ عشرين حجة يجول هواها فى الحشا و يعيث
وغيّر منها قلبها لى نميمةٌ نماها أحمّ الخصيتين خبيث
وما نلت منها محرماً غير أننى إذاهى راثت رثت حيث تروث

قال ابن شهيد : فاستضحك زهير وتماسكتُ وقلت للمنشدة : ما هويث ؟ قالت : هويت بلغه الحمير ! قلت والله إن للروث لرائحة كريهة ولقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم فى الشعرين ! فقالت : فهمت عنك ، وأشارت إلى العانة أنّ ركبنا مغلوب . وانصرفت قانعة راضية(١) .

٧ — وتتفرع عن هذه الفكاهة نكتة أبدع وأظرف إذ يقول ابن شهيد :

« وقالت لى البغلة : أما تعرفنى ، أبا عامر ! قلت : لو كان ثَم علامة ! فأماطت لثامها فاذا هى بغلة أبى عيسى ، والخال على خدها ، فتباكينا طويلا ، وقد أخذنا فى ذكر أيامنا فقالت :

---

(١) راجع ص ١٥١ و ١٥٢

ما أبقت الأيام منـــك ؟ قلت : ما ترين ! قالت شبّ عمرو عن الطوق ! وما فعل الأحبـــــة ؟

قلت : شب الغلمـان ، وشاخ الفتيان ، وتنـكرت الأخلاق ، ومن إخواننا من بلغ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة . فتنفست الصَّعداء وقالت : سقاهم الله سَبَل العهد ، و إن حالوا عن العهـــــد ونسوا أيام الود ! بحرمة الأدب إلا أقرأتهم سلامى ! فقلت كما تأمرين .

٨ — وهناك فكاهة من مبتـكرات ابن شهيـد تدل على فهمه لعالم الطير كما دلت الفـكاهات الماضية على فهمه لعالم الحيوان ، ذلك أنه يحـدّثنا عن أوزة كانت فى البركة بالقرب منهم :

« أوزة بيضاء شهلاء فى مثـال جثمان النعامة ، كأنما ذُرّ عليها الـكافور ، أو لبست غِلالة من دمقس الحرير ، ... فى ظهرها صفاء ، تثنى سالفتها وتـكسر حدقتها ، وتلولب قمحدُوتها ، فترى الحسن مستعاراً منها ، والشكل مأخوذاً عنها » .

وقد صاحت تلك الأوزة بالبغلة :

« لقد حكمتم بالهوى ، ورضيتم من صاحبكم بغير الرضى » .

فيسأل ابن شهيد صاحبه : ما شأن هـذه الأوزة ؟ فيجيبه : « هى تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة ، وتسمى أم عفيف ، وهى ذات حظ من الأدب فاستعدّ لها » .

فيقول لها ابن شهيد : « أيتها الأوزة الجميلة ، العريضة الطويلة : لجمال صفتك باعتدال منكبيك ، واستقامة جناحيك ، وطول جيدك ، وصغر رأسك ، تقابلين الضيف بمثل هذا الـكلام وتلقين الطائر الغريب بشبه هذا المقال ، وأنا الذى هممت بالأوز صبابة ، واحتملت فى الـكتاب بها غض كل مقالة ، وأنا الذى استرجعتها للوطن المألوف ، وحببتها إلى كل ظريف ، فاتخذتها السادة بأرضنا ، واستهلك عليها الظرفاء منا ، ورضيتْها بدلا من العصافير ، ومتكلمات الزرازير ، ونسيتْ لذة الحمام ، ونقار الديوك ، ونطاح الـكباش » .

عند ذلك داخلها العجب من كلام ابن شهيد ، ثم تدفعت وقد أُعترتها خفة شديدة فى مائها ، فمرة سابحة ، ومرّة طائرة ، تغطس هنا وتخرج هناك ، وهــــذا الفعل معروف فى الأوز عند الفرح والمرح . ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها وقالت لأبن شهيد :

«أيها الغارّ المغرور ! كيف تحكم فى الفروع وأنت لاتُحكم الأصول ؟ ما الذى تحسن ؟» ثم يلاحيها وتلاحيه حول الشعر والخطابة والنحو والغريب إلى أن يسألها : يا أم عفيف ! بالذى جعل رداءك ماء ، وحشا رأسك هواء ، أيهما أفضل ؟ الأدب أم العقل ؟ فتجيب : بل العقل . فيقول ابن شهيد : وهل تعرفين فى الخلائق أحمق من أوزة ؟

فتجيب : لا !

فيقول : فتطلّبى عقل التجربة إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة !

٩ — وابن شهيد فى رسالته التوابع مغرم بأن ينطق الجن بالآراء التى كان يحرص عليها من يُنسبون إليهم . من ذلك أنه حين اتصل بأبى عينية عتبة بن أرقم شيطان الجاحظ سمع منه هذا الملام :

«إنك لخطيب وحائك للكلام مجيد ، لولا أنك مغرم بالسجع فكلامك لا نثر»(٢). وهذا هو مذهب الجاحظ الذى كان يؤثر الكلام المرسل على المسجوع و يميل فى نثره إلى المقابلة والأزدواج .

١٠ — وقد ساقت هذه المناسبة ابن شهيد إلى أن يعلن رأيه فى لغة معاصريه من أهل الأندلس فيقول :

« ليس هذا — أعزك الله ! — منى جهلا بأفن(٣) السجع ، وما فى المماثلة والمقابلة من فضل ، ولكنى عدمت ببلدى فرسان الكلام ،ودهيت بغباوة أهل الزمان ،و بالحرى أن أحدثهم

---

(١) راجع ص ١٥٢ و ١٥٣ (٢) ص ١٣٥ (٣) فى الأصل « بأفق » وهو تحريف والأفن معناه العيب ، وهى لفظة يستعملها ابن شهيد راجع ص ١٣٨ من الذخيرة .

بالازدواج . ولو فرشت للكلام فيهم طوله ، وتحركت لهم حركته ، لكان أرفع لى وأولج فى قلوبهم »[١] .

فيدهش الجنىّ ويقول :

« أهذا على تلك المناظر ، وكبير تلك المحابر ، وكال تلك الطيالس ؟ » .

فيجيب ابن شهيد : « نعم ! إنما يجنى الشجر ، وليس له ثمر ولا عِتَر » فيقول الجنى : كيف كلامهم بينهم ؟ فيجيب ابن شهيد ليس لسيبويه فيه عمل ولا للفراهيدى إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة ، إنما هى لكنة يؤدون بها المعانى تأدية المجوسىّ والنبطىّ » .

فيصيح الجنى : إنا لله ! ذهبت العرب كلامها ، إرمهم بسجع الكهان فعسى أن ينفعك عندهم ، ويطير لك ذكرا فيهم ، وما أراك مع ذلك إلا ثقيل الوطأة عليهم كريه المجىء إليهم[٢] .

١١ — وفى تضاعيف الرسالة فقرات تشعر بأن ابن شهيد كان مبتلى بحقد معاصريه وحسدهم وإسرافهم فى الكيد له والغض من شأنه ، فقد حدثنا أنه قرأ على الجن رسالة فى وصف الحلواء فاستحسنوها وقالوا :

«إن لسجعك موضعا من القلب ، ومكانا من النفس ، وقد أعرته من طبعك ، وحلاوة لفظك ، وطلاوة سوقك ، ما أزال أفنه ، ورفع غبنه ، وقد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك ، ولا يملّ من الطعن عليك والاعتراض لك ، فمن أشدهم عليك ؟ »

« وهنا يجيب ابن شهيد بأن أشد أعدائه جاران تصاقب دارهما داره ، وثالث امتطى ظهر النوى ، فألقت به فى سرقسطه العصا : حيث ينتضى عليه لسانه عند المستعين ، وتساعده على إفكه زرافة من الحاسدين » وأنه أنشد فى أولئك الأعداء :

وبلغت أقواما تجيش صدورهم   على وإنى منهمو فارغ الصدر
أصاخوا إلى قولى فأسمعت مُعجزا   وغاصوا على سرى فأعياهمو أمرى[٣]

---

(١) ص ١٣٥   (٢) ص ١٣٥ و ١٣٦   (٣) راجع ص ١٣٨

١٢ — ولا يكتفى ابن شهيد بإعلان حزنه لتحامل معاصريه ، بل يضيف إلى ذلك صرخته من عدوان زمانه فينطق الجن — وقد أستجادوا شعره — بهذه الكلمة الموجعة :
« ما أنت إلا محسنٌ على إساءة زمانك ! »(١) .

١٣ — وأبن شهيد مغرم بمعارضة كتاب المشرق وشعرائه ، حريص على التفوّق عليهم ، فقد حدّثنا أنه قابل بأرض الجن « زبدة الحقب » شيطان بديع الزمان فقال له : اقترح عليّ وصف جارية فوصفها ، فقال له الجنى : أحسنت ! فقال له ابن شهيد : أسمعنى وصفك للماء . فقال الجنى : ذلك من العقم « يريد أنه معنًى لا تمكن معارضته » ثم أنطلق يقول: « أزرق كعين السّنور ، صاف كقضيب البلور ، انتُخِب من الفرات ، وأستعمل بعد البيات ، فكان كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة »(٢) .

ويعارضه ابن شهيد فيقول :

« أنظرْ يا سيدى كأنه عصير صباح ، أو ذوب قمر لياح ، ينصبّ من إنائه ، إنصباب الكوكب الدرىّ من سمائه ، العين كانونه ، والقمر عفرينه ، كأنه خيط من غزل فلَق ، أو مخصرة ضربت من ورق ، يرفع عنك فتروى ، ويصدع به قلبك فتحيا »(٣) .

عندئذ ضرب شيطان بديع الزمان الأرض برجله فانفجرتْ له عن عين تدهدى إليها فاجتمعت عليه وغاب وهو خجل خزيان !

١٤ — ولم يقف الزهو بابن شهيد عند إعلان التفوّق على كتاب المشرق ، بل مضى يحدثنا أنه ناوش شيطان أنف الناقة وأنتصر عليه بحيث علتْ أنف الناقة كآبة ، وأختلط كلامه ، وبدت منه ساعتئذ بوادٍ فى خطابه رحمه لها من حضر ، وأشفق عليه منها من نظر ، فشمر له عن ساعدٍ فتًى من الجن كان إلى جنب أنف الناقة وقال :

« وهل يسوء قريحتك ، أو ينقص من بديهتك ، لو تجافيت لأنف الناقة وجُدت له ، فإنه على علاته زىّ علم ، وزنبيل فهم ، وكنف رواية ؟ » .

---

(١) ص ١٣٠ (٢) مأخوذ من المقامة المضيرية . (٣) ص ١٣٩ و ١٤٠

فقال ابن شهيد لصاحبه زهير : من هذا ؟ فقال : هو أبو الآداب صاحب أبى إسحاق أبن حمام جارك .

فقال له ابن شهيد: رفقاً على أخيك بغرب لسانك! وهل كان يضر أنف الناقة و ينقص من علمه ، و يفلّ شفر فهمه ، أن يصبر لى على زلة تمرّ به فى شعر أو خطبة : فلا يهتف بها بين تلاميذه و يجعلها طرمذة من طراميذه !

فقال الفتى الجنى : إن الشيوخ قد تهفو أحلامهم فى الندرة .

فيقول أبن شهيد : إنها المرة بعد المرة ![1]

ثم يحدّثنا وهو مزهوّ مفتون أن أساطين الجن حاروا فى أمره فلم يدروا : أشاعر هو أم خطيب ، وأنهم انصرفوا والأبصار إليه ناظرة ، والأعناق نحوه مائلة .

ومثل ابن شهيد فى عبقريته يعذر فى مثل هذا الفتُون !

١٥ — و يتصل بحرص ابن شهيد على إظهار تفوّقه وفضله ما نراه فى غير موطن من التوابع من النص على أن زعماء الجن أجازوه ، و بلغ الأمر بأحدهم أن فتن ببيت من شعره فقام يردّده و يرقص ، قال ابن شهيد :

ثم أفاق وقال : « والله هذا شىء لم نلهمه نحن ، ثم استدنانى فدنوت منه فقبل بين عينى وقال : اذهب فإنك مُجازٌ على بظرأم الكاره ! »[2] .

وأولئك الكارهون هم بالطبع من عالم الإنس ، يضاف إليهم من ناوأه من زعماء الجن.

١٦ — وفى رسالة التوابع إشارة لطيفة إلى رأى ابن شهيد فى البيان وهو يعتقد أن البيان نفحة سماوية لا صلة بينها و بين معرفة النحو والتصريف ، فليس يكفى أن يختلف الإنسان إلى الأساتذة يتلقى عنهم ، وليس يغنى أن يراجع الكتب والدواوين ، و إنما يجب أن تكون هناك فطرة سمحة وطبيعة سخية يصدر عنها النثر الجيد والشعر البليغ[3] .

---

(١) راجع ١٤١ و ١٤٢ (٢) ص ١٣٣

(٣) تجد آراء ابن شهيد فى النقد الأدبى مبسوطة بالجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٤٨–٥٨

وفى هذا يحدثنا ابن شهيد أنه اصطدم فى وادى الجن بشيطان أنف الناقة وأنه استطال على ذلك الشيطان وقال له : طارحنى كتاب الخليل وشرح ابن درستويه . فقال الجنى :

« دع عنك هذا ، أنا أبو البيان » .

فقال ابن شهيد : لاهاً لله ! إنما أنت كمغن وسط لايحسن فيطرب ، ولايسيء فيلحَى .

قال الجنى :

« اقدعلمنيه المؤدبون »

فقال ابن شهيد :

« ليس هو من شأنهم ، إنما هو من تعليم الله حيث يقول : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ . ليس من شعر يفسر ، ولا أرض تكسر ، حتى يكون نفسك من أنفاسك ، وقليبك من قلبك ، وحتى تتناول الوضيع فترفعه ، والرفيع فتضعه ، والقبيح فتحسنه »[1] .

ومعنى هذه الفقرات أن البيان شيء آخر غير الكلام المفيد ، فمن الناس من تقرأ له فلا تحمده ولا تذمه ، وشر الكتاب من يمرون على القراء فلا يكون لهم قادح ولا مادح ولا عدو ولا صديق .

ولا عيب فيما رآه ابن شهيد إلا أنه قدم له شواهد فى وصف الثعلب والبرغوث تدل على ذكاء ولكنها بعيدة عن سحر البيان[2] .

١٧ — فى رسالة التوابع إشارات كثيرة تدل على رأى ابن شهيد فى شعره ، وهو عند نفسه أشعر الناس وخاصة فى باب الرثاء ، فإن الجن حين يطارحونه الشعر يسألونه عن مراثيه ، وإلى القارىء نموذجا مما اختاره من شعره فى الرثاء :

أفى كل عام مصرعٌ لعظيمِ أصاب المنـايا حادثى وقديمى
فكيف لقائى الحادثات إذا سطت وقد فلّ سيفى منهمو وعزيمى

---

(١) ص ١٣٩

(٢) راجع أوصافه للثعلب والبرغوث فى الذخيرة ص ١٣٩ج ١ ويتيمة الدهر ص ٣٩١ج١

وكيف اهتدائى فى الخطوب إذا دجت وقد فقدت عيناى ضوء نجومى
مضى السلف الوضّاح إلا بقيةً كغرة مسودّ القميص بهيم
أما وأبى الأيام لولا اعتـــداؤها لظاهرتُ فى ساداتها بقروم
وقارعت من يبغى قراعىَ منهمو بأحلام بطش أو بطيش حلوم
أنا السيف لم يتعب له كف ضارب صروم إذا صادفت كف صريم
سعيت بأحرار الرجال فخاننى رجال ولم أنجد بجــــد عظيم
وضيعنى الأملاك[1] بدءا وعودة فضعت بدار منهمو وحريم

(١) الأملاك : الملوك . (٢) فى يتيمة الدهر طائفة صالحة من شعر ابن شهيد تجدها فى الصفحات ٣٨٢ — ٣٨٩ من الجزء الأول .

www.books4all.net منتدى سور الأزبكية

٨ – الإنسان والحيوان أمام محكمة الجن

١ — تلك رسالة كتبها جندىّ مجهول من رجال الفكر والبيان الذين كتبوا رسائل إخوان الصفاء . وكاتبنا هذا رجل متفوّق فى علم الحيوان ، ورسالته عن محاكمة الإنسان أمام محكمة الجن لبطشه بالحيوان تجرى مجرى القَصَص الطريف . ولكن هذا القصص يدور حول محور واحد هو شرح طبائع الطير والحيوان ، ولذلك نرى الكاتب يبدئ ويعيد فى الكلام عن خواص الكائنات الحية التى استبدّ بها الإنسان ، وينطلق فيسرد طبائعها جنساً جنساً ، ثم يمضى فيُنطقها بما أُودعت غرائزها من ضروب الأسرار ، ولا يزال يمعن فى الدرس والبحث حتى يمكّن القارىء من معارف جمة طريفة تشوق العقل والخيال .

٢ — وكاتب هذه الرسالة متأثر بكتاب كليلة ودمنة ، وآية ذلك أنه اختار كليلة رئيساً لوفد السباع[1] . ووصفه بأنه « كليلة أخو دمنة » وهنا أخطأ الكاتب خطأ فنياً ، فإن الخرافة تحدثنا أن كليلة مات حزنا على دمنة بعد أن أودع دمنة السجن زمناً رهن المحاكمة جزاء بما كسبت يداه من الدس لشتربة الذى راح فريسة لدسائسه ومكايده . وكان ذلك قبل الإسلام بآماد طوال ، على حين وقعت محاكمة الإنسان أمام محكمة الجن بعد أن ظهر الإسلام وخضع الجن لتعاليم القرآن .

٣ — وقصة الخصومة بين الإنسان والحيوان تتلخص فى أن بنى آدم كانوا فى بداية الحياة قلقين خائفين مستوحشين من كثرة السباع والوحوش فى الأرض ، وكانوا يأوون فى رءوس الجبال والتلال ، وفى المغارات والكهوف ، وكانوا يأكلون من ثمر الأشجار وبقول الأرض وحب النبات ، ويستترون بأوراق الشجر من الحر والبرد ، ثم تحضروا فبنوا المدن

---

(١) ص ٢٠٦ ج ٢

والقرى والحصون . ثم سخروا من الأنعام البقر والغنم والجمال ، ومن البهائم الخيل والبغال والحمير ، وقيدوها وألجموها وصرفوها فى مآربهم من الركوب والحمل والدراس ، وأتعبوها فى استخدامها ، وكلفوها أكثر من طاقتها ، ومنعوها من التصرف فى مآربها ، بعد ما كانت مُخلاّة فى البرارى والآجام والغياض تذهب وتجىء حيث أرادت فى طلب مراعيها ومشاربها ومصالحها . ونفرت منهم بقيتها من حمر الوحوش والغزلان والسباع والطيور بعدما كانت مطمئنة فى أوطانها وأماكنها ، وهربت من ديار بنى آدم إلى البرارى البعيدة ، والآجام والدِّحال[1] ورءوس الجبال ، وشمر بنو آدم فى طلبها بأنواع من الحيل والقنص والشباك والفخاخ ، واُعتقد بنو آدم أنها عبيد لهم هربت وخلعت الطاعة وعصت . ومضى الأمر على ذلك إلى أن ظهر الإسلام وخضع له فريق من بنى الجان .

٤ — واتفق أن ولى أمر المسلمين من الجن ملك يقال له « بيراست الحكيم » ولقبه « شاه مردان » وكانت دار مملكته مردان فى جزيرة يقال لها «صاغون[2]» فى وسط البحر الأخضر مما يلى خط الاستواء ، وهى جزيرة طيبة الهواء والتربة ، فيها أنهار عذبة ، وعيون جارية ، وهى كثيرة الريف والمرافق وفنون الأشجار وألوان الثمار والرياض والأنهار والرياحين والأنوار . وحدث أن طرحت العاصفة فى وقت من الزمان مركباً من سفن البحر إلى ساحل تلك الجزيرة ، وكان فى المركب قوم من التجار والصناع وأهل العلم وأغنياء الناس ، فخرجوا إلى تلك الجزيرة وفتنوا بما فيها من الفواكه والبقول والرياحين ، وصادفوا ما فيها من البهائم والأنعام والطيور والسباع والوحوش والهوام والحشرات فى ألفة لا يشوبها تنافر ولا شقاق . واستطاب القوم المقام فى تلك الجزيرة و بنوا هنالك وسكنوا ، ثم أخذوا يتعرضون لما فيها من البهائم والأنعام ليسخروها فيركبوها و يحملوا عليها أثقالهم على المنوال الذى كانوا يفعلون فى بلدانهم ، فنفرت منهم وهربت ، وشمروا فى طلبها لاعتقادهم أنها عبيد خرجت عن

(١) الدحال جمع دحل بالفتح ويضم ، وهو نقب ضيق فمه ، متسع أسفله حتى يمشى فيه .
(٢) هكذا أثبتها الكاتب . والفرنسيون ينطقونها سيجون Saïgon وسألت أحد الصينيين فأخبرنى أنهم ينطقونها « سيكون » .

طاعتهم . فلما رأت تلك البهائم رغبتهم فى أستعبادها جمعت زعماءها وخطباءها وذهبت إلى بيراست الحكيم ملك الجن وشكت إليه من جور بنى آدم ، فبعث ملك الجن رسولا إلى أولئك القوم ودعاهم إلى حضرته ، فذهبت طائفة من أهل ذلك المركب إلى هناك ، وكانوا نحواً من سبعين رجلا من بلدان شتى . وبذلك تبدأ قصة التحكيم [1] .

٥ — وأوّل ما ينبغى ملاحظته فى هذه المحاكمة هو روح الفكاهة الذى يظهر من فصل إلى فصل . ومن أمثلة ذلك أن زعيم الإنس أستدل على حقهم فى تسخير الحيوان بهذه الآيات « والأنعامَ خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تُريحون وحين تسرحون ... وعليها وعلى الفلك تحملون ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ... لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه » .

فلما طلب ملك الجن من زعماء الحيوان أن يجيبوا على هذه الآيات قام البغل فقال :

«ليس فى شىء مما قرأ هذا الإنسىّ من آيات القرآن ، أيها الملك ، دلالة على مازعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم ، إنما هى آيات تذكار بإنعام الله عليهم وإحسانه فقال: «سخرها لكم» كما قال : « سخر الشمس والقمر والسحاب والرياح » . أفترى أيها الملك أنها عبيد لهم وأنهم أربابها ؟ » [2] .

ومن ظريف الفكاهة أن الثعبان وقف يتحدث عن مصير الحشرات والهوامّ فى المحاكمة فبدا له أن أكثرها صم بكم عمىّ بلا يدين ولا رجلين ولا جناحين ولا منقار ولا مخلب ، ولا ريش على أبدانها ولا شعر ولا وبر ولا صوف ، وأن أكثرها عراة حفاة ضعفاء فقراء مساكين بلا حيلة ولا حول ولا قوة .

وهنا يحدثنا المؤلف أن الثعبان أدركته الرحمة والشفقة والرأفة ورقّ قلبه فدمعت عيناه من الحزن !

---

(١) راجع ص ١٧٣ — ١٧٦ ج ٢

(٢) ص ١٧٧

٦ — وفى الرسالة فقرات تدل على أن المؤلف مأخوذٌ بفلسفة اليونان، وانظر هذه الكلمة فهى تذكِّر بنظرية المثال التى شرحها أفلاطون :

« ثم اعلم أيها الملك العادل أن هذه الصور والأشكال والهيا كل والصفات التى تراها فى عالم الأجسام وجواهر الأجرام هى مثالات وأشباه وأصباغ لتلك الصور التى فى عالم الأرواح ، غير أن تلك نورانية شفافة وهذه ظلمانية كاسفة ، ومناسبة هذه إلى تلك كنسبة التصاوير والنقوش التى على وجوه الألواح وسطوح الحيطان إلى هذه الصور والأشكال التى عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود ، لأن تلك الصور التى فى عالم الأرواح محركات وهذه متحركات ، والتى دون هذه ساكنات صامتات ومحسوسات فانيات باليات ، وتلك ناطقات معقولات وروحانيات غير مرئيات باقيات »(١) .

٧ — وفى الرسالة أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب ، ويستطيع الباحث أن يستخرج منها ضروب الملابس والعادات إن بدا له أن يضع قصة تمثيلية تقع حوادثها فى القرن الرابع ، فالهندى لذلك العهد كان « طويل اللحية ، موفور الشعر ، متوشحاً بازار أحمر على وسطه »(٢) والعبرانى من أهل الشام كان « يرتدى برداء أصفر وبيده مدرجة ينظر فيها ويزمزم »(٣) والسريانى من آل المسيح كان « يلبس ثيابا من الصوف وعلى وسطه منطقة من السيور »(٤) والقرشى كان « يلبس ثوبين : رداء وإزارا ، شبه المحرِم »(٥) واليونانى « كانت على رأسه مشدة »(٦) ولم يعين المؤلف ثياب الفارسى وإن كان وصفه بحسن الهندام ،(٧) وكذلك وصف مندوب العراق(٨) .

٧ — أنطق المؤلف زعماء الوفود بمحامد أممهم ، ثم انطق صاحب العزيمة من وزراء الجنّ بمساوى تلك الأمم . فمندوب الهند يفاخر بأن الله بعث فى بلاده الأنبياء وجعل أكثر أهلها الحكماء ، وخصهم بالسحر والعزائم والكهانة ، فيقول الجنى وهو يحاوره : « لو أتممت

(١) ص ٢٣٢ (٢) ص ٣٣٦ (٣) ص ٣٣٧ (٤) ص ٣٣٨
(٥) ص ٣٣٩ (٦) ص ٣٤٠ (٧) ص ٣٤٢ (٨) ص ٣٤٣

الخطبة وقلت : ثم بلينا بحرق الأجساد وعبادة الأصنام والقرود وكثرة أولاد الزنا واُسوداد الوجـــوه ! »[١] .

والعبراني يفاخر بأن الله اصطفى إسرائيل ومن ذريته موسى بن عمران الذى فلق البحر وأغرق فرعون ، وأن الله أنزل على بنى إسرائيل المن والسلوى وجعلهم ملوكا وأعطاهم ما لم يعط أحداً من العالمين . فيقاطعه الجنى : « نسيت ولم تقل : وجعـل منا القردة والخنازير وعبدة الطاغوت ! »[٢] .

ويفاخر السرياني بأن الله اتخذ من العذراء البتول جسد الناسوت ، وقرن به جوهر اللاهوت ، وأيده بروح القدس ، وأظهر على يده العجائب ، وأحيا به آل إسرائيل من موت الخطيئـة »[٣] .

فيضيف الجنى : « قل أيضاً : فما رعيناها حق رعايتها وكفرنا وقلنا ثالث ثلاثة ، وعبدنا الصلبان ، وأكلنا لحم الخنزير فى القربان ، وقلنا على الله الزور والبهتان ؟ » .

ويتكلم القرشى فيذكر أن الله خص أمته بخير الأديان وأكرمها بتلاوة القرآن وصوم شهر رمضان . فيقول له الجنى : « قل أيضاً : إنا رجعنا بعد وفاة نبينا مرتدين ، وقتلنا الأئمة الخيّرين ، طلباً للدنيا بالدين » .

وفى هذه الفقرة يعبر المؤلف عن نزعة دينية كان يناصرها إخوان الصفاء .

ويخطب مندوب العراق فيذكر أن الله خص قومه بأوسط البلاد مسكناً وأطيبها هواء ، وأكثرها أنهاراً وأشجاراً وثماراً ، وأن الله فضلهم على كثير من خلقه : فمنهم نوح وإدريس وإبراهيم ، ومنهم كان الملوك الذين سيطروا على العالم القديم . فيقول الجنى : « ومن عندكم خرج الطوفان ، ومنكم كان نمروذ الجبار ، وبخت نصر محرف التوراة وقاتل أولاد سليمان وآل إسرائيل »[٤] .

---

(١) ص ٣٣٧ (٢) ص ٣٣٨ (٣) ص ٣٣٩ (٤) ص ٣٣٦

ويتقدّم منـدوب اليونان فيفاخر بأن الله خص بلادهم بكثرة البقول ، وخص قومه برجحان العقول ، ودقة التمييز ، وجودة الفهم ، وكثرة العلوم والصنائع والطب والهندسـة والنجوم وعلم تركيب الأفلاك ، ومعرفة منافع الحيوان والنبات والمعادن والحركات وآلات الرصد والطّلسمات ، وعلم الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والإلهـيات .

وهنا ينهض الجنى فيقول :

« من أين لـكم هـذه العلوم والحـكمة التى ذكرتها وافتخرت بها ؟ لولا أنـكم أخذتم بعضها من آل إسرائيل أيام بطليموس ، وبعضها من أيام مسيطوس، فنقلتموها إلى بلادكم، ونسبتموها إلى أنفسكم »[1] .

وفى هذه النقطة يحاول المؤلف أن يثبت أن العـــلوم قديمة أخذها بعض الأمم عن بعض ، وهو بهـذا يدفع طغيان الثقافة اليونانية التى كان أشياعها يتمرّدون إذ ذاك فى الأقطار الإسلامية . وإنه ليذكر أن ملك الجن نظر إلى اليونانى وسأله : ماذا تقول ؟ وأن اليونانى أجاب :

«صدق الحـكيم فيما قال ؛ فإذا أخذنا عنهم فإن علومنا وعلوم سائر الأمم بعضها من بعض، ولو لم يكن كذلك فمن أين للفرس علم النجوم وتركيب الأفلاك وآلات الرصـد ، لولا أنهم أخذوها من أهل الهند ؟ ومن أين كان لبنى إسرائيل علم الحيل والسحر والعزائم ونصب الطلسمات واستخراج المقادير ، لولا أن سليمان عليه السلام أخذها من خزائن علوم سائر الأمم حينما غلب عليهم ونقلها إلى لغـة العبرانيين وإلى بلاد الشام وكانت مملـكته فى بلاد فلسطين ؟ »[1] .

٩ — وقـد أجاد المؤلف إنطاق زعماء الشعوب فوضع على لسان كل خطيب تعابير تعيّن مالقومه من الأذواق فى العلوم والفنون ، ومن أظرف ماجاء من ذلك قوله على لسان مندوب اليونان :

«الحمد لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى كان قبل الهيولى ذات الصورة والأبعاد ! الحمد لله الذى أفاض من جوده العقل الفعّال ! الحمد لله الذى أنتج من نوره العقل فى جوهر

(١) ص ٢٤٢

النفس الكلية ! الحمد لله الذى أظهر من قوّة النفس عنصر الأكوان ذوات الهيولى والكيان ! الحمد لله مركب الأفلاك والكواكب السيارات ، والموكل بدورانها النفوس والأرواح ، والملائكة ذات الصور والأشباح » .

١٠ — وفى المحاورة فقرة تدل على أن العربية لم تسد سيادة تامة فى أرض فارس حتى القرن الرابع ، فقد جاء على لسان مندوب الفرس ما نصه : « ومنا من يقرأ القرآن ويلحنه ولا يعرف معناه ويؤمن بمحمد ويصدّقه وينصره »(١) .

١١ — وعرض المؤلف لأمة يأجوج ومأجوج التى تحدث عنها القرآن فذكر أنهما « أمتان صورتهما آدمية ، ونفوسهما سبعية ، لا تعرفان التدبير ولا السياسة ولا البيع ولا الشراء ولا الحرفة ولا الحرث ولا الزرع ، بل الصيد من السباع والوحوش والسمك والنهب والغارات بعضها على بعض »(٢) .

وهو شىء من التفصيل لما أجمله القرآن فى سورة الكهف ، وإن لم يحدّد موقع هذه الأمة من التاريخ .

١٢ — ومن فلسفة كاتب الرسالة أن الطبيعة يأكلُ بعضها بعضا ، ومن فساد شىء يكون صلاح شىء آخر ، فحيوانات البحر تفزع من التنين وتهابه ، وهو لا يفزع إلا من دابة صغيرة تلسعه ، فإذا لسعته دب سمها فى جسمه فمات واُجتمعت عليه الحيوانات البحرية تأكله فيكون لها عيشاً رغداً أياماً ، كما تأكل كبار السباع صغارها مدة من الزمان ، وكذلك حكم الجوارح من الطير : فالعصافير والقنابير والخطاطيف تأكل الجراد والنمل والذباب ، والبواشق والشواهين تصطاد العصافير والقنابير . وهكذا سيرة بنى آدم : فإنهم يأكلون لحوم الجدى والحملان والغنم والبقر والطير ، ثم إذا ماتوا أكلتهم فى قبورهم الديدان والنمل والذباب !(٣)

١٣ — وتحدث الكاتب عن النقل بالعربات ، وحديثه هنا طريف ، لأن العربة موجودة من قديم الأزمان ، ولكنا نجد أثرها قليلا فى المدنية الإسلامية ، بحيث يظن أن

---

(١) ص ٢٤٤ (٢) راجع ص ٢٤٨ (٣) راجع ص ٢٤٨

أن المسلمين الأوّلين لم ينتفعوا كثيراً بهذه الأداة فى حمل الأثقال ، وقد وردت فى كلام الـكاتب كأنها أعجوبة ، وفى ذلك دلالة على أنها كانت قليلة الاستعمال ، فقد قرنها بالحيلة فى الغوص إلى قاع البحار لاستخراج الدر والمرجان والصعود إلى رءوس الجبال لإنزال النسور والعقبان ، فقال : « وهكذا بالحيلة يعملون العجلة من الخشب ويشدّونها فى صدور الثيران وأكتافها ، ثم يحملون عليها الأحمال الثقال وينقلونها من المشرق إلى المغرب ، ومن المغرب إلى المشرق ، ويقطعون البرارى والقفار والمفاوز »[1] .

١٤ — ويحدّثنا الـكاتب أن زعماء الحيوان اجتمعوا لينتخبوا رسولا منهم يجادل زعماء الإنسان ، ثم اختاروا أحد الحـكماء من بنات آوى ، فتلطف ابن آوى فى الاعتذار وقال : «وكيف أصنع مع كثرة أعدائى هناك من أبناء جنسنا ؟ » فقال الأسد : «من هم ؟» فقال : «الـكلاب ؟» فسأل الأسد : كيف يصير الـكلاب أعداء للسباع وأصدقاء لبنى آدم ؟ فقال ابن آوى : أليس قد استأمنتْ إلى بنى آدم وصارت معينة لهم علينا معشر السباع ؟ فيسأل الأسد عن علة ذلك فلا يعرفها أحد غير الذئب .

وهنا ينطلق المؤلف فيُنطق الذئب بالأسباب التى جمعت بين الإنسان والـكلب فيقول:

« إنما دعا الـكلاب إلى مجاورة بنى آدم ومداخلتهم مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق، وما وجدت عندهم من المرغوبات واللذات ومن المأكولات والمشروبات ، وما فى طباعها من الحرص والشره واللؤم والبخل ، ومافى جبلّتها من الأخلاق المذمومة الموجودة فى بنى آدم، مما السباع عنه بمعزل : وذلك أن الـكلاب تأكل اللحمان ميتاً وجيفاً ومذبوحاً ، قديداً ومطبوخاً ومشوياً ، ومالحاً وطرياً ، وجيداً ورديئاً ، وثماراً وبقولاً وخبزاً ، ولبناً وحليباً ، وحامضاً وجبناً وسمناً ودسماً ، ودبساً وشيرجاً ، وناطفاً وعسلاً ، وسويقاً وكامخاً ، وماشاكلها من أصناف مأكولات بنى آدم التى أكثر السباع لا يأكلها ولا يعرفها » .

ويضيف الخطيب إلى هذا التعليل الطريف للتشابه بين الـكلاب والناس فى التوافق والتوارد على مختلف الألوان من الطعام والشراب أن الـكلاب لاتترك أحداً من السباع يدخل

(١) ص ٢٢١

قرية أو مدينة مخافة أن ينازعها فى شىء ممـا هى فيه ، حتى أنه ربما يدخل أحد من بنات آوى أو بنات أبى الحصين قرية بالليل ليسرق منهـا دجاجة أو ديكاً أو سنّورا ، أو يجرّ جيفة مطروحة ، أو كسرة مرمية ، أو ثمرة متغيرة ، فتحمل عليه الـكلاب وتطرده وتخرجه من القرية .

ولا يكتفى الخطيب بذلك بل يلح فى فرض المشابهة بين الإنسان والكلب ، فيذكر أن الكلب إذا رأى فى يد أحد من بنى آدم من الرجال والنساء والصبيان رغيفاً أو كسرة أو ثمرة أو لقمة طمع فيها وتبعه ، وأخذ يبصبص بذنبه ، ويحرّك رأسه ، ويحدّ النظر إلى حدقته حتى يستحى أحدهم فيرمى بها إليه ! وعندئذ يعدو إليها بسرعة ، ويأخذها فى عجالة ، مخافة أن يسبقه إليها غيره ! ويقول الخطيب — ولا تنس أنه الذئب ! — :

« وكل هذه الأخلاق المذمومة موجودة فى الإنس والـكلاب ، فمجانسة الأخلاق ومشاكلة الطباع دعت الـكلاب إلى أن فارقت أبناء جنسها من السباع ، واستأنست إلى الإنس ، وصارت معينتهم على أبناء جنسها من السباع »(١) .

١٥ — وعرض المؤلف لمسألة دقيقة ثار من حولها الجدل أزماناً طوالا ، وهى خلق الجن ، وأصل العداوة بينها وبين الإنس ، فقد تخوّف أحد زعماء الجن من عاقبة التدخل بين الإنسان والحيوان ، فإن الإنس أمم قوية ، ومن المحتمل أن يثوروا على الجن فتقوم بينهم حروب يخسر فيهم الغالب والمغلوب .

وقد تأنق الكاتب فى عرض أدوار الخصومة بين الإنس والجن والظروف التى كان يقع فيها صلح أو قتال . والذى تجب الإشارة إليه هنا أن إخوان الصفا يعتقدون بمـا يسمى «القران» وهو عندهم تحوّل حظوظ الأنواع من حال إلى حال : فقد خشى أحد خطباء الجن من أن تعجز البهائم عن مقاومة الإنس فى الخطاب لقصورها عن الفصاحة والبيان ، وأن يجد الإنس من ذرابة ألسنتهم وجودة عبـاراتهم ما يقضى بأن تظل البهـائم أسيرة فى أيديهم يسومونها سوء العذاب . وكان جواب وزير الجن أن ذلك إن وقع فستكون النتيجة أن

---

(١) ص ٢٠٧ ج ٢

« تصير البهائم فى الأسر والعبودية إلى أن ينقضى دور القِران و يستأنف نشوء آخر و يأتى الله لها بالفرج والخلاص ، كما نجى آل إسرائيل من عذاب فرعون ، وكما نجى آل داود من عذاب بخت نصر ، وكما نجى آل حمير من عذاب آل تُبَّع ، وكما نجى آل ساسان من عذاب اليونان ، وكما نجى آل عمران من عذاب أردشير »[١] .

و « القران » هذا أمل جميل ، ولو تأخر الزمن بالمؤلف لرجونا أن يقول :

« وكما نجى أهل مصر من عدوان الانجليز ! » .

١٦ — ولم يقف المؤلف عند حدود درس الحيوان ، ولكنه أستطرد فشرح كثيراً من الظواهر الاجتماعية ، وتحدّث عن الملوك والوزراء والعلماء والفقهاء ، وأفاض فى ذكر الأسباب التى قوّضت العروش وحوّلت الأعزة إلى أذلة صاغرين ، ولم يشهد الكاتب لأحد من الملوك بالعدل إلا لملكين اثنين : ملك الجن وملك النحل[٢] .

و يطول القول لو مضينا ندرس ما عرض له الكاتب من المعضلات العلمية والفلسفية والاجتماعية ، فليرجع القارئ إلى أصل الرسالة إن شاء[٣] .

١٧ — وقد يسأل القارئ عن نتيجة المحاكمة التى فصّل أخبارها الكاتب فى خمسين ومائة صفحة ، وهو سؤال لا بدّ أن يخطر بالبال .

ونجيب بأن المحاكمة لم تنته إلى شىء ؛ لأن زعماء الحيوان فكروا فى الوصول إلى الحرّية عن طريق المفاوضات ، ولو أستمعوا لنصيحة الأسد حين صمم على أن يصدع القوّة بالقوّة ، و يفلّ الحديد بالحديد ، لما أحتاجوا إلى محكمة الجن فى جزيرة صاغون !

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » .

---

(١) ص ١٩٨ ج ٢

(٢) وصف المؤلف ملك الجن بالحكمة والعدل ، أما ملك النحل فوصفه بالإشفاق على رعيته والرحمة والتحنن عليهم (ص ٢٥٢) ويحسن بالقارئ أن يرجع إلى ص ٢٥٠ و ٢٥١ ليرى كيف علل المؤلف كثرة الملوك عند الإنس : فقد نفذ إلى صميم الحياة عند مختلف الشعوب وفهم كيف تختلف العقول والطباع والأهواء باختلاف الأقاليم .

(٣) لم يكن من همنا أن نحلل الرسالة التى عرضنا لها فى هذا الفصل تحليلا وافيا ، وإنما قصدنا إلى إعطاء القارئ فكرة عن أسلوب الكاتب فى عرض المسائل العلمية عن طريق القصص ، وهو أسلوب له قيمة فنية ، وله أثر فى تشويق الجمهور الى تعقب الدقائق فى مثل علم الحيوان ولنشر هنا إلى أن أسلوب هذه الرسالة خال من التكلف وهو فى جملته يمتاز بالوضوح والصفاء

٩ – أخبار التوحيدى (*)

١ — يختلف عمل التوحيدى عن أعمال كتاب الأخبار والأقاصيص أشدّ الاختلاف فهو لا يهتم بأهل البادية ، ولا يسلك مسلك الرواة الذين يُعنَون بتقييد الغريب من الأخبار والأشعار ، وإنما يهتم بالنواحى التاريخية والأدبية من حياة الرجال : فهو الذى دوّن المناظرة بين أبى سعيد السيرافى (١) ومتى بن يونس (٢) فى المفاضلة بين النحو العربى والمنطق اليونانى . وهذه المناظرة تدل على قوّة عجيبة فى التوحيدى ، وهى مَثَل أعلى فى لغة الجدل والحوار بين المتناظرين . ولا يتسع المقام لتحليل هذه المناظرة فليرجع إليها من شاء فى معجم ياقوت (٣) .

ولكن لابد أن نشير هنا إلى أن التوحيدى يصرح بأن أهل عصره كانوا ينقلون فلسفة اليونان عن اللغة السريانية ، ويقول على لسان السيرافى فى محاورة متى :

« أنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفى بها ، وقد عفت منذ زمن طويل وباد أهلها ، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها؟ على أنك تنقل عن السريانية ، فما تقول فى معان متحوّلة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه إلى لغة أخرى عربية ؟ ! » (٤)

٢ — ولعل هذا هو السر فى أن العرب ظل محصولهم الفلسفىّ غامضاً : لأنهم اضطروا إلى العناية بدرس ما وصل إليهم عن اليونان فى إبهام وغموض . وقد واجهتُ هذه

(*) فى هذا الكتاب فصل عن أبى حيان التوحيدى فى الباب الخامس ص١٣٣–١٤٤ ج٢

(١) توفى السيرافى فى بغداد سنة ٣٦٨ وكان من كبار النحاة . (٢) متى بن يونس باحث من رجال القرن الرابع كان مشغوفا بنشر علوم اليونان .

(٣) معجم الأدباء ج ٣ ص ١٠٥ — ١٢٤ (٤) ص ١٠٨ ج ٣

المشكلة وأنا أدرس فلسفة الغزالى فوصلت بعد الدرس إلى أن الفلاسفة المتفوقين من العرب هم الرجال الذين بنوا فلسفتهم على أساس العقلية العربية ، وكان اتصالهم بالفلسفة اليونانية اتصال ثقافة لا اتصال نقل ومحاكاة ، وكذلك نجح ابن رشد ونجح الغزالى : لأنهما ابتدآ من نقطة مفهومة : هى النفس العربية أو الإسلامية ، ثم مضيا يتعقبان ما يقضى به العقل أو ما يوحى به الدين ، واستطاعا بذلك أن يخلقا الحماسة للفلسفة فى البيئات الإسلامية ، وأن يخلقا لها ألوفاً مؤلفة من الأصدقاء والأعداء .

٣ — ومن أهم ما أبدع التوحيدى حديث السقيفة ، وهو حديث عجيب مهد له بالكلمة الآتية(١) :

« سمرنا عند القاضى أبى حامد ليلة ببغداد بدار ابن جيشان بشارع الماديان : فتصرف بنا الحديث كل متصرَّف ، وكان والله غزير الرواية ، لطيف الدراية، له فى كل جو متنفَّس وفى كل نار مقتبس ، فجرى حديث السقيفة ، وتنازع القوم الخلافة ، فقال كلٌّ فنا ، وقال قولا ، وعرض بشيء . فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبى بكر إلى على وجواب علىّ له ومبايعته إياه عقيب تلك الرسالة ؟

فقال الجماعة : لا، والله ! فقال : هى والله من درر الحقائق المصونة ، ومخبآت الصناديق المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلبى فى وزارته ، فكتبها عنى فى خلوة بيده وقال : لا أعرف فى الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين، وإنها لتدل على علم وحلم، وفصاحة وفقاهة وبعد غور ، وشدة غوص . فقال له واحد من القوم : أيها القاضى ! فلو أتممت المنة علينا بروايتها سمعناها ورويناها عنك ، فنحن أوعى لها من المهلبى وأوجب ذماماً عليك » الخ .

٤ — وحديث السقيفة حديث ممتع ، والذى يهمنا قبل تحليله هو إيراد ما كتبه ابن أبى الحديد فى التعقيب عليه ، لأن لذلك أهمية عظيمة فى إعطاء ما نحن بصدده من إنشاء

---

(١) ورد حديث السقيفة فى شرح ابن أبى الحديد لنهج البلاغة ص ٥٩٢ ج ٢ وأثبته القلقشندى فى صبح الأعشى ص ٢٣٧ ج ١ وبين النصين اختلاف قليل .

القصص التاريخى صبغة واقعية ، ويتلخص نقد ابن أبى الحديد فى أن حديث السقيفة هذا شبيه بكلام التوحيدى ومذهبه فى الخطابة والبلاغة ، وأن خطب عمر وأبى بكر ورسائلهما خالية من البديع ومن صناعة المحدثين الظاهرة فى ذلك الحديث ، وأن الذى يتأمل كلام التوحيدى يعرف أن ذلك الحديث خرج من معدنه ، ويدل عليه أنه أسنده إلى القاضى أبى حامد المروذى وهذه عادته فى كتابه (البصائر) يسند إلى أبى حامد كل مايريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه إذا كان كارهاً لأن ينسب إليه ، ومما يؤيد أنه مصنوع أن المتكلمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة والأشعرية وأصحاب الحديث وكل من صنف فى علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم كلمة واحدة من هذه الحكاية . ولقد كان الرضى يلتقط من كلام علىّ اللفظة الشاردة والكلمة المفردة الصادرة عنه فى معرض التألم والتظلم فيحتج بها ويعتمد عليها وكأنما ظفر بملك الدنيا ويودعها كتبه وتصانيفه ، فأين كان الرضى من هذا الحديث ؟ وكان الباقلانى شديداً على الشيعة عظيم العصبية على علىّ ، فلو ظفر بكلمة من كلام أبى بكر وعمر فى هذا الحديث لملأ الكتب والتصانيف بها وجعلها هِجِّيراه ودأبه ، ثم قال : « والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق فى علم البيان ومعرفة كلام الرجال ، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السير وأقل أنس بالتواريخ»[١] .

٥ — وخلاصة الحادث الذى وضع من أجله هذا الحديث أن أبا بكر لمــا استقامت له الخلافة بين المهاجرين والأنصار بلغه عن على تلكؤ وشماس[٢] فكره أن يتمادى الحال فتبدو العورة وتتفرق ذات البين ، فدعا إليه أبا عبيدة فى خلوة ، وكان عنده عمر بن الخطاب، وأوصاه بأن يتلطف فى دعوة على إلى مبايعة أبى بكر وإعلان الرضا عن خلافته ، فلما هم أبو عبيدة بالانصراف لمعالجة الأمر الذى نُدِب له تبعه عمر فزوده بآيات من التلطف يلقى بهـا ابن أبى طالب ، فلما وصل إليه بثه ماتلقاه من أبى بكر وعمر : فرق قلب على واعتذر عن تخلفه بحزنه البليغ على فقد الرسول . ثم عاد أبو عبيدة فبلغ عمر نجاح مسعاه . وفى اليوم التالى ذهب علىّ إلى

---

(١) ص ٥٩٧ ج ٢ شرح نهج البلاغة .
(٢) التلكؤ : الإبطاء والاعتلال . والشماس : النفور .

المسجد فاخترق الجماعة و بايع أبا بكر ، ثم استأذن للقيام وتبعه عمر مكرما له مستأثراً لما عنده .

تلك خلاصة القصة . ولكن أهمية الحديث ترجع إلى مافيه من الصور الفنية التى تأنق التوحيدى فى صوغها كل التأنق . وانظر ما وصف به أبو بكر بوادر الشر المخوف الذى يهدد كيان المسلمين لو طال الشقاق (١) :

« امض إلى علىّ واخفض له جناحك ، واغضض عنده صوتك ، واعلم أنه سلالة أبى طالب ، ومكانُه ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم ! — مكانُه . وقل له : البحر مَغرقة ، والبر مَفرقة ، والجو أكلف ، والليل أغدف ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رءوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قداحة الشر ، والضغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة ثقوب العداوة . وهذا الشيطان متكئ على شماله ، متحيل بيمينه ، نافخ خصييه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، و يدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ... يوسوس بالفجور ، و يدلى بالغرور ، و يمنى أهل الشرور ... ولابد الآن من قول ينفع إذا أضر السكوت وخيف غبه . ولقد أرشدك من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحيا مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك . ما هذا الذى تسول لك نفسك ، و يدوى به قلبك ، و يلتوى عليه رأيك ، و يتخاوص دونه طرفك و يسرى فيه ظعنك ، و يتراد معه نفسك ، وتكثر عنده صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ؟ أعجمة بعد إفصاح ؟ أتلبيس بعد إيضاح ؟ أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ . . . نك والله جد عارف باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، و بخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا، هجرة لله عز وجل ، ونصرة لدينه ، فى زمان أنت فيه فى كِنّ الصبا ، وخدر الغرارة ، وعنفوان الشبيبة ، غافل عما يشيب و يريب ، لاتعى ما يراد و يشاد ،

---

(١) خدع جماعة من وزارة المعارف المصرية فظنوا هذه المحاورة صحيحة النسب فاختاروا منها قطعة نسبوها الى أبى بكر فى كتاب المحفوظات للمدارس الثانوية .

ولا تحصل ما يساق و يقاد ، سوى ماأنت جار عليه إلى غايتك التي إليها عدل بك ، وعندها حط رحالك ، غير مجهول القدر ، ولامجحود الفضل . ونحن فى أثناء ذلك نعانى أحوالا تزيل الرواسى ، ونقاسى أهوالا تشيب النواصى ، خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، نتجرع صعابها ، ونشرج عبابها ، ونحكم آساسها ، ونبرم أمراسها ، والعيون تحدج بالحسد ، والأنوف تعطس بالكبر ، والصدور تستعر بالغيظ ، والأعناق تتطاول بالفخر ، والشفاه تشحذ بالمكر ، والأرض تميد بالخوف ، لاننتظر عند المساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا ندفع فى نحر أمر إلا بعد أن نحسو الموت دونه ، ولا نبلغ مراداً إلا بعد الإياس من الحياة عنده » الخ .

وهناك صفحة فى غاية من الجودة كتبت على لسان عمر ، رضى الله عنه ، أوصى أباعبيدة أن يواجه بها علياً كرم الله وجهه ، وصفحة أخرى خاطب بها عمر علياً حين تلاقيا بعد البيعة ، وهذه وتلك من آيات النثر الفنى .

والحديث طويل . ولا حاجة إلى الإفاضة فى تحليله فليرجع إليه القارىء إن شاء .

وهذ النمط من تنسيق الأخبار معروف عن التوحيدى ، وما نحسبه ألف كتابا إلا أنطق الناس فيه بفنون من الأحاديث فيها متعة للعقل والذوق والإحساس[1] .

---

(١) ضاق المجال عن تحليل المناظرات التى دونها التوحيدى ، ويكفى أن يعرف القارىء أن تدوين المناظرات كان من أهم مايمتاز به القرن الرابع ، ونحن نرشد الى هذا العنصر من النثر الفنى ليتعقبه من شاء ، فقد يطول القول إن مضينا ندرس كل مااهتم به كتاب ذلك العهد من فنون البيان

١٠ — قصص الببغاء [١]

١ — أما الببغاء فكاتب شاعر، كان فى ريعان شبابه متصلا بسيف الدولة، ثم تنقلت به الأحوال بعد وفاة صاحبه، فورد الموصل و بغداد ونادم بهما الملوك والرؤساء. وظل ينعم تارة و يشقى تارة أخرى حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨.

وليس لدينا من النصوص ما يكفى لبيان الاتجاهات الفنية التى كانت تغلب على الببغاء فى القَصَص. ولكن يظهر أنه كان معروفا بهذا الفن، حتى استطاع الصابى أن يخاطبه بقوله:

فحوشيت يا قس الطيور فصاحةً ... إذا أنشد المنظوم أو درس القصص [٢]

٢ — وقد بقى لنا من قصصه حكاية ذكر الثعالبى أنه لم يسمع أظرف منها فى فنها، ولا ألطف ولا أعذب ولا أخف [٣]. ونحن كذلك نشهد بأننا لم نقرأ فى الأدب العربى أظرف من تلك الحكاية، وهى تمثل الحرية التى كان يمرح فى ظلالها رجال الأدب فى ذلك الحين ولغة الببغاء فى تلك القصة سهلة مقبولة لا يظهر فيها تصنع ولا تكلف، وهو لا يستعمل السجع إلا حيث يقضى السياق بالتأنق والتنميق، فالسجع عنده حلية فنية يلجأ إليها حين يريد تصوير سمة من سمات الجمال، أو نزعة من نزعات الوجدان. ولو سلك الأدباء مسلك الببغاء فى ذلك القَصَص الغرامى لسلمت اللغة العربية من الجفاف الذى غلب عليها فى النثر ووقف به موقف الجمود. والشعر من هذه الناحية أسلس وأرق، فقد كان للشعر ما يشبه التقاليد المرسومة التى تبيح التحدث عن هفوات الصبا ونزوات الشباب. ولعل هذا كان من أسباب ظهور الشعر على النثر فى البلاغة العربية، فإنا نرى للشعر المكان الأول فى الأندية والمحافل

---

(١) راجع ترجمة أبى الفرج الببغا وتحليل رسائله فى الجزء الثانى ص ٢٢٦ — ٢٤٢ من هذا الكتاب. (٢) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة الدهر (٣) ج ١ ص ١٧٤

والمواسم . ونراه كذلك أول ماتتوجه إليه عناية الناقدين ، إذ كان أقرب ألوان الأدب إلى النفوس ، وأحبها إلى القلوب ، لاهتمام أصحابه بالحديث عن أهواء الناس وشهواتهم وظنونهم فى عالم الجد وعالم المجون ، ولكن النثر لما قُصِر قديما على الشئون الجدية من علم وأدب وسياسة ودين كان نصيبه أن يحبس على فئة قليلة هى الجمهور المحدود جمهور الساسة والعلماء والهداة ، وهو جمهور له قيمته وخطره ، ولكنه لقلته لم يستطع فى أى عصر أن يذيع فنا من الفنون الأدبية التى يموت أصحابها إن لم تغز فى وقت واحد ساكنى القصور والأكواخ .

ومن أجل هذا كانت الأقاصيص فى النثر من أهم ما يمتاز به الأدب فى القرن الرابع ، ففى كتابات بديع الزمان والتوحيدى والتنوخى والببغا والأزدى نماذج فنية فيها فتن للعقول والقلوب والأهواء والأحاسيس ، لاتقل أثراً فى أنفس قارئيها وسامعيها عما يقدم الشعر البليغ من صنوف اللذة والإمتاع .

قال أبو الفرج : تأخرت بدمشق عن سيف الدولة رحمه الله مكرهاً وقد سار عنها فى بعض وقائعه . وكان الخطر شديداً على من أراد اللحاق به من أصحابه ، حتى أن ذلك كان مؤديا إلى النهب وطول الاعتقال ، واضطررت إلى إعمال الحيلة فى التخلص والسلامة بخدمة من بها من رؤساء الدولة الإخشيدية ، وكان سنى فى ذلك الوقت عشرين سنة، وكان انقطاعى منهم الى أبى بكر بن على بن صالح الرز باذى لتقدمه فى الرياسة ومكانه من الفضل والصناعة ، فأحسن تقبلى و بالغ فى الإحسان بى وحصلت تحت الضرورة فى المقام فتوفرت على قصد البقاع الحسنة والمتنزهات المطرفة تسليا وتعللا ، فلما كان فى بعض الأيام عملت على قصد دير مروان وهذا الدير مشهور الموقع فى الجلالة وحسن المنظر ، واستصحبت بعض من كنت آنس به وتقدمت لحمل ما يصلحنا وتوجهنا نحوه فلما نزلناه أخذنا فى شأننا وقد كنت اخترت من رهبانه لعشرتنا من توسمت فيه رقة الطبع، وسجاحة الخلق ، حسبما جرى به الرسم فى غشيان الأعمار وطرق الديرة من التظرف بعشرة أهلها والأنس بسكانها، ولم تزل الأقداح دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة الى أن فض اللهو ختامه ، ولوّح السكر لصحبى أعلامه، وحانت

منى نظرة إلى بعض الرهبان فوجدته إلى خطابى متوثباً ، ولنظرى إليه مترقباً ، فلما أخذته عينى أكب يزعجنى بخفى الغمز ، ووحى الإيماء ، فاستوحشت لذلك وأنكرته ونهضت مجلا واستحضرته ، فأخرج إلى رقعة مختومة وقال لى : قد لزمك فرض الأمان فيما تقتضيه هذه الرقعة ، وسقط زمام كاتبها فى سترها بك عنى . ففضضتها فإذا فيها بأحسن خط وأملحه وأقرأه وأوضحه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) لم أزل فيما تؤديه هذه المخاطبة يا مولاى بين حزم يحث على الانقباض عنك ، وحسن ظن يحض على التسامح بنفيس الحظ منك، إلى أن استنزلتنى الرغبة فيك ، على حكم الثقة بك ، من غير خبرة ، ورفعت بينى و بينك سجف الحشمة فأطعت بالانبساط أوامر الأنسة وانتهزت فى التوصل إلى مودتك فائت الفرصة . والمستماح منك جعلنى الله فداك زورة أرتجع بها ما اغتصبتنيه الأيام من المسرة مهنأة بالانفراد إلا من غلامك الذى هو مادة مسرتك ، وماذاك عن خلق يضيق بطارق ، ولكن لأخذى بالاحتياط على حالى . فإن صادف ماخطبته منك أيدك الله قبولا ولديك نفاقا فمُنْيَةٌ غفل الدهر عنها أوفارق مذهبه فيما أهداه إلىّ منها . و إن جرى على رسمه فى المضايقة فيما أوثره وأهواه ، وأترقبه من قربك وأتمناه ، فذمام المروءة يلزمك رد هذه الرقعة وسترها وتناسيها واطراح ذكرها .

و إذا بأبيات تتلو الخطاب وهى :

يا عامر العمر بالفتوة والقصـــف وحث الكئوس والطرب
هل لك فى صاحب تناسب فى الـــغربة أخلاقـــه و بالأدب
أوحشه الدهر فاســـتراح إلى قربك مستنصراً على النوب
فإن تقبلت ما أتاك به لم تشن الظن فيه بالكذب
و إن أتى الزهـد دون رغبتنا فكن كمن لم يقل ولم يجب

قال أبو الفرج : فورد على ما حيرنى ، واسترد ما كان الشراب حازه من تمييزى، وحصل لى فى الجملة أن أغلب الأوصاف على صاحبها الكتابة خطا وترسلا ونظما ، فشاهدته

بالفراسة من ألفاظه ، وحمدت أخلاقه قبل الأُختبار من رقعته ، وقلت للراهب : ويحك من هذا وكيف السبيل إلى لقائه ؟ فقال أما ذكر حاله فإليه إذا اجتمعتما . وأما السبيل إلى لقائه فتسهل إن شئت . قلت : دلّني . قال : تظهر فتوراً وتنصب عذراً تفارق به أصحابك منصرفا ، وإذا حصلت بباب الدير عدلتُ بك إلى باب خفي تدخل منه . فرددت الرقعة عليه وقلت : ارفعها ليتأكد أنسه بي وسكونه إليّ ، وعرفه أن التوفر على إعمال الحيلة فى المبادرة إلى حضرته على ما آثره من التفرد أولى من التشاغل بإصدار جواب وقطع وقت بمكاتبته . ومضى الراهب وعدت إلى أصحابى بغير النشاط الذى نهضت به فأنكروا ذلك ، فاعتذرت إليهم بشىء عرض لى واُستدعيت ما أركبه ، وتقدّمت إلى من كان معى ممن يخدم بالتوفر على خدمتهم ، وقد كنا عملنا على المبيت فأجمعوا على تعجل السكر والانصراف وخرجت من باب الدير ومعى صبى كنت آنس به وبخدمته ، وتقدمت إلى الشاكرىّ برد الدابة وستر خبرى ومباكرتى . وتلقانى الراهب وعدل بى إلى طريق فى مضيق وأدخلنى إلى الدير من باب غامض وصار بى إلى باب قلّاية(١) متميز عما يجاوره من الأبواب نظافة وحسناً فقرعه بحركات مختلفة كالعلامة ، فابتدرنا منه غلامٌ كأن البدر ركِّب على أزراره ، مهفهف الكشح مخطفُه ، معتدلُ القوام أهيفُه ، تخال الشمس برقعت غرته ، والليل ناسب أصداغه وطرته ، فى غلالة تنم على ما تستره ، وتجفو مع رقتها عما تظهره ، وعلى رأسه مجلسية مصمت فبهر عقلى ، واُستوقف نظرى ، ثم أجفل كالظبى المذعور ، وتلوته والراهب إلى صحن القلّاية فإذا أنا ببيت فضىّ الحيطان ، رخامىّ الأركان ، يضم طارقة خيش مفروشة بحصير مستعمل ، فوثب إلينا منه فتى مقتبل الشبيبة ، حسن الصورة ، ظاهر النبل والهيئة ، مترمن اللباس بزى غلامه ، فلقينى حافيا يعثر بسراويله ، واُعتنقنى ثم قال : إنما استخدمت هذا الغلام فى تلقيك ياسيدى لأجعل ما لعلك اُستحسنته من وجهه مصانعا عما تردُ عليه من مشاهدتى ، فاستحسنت اختصاره الطريق إلى بسطى وارتجاله النادرة على نفسه ، حرصاً فى تأنيسى وأفاض فى شكرى على المسارعة إلى أمره ، وأنا أواصل فى خلال سكناته المبالغةَ فى الاعتداد به . ثم قال : ياسيدى أنت مكدود بمن كان معك ، والاستمتاع بمحادثتك لايتم إلا بالتوصل

(١) القلاية : بناء كالدير .

إلى راحتك — وقد كان الأمر على ما ذكر — فاستلقيت يسيراً ، ثم نهضت فخُدمتُ فى حالتى النوم واليقظة الخدمة التى ألفتها فى دور أكابر الملوك وأجلة الرؤساء ، وأحضرنا خادم له ، لم أر أحسن منه وجهاً ، طبقاً يضم ما يتخذ للعشاء مما خف ولطف . فقال : الأكل منى ياسيدى للحاجة ، ومنك للممالحة والمساعدة ، فنلنا شيئاً ، وأقبل الليل فطلع القمر ففتحت مناظر ذلك البيت إلى فضاء أدى إلينا محاسن الغوطة وحبانا بذخائر رياضها من المنظر الجنانى والنسيم العطرى ، وجاءنا الراهب من الأشربة بما وقع اتفاقنا على المختار منه ، ثم اقتعدنا غارب اللذة ، وجرينا فى ميدان المفاوضة ، فلم يزل يناهبنى نوادر الأخبار وملح الأشعار ، ونخالط ذلك من المزح بأظرفه ، ومن التودد بألطفه ، إلى أن توسطنا الشراب فالتفت إلى غلامه وقال له : يامترف إن مولاك ما ادخر عنا السرور بحضوره ، وما يجب أن ندخر ممكنا فى مسرته ، فامتقع وجه الغلام حياء وخفراً ، فأقسم عليه بحياته وأنا لا أعلم مايريد ، ومضى فعاد يحمل طنبوراً وجلس فقال لى : يا سيدى تأذن لى فى خدمتك ؟ فهممت بتقبيل يده لما تداخلنى من عظم المسرة بذلك ، فأصلح الغلام الطنبور وضرب وغنى :

يا مالكى وهو ملكى وسالبى ثوب نسكى
نزه يقين الهوى فيـك عن تعرض شك
لولاك ما كنت أبكى إلى الصباح وأبكى

فنظر إلىّ الغلام وتبسم فعلمت أن الشعر له ، فكدت والله أطير طربا وفرحا بملاحة خلقه ، وجودة ضربه ، وعذوبة ألفاظه ، وتكامل حسنه ، فاستدعيت كبيراً فأحضرنا الخادم عدة قطع من فاخر البلور وجيد المحكم فشربت سروراً بوجهه ، وشرب بمثل ماشربت ، ثم قال لى : أنا والله يا سيدى أحب ترفيهك وأن لا أقطعك عما أنت متوفر عليه ، ولكن إذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بد أن تشى ليلتنا بشىء يكون لها طرازاً ، ولذكرها معلما ، فجذبت الدواة وكتبت ارتجالا وقد أخذ الشراب منى :

وليلة أوسعتنى حسنا ولهواً وأنسا

ما زلت ألثم بدراً بها وأشرب شمسا

إذ أطلع الدير سعدا لم يبقِ مذ بان نحسا

فصار للروح منى روحا وللنفس نفسا

فطرب على قولى (ألثم بدراً وأشرب شمساً) وجذب غلامه فقبله وقال: ما جهلت مايجب لك ياسيدى من التوقير و إنما اعتمدت تصديقك فيما ذكرته، فبحياتى إلا فعلت مثل ذلك بغلامك، فاتبعت إيثاره خوفا من احتشامه، وأخذ الأبيات وجعل يرددها ثم أخذ الدواة وكتب إجازة لها:

ولم أكن لغريمى والله أبذل فلسا

لو ارتضى لىَ خصمى بدير مران حبسا

فقلت إذاً والله ما كان أحد يؤدى حقا ولا باطلا! وداعبته فى هـذا المعنى بما حضر، وعرفت فى الجملة أنه مستتر من دين قد ركبه وقال لى: قد خرج لك أكثر الحديث فإن عذرت و إلا ذكرت لك الحال لتعرفها على صورتها، فتبينت ما يؤثره من كتمان أمره، فقلت له يا سيدى كلٌّ ما لا يتعرف بك نكرة. وقد أغنت المشاهـدة عن الاعتذار، ونابت الخبرة عن الاستخبار، وجعـل يشرب و ينحب علىّ من غير إكراه ولاحث ولا استبطاء إلى أن رأيت الشراب قد دب فيه، وأكب على مجاذبة غلامه، والفطنة تثنيه فى الوقت بعد الوقت، فأظهرت السكر وحاولت النوم، وجاء الغلام ببردعة ففرشها لى بإزاء بردعته فنهضت إليها وقام يتفقد أمرى بنفسه، فقلت له إن لى مذهبا فى تقريب غلامى منى، واعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذه الحال فى غلامه، فتبسم وقال لى بسكره: قد جمع الله لك شمـل المسرة كما جمعه لى بك. وأظهرت النوم وعاد يجاذب غلامه بأعـذب لفظ، وأحلى معاتبة، و يخلط ذلك بمواعيد تدل على سعة وانبساط يد، وغلامه تارة يقفل يده، وتارة فمه، وغلبتنى عيناى إلى أن أيقظنى هواء السحر فانتبهت وهما متعانقان بما كان عليهما من اللبـاس، فأردت توديعه، وحاذرت انتباهه وانزعاجه،

فخرجت ولقينى الخادم يريد إيقاظه وتعريفه انصرافى ، فأقسمت عليه أن لا يفعل ووجدت غلامى قد بكر بما أركبه كما كنت أمرته ، فركبت منصرفاً وعاملا على العود إليه ، والتوفر على مواصلته ، وأخذ الحظ من معاشرته ، ومتوهما أن ما كنت فيه منام لطيبه وقرب أوله من آخره ، واُعترضتنى أسباب أدت إلى اللحاق بسيف الدولة فسرت على أتم حسرة لما فاتنى من معاودة لقائه[١] . ولم أزل على أتم قلق وأعظم حسرة واُشتد تأسفى على ما سلبته من فراق الفتى ، لاسيما ولم أحصل منه على حقيقة علم ولا يقين خبرة يؤديانى إلى الطمع فى لقائه إلى أن عاد سيف الدولة إلى دمشق وأنا فى جملته فما بدأت بشىء قبل المصير إلى الراهب وقد كنت حفظت اسمه فخرج إلىّ مرعوبا وهو لا يعرف السبب فلما رآنى اُستطار فرحا وأقسم لايخاطبنى إلا بعد النزول والمقام عنده يومى ذلك ، ففعلت فلما جلسنا للمحادثة قال : مالى لا أراك تسأل عن صديقك ! قلت والله مالى فكر ينصرف عنه ، ولا أسف يتجاوز ماحرمته منه ، ولا سررت بعودى إلى هذه البلدة إلا من أجله، ولذلك بدأت بقصدك فاذكر لى خبره، فقال لى : أما الآن فنعم ! هذا فتى من المادرائيين جليل القدر ، عظيم النعمة ، كان ضمن من سلطانه بمصر ضياعاً بمال كثير ، فخاش[٢] به ضمانه لقعود السعر ، وأشرف على الخروج من نعمته ، فاستتر ، ولما اشتد البحث عنه خرج متخفيا إلى أن ورد دمشق بزى تاجر فكان استتاره عند بعض إخوانه ممن أخدمه فأتى عنده يوما إذ ظهرلى وقال لصديقه إنى أريد الانتقل إلى هذا الراهب إن كان على مأموناً فذكر له صديقه مذهبى ، وأظهرت السرور بما رغب فيه من الأنس بى وأنا لاأعرفه ، غير أن صديقى قد أمرنى بخدمته وحصل فى قلايتى فواصل الصوم فلما كان بعد أيام جاءنا الرسول من عند صديقنا ومعه الغلام والخادم وقد لحقا به ومعهما سفاتج[٣] وعليهما ثياب رثة فلما نظر إلى الغلام قال : يا راهب قد حل الفطر، وجاء

---

(١) أسقطنا من هذا الموضع قصيدة رائية نظم بها الببغا ما سلف من حوادث هذه القصة . فليراجعها القارىء فى ص ١٨٠ ج ١ من يتيمة الدهر .

(٢) خاش : من الخوش وهو النقص ، وقد يكون الأصل «خاس بضمانه» أى غدر .

(٣) السفاتج سندات مالية .

العيد ! ووثب إليه فاعتنقه وجعل يقبل عينيه و يبكى ، ووقف على السفاتج فأنفذها مع درج رقعة منه إلى صديقه .

فلما كان بعد يومين حمل إليه ألفى دينار وقال له ابتع لنا ما نستخدمه فى هـذه الضيعة فابتاع آلة وفرشاً ، ولم يزل مكباً على ما رأيت إلى أن ورد عليه بالبغال والآلات الحسنة ، وكتب أهله باجتماعهم إلى صاحب مصر وتعريفهم إياه الحال فى بعده عن وطنه لضيق ذات يده عما يطالب به ، والتوقيع بحطيطة المال عنه مقترن بالكتب ، فلما عمل على المسير قال لغلامه سلم جميع مابقى معك من نفقتنا إلى الراهب ليصرفه فى مصالح الدير إلى أن نواصل تفقده من مستقرنا . وسار وماله حسرةٌ ولا أسفٌ إلا عليك يقطع الأوقات بذكرك ولا يشرب إلا على ما يغنيه الغلام من شعرك . وهو الآن بمصر على أفضل الأحوال وأجلها ما يبخل بتفقدى ولا يغبُّ برى .

فتعجلت بعض السلوة بما عرفت من حقيقة خبره ، وأتممت يومى عند الراهب وكان آخر العهد به .

١١ - أحمد بن يوسف المصرى

١ — فى أوائل سنة ١٩١٥ أرشدنا الأستاذ حسنين مخلوف إلى قراءة كتاب المكافأة لأبى جعفر أحمد بن يوسف المصرى ، فاقتنيته وقرأته ، ولكنى وجدته كتاباً عاديّا لا روح فيه. ثم عدت إليه فى هذه الأيام، صيف سنة ١٩٣٠ ، وأنا فى باريس ، فدهشت لبعد مابين الإحساسين : شعورى بتفاهة الكتاب سنة ١٩١٥ وشعورى بنفاسته سنة ١٩٣٠ ، ورجعت أختبر نفسى وأمتحنها لأعرف السر فى هذا البعد الهائل بين تقديرين مختلفين أشدّ الاختلاف نحو كتاب واحد ، فانتهيت إلى أن الكتاب هو هو بالطبع لم يتغير لا فى وضعه ولا فى أسلوبه ، ولكنى أنا الذى تغيرت ، ففى سنة ١٩١٥ كنت من المعجبين المفتونين بأسلوب بديع الزمان والخوارزمى والصابى وابن العميد ، وكان كتاب الصنعة المتأنقون أقرب الناس إلى نفسى ، وأحبهم إلىّ ، وأبعدهم تأثيراً فى تكوين مشاعرى الفنية والأدبية ، فقد كنت أحفظ عن ظهر قلب مقامات بديع الزمان ومقامات الحريرى ونهج البلاغة ومقادير عظيمة جداً من مختار ما كتب الخوارزمى والصاحب بن عباد وابن زيدون ومن إليهم من الكتاب الذين أرادوا أن يكون النثر فناً خالصاً يسامى الشعر ويباريه فى الزخارف والتهاويل والوزن والقافية ، لأن أكثر النثر المصنوع مقفّى موزون ، وإن لم يجر وزنه وتقفيته على وتيرة واحدة ، وكنت أحفظ كذلك أكثر ما فى زهر الآداب والأمالى والعقد الفريد من خطب الأعراب وأحاديثهم وحكمهم وفقراتهم المأثورة فى الأوصاف والتشبيهات ، فاُطمأنت نفسى إلى أن النثر الجيد هو النثر الذى يعنّى الكاتب ويشقيه فى اختيار الألفاظ والتعابير ، وأن الكاتب البليغ هو الصّنَع الفنان الذى ترى جهده وصنعه وفنه فى كل لفظة وكل جملة بحيث ترى فى رسالته أو خطبته ما تراه فى الأعمال الفنية الدقيقة من مظاهر البراعة والحذق ودقة النظم ومتانة التراكيب . من أجل ذلك رأيت فى كتاب المكافأة يوم ذاك أثراً ينقصه الفن ويبدو هامداً لا حسّ فيه ولا روح .

٢ — ثم شاء الله أن أتعمق فى دراسة الأدب العربى والأدب الفرنسى ، وأن أُقبل بنوع خاص على ما كتب النقاد الفرنسيون الذين أطالوا القول فى دراسة أسرار البلاغة مقرونة بدرس نفوس الكتاب وسرائرهم وضمائرهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وألوان حياتهم ، فعرفت أن هناك جمالاً غير جمال الصنعة البراقة التى تهيج الحواس ، هناك جمال النفوس الصافية ، والأرواح الملهمة والقلوب الحساسة ، التى تفيض على العالم من فيض الحكمة والعقل ، وتسكب على الوجدان ما يوقظه ويحييه من نمير العطف والحنان . وعرفت أن النثر قد يكون مصنوعاً أدق الصنع من دون أن نرى فيه أثراً للسجع والجناس والتورية والمطابقة والازدواج ، وأن ما يسمى بالمحسّنات البديعية ليس كل شيء فى صناعة الكتابة ، فقد يشقى الكاتب فى وضع الجملة وصياغة الأسلوب من غير أن يحس القارئ أنه أمام نثر مصنوع . وهذا النوع من الصنعة أدل على الحذق والمهارة وقوّة الطبع وعبقرية الخيال ، إن هذا النوع من الصنعة يقنع القارئ بأنه أمام نثر مطبوع لا أثر فيه للجهد والعنت فى تخير الألفاظ ورصف التراكيب ، ومَثَله مَثَل المناظر الطبيعية ، فقد يقف المشاهد أمام زهرة مبرقشة مزخرفة تغلب فيها الخطوط والتصاوير ، أو تُعرض عليه سمكة ملونة تلويناً دقيقاً يزيغ البصر ويثير الحس ، ثم لا يحسب الإنسان أن فى هذه السمكة أو تلك الزهرة فناً وصنعة ، لأنه يظنها هكذا خلقت ، ولا يدرى أن الطبيعة صنعتها عن عمد وذكاء . وكذلك نقرأ الآثار الأدبية التى تنقصها الصنعة الظاهرة فنحسبها مطبوعة ، وذلك خطأ مبين ، فكل شاعر يصنع قصيدته ، وكل كاتب يصنع رسالته ، وكل خطيب يصنع خطبته ، والفرق بين المصنوع والمطبوع أن الأوّل يبدو فيه أثر التكلف ومحاولة الإبداع ، أما الثانى فيصدر عن طبيعة سخية لبقة تعوّدت الإتقان والإجادة ، بحيث يظن أنها تبدع ما تبدع بلا كلفة ولا عناء .

٣— غير أنه ينبغى أن نقيد أن هناك جمهورين من القرّاء : جمهور المبتدئين الذين تروقهم الصنعة الظاهرة ولا يكادون يفهمون غرائب الصنعة الدقيقة ، ولهذا الجمهور الساذج كتاب يحسنون التلوين والتزيين والتهويل مَثَلهم مَثَل الباعة الذين يعرضون على الجمهور الساذج طرائف الثياب المخططة المبهرجة وهى ثياب ظريفة خلابة لا تكلف صانعيها جهداً كبيراً ، ولكنها

تروق العامة وتفتنهم وتبدو لهم غاية فى التجويد والإبداع . وهناك الجمهــور الثانى جمهـور المثقفين ثقافة أدبية عالية ، وهؤلاء يفهمون دقائق الفنون الأدبية ، ويفرقون بين الصنعة السطحية والصنعة الخفية التى لا يجيدها إلا الأفذاذ القلائل من فحول الـكتاب . هذا الجمهور المثقف هو الذى يُشقى الـكاتب المتفوّق ويحمله على مراعاة الذوق الأدبىّ والحاسة الفنية ، لأنه يعرف كيف تقع الـكلمة من الـكلمة ، وكيف تؤدّى الجملة ما وضعت له تأدية صحيحة لا نقص فيها ولا إسراف . والـكاتب البليغ حقاً هو الذى يضع الألفاظ على قدود المعانى وضعاً رشيقاً مهندماً يفتن العقل والذوق بحيث لا يود القارىء المثقف لو حذفت لفظة أو زيدت لفظة ، ومَثَل هذا الـكاتب مَثَل الصيدلىّ البارع الذى يحسن تركيب الدواء ، فهو شخص مسئول يركب أجزاء الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطارة و بعضها بالميزان ، وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء ، أو زيد عليه جزء ، لأصبح ضاراً أو غير مفيد. ومَثَل الـكاتب البليغ مع جمهوره المثقف مَثَل التاجر المتأنق الذى يتخير أجمل الملابس وأدقها صنعاً ، فقد تبدو بضاعته عادية لا رونق فيهـا عند من لا يفرقون بين المركب والبسيط . ولـكنها تظهر نفيسة ثمينة عند من ألفت عيونهم وأذواقهم دقائق النسج ، وغرائب الصنع . ومِثل هذا التاجر خليقٌ بأن يرضى بالعدد القليل من عشاق الذخائر والأعلاق ، فإن فهم النفائس يحتاج إلى ثقافة خاصة لا تتاح لـكل مخلوق . وكذلك الـكاتب المبدع والفنان الذى يدق فنه وتسمو صنعته على كثير من العقول والأذواق يجب أن يطمئن إلى أن جمهوره معدود الأفراد فليس له أن ينتظر جماهـير كثيرة تصفق له وتستعيده وتشيد بذكره فى الأندية والأسواق ، وإلا عاد رجلا عاميا لا إباء له ولا عزة ولا كبرياء ، فإن الخرز مهما راجت سوقه وصنعت منه ملايين العقود لن يصل فى أى ذهن إلى مساماة اللؤلؤ المـكنون الذى كتب عليه الخمول وظل سجين الأصداف ، وفى ذلك عزاء لمن أفردتهم عبقريتهم ، وأقصتهم عن الجماهير ، فعاشوا فى أوطانهم غرباء .

٤ — كتاب المـكافأة طبع سنة ١٩١٤ بمطبعة الجمالية بالقاهرة بعناية الأديب الفاضل أمين عبد العزيز أفندى الذى ظفر بنسخة منه من أحد باعة الـكتب بنابلس وقد أهداه الى أستاذنا

البحاثة أحمد زكى باشا ، وهو يقع فى ١٢٨ صفحة بالقطع الكبير وعليه بعض تعليقات وفيه أغلاط كثيرة يمكن استدراكها لو طبع مرة ثانية . أما المؤلف فهو أبو جعفر أحمد بن يوسف المصرى ، وكان أبوه يوسف بن إبراهيم يكنى أبا الحسن . وكان من جلة الكتاب بمصر ، قال ياقوت : ولا أدرى كيف كان انتقاله إليها عن بغداد . مات أحمد بن يوسف نحو سنة ٣٤٠ ﻫ وله من التصانيف : سيرة أحمد بن طولون وسيرة هارون ابن أبى الجيش ، وأخبار غلمان بنى طولون ، وكتاب المكافأة ، وكتاب أخبار الأطباء . الخ . وكان حسن المجالسة ، جيد الكتابة ، حسن الشعر ، قد خرج من شعره أجزاء ، حدثنا عن نفسه قال :

« كان أبو الفياض سوار بن شراعة الشاعر صديقاً لى ، ومائلا إلىّ . فلما اعتزم على الرجوع إلى العراق سألنى أن أكتب له شيئاً من شعرى فكتبت له مقدار خمسين ورقة . وكان يستحسنه ويعجب به ، فصار إلى بغداد وعرضه على جماعة الأحرار ، وأحسن وصفى لهم بسلامة مذهبه وطهارة نيته . ودخل محمد بن سليمان مصر وقد رد البريد بها إلى أبى عبيد الله أحمد بن صالح ، فسأل عند دخوله إياها عن أحمد بن يوسف فأحضر أحمد بن يوسف ، كاتباً كان لأحمد بن وصيف ولابن الجصاص بعده ، فقال له : تعرف أبا الفياض ؟ قال : لا : فقال لهم : ليس هذا الرجل الذى طلبت ، فأحضرت ، فلما رآنى استشرف إلىّ وقال : تعرف أبا الفياض؟ فقلت : ذكرك الله وإياه بكل صالحة ! نعم ، وكان خلاًّ لى . فقال : هل أنشدك من شعره :

ظللنا بها نستنزل الدن صفوهُ فينزل أقباسا بغير لهيب

فقلت : لا ياسيدى ! ولكنى أنشدته إياه من شعرى ، فضحك وقال : والله لقد اشتقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك »(١) .

ونحن نأسف لأن ضاع شعر أحمد بن يوسف الذى كان ينقل إلى مصر سكان العراق .

٥ — كتاب المكافأة مصدر عظيم من مصادر الأدب والتاريخ ، نعرف منه اتجاه العقول وسيرة الناس فى مصر فى أواخر القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع . والمصريون

(١) المكافأة ص ٤٤ و ٤٥

لذلك العهد ، كما وصفهم صاحب المكافأة ، كانوا يقاسون ألواناً من الظلم والاضطهاد . وكانوا فى أنفسهم مزيجا من العرف والنكر ، والخير والشر ، والغدر والوفاء، فقد كان فيهم المحسنون والمتصدقون ، كما كان فيهم اللصوص وقطاع الطريق . وهذه الحال تذكر بما كنت أسمع فى طفولتى من أخبار المناسر التى كانت تبيِّت الناس فتنزل عليهم فى هدآت الليل وهم يديرون السواقى فى أطراف الحقول . واللص المصرى فى كتاب المكافأة هو نفسه اللص المصرى الذى كانت أخباره متعة السامرين إلى عهد قريب ، فهو رجل فاتك جرىء نهاب سفاك، ولكنه مع ذلك رجل ذو مروءة وشهامة يفى بالعهد ولا ينقض الميثاق . واللصوص فى مصر كانت لهم تقاليد تشبه تقاليد الصعاليك من عرب الجاهلية . فالصعاليك كانوا فتيانا ذوى بأس شديد يسوءهم أن تقسم الأرزاق بين الناس قسمة جائرة ، وأن تكثر الفروق بين الأغنياء الذين يجدون ولا يشتهون ، و بين الفقراء الذين يشتهون ولا يجدون ، فكانوا لذلك ينظمون جهودهم ، و يغيرون على ماتملك الأغنياء البخلاء ، من إبل وشاء ، وصاحب المكافأة نفسه يطلق على اللصوص كلمة صعاليك ، كأنه كان يلمح مافى طباع المصريين الناهبين من معنى الثورة على توزيع الأملاك . ولننظر كيف يقول :

« حدثنى محمد بن صالح الغورى قال : كانت لى بضاعة أعود بفضلها على شملى ، فافترقت فى معاملات فى الصعيد وخرجت إلى من عاملته فجمعتها ، وكان مقدارها خمس مائة دينار ، وخرجت أريد الفسطاط فى رفقة كثيرة الجمع ، فلما كان منتصف طريقنا وافى جمع من الصعاليك فسلب الناس جميعاً ودهشت ، فرأيت منهم شابا حسن الصورة فقلت له : والله ما أملك غير هذا الكيس فارفعه لى عندك . فقال : وأين بيتك بالفسطاط ؟ فقلت فى دور عباس بن وليد . فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد الغورى . قال امض لشأنك . وجاء منهم من قلع ثيابى وسراويلى ، وانصرفوا عنا ، ولم أزد أن سوغت واحدا منهم جميع ما كان معى ، ودخلنا إلى الفسطاط ونحن فقراء . فرجع كل واحد منهم إلى ماتخلف له و بقيت ليس معى درهم أنفقه . و إنى لجالس على درجة المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة حتى رأيت رجلا قد وقف بى ، فقال لى : هاهنا منزل محمد الغورى ؟ قلت أنا هو . ولا والله مااهتديت إلى الرجل

الذى أعطيته المال لأنه كان عندى أول مال ذاهب ، فقال لى : عنّيتى ؛ وأخرج الكيس فدفعه إلى ، فردّت علىّ جدّتى وتطعمت الحياة»[١] .

وتنتهى القصة بأن الغورى دعا اللص الى المبيت عنده ، وأنه مضى فى الصباح الى بعض القواد يخبره بحديث ذلك اللص الشريف، وأن القائد قال له : الطف لى فيه ، فوالله لأنوهن باسمه ، ولأكافئنه عنك ، قال : « فرجعت اليه فأخبرته ، فوالله ما ارتاع ولا اضطرب ، ومضى معى ، فأحسن تلقيه ، وخلع عليه ، وصيره سيارة لعمله ، وضم اليه عدة وافرة » .

وللقارئ أن يعيِّن المعانى النفسية فى الفقرة الأخيرة ، خصوصا عبارة « فرجعت اليه فأخبرته فوالله ما أرتاع ولا أضطرب ومضى معى» فإنها تدل على شهامة ذلك اللص ، وإيمانه بقوة شخصيته ، وجدارته بالتقدم الى من يدعوه من كبار القواد .

٦ — أسلوب أحمد بن يوسف يستحق الدرس والنقد ، لأن هذا الكاتب كان فنانا يضع اللفظة فى الموضع الذى لايليق بها غيره ولا تستقر فى مكان سواه . وهو كاتب مقتصد لايسجع ، ولا يوازن بين الكلمات ، ولايزاوج بين الجمل ، كأكثر معاصريه . ولكن هذا الاقتصاد كثير التكاليف : فمن الصعب أن يصل الكاتب إلى غرضه فى عبارات موجزة خالية من شوائب الإسهاب والإطناب ، وأسلوبه مع هذا الاقتصاد شائق أخاذ يغلب عليه الفن الجميل ، ومن العجيب أن هذا الرجل أملك الناس لنفسه وأكثرهم سلطانا على قامه ، فهو يتحدث عن أبيه ، ويتحدث عن وقائعه الشخصية ، بنفس الأسلوب والروح الذى يتحدث به عن قوم آخرين . وكان فى مقدوره — لوكان ممن يأخذهم الزهو والعُجْب والكبرياء — أن يطيل القول حين يعرض لما وقع له ولأبيه من حوادث أنتصرت فيها المروءة والشرف وكرم العنصر وسماحة النفس . ولكنه ظل فى جميع ما أودعه كتاب المكافأة رجلا عبقريا مالكا لزمام قلمه وكابحا لجماح هواه ، فلا تراه يستطيل ولا يتزيد حين يتكلم عما أسدى من

---

(١) (المكافأة ص ٩٩ و ١٠٠) .

المعروف إلى بعض من عاصره من سلائل الخلفاء والوزراء . وله مع قصده و إيجازه عبارات بارعة تمضى كأروع مايكون فى التعريض والتلميح ، و إليك قوله فى بعض قصصه يتحدث عن واقعة أنتصر فيها الخلق النبيل :

« ونزل فى حارتنا غلام أمرد تأخذه العين ، وكنت أسلم عليه إذا أجتزت به كما أفعل هذا بغيره من جيرتى . فانصرفت يوما إلى منزلى فوجدته قائماً على بابه ، فدفع إلىّ رقعة يذكر فيها أنه عباسى من ولد المأمون و يسألنى برّه ، ودخل من كان معى بدخولى ،فقضيت شغلى بالجماعة حتى أنصرفوا ،ووضعت المائدة بينى وبين العباسى . فأكلنا وهو يتأملنى فلايجد فىّ شيئا قدّره . فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنانير ، وأعتذرت إليه من تقصيرى فى حقه وأنصرف وقد رأيت تبجيلى فى حماليق عينيه »[١] .

ففى هـذه الأسطر القلائل عرض الكاتب مسألة خلقية دقيقة عرضاً لا إخلال فيه ولا تطويل . وللقارىء أن يتأمل قوله : « أمرد تأخذه العين » فإنى أستجيد هـذا التعبير وأفضله على قول الثعالبى فى ثمار القلوب «أمرد تأكله العين» الذى أخذه أحد الشعراءفقال:

ولقد شربتك بالمنى ولقد أكلتك بالضمير

وجملة : « فأكلنا وهو يتأملنى فلا يجد فىّ شيئا قدَّره » من الجمل العجيبة التى تؤدّى فى قصد و إيجاز ماتؤديه الكنايات البارعة التى تصل بالكاتب إلى غرضه من دونأن يخرج على قوانين الأدب والحياء . وقوله : « وأنصرف وقد رأيت تبجيلى فى حماليق عينيه » من العبارات الرائعة القوية التى لاتقع لغير الكتاب الموفّقين .

٧ — وفى القصة التى رواها عن أحمد بن أيمن تعابير جيدة ، وذلك أن ابن أيمن دخل البصرة إلى أحد التجار فرأى بين يديه ابنين له فى نهاية من النظافة ، فقال للتاجر : استجدت الأم لحسن نسلك . فقال التاجر : ما بالبصرة أقبح من أمهما ولاأحب إلىّ منها . ولتلك الأم خبرعجيب خلاصته أن أباها كان عضلها[٢] وتعرض لعداوة خطابها ، لسرخفى هوأن ابنته كانت

---

(١) ص ٢١ و٢٢ (٢) عضلها : منعها من الزواج .

دميمة محرومة من كل سمات الجمال ، وكان يخشى لو زُفَّت أن تطلق ليومها ، فلما تقدّم ذلك التاجر يخطبها رأى والد الفتاة أنه أهل للخير وأنه قد يقبلها على دمامة وجهها . فلما دخل بها واجهته بالكلمة الآتية :

« يا سيدى ! إنى سر من أسرار والدى كتمه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، ورآك أهلا لستره عليه ، فلا تخفر ظنه فيك ، ولو كان الذى يُطلب من الزوجة حسن صورتها دون حسن تدبيرها وعفافها لعظمت محنتى ، وأرجو أن يكون معى منهما أكثر مما قصّر بى فى حسن الصورة » .

ثم وثبت فجاءت بمال فى كيس وقالت :

« يا سيدى ! قد أحل الله لك معى ثلاث حرائر وما آثرته من الإماء ، وقد سوغتك تزويج الثلاث وابتياع الجوارى من مال هذا الكيس ، فقد أوقفته على شهواتك ، ولست أطلب منك إلا سترى فقط » .

وهنا يقول التاجر وقد حلف :

« إنها ملكت قلبى ملكا لم تصل إليه حسنة بحسنها ، فقلت لها جزاءُ ما قدّمتيه ما تسمعيه منى : والله لا أصبت من غيرك أبدا ! ولأجعلنك حظى من دنياى فيما يؤثره الرجل من المرأة . وكانت أشفق الناس وأضبطهم وأحسنهم تدبيراً فيما تتولاه بمنزلى ، فتبينت وقوع الخيرة فى ذلك ، ولحقتنى السنّ : فصارت حاجتى إلى الصواب أكثر منها إلى الجماع . وشكر الله لى ما تلقيت به جميل قولها ، وحسن فعلها ، فرزقنى منها هذين الابنين الرائعين لك ، ونحن منقطعون إلى جوده فينا ، و إحسانه إلينا »[١] .

والقارىء حين يتأمل هذه العبارات يجدها بسيطة ، ولكنها قوية الأثر فى النفس ، وأية دقة أم أية بلاغة فاتت هذا الكاتب فى مثل قوله : « استنجدت الأم فحسن نسلك » أو قوله : « إنى سر من أسرار والدى كتمه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، ورآك أهلا

(١) ص ٤٩ — ٥١

لستره عليه ، فلا تخفر ظنه فيك » أو قوله : « ولحقتنى السنّ : فصارت حاجتى إلى الصواب أكثر منها إلى الجماع » .

هذه العبارات هى أنسب وأدق ما يتخير للحديث عن مثل هذه الشئون التى تمس الحياة الزوجية ، وهى حياة تبنى على أساس الصدق والعدل والحب الخالص من شوائب النزق والرعونة والشهوات. فمن البلاغة أن يعبَّر عنها فى قصد و إيجاز بعيدين من طنطنة الإسهاب.

٨ — ومن التعابير المختارة قوله فى أحمد بن كثير الفرغانى الذى عمل المقياس بمصر :

« وكانت معرفته أوفى من توفيقه لأنه ماتم له عمل قط »[١] .

وقوله على لسان محمد بن موسى : « إن قدرة الحرّ تذهب بحفيظته ، وقد فزعنا إليك فى أنفسنا التى هى أنفس أعلاقنا ، وما ننكر أنا قد أسأنا ، والاعتراف يهدم الاقتراف»[٢] .

وقوله فى وصف حصار إقريطش : « واشتدّ الحصار ، ونزع السعر ، وتحلّق المأكول ، وشاع الجهد ، ثم زادت المكاره حتى أكل الناس ما مات من البهائم جوعا »[٣] .

وقوله على لسان سيدة توفى زوجها بأسوأ حالة وخلف لها بنات :

« فكنت أجاهد فى مؤونة ولدى ، و إذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت : أقرضينى كذا وكذا ، إستحياء من أن أقول لها : هبى لى . ودخل شهر رمضان ، فلما مضى نصفه اشتهوا علىّ صبيانى حلوى فى العيد ، فصرت إلى أختى فقلت لها : أقرضينى ديناراً أعمل به للصبيان حلوى فى العيد ، فقالت : ياأختى تغيظينى بقولك « أقرضينى » و إذا أقرضتك من أين تعطينى : أمن غلة دورك ، أو بستانك ؟ لو قلت : هبى لى ، كان أحسن . فقلت لها : أقضيك من لطف الله تعالى الذى لا يحتَسَب ، وجوده الذى يأتى من حيث لا يرتقَب . فتضاحكت وقالت : ياأختى ، هذا والله من المنى ، والمنى بضائع النوكى . فانصرفت عنها أجر رجلى إلى منزلى »[٤] .

---

(١) ص ١١٠ (٢) ص ١١١ (٣) ص ١١٣ (٤) ص ١١٦

وهى عبارات ساذجة ولكنها تؤدى ما وضعت له تأدية صحيحة تثير العطف وتبعث الحنان .

٩ — وبجانب هذا البيان الرائع توجد عند أحمد بن يوسف عبارات مقتولة باللبس والغموض ، من ذلك قوله فى مقدّمة المكافأة :

« وقد رأيناك لا تزيد من رغبت إليه فيما تحدوه على برك ، وتحثه لما أغفل من أمرك ، على نص مكارم من سلف ، وترى أنه يهش إلى مساجلتهم ، فلا يبلغ فى هذا أكثر من إحراز الفضيلة للمرغوب إليه ، ولا يوجد فى الراغب فضيلة تحثه على شفيع قصده ، ولو عدلت عن مكارم من رغب إليه ، إلى حسن مكافأة من أنعم عليه ، لكانت لك ذرائع يمت بها الراغب يوجد المرغوب إليه سبيلا إلى الانعام » .

فإن الشطر الأخير من هذه الفقرة غارق فى لجة من الإبهام .

وتوجد فى الكتاب عبارات كثيرة يغلب عليها الضعف ، وهذا مقتل خطر لأكثر الكتاب الذين لا يصنعون أساليبهم فى تأنق وحذق ، فإن الكتاب الذين يغلب عليهم الاستسلام لسجيتهم ولا يتخيرون للكتابة ساعات النشاط والقوّة يقعون غالبا فى مهاوى الركاكة والإسفاف . ومهما قيل فى تفضيل الطبع وإيثار ما توحى به النفس فى غير كلفة ولا عناء ، فإنه لا يزال من الحق أن الطبيعة الخالصة تحتاج إلى تهذيب وترتيب ، وأحواض الزهر المنسقة المهندمة التى يعنى بها الجنّانون[1] فى الحدائق والبساتين أفتن وأروع من الزهر المبدّد الذى تلقى به الطبيعة هنا وهناك وفقا لخصب الأرض وجود السماء .

١٠ — وهنا نقطة مهمة لا بد من درسها بعناية : ذلك أن مؤرّخى الأدب متفقون

---

(١) الجنان : البستانى ، وهى كلة طريفة ، صغناها من كلة «الجنة» ثم رأينا أحدالمتقدمين سبقنا إليها حين قال :

جنان يا جنان   إجن من البستان   الياسمين
واترك الريحان   بحرمة الرحمن   للعاشقين

ثم رأينا أن « الجنان » هى كذلك بمعنى البستانى فى اللغة العبرية ، من « الجان » وهى فى العبرية كالجنة فى العربية .

على أن البها زهير أقدم أديب ظهرت فى أدبه ألفاظ وتعابير وأخيلة مصرية . ولكنى رأيت أحمد بن يوسف سبقه إلى ذلك بأجيال ، و إلى القارئ البيان .

(ا) المصريون ، حتى المثقفون منهم ثقافة عالية ، يقولون «ست» فى مكان «سيدة» وهى كلمة مصرية قديمة أدخلها أحمد بن يوسف فى لغته الفصيحة مجاراة للغة الحديث[(١)] .

(ب) والذين يعيشون فى الأقاليم المصرية يذكرون المنادى الذى ينادى فى الطرقات قبيل العشاء ليبلغ الناس أوامر الحكومة ، ويذكرون كيف يختم نداءه بهذه العبارة « والذى يخالف يستاهل ما يجرى عليه » وكلمة « يستاهل » عربية فصيحة مخففة عن « يستأهل » بمعنى يستحق ، وفى مثل هذا التعبير يقول ابن يوسف : « فقال أبو العباس : سيعلم ما يجرى منى عليه »[(٢)] .

(ج) القاعدة العامة فى النحو أن الفعل يفرد مع الفاعل المثنى والجمع ، فتقول : حضر الأفضلان ، وحضر الأفضلون ، ولا يثنى الفعل ولا يجمع إلا فى لغة ضعيفة يسميها النحاة لغة « أكلونى البراغيث » والعياذ بالله ! ولكن المصريين فى لغة الحديث يطابقون بين الفعل والفاعل فى الإفراد والجمع فيقولون مثلا : حضروا الغائبون . وكذلك نجد ابن يوسف يجارى أحياناً لغة الحديث فيقول : « فلما مضى نصفه اشتهوا علىّ صبيانى حلوى فى العيد »[(٣)] .

(د) اللغة الفصيحة تطلق كلمة زوج على الرجل والمرأة بدون إلحاق التاء للدلالة على التأنيث ، وفى القرآن الكريم (وأصلحنا له زوجه) ولا يقال « زوجة » إلا فى كتب المواريث ، ويذكرون أن الإمام الشافعى كان يكره أن يقول « زوجة » فكان يقول « المرأة » إذا اقتضى الحال ذلك . ولكن المصريين فى لغتهم يقولون زوج وزوجة مجاراة للقاعدة العامة التى تفرق بين المذكر والمؤنث بعلامة من علامات التأنيث . وكذلك نجد ابن يوسف يقول : « ولو كان الذى يطلب من الزوجة حسن صورتها ، إلخ »[(٤)] .

(ه) ويقول أحمد بن يوسف : « فلما غسل يده دفعت إليه ثلاثة دنانير واعتذرت إليه من تقصيرى فى حقه »[(٥)] وعبارة « قصر فى حقه » لا تزال مستعملة إلى اليوم بين المصريين فى لغة الحديث .

---

(١) أنظر ص ١١٧ و « لغة الحديث » نريد بها لغة التخاطب ويقابلها فى الفرنسية La langue Parlée (٢) ص ١١٤ (٣) ص ١١٦ (٤) ص ٥١ (٥) ص ٢٢

(و) المصريون يسمون البنت أحياناً «حسنة» بضم الحاء، وكنت أحسبها تحريفاً عن حسناء، ولكن رأيت ابن يوسف يقول « ملكت قلبي ملكا لم تصل إليه حسنة بحسنها » ومن ذلك عرفنا أن كلمة « حسنة » كانت تجرى إذ ذاك على لسان المصريين بمعنى جميلة، وهذه الصفة مهجورة فى اللغة الفصيحة، وأكثرما تستعمل فى المذكر، ولكن قلما يكون ذلك بدون إضافة، فهم يقولون فتى حسن الوجه، و يندر أن يكتفوا بالصفة من غير تخصيص .

(ز) المصريون يشبعون تاء الخطاب فى مخاطبة المؤنثة فيقولون «فعلتيه» بدلا من «فعلته» و يحذفون النون من « تفعلين » وكذلك نجد ابن يوسف يقول : « جزاء ما قدمتيه ما تسمعيه مني[1] » بدلا من « جزاء ما قدمتــه ما تسمعينه مني» و يقول « يا أختي تغيظيني[2] » بدلا من « تغيظينني » وهو نوع من التخفيف فى لغة الحديث أدخله الكاتب فى اللغة الفصحى .

(ح) المصريون يسمون السفينة « مركباً » ، وكذلك يسميها ابن يوسف فيقول : « ركبت مركباً أريد الفسطاط من تنيس ، وحملت فيه تجارة لى ما كنت أملك غيرها » . وكلمة مركب فى لغته مذكرة ، وهى كذلك عند أكثر البحارة فى النيل ، و إن كنت أرى بعض أهل الريف يجرونها مجرى المؤنث خصوصا أهالى سنتريس .

(ط) المصريون يسمون الكيس الكبير جداً الذى توضع فيه الأمتعة « تليساً » بفتح التاء وتشديد اللام مكسورة . وهــذه اللفظة موجودة فى كتاب المكافأة حيث يقول المؤلف : « ثم دعا بتليس من شعر... الخ »[3].

(ى) كلمة نفر فى اللغة الفصيحة تستعمل غالباً بمعنى الجمع ؛ فى القرآن الكريم (استمع إليه نفر من الجن) . أى جماعة منهم ، وفيه أيضــاً : « وأعز نفرا » بمعنى القوم والقبيل . ولــكن المصريين يستعملون كلمة نفر بمعنى شخص ، فيقولون خمسة أنفار مثلا ، وكذلك نجد ابن يوسف يقول « فتخفرت بأربعة نفر من القيسية[4] » يريد أربعة أشخاص .

---

(١) ص ٥٢ (٢) ص ١١١ (٣) ص ٨٢ (٤) ص ٢٠

(ك) والمصريون يقولون لمن يغلق الباب من الداخل « أغلقه من عنده » وكذلك يقول ابن يوسف : « دخلت البيت وأغلقته من عندى »[1].

(ل) ويقول ابن يوسف على لسان قابلة أولاد خمارويه بن طولون : « فكنت أجاهد فى مؤونة ولدى ، وإذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت أقرضينى[2] ». وعبارة «وقف أمره » عبارة مصرية تساوى العبارة الجارية فى الريف حين يقولون « وقف الحال » بمعنى ضاق الأمر واشتد الكرب . وتقابلها فى اللغة السورية عبارة « مشى الحال » ، ومنها الأغنية المشهورة « ماشى الحال ، ماشى الحال » .

١١ — وأحب أن يتنبه القارىء إلى أن ما نسميه عبارات مصرية أو سورية أو يمنية أو مغربية ليس إلا ترديداً لأخيلة عربية صحيحة وردت جملتها فى الشعر البليغ والنثر الفصيح ، ولكن غلب بعضها هنا وساد بعضها هناك ، بحيث صح أن يقال هذه عبارة مصرية ، وتلك عبارة سورية ، الخ .

وليس من المنطق فى شىء أن نسدّ آذاننا مرة واحدة عن اللهجات المتفرّقة فى الأقطار العربية ، فإن اللغة الفصيحة تحتاج إلى مدد دائم من تلك اللهجات ، ومثَلها مثَل النهر الكبير يحتاج ، مع فيض منابعه الأصلية ، إلى المدد المستمرّ الذى يصل إليه من روافده الصغيرة . وقد يوجد فى اللهجات العامية نوع من الحرية والطلاقة والمرونة فى بعض التعابير ، فمن الأوفق أن يتسرب شىء من تلك السهولة إلى اللغة الفصيحة لتعود ألين وأسلس ، ولتصير أقدر على التوضيح والتفهيم والتبيين .

والواقع أن فصاحة الكلمات وبلاغة التعابير ترجع فى الأكثر إلى قبولها من ذوى الطباع السليمة ، والأذواق المهذبة ، ففى مقدور الكتاب أصحاب النفوذ فى تكوين الملكات الفنية ، والأذواق الأدبية ، أن يضيفوا إلى قاموس اللغة الفصيحة بعض الكلمات المختارة فى لغة الحديث ، حتى تصبح تلك الكلمات بعد حين جزأ من الثروة اللغوية التى نرجو أن نستغنى

---

(١) ص ١٢٢ (٢) ص ١١٦

بها عن الاستعانة ببعض ألفاظ الأجانب وأخيلتهم حين يعرض لنا معنى دقيق يحتاج إلى لغة أقدر وأصرح من لغة القدماء والمحدَثين الذين وقفوا عند حدود مارسمت المعاجم والقواميس .

* * *

١٢ — ولكن لأى غرض وضع كتاب المكافأة ؟

يظهر أن أحمد بن يوسف المصرى كان غاية فى نبل النفس ، وقوّة العقيدة ، وطهارة الوجدان . كان مؤمناً أصدق الإيمان بعدل الله ورحمته ، وكان يثق ثقة مطلقة بأن المرء مجزىّ بعمله، إن خيراً فخير ، و إن شراً فشر ، وكان فيما يظهر قد عرف من أخيار الناس وأشرارهم طوائف كثيرة مختلفة أرته أنواعاً من الجزاء على أعماله الصالحة ، فمنهم الوفىّ الشكور ؛ ومنهم الغادر الكفور ، لذلك تأصلت فى نفسه الحفيظة والموجدة تجاه الجاحدين الكاندين الذين نسدى إليهم الخير والإحسان ثم نلقى منهم عاديات الغدر والعقوق . ونكاد نلمس فى كلماته جمرات الغيظ كلما مرّ ذكر الناقضين للعهد والناسين للمعروف ، حتى لنذكر به تلك الزفرة المرة زفرة يحيى بن طالب حين قال :

يزهّدنى فى كل خير صنعتهُ ... إلى الناس ما جربت من قلة الشكرِ

وله فى مقدّمة كتابه عبارات حكيمة ، منها قوله :

« إن أشدّ على الممتحَن من محنته ، عدوله فى سعيه عن مصلحته ، وتجنبه الصواب فى بغيته » .

وقوله :

« ولم يؤتَ الجود من مأتًى هو أغمض من مغادرة حسن المكافأة ، ولو أنعمت النظر فيها لوجدتها أقوى الأسباب فى منع القاصد ، وحيرة الطالب ، ولو كانت توجد مع كل فعل أُستحقها لآثر الناس قاصديهم على أنفسهم وجروا على السَّنن المأثور عنهم » .

١٣ — وقد قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أقسام: الأوّل المكافأة على الحسن ، والثانى المكافأة على القبيح ، والثالث حسن العقبى . وقد وضع فى القسم الأوّل إحدى وثلاثين حكاية،

ختمها بحكاية رجل وقف بين يدى المنصور ، وكان من رجال هشام بن عبد الملك ، فكان المنصور يسائله عن سيرة هشام لأنها كانت تعجبه ، فكان الرجل يترحّم عند كل جارٍ من ذكره، فأحفظ[1] ذلك حاشية المنصور ، فقال له الربيع : « كم تترحم على عدوّ أمير المؤمنين؟ » فقال الرجل للربيع :

« مجلس أمير المؤمنين، أيده الله، أحق المجالس بشكر المحسن ، ومجازاة الجمِل، ولهشام فى عنقى قلادة لا ينزعها إلا غاسلى » .

فقال له المنصور : وما هذه القلادة ؟ قال : قلدنى فى حياته ، وأغنانى عن غيره بعد وفاته.

فقال له المنصور : أحسنت ، بارك الله عليك ، وبحسن المكافأة تستحق الصنائع ، وتزكو العوارف .

ثم أدخله فى خاصته .

واستطرد المؤلف فقال : وقد مثّل بعض الفلاسفة الحسنَ المكافأة بالحسام الصقيل الذى يحدث له عند وقوع الشمس عليه انبعاث شعاع منه يجلو غياهب الأمكنة المظلمة ، ويكون وفور شعاعه على حسب صقالته .

ووضع فى القسم الثانى إحدى وعشرين حكاية ختمها بحكاية شيخ كان يعرفه فى أيام خمارويه ، حلو النادرة ، مليح الألفاظ ، يعرف بالدفانى ، وكان معاشه من التوصل بكتب الولاة إلى معامليهم، فحدّثه أنه خرج بكتب إلى الشرقية فالتقى مع رجل فى زى بعض المانوية من الأطباء ، فدعاه المتطبب إلى مؤاكلته وأخرج رغيفين مشطورين أعطاه أحدهما ووضع الآخر بين يديه. ثم أخذ كوزاً معه ومضى يسعى به، فشرهت نفس الدفانى إلى الرغيف الذى كان بين يدى المتطبب فأبدله برغيفه ، وجاء المتطبب بالماء وابتدآ الأكل ، فما ابتلع المتطبب لقمة حتى شخص بصره وتمدّد ، إلى آخر القصة[2] .

ومهد المؤلف للقسم الثالث بهذه العبارات الفلسفية إذ قال :

---

(١) أحفظ : أغضب . (٢) ص ٨٨ و ٨٩

« وإذ وفينا ما وعدناك به من أخبار المكافأة على الحسن والقبيح ، ما رجونا أن يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير ، وتطلّب العارفة فى الحسن، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وإبعادها عن سَورة الانتقام فى القبيح، وقد قالوا: الخير بالخير ، والبادى أخير ، والشر بالشر ، والبادى أظلم، رأيت أن أصل ذلك، حفظك الله ، بطرف من أخبار من أُبتُلى فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبى. لأن النفس إذا لم تَعْن عند الشدائد بما يجدّد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها ، وقد علم الإنسان أن سفور الحالة عن ضدّها حتم لابد منه ، كما علم أن انجلاء الليل يسفر عن النهار . ولكن خور الطبيعة أشدّ ما يلازم النفس عند نزول الكوارث، فإذا لم تعالجَ بالدواء اشتدّت العلة، وازدادت المحنة ، والتفكر فى أخبار هذا الباب مما يشجع النفس، ويبعثها على ملازمة الصبر ، وحسن الأدب مع الرب عز وجل بحسن الظن فى موآتاة الإحسان عند نهاية الامتحان ، والله ولى التوفيق »(١) .

وقد وضع فى القسم الثالث تسع عشرة حكاية ، ختمها بحكاية عمرو بن عثمان إذ قال :

« كان لى مجلس فى ديوان الإنشاء قليل الجدوى علىّ ، وحالى حال لا تنهض بما يحتاج إليه المقتصد ، وقد لزمتنى يمين لا كفارة لها فى ترك النبيذ ، فكان جماعة الكتاب يجلسون ما جلس الوزير ، وهو يومئذ الفضل بن الربيع ، فإذا انصرف إلى منزله انصرفوا إلى ما عقدوا عليه أمرهم من الاجتماع ، وأقيم وحدى فى الديوان إلى أن يغلق ، فبكرت إليه فى يوم من الأيام ، وجاءت مطرة تطرّب الوزير فيها إلى الشرب ، لتشاغل الرشيد فى دعوة لزبيدة ، فلم يبق فى ديوان الإنشاء غيرى . فإنى لجالس حتى دخل إلىّ خادم من خاصة الرشيد، فأخذ بيدى وأدخلنى إلى الرشيد ، فلما مَثَلْت بين يديه قال : اقرأ هذا الكتاب . فقرأته فبينته وأعربته . فقال : أجب عنه بين يدىّ . فأجبت عنه بأحسن معان وأجود لفظ . فقال : اقرأه علىّ ، فقرأته . فقال لمسرور الكبير « ألف دينار » فجاء بها. فقال : ادفعها إليه، وقل للفضل : « يصرف إليه ديوان الإنشاء فهو أحق به ممن غادره » ثم قال لى : « خذ هذا

(١) انظر ص ٨٩ و ٩٠

المال ، وسأنظر لك فى الوقت بعد الوقت ما يزيد فى اصطناعى لك، فلا يفسد الغنى ما أصلحته الفاقة من حسن ملازمتك ، واستزدنى أزدك »[1] .

١٤ — ومؤلف المكافأة يعتقد أن المحن والشدائد من أجمل ما يهب الله لعباده الذين يعدّهم لعزائم الأمور، ويتمثل فى خاتمة كتابه بقول بزرجمهر : « الشدائد قبل المواهب تشبه الجوع قبل الطعام ، يحسن به موقعه ، ويلذ معه تناوله » وكلمة أفلاطون : « الشدائد تصلح من النفس بمقدار ما تصلح من العيش ، والترف يفسد من النفس بمقدار ما يصلح من العيش » وقوله: « حافظ على كل صديق أهدته إليك الشدائد، واله عن كل صديق أهدته إليك النعمة» وقوله أيضاً: « الترفه كالليل لا تتأمل فيه ما تصدره وتتناوله والشدّة كالنهار ترى فيها سعيك وسعى غيرك » وقول أردشير : « الشدّة كحل ترى به مالا تراه بالنعمة » .

١٥ — قلت إن أحمد بن يوسف المصرى كان قوىّ العقيدة ، وأضيف إلى ذلك أن قوّة عقيدته لم تكن لأنه قرأ فى بعض الكتب أن الله موجود ، أو لأنه سمع من هداة القسيسين والأحبار أو العلماء والوعاظ أن الله سريع الحساب وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم. لا، لا، فذلك إيمان المقلدين ، إيمان الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على ملة و إنا على آثارهم مهتدون. ولكن إيمان بعدل الله ورحمته أنبعث من نفس راضتها الحوادث على الاطمئنان الحق إلى وجود الله وحنان رفقه، وقسوة جبروته. وآية ذلك أن الأقاصيص التى أودعها كتاب المكافأة أكثرها مما شاهده فى عصره ، فبعضها وقع له بالذات ، و بعضها وقع لأبيه ، وجزء منها وقع لأناس عرفهم بالمجاورة والمعاشرة ، سواء أكانوا من عامة الناس أم من حاشية بنى طولون . من أجل هذا نرى إيمان ابن يوسف إيماناً قوياً خالصاً بعيداً كل البعد عن الإيمان الرسمى الذى يحرص عليه من يعيشون باسم الدين فى أقطار الشرق والغرب ، و إن كان ذلك لا يمنع أن يكون فيمن تصلهم بالدين صلات رسمية أبرارٌ ومتقون .

فإن كان القارىء فى شوق إلى لمحة من ذلك الإيمان القوى ، إيمان الرجل الذى عرف ربه كأنه يراه ، فليقرأ قول أحمد بن يوسف فى خاتمة كتابه « وملاك مصلحة الأمر فى الشدّة

(١) انظر ص ١٢٥ و ١٢٦ من المكافأة .

شيئان : أصغرهما قوّة قلب صاحبها على ما ينو به ، وأعظمهما حسن تفويضه إلى مالكه ورازقه، و إذا صمد الرجل بفكره نحو خالقه علم أنه لم يمتحنه إلا بما يوجب له مثوبة،أو يمحص عنه كبيرة ، وهو مع هذا من الله فى أرباح متصلة ، وفوائد متتابعة . فإذا اُشتدّ فكره تلقاء الخليقة كثرت رذائله ، وزاد تصنعه ، و برم بمقامه فيما قصر عن تأميله ، واُستطال من المحن ما عسى أن ينقضى فى يومه ، وخاف من المكروه ما لعله أن يخطئه . و إنما تصدق المناجاة بين الرجل و بين ربه لعلمه بما فى السرائر ، وتأييده البصائر ، ولله تعالى رَوح يأتى عند اليأس منه يصيب به من يشاء من خلقه . و إليه الرغبة فى تقريب الفرج ، وتسهيل الأمر،والرجوع إلى أفضل ما تطاول إليه السؤال ، وهو حسبي ونعم الوكيل » .

* * *

١٦ — و بعد فقد كان كتاب المكافأة عميق الأثر فى نفسى، وكان قبساً من الهداية أدفع به ظلمات الغواية فى باريس . فهل أستطيع أن أحكم بأن إعجابى بذلك الكتاب هو أيضاً مكافأة لمؤلفه رحمه الله ، وأن جهده فى وضعه وتنسيقه لم يضع ، وأن حرصه على بث الفضيلة والتنفير من الرذيلة لم يضع ، وأن إيمانه بالله عز شأنه لم يضع . وهيهات أن يضيع عند الله شىء ، هيهات ، هيهات !

كان أحمد بن يوسف مصرياً ، وأنا كذلك مصرىّ . لقد لقى فى مصر بعض الظلم ، وأكاد ألقى فيها كل الظلم . كان يحسن إلى كثير من الناس ، فيفى له من يفى ، و يغدر به من يغدر ، وأنا فى حدود طاقتى أبذل البر والمعروف ، ثم ألقى من بعض من أحسن إليهم أشنع ألوان الجحود، وأتلفت إلى أصدقائى الأوفياء أعدّهم فأقول: واحد، اثنان ، ثلاثة ، ثم أغمض عينى من لذعة الكمد الوجيع .

ولكن يبقى لى ذلك الكنز الذى لا ينفد ولا يفنى ، وذلك المعين الذى لا ينضب ولا يغيض ، يبقى لىَ الله الذى يعاملنى بأجمل وأفضل مما أستحق ، يبقى لىَ الله الذى تلمس يدى وترى عينى آثار رحمته وعدله ، وتكاد تصافحه يمناى، وتكاد تصافحه يمناى ، ولو شئت لمضيت فى ترديد هذه الجملة ، ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما فى القلوب !

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » .

١٢ – عبد الله بن عبد الكريم

عبد الله بن عبد الكريم هذا من الشخصيات الخاملة لا نعرف عنه أكثر مما جاء فى مجموعة التحفة البهية من أنه كان مطلعاً على أحوال أحمد بن طولون ومن المرجح أنه أدرك القرن الرابع ، وقد روى حكاية مسجوعة تمثل عواقب الغدر والوفاء ،رأينا أن نثبتها هنا بنصهاوإن كنا لانستبعد أن يكون دخل عليها شئ من التحوير ، وأهميتها ترجع إلى تصويرها لبعض الحوادث فى القصور المصرية فى عهد ضاع أكثر ما وضع عنه من الروايات والأقاصيص . . .

حدّث عبدالله بن عبدالكريم قال :

كان أحمد بن طولون وجد عند سقاية طفلا مطروحا فالتقطه ورباه وسماه أحمد وشُهر باليتيم فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاء وفطنة وأحسنهم زيا وصورة فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرّس فلما حضرت أحمد بن طولون الوفاة أوصى ولده الأمير أبا الجيش خمارويه به فأخذه إليه فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير إليه وقال له : أنت عندى بمكانة أرعاك بها ولكن عادتى أنى آخذ العهد على كل من أصرّفه فى شىء إنه لايخونني ، فعاهده ، ثم حكمه فى أمواله ، وقدّمه فى أشغاله ، فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام ، حاكما على جميع الحاشية الخاص والعام ، والأمير أبو الجيش يحسن إليه كلما رأى خدمته متصفة بالنصح ، ومساعيه متسمة بالنجح ، فركن إليه ، واُعتمد فى أسباب بيوته عليه فقال له يوماً : يا أحمد ، امض إلى الحجرة الفلانية ، ففى المجلس بحيث أجلس سبحة جوهر فجئنى بها ، فمضى أحمد ، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياه مع شاب من الفراشين ممن هو من الأمير بمحل قريب ، فلما رأياه خرج الفتى فجاءت الجارية إلى أحمد ، وعرضت نفسها عليه ودعته إلى قضاء وطره ، فقال لها : معاذ الله أن أخون الأمير ، وقد أحسن إلىّ ، وأخذ العهد علىّ ، ثم تركها وأخذ السبحة وانصرف إلى الأمير وسلم إليه السبحة وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد لئلا يذكر حالها للأمير ، فقامت أياما لم تجد من الأمير ما غيّره عليها ، ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية

وقدمها على حظاياه ، وغمرها بعطاياه ، واُشتغل بها عمن سواها ، وأعرض لشغفه بها عن كل من عنده حتى كاد لايذكر جارية غيرها ، ولا يراها ؛ وكان أولا مشغوفا بتلك الجارية الجائرة ، الخائنة الغادرة ، العاتية القاهرة ، الفاسقة الفاجرة،فلما أعرض عنها اشتغالا بالجديدة المجيدة ، المسعدة السعيدة ، الحامدة المحمودة ، الوصيفة الموصوفة ، الأليفة المألوفة ، الرشيقة المرشوقة ، العارفة المعروفة ؛ وصرفت لبهجة محاسنها وآدابها وجهه من ملاعبة أترابها ،وشغلته بعذوبة رضابها عن ارتشاف ضرب(١) أضرابها ، وكانت تلك الأولى لحسنها متأمرة على تأميره ، لاتخاف من وليه ولا نصيره ، فكبر عليها إعراضه عنها ، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم ، واطلاعه على ما كان منها . فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب مكرها ، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها ، وقالت : إن أحمد اليتيم قد راودنى عن نفسى ، فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظاً وغضباً ، وهم فى الحال بقتله ، ثم عاوده حاكم عقله ، فتأنى فى فعله ، واستحضر خادماً يعتمد عليه ، وقال له : إذا أرسلت إليك إنساناً ومعه طبق ذهب وقلت لك على لسانه : املأ هذا الطبق مسكا ، فاقتل ذلك الإنسان واحمل رأسه فى الطبق ، وأحضره مغطى.ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماءه الخواص وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه ، آمن فى سربه لم يخطر بخاطره شيء ولا هجس فى قلبه ، فلما ثمل الأمير وأخذ منه الشراب قال : يا أحمد ! خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له يملؤه مسكا ، فأخذه ومضى ، واجتاز فى طريقه بالمغنين و بقية الندماء الخواص ، فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم فقال : أنا ماض فى حاجة للأمير أمرنى باحضارها فى هذا الطبق . فقالوا : أرسل من ينوب عنك فى إحضارها وخذها أنت وادخل بها إلى الأمير، فأدار عينيه فرأى الفتى الفراش الذى كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال امض إلى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير املأ هذا مسكا ، فمضى ذلك الفراش إلى الخادم وذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغسله وجعله فى الطبق وغطاه وأقبل به فناوله لأحمد اليتيم وليس عنده علم من باطن الأمر ، فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله وقال : ما هـذا ؟ فقص عليه خبره وقعوده مع المغنين و بقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من

(١) الضرب بالتحريك : العسل.

إنفاذه الطبق والرسالة مع الفراش وأنه لاعلم عنده غير ما ذكره . قال : أفتعرف لهذا الفراش خبراً يستوجب ماجرى عليه ؟[١] فقال : أيها الأمير ، إن الذى تم عليه بما ارتكبه من الخيانة ، وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك . وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية من أوله إلى آخره لما أنفذه لإحضار السبحة الجوهر ، فدعا الأمير بتلك الجارية واستقرها فأقرت بصحة ماذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ، ففعل وازدادت مكانة أحمد عنده وعلت منزلته لديه ، وضاعف إحسانه إليه ، وجعل أزِمَّة جميع ماتعلق به بيديه »[٢] .

وقد مُهِّد لهذه القصة بعبارة مسجوعة ، وعقِّب عليها بالفقرة الآتية :

« فانظر إلى آثار الوفاء كيف يحمى من المعاطب ، وينجى قبضة التلف بعد إمضاء القواضب ، ويفضى بصاحبه إلى ارتقاء غوارب المراتب ، فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعهده ، وهو بشر مثله وليس فى الحقيقة بعبده ، واطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده ، دفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده . فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيا فى طاعته بعقده ، فكيف لايفيض عليه من ألطافه ومواهب بره ورفده ، ويفتح له من أنواع رحمته وأقسام نعمته مالا ممسك له من بعده . ويقال إنه ليس شىء أوفى من القمرية إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده ، ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت . والله أعلم »[٣] .

---

(١) لاتنس أن هذه عبارة مصرية . (٢) ص ١٩٠ — ١٩٢ من التحفة البهية .

(٣) ص ١٩٢

١٣ – المحسن التنوخى

أرشدنا إلى هذا الكاتب المسيو ماسينيون « صديق الجميع » كما كتب إلينا فى وصفه المستشرق الهولندى الجليل الدكتور سنوك .

١ — والتنوخى هذا هو المحسن بن على بن محمد المتوفى ببغداد سنة ٣٨٤ ، وكان مولده بالبصرة سنة ٣٢٩ ، وله من التصانيف كتاب الفرج بعد الشدّة ، وكتاب نشوار المحاضرة ، أحد عشر مجلداً ، كل مجلد له فاتحة بخطبة ، وهو كتاب جيد ألفه التنوخى فى عشرين سنة أولها سنة ٣٦ واشترط أن لا يضمنه شيئاً نقله من كتاب .

قال المستر مارجوليوث فى خاتمة نشوار المحاضرة — وقد ابتدأ طبعه سنة ١٩١٨ وفرغ منه سنة ١٩٢١ — :

« النشوار كلمة فارسية أصلها نشخوار ، ومعناها جرة الحيوانات المجترة ، وقد استعملها التنوخى بمعنى الحديث «طيب النشوار والأدب»[١] « حسن النشوار راوية الأخبار »[٢] وأما ماذكر من تاريخ الكتاب فيطابقه ماجرى فيه ذكره من التواريخ ، فإن المؤلف ذكر خبراً سمعه فى سنة ٣٤٩[٣] ثم أكثر من ذكر حوادث سنة ٣٦٠[٤] ثم ذكر حادثا حدث سنة ٣٦١[٥] وأما ما اشترط من الاقتصار على مالم يدون فى كتاب فكثيراً ما أخل بشرطه. وقد نبهنا فى مواضع على ورود الحكايات فى (الفرج بعد الشدة) للمؤلف وغيره من الكتب وأما مازعم من اشتمال الكتاب على ١١ جزءا فيؤكده مايوجد فى بعض الكتب من حكايات منقولة عن النشوار غير موجودة فى جزئنا . من ذلك ما أورد السيوطى فى المزهر[٦] وياقوت الرومى فى إرشاد الأريب[٧] والغزولى فى مطالع البدور[٨] . وأما نحن فلم نعثر منه إلا على

---

(١) ص ٦٢ س ١٦ (٢) ص ٨٦ س ١٤ (٣) ص ١٦ (٤) ص ٢١٦ و ٢٣٥
(٥) ص ٢٧٤ (٦) ج ٢ ص ١٦٣ من الطبعة الأولى .
(٧) ج ٦ ص ٦٠ و ١٩٠ (٨) ج ١ ص ٩٤

الجزء الأول فى نسخة عددها ٣٤٨٢ من الخطوط العربية المحفوظة فى خزانة الكتب الوطنية فى باريس ، قد ذكر الناسخ أنه فرغ من نسخها فى سنة ٧٣٠ وليس فيها ما يدل على أنها أول جزء من أجزاء عدة ، وعدد صفحاتها ١٩٣ وهى كاملة الشكل كثيرة الأغلاط لاسيما فى الأعلام ... وقد حذفنا حكايات ليست بكثيرة لم نر داعياً إلى تخليدها » .

٢ — هذه كلمة المستر مارجوليوث فى التعليق على ما ذكر ياقوت . ونلاحظ أنه فاته حين تكلم عن مطابقة التواريخ أن يتنبه إلى ما نقله خطأ عن ياقوت حيث دون أن كتاب نشوار المحاضرة صنف فى عشرين سنة أولها سنة ٣٦ ، وهو ذكر أن التنوخى ولد سنة ٣٢٩ فعلى هذا يكون المؤلف ابتدأ جمع أصول ذلك الكتاب فى السابعة من عمره ، وهو خطأ مبين وسنصححه بعد قليل .

٣ — وحدثنا المستر مارجوليوث أنه حذف حكايات لم ير داعياً إلى تخليدها ، وكنا نود لو نُشر الكتاب كاملا لم يحذف منه شىء ، فإن التحكم فى أغراض المؤلفين من الأغلاط الشنيعة التى ينبغى أن ينزه عنها أمثال المستر مارجوليوث ، وهو قد صنع مثل هذا الصنيع فى طبع إرشاد الأريب لياقوت المعروف بمعجم الأدباء ،فقد ذكر أنه حذف طائفة من رسائل أبى العلاء المعرى اكتفاء بنشرها فى مجموعة أخرى من مجموعات أكسفورد . فكأنه لايفكر إلا فى قرائه من المستشرقين .

وهذه المؤاخذة لا تحول دون الاعتراف بفضل هذا الباحث فى نشر الآثار القديمة، فإليه يرجع الفضل فى إحياء كثير من المراجع المهمة فى الكشف عن معارف الأقدمين .

ونضيف إلى ما كتبه عن نشوار المحاضرة ما أخبرنا به المسيو ماسينيون (١) من أن مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشق أخذت تنشر فى أعدادها الأخيرة بقايا قيّمة من أصول ذلك الكتاب .

---

(١) فى يوليه سنة ١٩٣٠

٤ — وأهمية كتاب نشوار المحاضرة تعرف من مقدّمته ، فإن المؤلف يحدّثنا أنه اتصل بكثير من الناس ممن عرفوا أحاديث الملل ، وأخبار الممالك والدول ، ووقفوا على محاسن الأمم ومعايبهم ، وفضائلهم ومثالبهم ، وسمعوا أخبار الملوك والكتاب والوزراء ، والسادة والبخلاء ، وذوى الكبر والخيلاء ، والأشراف والظرفاء ، والحادثين والندماء ، والسفهاء والحلماء ، والمحدّثين والفقهاء ، والفلاسفة والحكماء ، وأهل الآراء والأهواء ، والمتأدبين والأدباء ، والمترسلين والفصحاء ، والرجاز والخطباء ، والعروضيين والشعراء ، والنسابين والرواة ، واللغويين والنحاة ، والشهود والقضاة ، والأمناء والولاة ، والمتصرفين والكفاة ، والفرسان والأمجاد ، والشجعان والأنجاد ، والجند والقوّاد ، وأصحاب القنص والاُصطياد ، والجواسيس والمتخبرين ، والسعاة والغمازين ، والورّاقين والمعلمين ، والحسّاب والمحرّرين ، والعمال وأصحاب الدواوين ، والأكرة والفلاحين ، والمتكلمين على الطرق ، والواعظين والقصاص ، وأهل الصوامع والخلوات ، والنساك والصالحين ، والعباد والمتبتلين ، والصوفية والمتواجدين ، والأئمة والمؤذنين ، والقرّاء والملحنين ، وأهل النقص والمقصرين ، والأغنياء والمتخلفين ، والشطار والمتقين ، وأصحاب العصبية والسكاكين ، وقطاع الطرق والمتلصصين ، وأهل الخسارة والعيارين ، ولعّاب النرد والشطرنجيين ، والملّاح والمتطايبين ، وأهل النادرة والمضحكين ، والطفيلية والمستطرحين ، والأكلة والمؤاكلين ، والشُّراب والمعاقرين ، والمغنيات والمغنين ، والرقاصين والمخنثين ، وأهل الهزل والمتخالعين ، والبله والمغفلين ، والمفكرين والموسوسين ، والملحدة والمتنبئين ، والأطباء والمنجمين ، والكحالين والفصادين ، والآسية والجيرين ، والشحاذين والمجتدين ، والمجدودين والمحدودين والسعاة والمسافرين ، والمشاة والمتغرّبين ، والسُّياح والغوّاصين ، وسُلّاك البحار والمفازات ، وأهل المهن والصناعات ، والمياسير والفقراء ، والتجار والأغنياء ، والفواضل من النساء ، حرائرهن والإماء ، وخواص الأحجار والحيوانات ، والأدوية والعلاجات ، والأحاديث المفردات ، وطريف المنامات ، وشريف الحكايات ، وغير ذلك من ضروب أحاديث أهل الخير والشر ، والنفع والضر ، وسكان المدر والوبر ، والبدو والحضر ، شرقا وغربا ، وبعدا وقربا .

ثم يقول :

وكان القوم الذين أُستكثرت منهم ، وأخذت ذلك عنهم ، يحكونه فى أثناء مذاكراتهم ، وفى عرض محاراتهم.. نفياً للمساكتة ، واجترارا للمثافنة[1] ، وصلة للمجالسة ، وفتحاً للمؤانسة ، وسيراً لأحاديث الدنيا ماضيها وباقيها ، وتواصفاً لسير أهلها وما جرى فيها ، وتمثيلا بين ما شهدوه منها ، وسمعوه عنها ، وعانوه من تقلبها ، وقاسوه من تصرفها ، وأخبروا به من عجائبها ، ويوردون كل فن من تلك الفنون على حسب ماتقتضيه المحادثة ، وتبعثه المفاوضة ، فأحفظ عليهم ذلك فى الحال . . وأستفيده فى أحوال . فلما تطاولت السنون ومات المشيخة الذين كانوا مادة هذا الفن ، ولم يبق من نظرائهم إلا اليسير الذى إن مات ولم يحفظ عنه ما يحكيه ، مات بموته ما يرويه ، ووجدت أخلاق ملوكنا ورؤسائنا لا تأتى من الفضل ، بمثل ما يحتوى عليه تلك الأخبار من النبل . . بل هى مضادة لما تدل عليه تلك الحكايات من أخلاق المتقدّمين وضرائبهم وطباعهم ومذاهبهم ، حتى أن من بقى من هؤلاء الشيوخ إذا ذكر ما يحفظه من هذا الجنس بحضرة أرباب الدولة ورؤساء الوقت ، خاصة ما كان منه متعلقا بالكرم ، ودالّا على حسن الشيم ، ومتضمنا ذكر وفور النعم ، وكبر الهمم ، وسعة الأنفس ، وغضارة الزمان ، ومكارم الأخلاق ، كذبوا به ودفعوه ، وجعلوه فى أقسام الباطل وأستبعدوه ، ضعفا عن إتيان مثله ، وأستعظاما منهم لصغير ما وصلوا إليه ، وبالإضافة إلى كبير ما احتوى أولئك عليه ، وقصوراً عن أن تنتج خواطرهم أمثال تلك الفضائل والخصال ، أو تتسع صدورهم لفعل ما يقارب تلك المكارم والأفعال . هذا مع أن فى زمانهم من العلماء المحتسبين فى التعليم ، والأدباء المنتصبين للتأديب والتفهيم ، وأهل الفضل والبراعة ، فى كل علم وأدب وجد وهزل وصناعة ، من يتقدّم بجودة الخاطر ، وحسن الباطن والظاهر ، وشدّة الحذق فيما يتعاطاه ، والتبريز فيما يعانيه ويتولاه ، كثيراً مما تقدّمه فى الزمان ، وسبقه بالمولد فى ذلك الأوان ، ويقتصر منهم على الإكرام دون الأموال ، وقضاء الحاجة دون المغارم والأثقال ، فما يرفعون به راسا ،

(١) المثافنة : المحاورة .

ولا ينظرون إليه إلا اُختلاسا ، لفساد هــذا العصر ، وتباعد حكمه من ذلك الدهر ، وأن موجبات الدهر فيه متغيرة متنقلة ، والسنن دارسة متبدلة ، والرغبة فى العلم معدومة ، والهمم باطلة مفقودة ، والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع .

٥ — وهــذه الفقرات التى اُقتبسناها من مقدمة نشوار المحاضرة تصل بنا إلى النتائج الآتيــــة :

الأولى — يظهر أن المؤلف كان قوى الحس ، دقيق الملاحظة ، فكان لذلك يتعقب الأدباء والشعراء والوزراء ، ومن عدا هؤلاء من مختلف الطبقات ، ويعى كل ما يسمع ، ويقيد كل ما يقع له من الأخبار والأشعار والمحاورات والمحادثات ، حتى اُستطاع أن يكون نسيج وحده فى هذا النوع من التأليف .

الثانية — يظهر أن المؤلف كان خصباً فى لغته وإنشائه إلى حد بعيد ، والذى يقرأ مقدمته كاملة يرى كيف كانت مفردات اللغة ومترادفاتها تنثال عليه اُنثيالا ، وإنه ليذكِّر بالجاحظ فى هــذا الباب ، ولا يؤخذ عليه إلا شىء يسير من الالتواء حين يباعد مثلا بين الفاعل والمفعول بطائفة من القرائن المتعاطفة المتواصلة بحيث يضطر القارىء إلى تأمل ما تقدم من التراكيب ليظهر له الربط بين أجزاء الجملة التى قد لا تتم أحياناً إلا بعد عدة سطور ، وربما غلب عليه الإسفاف فى بعض التعابير حين يتعمد السجع ، كقوله فى الــكلمة التى اُقتبسناها آنفا :

« والاشتغال من العامة بالمعاش قاطع ، ومن الرؤساء بلذاتهم البهيمية قانع » .

الثالثة — لم يكن التنوخى من المؤلفين الذين يفردون المتقدمين بالإجادة والإبداع ، ويظنون أنه لا جديد تحت الشمس ، وأن المتقدم لم يترك شيئاً للمتأخر ، ولــكنه يقرر أن فى معاصريه من فاقوا الأولين ، ويقول : « فقد خرج فى أعمارنا وما قاربها من السنين من مكنون أسرار العلم ، وظهر من دقيق الخواطر والفهم ، ما لعله كان معتاصا على الماضين ، وممتنعاً على كثير من المتقدمين »[١] .

---

(١) ص ٨

الرابعة — لم يكن المؤلف راضياً عن الحكام والأمراء من أهل زمانه فهو يراهم من المتخلفين فى طباعهم ومذاهبهم ، ويحكم على أهل عصره بالفساد ، ويرى طباع أهله متغيرة ، ورغبتهم فى العلم معدومة ، وهممهم مفقودة ، ويقول :

« فنحن حاصلون فيما رُوى من الخبر أنه لا يزداد الزمان إلا صعوبة ، ولا الناس إلا شدة ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، وما أحسن ما أنشدنى أبو الطيب المتنبى لنفسه فى وصف صورتنا :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرّهم وأتيناه على الهرم »(١)

ويقول فى مكان آخر من المقدمة :

« ولهذه الحال ما أُنطمست المحاسن فى هــذه الدول ، وردّت أخبار هؤلاء الملوك ، وخلت التواريخ من عجائب ما يجرى فى هذا الوقت : لأن ذوى الفضل لا يفنون أعمارهم بتشييد مفاخر غيرهم وإنفاق نتائج خواطرهم ، مع بعدهم من الفائدة ، وخلوهم عن العائدة ، وأكثر الملوك وذوى الأحوال ، والرؤساء وأرباب الأموال ، لايجودون عليهم فيجيد هؤلاء لهم نسج الأشعار والخطب ، وحوك الرسائل والكتب ، التى تبقى فيها المآثر ، ما بقى الدهر الغابر ، فقد بخل هؤلاء ، وغفل هؤلاء ، ورضى كل واحد من الفريقين بالتقصير فيما يجده ، والنقص فيما يعتمده »(٢) .

٦ — وواضح من هذا أن المؤلف كان ينتظر من أمراء عصره أن يمدوه بالمال ويعينوه على التأليف .

وبهذه المناسبة نذكر أن أعتماد شعراء اللغة العربية وأدبائها على رعاية الملوك والأمراء والوزراء لم يكن من البدع الشاذة التى أنفرد بها العرب فى العصور القديمة ، بل كان سُنّة شائعة فى الشرق والغرب . ويكفى أن يذكر المرء مثلا بلاط فرانسوا الأول أو لويس الرابع عشر أو فريدريك الثانى ليعرف أن شعراء أوروبا وأدباءها كانوا يعيشون فى رعاية ملوكهم ،

---

(١) ص ٧ (٢) ص ٨

و يعتمدون على معونات وزرائهم . وقد انقطعت هذه العادة أو كادت من الشرق والغرب ، وانقبض الملوك والأمراء والوزراء عن تشجيع الكتاب والشعراء والمؤلفين . ولست أنسب انقطاع هذه العادة إلى تغير الطباع وفساد الزمان ، كما فعل التنوخى ، فإن عصرنا غير عصره ، و إنما أنسبها إلى أن الشعراء والكتاب والمؤلفين قد أخذت خلائقهم تستقيم ، وشرعوا يفهمون أن الأدب أعلى وأرفع من أن يكون صاحبه ملحقاً بحواشى الملوك والأمراء . يضاف إلى ذلك أن هذا العصر عصر الشعوب لا عصر الملوك . وللأديب المتفوق ، والشاعر المبدع ، والكاتب البليغ ، ميادين أخرى للشعر والإنشاء والتأليف هى أجدى وأنفع وأقرب إلى الثروة والغنى والجاه من تلك الصلات الوضيعة التى كانت تخفض رءوس أصحابها أمام سدّات الملوك .

* * *

٧ — أشرنا من قبل إلى أن ياقوت ذكر أن التنوخى ابتدأ تأليف نشوار المحاضرة سنة ٣٦ و بينا كيف غاب عن المستر مارجوليوث أن يمحو هذ الخطأ المبين ، ونعود فنذكر أن المستر مارجوليوث حين غفل عن أخذ ياقوت أخذ يؤيده و يبنى عليه أن المؤلف ذكر خبراً سمعه سنة ٣٤٩ ثم أكثر من حوادث سنة ٣٦٠ ثم ذكر حادثا حدث سنة ٣٦١ .

وهذا كله خطأ من حيث الواقع : فإن ورود حوادث وقعت بعد سنة ٣٧ فى صلب الكتاب لا يدل على أنه ألف فى ذلك الحين . والحقيقة أن المؤلف شرع فى وضع كتابه بعد التاريخ الذى ذكره ياقوت وحاول تأييده مارجوليوث بنحو خمس وعشرين سنة ، ولننظر ماذا يقول المؤلف نفسه :

« واتفق أيضاً أننى حضرت المجالس بمدينة السلام فى سنة ستين وثلثمائة بعد غيبتى عنها سنين فوجدتها مُحيلة ممن كانت به عامرة ، و بمذاكراته آهلة ناضرة ، ولقيت بقايا من نظراء أولئك الأشياخ ، وجرت المذاكرة فوجدت ما كان فى حفظى من تلك المخاطبات قديما قد قلّ ، وما جرى من الأفواه فى معناها قد اختل ، حتى صار من يحكى كثيراً مما سمعناه يخلطه بما يحيله و يفسده ، ورأيت كل حكاية مما أُنسيته لو كان باقيا فى حفظى لصلح لفن من المذاكرة ، ونوع

من نشوار المحاضرة ، فأثبتُّ ما بقى علىّ مما كنت أحفظه قديماً ، واعتقدت إثبات كل ما أسمعه من هذا الجنس ، وتلميعه بما يحث على قراءته من شعر لمتأخر من المحدّثين ، أو مجيد من الكتاب والمتأدبين ، أو كلام منثور لرجل من أهل العصر ، أو رسالة ، أو كتاب بديع المعنى أو حسن النظم والنثر ، مما لم يكن فى الأيدى شعره ولا نثره ، ولا تكرر نسخ ديوانه ، ولا تردّت معانى إحسانه ، وما فيه من مثل طرىّ أو حكمة جديده ، أو نادرة حديثة ، أو فائدة قريبة المولد ، ليعلم أن الزمان قد بقّى من القرائح والألباب ، فى ضروب العلوم والآداب ، أكثر مما كان قديماً أو مثله ، ولكن تقبُّلُ أرباب تلك الدول للأدب أظهره ونشره ، وزُهدُ هؤلاء الأئمة فى هذا الأدب غمره وستره » .

فهذه الفقرة واضحة الدلالة على أن المؤلف لم يشرع فى جمع مواد كتابه إلا بعد سنة ٣٦٠ و إيراده لبعض حوادث سنة ٣٤٩ لا يدل على أنه ألفه قبل ذلك كما فصّل مارجوليوث تأييداً لكلام ياقوت[(١)] .

٨ — أما طريقة التنوخى فى التأليف فتتضح من قوله :

« وأوردت ما كتبته مما كان فى حفظى سالفاً ، مختلطاً بما سمعته آنفاً ، من غير أن أجعله أبوابا مبوبة ، ولا أصنفه أنواعا مرتبة ، لأن فيها أخبارا تصلح أن يذاكر بكل واحد منها فى عدة أماكن ، وأكثرها مما لو شغلت نفسى فيه بالنظم والتأليف ، والترتيب والتصنيف ، لبرد واُستثقل ، وكان إذا وقف قارئه على خبر من أوّل كل باب فيه ، علم أن مثله باقيه ، فقلّ لقراءة جميعه ارتياحه ونشاطه ، وضاق فيه توسطه وانبساطه ، ولكان ذلك أيضاً يفسد بما فى أثنائه من الفضول ، والأشعار والرسائل والأمثال والفصول . . . بل لعل كثيراً مما فيها لا نظير له ولا شكل ، وهو وحده جنس وأصل ، واختلاطها أطيب فى الآذان وأدخل ، وأخف على القلوب من الأذان وأوصل»[(٢)] .

---

(١) الواقع أن ياقوت لم يخطىء حتى يتابعه مارجوليوث على الخطأ ، فقد جاء فى ياقوت أن التنوخى ابتدأ نشوار المحاضرة سنة « ٣٦٠ » فكتبها مارجوليوث « ٣٦ » وانبنى على ذلك توهمه أن التنوخى ابتدأ كتابه سنة « ٣٣٦ » .

(٢) ص ٢٩ و ١٠

ولعل القارىء يتنبه هنا أيضاً إلى صنعة هذا الـكاتب فى إنشائه فهى تمضى به أحيانا الى التهافت والإسفاف ، لا سيما إذا لاحظ قوله : « وأختلاطها أطيب فى الآذان وأدخل ، وأخف على القلوب من الأذان وأوصل » فقد أراد أن يجانس ويوازن بين الآذان والأذان فمضى به ذلك الى الغموض ، فضلا عن أنه ليس من المقبول أن يقال : « أخف من الأذان » إذ ليس من سلامة الذوق أن يدّعى المرء أن كلامه أخف على القلوب من كلمة « الله أكبر ، الله أكبر » وهى هى الكلمة الباقية على الزمان . وتلك هفوة تذكر بهفوة المتنبى إذ قال :

يترشفن من فمى قطراتٍ هن فيه أحلى من التوحيد

والمؤلف ، فى الجملة ، يسلك مسلك الأستطراد فينتقل بالقارىء من قصة إلى قصة ، ومن حديث إلى حديث ، بلا ترتيب ولا تبويب . وقد صنع هذا الصنيع غير واحد ممن تقدّموه وعاصره وخلفوه ، وهو منهج له قيمته فى تشويق القارىء ونقله من حال إلى حال ، بين الجد والهزل ، والحلو والمر ، والقديم والطريف .

٩ — والمؤلف مع ذلك يحدثنا أنه أراد أن يقدّم لقرّائه « من آداب النفس ، ولطافة الذهن والحس ، ما تغنيه عن مباشرة الأحوال ، وتلقن مثله من أفواه الرجال ، ويحنكه فى العلم بالمعاش والمعاد ، والمعرفة بعواقب الصلاح والفساد ، وما يفضى اليه أواخر الأمور ، ويساس به كافة الجمهور ، ويجتنبه من المكاره حتى لا يتوغل فى أمثالها ، ولا يتورط بنظائرها وأشكالها ، ولا يحتاج معها إلى إنفاق عمره فى التجارب ، وأنتظار ما تكشفه له السنون من العواقب»[1] .

فهو إذن مقتنع باستفادة القارىء من تجارب من سبقوه ، ونحن نوافقه على ذلك مع تحفظ ، إذ كنا نعتقد أن المرء لا يتفهم جيداً مرامى الحوادث الماضية إلا اذا أتصلت بحوادثه الحاضرة ، ونرى أن الرجل الخالى الذهن من المشاكل العقلية والخلقية والوجدانية والاجتماعية يقرأ مايقع له من تجارب الأوّلين بذهن خامد ، وعقل مشكول ، ولب معقول . أما الرجل الذى أصطدم بحوادث دهره ، ومشاكل عصره ، فإنه يقرأ أحاديث من سبقوه

(١) ص ٩

بعقل يقظ ، وفكر متنبه ، وقلب حساس ، إذ يرى من يواجهه بحقيقة نفسه ، و يحدّثه عن قلبه ، ويراجع معه مشاكل وجدانه ، ومصاعب إحساسه ، ومن هنا نشأ ما نراه من اختلاف التقدير للأثر الفنيّ الواحد : فكم قصيدة وكم رسالة وكم قصة يبكى لها هذا و يسخر منها ذاك ، والغرض هو هو لم يتغير لا فى وضعه ولا فى مرماه ، وإنما تختلف النفوس والقلوب والعقول بحسب ما تمر به من مختلف الأحداث وشتى الظروف : فهنا قلبٌ هادىء وهناك قلبٌ متردّد وهناك قلبٌ مضطرب . ودليل ذلك أيضاً أنك قد تقرأ الرسالة أو القصيدة أو القصة فلا تحرك نفسك ولا تهيج وجدانك ، ثم تعود إلى ما قرأته مرة ثانية فى أحوال مخالفة ، وظروف مغايرة ، فترى ذلك الأثر الفنى الذى لم يرعك فى اللحظة الأولى قد راعك و بهرك وشغلك بنفسك وقلبك حين عدت إليه للمرة الثانية . ودليل آخر هو صلاحية النفس فى الشباب لآثار فنية وأدبية لا توافقها فى حال الكهولة : فللشباب آداب ، وللكهولة آداب ، ومن الخطأ أن يظن أن قيمة الأثر الفنى تقدر بصلاحيته لجميع النفوس ، وقدرته على التأثير فى جميع القراء من شباب وكهول ، ورجال ونساء . ولا يقدر حقيقة ما نقوله إلا من خبر نفسه ، ودرس مشاكل عقله ووجدانه وقلبه ، وتأمل كيف يكون سكون النفس واضطرابها ، وكيف يكون شغل القلب وفراغه ، وعرف أن الغرائز الإنسانية أهول وأخطر وأفزع من أن يوضع لها مقياس ضابط لما تصلح له على اختلاف النوازع وفى جميع الأجيال .

* * *

١٠ — أشرنا من قبل إلى أسلوب التنوخى وصنعته فى الإنشاء ، ونحب أن نعود إليه بشىء من التفصيل .

يعدُّ التنوخى من كبار الكتاب فى زمانه ، وقد استجابت له اللغة وطاوعه البيان ، وحسبُ القارىء أن يعرف أنه انفرد من بين المؤلفين بصياغة كل ما اشتمل عليه كتابه من مختلف الأقاصيص والأسمار والفكاهات . وتلك قدرة عظيمة أن يقصد الكاتب إلى كل ما سمعه فيدوِّنه فى عبارات فصيحة محبوكة الأطراف ، لا قلق فيها ولا اضطراب . على أنه قد أعطانا نماذج من نثره المصنوع الذى عملت فيه الروية ، وصاغه التدبر ، وأملاه الفن على قلمه البليع ،

وفى تلك النماذج القليلة تظهر صنعة التنوخى جيدة باهرة ، تشهد له بالحذق وطول الباع ، و إلى القارىء الـكريم كتابه إلى بعض الرؤساء :

« لا أحوجك الله إلى اقتضاء ثمن معروف أسديته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هى العليا ، وأعاذك من عز مفقود ، وعيش مجهود ، وأحياك ما كانت الحياة أجمل بك ، وتوفاك إذا كانت الوفاة أصلح لك ، بعد عمر مديد ، وسمو بعيـد ، وختم بالحسنى عملك ، وبلَّغك فى الأولى أملك ، وسدّد فيها مضطَربك ، وأحسن فى الأخرى منقلَبك ، إنه سميع مجيب ، جواد قريب»[1] .

وفى ظنى أن هذا الـكتاب أغنى ما يكون عن الشرح والتعليق ، وللقارىء أن يتأمل قوله : « لا أحوجك الله إلى اقتضاء ثمن معروف أسديته » . فإن هذه الجملة تدلنا على فهم الـكاتب لنفوس الـكرام ، فإنه ليس أصعب ولا أعسر من أن يضطر الـكريم الى اقتضاء ثمن المعروف ، لأنه لا ينتظر ثمن المعروف إلا لئام الناس ، وانظر بعـد ذلك تعرضه فى حكمة ورفق إلى الحياة والموت . فإنه لم يطلب لرئيسه ما طلب أبو نواس للأمين إذ قال :

يا أمين الله عش أبدا دم على الأيام والزمن
أنت تبقى والفناء لنا فاذا أفنيتنا فـكن

فتلك أمنية سخيفة أن يدعو الناس بعضهم لبعض بالبقاء والخلود فى دنيا لا بقاء فيها ولا خلود .

و إذا مضينا نتعرف إلى التعابير الجميلة فى كتاب التنوخى وجدناها كثيرة ، فأى جمال فاته فى قوله :

« ونعوذ بالله من الإدبار ، وتغير النعم ، و إيحاشها بقلة الشكر»[1] .

وللقارىء أن يتأمل كيف تستوحش النعم بقلة الشكر ، فإنه تصوير جميل ، آنس الله نعمنا بما يلهمنا من واجب الشكران .

---

(١) ص ٩٧

وأنظر قوله على لسان رجل يخاطب رئيسا أنتهره على البكور إليه :

« ما العجب منك . العجب منى حين ربطت أملى بك ، وأسهرت عينى توقعا للفجر فى البكور إليك ، وأسهرت عيالى وغلمانى ، وتحملت التجشم إليك ، وأنزلت بك حاجتى ، حتى تتلقانى بمثل هذا»(١) .

وعند التنوخىّ ألفاظ متخَيَّرة قلّ أستعمالها اليوم ، مع أنها دقيقة الدلالة على معانيها ، من ذلك قوله على لسان ابن الجصاص :

« قمت البارحة فى الظلمة إلى الخلاء فما زالت أتلحّظ المقعدة حتى وقعت عليها !»(٢) .

فإن كلمة « أتلحظ » أدق من كلمة « أتلمس » التى كثر استعمالها اليوم .

وقوله على لسان بعض الخلفاء فى العزم على إنقاذ رجل طالت عطلته ، وخمل ذكره :

« إذا أقبلنا عليه وندبناه لهذا الأمر العظيم تجدّد ذكره ، وتطرّى أمره»(٣) .

فان كلمة « تطرّى » تعطى صورة جديدة ، فكأن الجاه الخامل ، يماثل العود الذابل ، وكأن إقبال الدنيا يصنع بالرجل المحدود ، ما يصنع الماء بالعود .

وعند التنوخى مرونة فى التعبير وذلك أهم ما يتحلى به صائغ الكلام . وانظر قوله :

« فباكرت اسماعيل فحين رآنى قال : هذا وجه غير الوجه الأمسىّ»(٤) .

يريد : هذا وجه غير وجه الأمس ، والنسبة إلى الأمس قليلة فى الكلام ، مع أنها أدل على معناها من الإضافة وأصرح فى الأداء .

انظر قوله على لسان صديق ينصح صديقه وقد عرض عليه الوالى أن يتقلد القضاء فرفض :

« اتق الله فى نفسك !... إنك تعود إلى بلدك فيقول أعداؤك : طلب القضاء فلما شوهد وُجد لا يصلح فرُدّ»(٥) .

---

(١) ص ٢١٤ (٢) ص ١٨ (٣) ص ٢١٣ (٤) ص ١٢٦ (٥) ص ١٢٦

فقد جمعت الجملة الأخيرة صوراً عديدة من أدق ما يكون من الإيجاز ، والإيجاز لا يقع مثل هذا الموقع إلا من كاتب مَرِن يعرف كيف يقود القلم و يسوس الكلام .

ومن مظاهر المرونة قوله :

« فلما رآنى أبو جعفر أكبر ذلك وتهلل وجهه وقال : إلى عندى ياسيدى إلى عندى »(١) .

ومعروف أن « عند » تنصب على الظرفية ولا تجر إلا بمن . نحو : من عند الله ، فجرها بإلى سيرٌ إلى الحرية فى التعبير .

١١ — فإذا خلَّينا مرونته وتصرفه فى الكلام جانباً ومضينا نستقصى ما أثبته من التعابير العامية وقع لدينا من ذلك شيء كثير . و يجدر بنا فى هذا المقام أن نؤكد ما قلناه فى دراسة أسلوب أحمد بن يوسف المصرى : ونحن نرى أن إدخال بعض التعابير العامية الدقيقة فى اللغة الفصيحة يزيدها ثروة ، والناس لا يلجأون إلى العامية إلا حين يرونها أقرب إلى تصوير أغراضهم فى بعض الأحيان . والعامية هى عنصر من اللغة الفصيحة دخل فى حكم المبتذَل بكثرة الاستعمال ، والكاتب المجيد يستطيع أن يلقى عليها مسحة من الطرافة والجدة بحيث يراجعها رونقها القديم . وسنرى فى هذه الدراسة أصول التعابير الجارية على ألسنة الناس، فإن أكثرها كان فصيحاً ، فلما كثر تداوله أضيف ظلماً إلى لغة العوام وتحاماه كبار الكتاب .

(ا) من ذلك كلمة « الصورة » بمعنى الحالة ، نجدها على ألسنة التجار والفلاحين فنعدها عامية ، ولكنها فى كلام التنوخى كانت فصيحة ، وانظر قوله :

«فدخلنا إليها فحين رأته أكرمته،و بشت به،وسألته عن خبره فصدقها عن الصورة»(٢) .

(ب) والعامة يقولون : «فاتشه» إذا اختبره ليعرف ماعنده من سر أو كفاية ، و يقولون « كسّبه » بتشديد السين إذا فتح له باب الكسب ، وقد وقعت هاتان اللفظتان فى قول التنوخى :

« فلزمه وفاتشه فوجده كاتبا فاستخدمه وكسّبه مالا عظيما »(٣)

---

(١) ص ٢٧١ (٢) ص ١٩١ (٣) ص ٣٥

(ج) ونحن نتهيب أن نكتب « شال المائدة » بمعنى رفعها ؛ لأن القاموس لا ينص إلا على شال به إذا رفعه ، والعامة يقولون بدون تحرج « شالوا الطعام » بمعنى رفعوه. فلننظر كيف وقع هذا التعبير منذ عشرة قرون فى قول التنوخى :

« ماتسمح نفسى بطريق التشعيب على هذا الحِب ، شيلوه»[١] .

وقوله :

« وقام أبو جعفر ، وقمنا ، وشيلت المائدة »[٢] .

وقوله : « فشالنى الجيران إلى منزلى »[٣] .

(د) والعامة يقولون : « أخرج برا » أى إلى الخارج ، وقد ورد هذا التعبير فى قول التنوخى :

« فاخرج إلى برحتى أصعد أكلمك من فوق »[٤] .

(هـ) وفى الأقاليم المصرية تكثر كلمة «روزنة» وهى الفتحة فى السقف أو فى الحائط ، وأكثر الكتاب يتحامون هذه اللفظة ظنا منهم أنها عامية مع أنها موجودة فى كلام التنوخى إذ يقول :

« فخرج وجلس ينتظر أن تخاطبه من روزنة فى الدار إلى الشارع »[٥] .

(و) وكلمة «بطال» كثيرة الوقوع فى لغة التخاطب ، ولكن قلما يستعملها الكتاب. وكانت قديماً مستعملة فى اللغة الفصيحة ، وحكاها التنوخى فقال على لسان أحمد بن محمد المدائنى يحاور بعض الصوفية :

« أخبرنى إذا كنت شيخاً فى معناك ، حلسا فى ذات نفسك ، فأصاب يافوخك تقطيع يعرقب خرزك على سبيل العلم ، وكنت تحت الإرادة ، هل يضر أوصافك شىء من تعطفك بحبل القدرة ، يا بطال!»[٦] .

---

(١) ص ١٤١ (٢) ص ٢٣٢ (٣) ص ١٥٢
(٤) ص ٩١ (٥) ص ٩١ (٦) ص ٥٤

(ز) والعامة يستعملون كلمة «أذية» بمعنى إيذاء ، وقد وقعت فى كلام التنوخى إذ قال:
« فأردت أذية ابن الحارث »(١) .

(ح) وكلمة «صبية» بمعنى فتاة كانت مستعملة فى اللغة الفصيحة ، وقد هجرت اليوم ، وقد جاء فى كلام التنوخى على لسان عريب :
« روّ هاتين الصبيتين الشعر »(٢) .

(ط) وعوام مصر يقولون « جرف الأموال » بمعنى انتهبها ، وهى كذلك فى نشوار المحاضرة فى قصة وقعت فى مصر(٣) .

(ى) والعوام يستخفون حذف نون الرفع فى « يفعلون » و « تفعلين » والتنوخى يجرى ذلك فى اللغة الفصيحة فيقول :
« فبعثت فى جمعها والرسل تكدنى بالاستعجال ، والقهارمة يستبطئونى »(٤) .

(ك) وكلمة «ست» بمعنى سيدة ، كانت مستعملة فى اللغة الفصيحة ، وكان ظنى أنها لم تستعمل إلا فى مصر ، حيث يقدر أنها كلمة مصرية قديمة ، ولكنى رأيتها قد استعملت كذلك فى بغداد ، و إليك الشواهد الآتية :
« فقلت لها ياستى إنى قد عملت أبياتا أشتهى أن تصنعى فيها لحنا »(٥) .
« كنت مملوكا رومياً فمات مولاى فعتقنى فحصلت لنفسى رزقا برسم الرجالة وتزوجت بستى زوجة مولاى ، وقد علم الله أنى لا أتزوجها إلا لصيانتها ، لا لغير ذلك »(٦) .
« فقال لها يوما : بالله ياستى غنى »(٧) .

والمسيو مرسيه يرجح أن كلمة «ستى» مخففة عن «سيدتى» لا أنها منقولة عن «ست» المصرية بدليل استعمالها فى بغداد ، ولست أرى ما يمنع أن تكون انتقلت إلى بغداد عن طريق المصريين .

---

(١) ص ١٣٩ (٢) ص ١٣٢ (٣) انظر ص ٢٦٢ (٤) ص ١٤٣
(٥) ص ١٣٢ (٦) ص ٢٣٦ (٤) ص ٥٥

(ل) والعوام يقولون : « ماعلينا من فلان » وهى فى الأصل عبارة فصيحة ، وانظر قول التنوخى :

«فدخل عليه غلمانه فقالوا : ياسيدنا ! الوزير مجتاز فى شارعنا . فقال : ماعلينامنه! »[١] .

(م) والعامة يقولون أحيانا : « هاتم » فى مكان « هاتوا » وقد وقعت فى كلام التنوخى على لسان المعتضد :

« هاتم أعمدة الخيم الكبار الثقال »[٢] — « هاتم فلانا الطيبى »[٣] .

وفى موطن آخر : « هاتم فلانا الكاتب »[٤] .

وما نريد أن نسرف فى الاستقصاء ، وفيما أسلفناه مايكفى للابانة عن مرونة التنوخى وقدرته على التصرف فى فنون الكلام ، وفى هذه الشواهد مقنع لمن يريد أن يعرف كيف تطورت التعابير ، وكيف امتزج العامى بالفصيح .

* * *

١٢ — بقى علينا أن نشير إلى بعض ما اشتمل عليه نشوار المحاضرة من طرائف الأخبار وهو كما قدمنا يرجع إلى عدة ألوان ، منها الحلو والمر ، والجد والهزل . فمن خير مافيه من الجد ما كتب المؤلف خاصاً بالحسن بن على بن زيد المنجم إذ قال بعد كلام :

« فكنت إذا جئته —وهو إذ ذاك على غاية الجلالة وأنا فى حدّ الأحداث— اختصنى وكان يعجبه أن يقرّظ فى وجهه ، فأفاض قوم فى مدحه ، وذكر عمارته للوقوف والسقايات ، و إدارة الماء فى ذنابة المسرقان[٥] وتفريقه مال الصدقات على أهلها ، وذنبت[٦] معهم فى ذلك فقال لى هو : يابنى ! أرباب هذه الدولة إذا حدثوا عنى بهذا وشبهه قالوا : المنجم إنما يفعل هذا رياء ، وما أفعله إلا لله تعالى ، و إن كان رياء فهو حسن أيضاً ، فلم لا يراءون بمثل هذا الرياء ؟ ولكن الطباع خست حتى الحسد أيضاً ، كان الناس قديماً إذا حسدوا رجلا

---

(١) ص ٢١٤ (٢) ص ٧٤ (٣) ص ١٤١ (٤) ص ٤٥ (٥) المسرقان : نهر بخوزستان ، والذنابة بالضم وتكسر طرف الوادى . (٦) على الصواب : ذهبت معهم فى ذلك .

على يساره حرصوا على كسب المال حتى يصيروا مثله ، و إذا حسدوه على علمه تعلموا حتى يضاهوه ، و إذا حسدوه على جوده بذلوا حتى قيل إنهم أكرم منه[١] ... فالآن لما ضعفت الطباع ، وصغرت النفوس ، وعجزوا عن أن يجعلوا أنفسهم مثل من حسدوه فى المعنى الذى حسدوه عليه ، عدلوا إلى تنقص المبرز ، فإن كان فقيراً سعوا[٢] على فقره ، و إن كان عالما خطّئوه ، و إن كان جواداً قالوا هذا متاجر بجوده و بخّلوه ، و إذا كان فعالا للخير قالوا هذا مراء»[٣] .

ففى هذه الفقرات تحليل دقيق لطبائع الناس ، ونرى المنجم مع حبه لحسن السمعة و بعد الصيت يذكر أنه يعمل مايعمل ابتغاء مرضاة الله . والواقع أن الموفّقين لعمل الخير قلما يسامون من حب المدح والثناء ، والطبيعة البشرية أضعف من أن تقبل على الخير المطلق ، فكل محسن يحب أن يذكر إحسانه بالجميل ، مهما أخلص لله ، وعلى الجماهير أن تفهم ذلك ، وأن لاتضن على المحسنين بمظاهر التبجيل ، فإنه لاشىء أقتل لنوازع الخير فى نفوس الكرماء من نكران الصنيع ، وقد أفصح عن هذا يحيى بن طالب إذ قال :

يزهّدنى فى كل خير صنعتهُ إلى الناس ماجربت من قلة الشكرِ

ونرى المنجم بعد ذلك يعود إلى نقد طباع الناس فيذكر أنها خست وضعفت ، وأن رذائلهم كان فيها قديما شىء من النفع ، حين كان الحسد يحملهم على مباراة من يحسدون فى ميادين العلم والسخاء والمال . فقد كان الحسد من البواعث على الجد والتحصيل ، ثم خبت ناره ، وصار علالة يتلهى بها ضعفاء العزائم وصغار النفوس .

١٣ — ومن طرائف الأقاصيص الجدية مانقله مروياً عن وهب بن منبه أنه كان فى عهد بنى إسرائيل خمّار يسافر بخمر له ، ومعه قرد ، وكان يمزج الخمر بالماء نصفين ، و يبيعه بسعر الخمر ، والقرد يشير إليه أن لاتفعل ، فيضربه به ، فلما فرغ من بيع الخمر وأراد الرجوع إلى بلده ركب البحر وقرده معه ، وخُرجٌ فيه ثيابه والكيس الذى جمعه من ثمن الخمر ، فلما سار فى البحر

(١) حتى قيل : كذا فى الأصل وظاهر أن السياق يستوجب « حتى يقال » .

(٢) علها شنعوا . (٣) ص ١٣ و ١٤

استخرج القرد الكيس من موضعه ، ورقى الدقل وهو معه حتى صار فى أعلاه ، ورمى إلى المركب بدرهم و إلى البحر بدرهم ، فلم يزل ذلك دأبه حتى قسم الدراهم نصفين ،فما كان بحصة الخمر رمى به إلى المركب فجمعه صاحبه ، وما كان بحصة المـاء رمى به إلى البحر فهلك ، ثم نزل عن الدقل[1] .

ونشير أولا إلى أن هذه الأقصوصة تخرج عن شرط نشوار المحاضرة ،و إن لم يشر المؤلف إلى ذلك ، فإن من المؤكد أن أخبار وهب بن منبه وأكثر الإسرائيليات كانت دونت قبل القرن الرابع .

ومغزى هذه الأقصوصة واضح : فإن واضعها يريد أن يقرر فى الأذهان أن فكرة الخير والشر والحرام والحلال لاتخفى على أحد ، وأنها مفهومة عند القرود ، فى وقت لم يكن فيه من يرى أن القرد أصل الإنسان ، أو هو إنسان فاته الترقى والنهوض ، والأقصوصة ظريفة فى وضعها وفى الخيال الذى صبّت فيه ، ولا سيما إذا لاحظنا أن عند القرد جوانب مضيئة فى ذهنه ، وأن له من الشمائل الإنسانية نصيباً غير قليل ، وفى الأقصوصة تسجيل لطرائق اليهود فى جمع المال عن طريق المكسب الخبيث ، وكذلك يفعلون .

٤ : ١ — ومن الأخبار الدالة على قوة النفس أن أخا بابك الخرمى المازيار قال له لما أُدخلا على المعتصم . يابابك ! إنك قد عملت ما لم يعمله أحد ، فاصبر الآن صبراً لم يصبره أحـد . فقال له : سترى صبرى ! فلما صارا بحضرة المعتصم أمر بقطع أيديهما وأرجلهما بحضرته ، فبدىء ببابك فقطعت يمناه ، فلما جرى دمه مسح به وجهه كله حتى لم يبق من حلية وجهه وصورة سحنته شىء ، فقال المتعصم : سلوه لم فعل هذا ؟ فسئل فقال : قولوا للخليفة : إنك أمرت بقطع أربعى وفى نفسك قتلى ، ولاشك أنك لا تكويها وتدع دمى ينزف إلى أن تضرب عنقى ، فخشيت أن يخرج الدم منى فتبقى فى وجهى صفرة يقدر لأجلها من حضر

---

(١) ص ١٠٠

أنى قد فزعت من الموت ، وأنها لذلك لا من خروج الدم ، فغطيت وجهى بما مسحته عليه من الدم حتى لاتبين الصفرة .

فقال المعتصم : لولا أن أفعاله لاتوجب العفو عنه لكان حقيقاً بالاستبقاء لهذا الفضل وأمر بإمضاء أمره فيه : فقطعت أربعته ثم ضربت عنقه ، وجعل الجميع على بطنه وصب عليه النفط وضرب بالنار ، وفعل مثل ذلك بأخيه فما كان فيهما من صاح أو تأوه[1] .

وأمثال هذه الأخبار تفسر لنا السر فى عنف الثورات التى كانت تهدد الحكومات الإسلامية ، فقد كانت هناك مطامع ، وكانت هناك عزائم أقسى من الصخر وأمضى من السيوف،وفى أخبار تلك النفوس الطاغية مايفسرلنا أيضا كيف كانت الحكومات الإسلامية تعتمد دائما على قادة من الطغاة المستبدين ، فإنه لايفلّ الحديد إلا الحديد ، ولكل عراقٍ حجاج !

١٥ — وفى نشوار المحاضرة أخبار كثيرة من أريحية الوزراء وسخائهم ، من ذلك مانقل المؤلف عن أبيه أنه سمع القاضى أباعمر يقول :

عرض إسماعيل القاضى وأنا معه على عبيد الله بن سليمان رقاعا فى حوائج الناس فوقع فيها ، فعرض أخرى وخشى أن يكون قد ثقل عليه فقال له : إن جاز أن يتطوّل الوزير أعزه الله بهذا . فوقّع له . فعرض أخرى وقال : إن أمكن الوزير أن يجيب إلى هذا . فوقع له . فعرض أخرى وقال : إن سهل على الوزير أن يفعل ذلك . فوقع له . فعرض أخرى وقال شيئا من هذا الجنس ، فقال له عبيدالله : يا أبا إسحاق ! كم تقول إن أمكن و إن جاز و إن سهل ؟ من قال لك إنه يجلس هذا المجلس ثم يتعذر عليه فعلُ شىء على وجه الأرض من الأمور فقد كذبك ، هات رقاعك كلها فى موضع واحد . قال : فأخرجها إسماعيل من كمه وطرحها بحضرته فوقع فيها . وكانت مع ماوقع فيه قبل الكلام نحو ثمانين رقعة[2] .

---

(١) ص ٧٥ (٢) ص ٤٦

وفى مثل هذا الخبر إن صحت تفاصيله ما يبين كيف تضعضعت الحكومات الإسلامية وتداعت فى زمن قليل ، فقد كان الوزراء مفتونين بالمجد الكاذب والحمد المصنوع .

ولا ننس أن أمثال هذه الرقاع التى كان يمضيها الوزراء بلا تردد كانت ترجع إلى الاستجداء وكان الوزراء يعرفون أن أتباعهم يستفيدون من قضاء حوائج الناس ، وفى نشوار المحاضرة نصوص تدل على أن الرشوة كانت شيئا مفهوما فى مكاتب الوزراء(١) .

١٦ — وشيوع الرشوة بين طبقات الحكام يفسر لنا غوامض التاريخ الإسلامى ، فقد أكثر المؤرخون القول فى نكبة البرامكة مثلا وردّوها إلى أصول أكثرها صحيح ،ولكن أكبر الأسباب فيما أفترض هو إقبال ذوى الحاجات على البرامكة ، وكان لذلك الإقبال ربح مستور يجهله بعض الناس و يعرفه الرشيد . ولهذا السبب عينه نرى كيف كان الخلفاء يستصفون أموال عمالهم ووزرائهم حين يغضبون عليهم ،وكانت مصادرة أموال الحكام المغضوب عليهم لاتجد من يتفزع لها من الجمهور الذى كان يعرف أنها جمعت من الحرام .

ونستطيع أن نفهم من هذا كيف كان فريق من ذوى الدين والمروءة ينفر من المناصب العمومية ، وخاصة منصب القضاء . وأهل العصر الحاضر لا يفهمون هذا حق الفهم : لأن رقابة الجمهور عن طريق الصحافة كبحت كثيراً من جشع الحكام والوزراء ، وكشفت عورات كثير من المنافقين الذين يدعون نقاء الأيدى والسرائر ، والله بما يضمرون عليم !

١٧ — ومن طريف مافى نشوار المحاضرة حديث القاضى أبى يوسف مع زوجته حين كان فقيراً ، فقد نقل أن أبا يوسف صحب أبا حنيفة لتعلم العلم على فقر شديد ، فكان ينقطع بملازمته عن طلب المعاش ، فيعود إلى منزل مختل ، وأمر قلّ ،فطال ذلك ، وكانت امرأته تحتال له مايقتاته يوما بيوم ، فلما طال ذلك عليها خرج إلى المجلس وأقام فيه يومه ، وعاد ليلا فطلب مايأكل ، فجاءته بغضّارة مغطاة ، فكشفها فإذا فيها دفاتر ، فقال:ماهذا ؟ قالت : هذا ماأنت مشغول به نهارك أجمع ، فكل منه ليلا ! فبكى و بات جائعاً ، وتأخر من غد عن المجلس

(١) انظر ص ٤٣ و ٤٥ و ٤٦

حتى احتال ما أكلوه ، فلما جاء إلى أبى حنيفة سأله عن تأخره فصدقه ، فقال : ألا عرّفتنى فكنت أمدك ؟ ولا يجب أن تغتم ، فإنه إن طال عمرك فستأكل بالفقه اللوزينج بالفستق المقشور . قال أبو يوسف : فلما خدمت الرشيد واختصصت به قُدّمتْ بحضرته يوما جامة لوزينج بفستق ، فحين أكلت منها بكيت وذكرت أبا حنيفة ، فسألنى الرشيد عن سبب ذلك فأخبرته .

وهذا الحديث من أظرف مايتأسى به طلبة العلم الذين يرجون أن يغنيهم الله بعد فقر ، ويرفعهم بعد خمول .

وقد ذكر التنوخى السبب الذى اتصل به أبو يوسف بالرشيد[1] ، فأرانا أن أبا يوسف كان يتلطف بعض الشيء فى فتاويه ليخرج أميره من بعض المحرجات . وهذا بالطبع جانب ضعيف من أبى يوسف ومن الرشيد ، ولكن أين نحن من أولئك الناس! أولئك قوم كانوا يشعرون بمعانى الحلال والحرام ، ويلتمسون لضمائرهم وسائل الهدوء فى ظلال التأويلات . أما أهل العصر الحاضر فقد انصرفوا عن استفتاء الفقهاء فيما يحزبهم من أزمات الضمائر والقلوب وصار أكثر الناس لايبالى ماحرمت الشرائع وما حلت من مختلف الشئون ، وعاد الأمر كله إلى القوانين الوضعية ، بحيث لاخطر على الجانى إلا أن يؤخذ ، ولا عاصم لصاحب الحق إلا أن يكون بيده عهد مكتوب !

١٨ — ويظهر من نشوار المحاضرة أن المتقدمين كانوا يستكثرون أن يكون للقضاة هوى وتشبيب ، فقد جاء فيه أن أبا إسحاق الزجاج قال :

« كنا ليلة بحضرة القاسم بن عبيدالله وهو وزير فغنت جاريته بدعة :

أدلّ فأكرم به من مدلّ ومن ظالم لدمى مستحلّ
إذا ما تعزز قابلتهُ بذل وذلك جهد المقلّ

(١) ص ١٢٤ و ١٢٥

فأدت فيه صنعة حسنة ، فطرب القاسم عليه طربا شديداً ، واستحسن الصنعة والشعر ، وأفرط فى وصف الشعر ، فقالت بدعة : يامولاى ! إن لهذا الشعر خبراً أحسن منه . قال : ماهو ؟ قالت : هو لأبى حازم القاضى ! قال : فعجبنا من ذلك مع شدّة تقشف أبى حازم وورعه وتقبضه . فقال لى الوزير : بالله يا أباإسحاق بكِّر إلى أبى حازم واسأله عن هذا الشعر وسببه ، فباكرته وجلست حتى خلا وجهه ولم يبق إلا رجل بزىّ القضاة عليه قلنسوة ، فقلت له : بيننا شىء أقوله على خلوة . فقال : قل ، فليس هـذا ممن أكتم ، فقصصت عليه الخبر ، وسألته عن الشعر والسبب ، فتبسم وقال : هذا شىء كان فى الحداثة قلته فى والدة هذا (وأومأ إلى القاضى الجالس فإذا هو ابنه) وكنت إليها مائلا ، وكانت لى مملوكة ولقلبى مالكة ، فأما الآن فلا عهد لى بمثله منذ سنين ، ولا عملت شعراً منذ دهر طويل ، وأنا أستغفر الله مما مضى . قال : فوجم الفتى وخجل حتى ارفضّ عرقا . وعدْت إلى القاسم فأخبرته فضحك من خجل الابن وقال : لو سلم من العشق أحد لكان أبوحازم[١] .

والفكرة فى ذاتها مقبولة ، فإن العشق والتشبيب من ألوان المرح التى قضى العرف باستهجان صدورها من القضاة . على أن عواطف الحب كانت تهتاج كثيراًمن قضاة المسلمين وكتب الأدب مملوءة بأخبارهم فى هذا الباب . من أجل ذلك أرجح أن عجب ذلك الوزير وأصحابه من غزل أبى حازم لم يكن مصدره أنه قاض لايصح أن يتغزل ، وإنما كان لأن أبا حازم اشتهر بالتقى والتصون حتى صار من المستغرب أن ينسب إليه حب أو تشبيب . أما خجل الإبن فمصدره فيما أظن أن أباه صرح بأن أمه كانت مملوكة له ، وأنه تزوجها طاعة للهوى .

١٩ — وفى نشوار المحاضرة أخبار تدل على أن الغناء لم يكن من العمل المقبول، بحيث كان القيان يحتجْن إلى التوبة إن كتب الله لهن التوفيق . وفى ذلك يقول المؤلف :

« أخبرنى من أثق به أن إبراهيم بن المدبر قال : كنت أتعشق عريب دهراً طويلا ، وأنفق عليها مالا جليلا ، فلما قصدنى الزمان ، وتركت التصرف ولزمت البيت ، كانت هى

(١) ص ٥٠ و ٥١

أيضاً قد أسنّت وتابت من الغناء وزمنت ، فكنت جالساً يوما اذ جاء بوابى وقال : طيار عريب بالباب ، وهى فيه تستأذن . فعجبت من ذلك وارتاع قلبى إليها ، فقمت حتى نزلت بالشط فاذا هى جالسة فى طيارها ، فقلت : يا ستى ! كيف كان هذا ؟ قالت : اشتقت إليك ، وطال العهد ، فأحببت أن أجدده وأشرب عندك اليوم ! قلت : فأصعدى . قالت : حتى تجىء محفتى ، قال : فاذا بطيار لطيف قد جاء وفيه المحفة ، فأجلستْ فيه وأصعدتها الخدم ، وتحدثنا ساعة ، ثم قدم الطعام فأكلنا ، وأحضر النبيذ فشربتُ وسقيتها فشربتْ ، وأمرتْ جواريها بالغناء ، وكان معها منهن عدّة محسنات طياب حذّاق ، فتغنين أحسن غناء وأطيبه ، فطربت وسررت ، وقد كنت قبل ذلك بأيام عملت شعراً ، وأنا مولع فى أكثر الأوقات بترديده وإنشاده ، وهو :

إن كان ليلك نوما لا انقضاء لهُ   فإن جفنىَ لا تثنى لتغميض
كأن جنبىَ فى الظلماء تقرضه   على الحشية أطراف المقاريض
أستودع الله من لا أستطيع لهُ   شكوى المحبة إلا بالمعاريض

فقلت لها : يا ستى ! إنى عملت أبياتا أشتهى أن تصنعى فيها لحنا . فقالت : يا أبا إسحاق ! مع التوبة ؟ قلت لها : فأحتالى فى ذلك » إلى آخر الحديث[1].

والواقع أن الغناء كان موضع خلاف عند علماء المسلمين ، ولهم فى إباحته وتحريمه أقاويل نجد صداها عند الغزالى مثلا فى كتاب الإحياء . وكره الغناء والتحرّز من مصاحبة المغنين والمغنيات قد تغلغل فى كثير من البيئات الإسلامية ، وكان فى فقهاء الإسلام من يقول بتكسير آلات الموسيقى والطرب ، وقد شرحت ذلك ونقدته فى كتاب (الأخلاق عند الغزالى) ويكفى أن أشير هنا إلى أن ثورة الوهابيين على الموسيقا وآلاتها ليس إلا بعثاً لما كان يراه كثير من فقهاء الأقدمين . فالفكرة قديمة ، وإنما تتطور وتتحول من وضع إلى وضع وفقاً لتطوّر الظروف وتحوّل الأذواق .

---

(١) انظر ص ١٣١ - ١٣٣

١٤ – حكاية أبي القاسم البغدادي

١ — مؤلف هذه الحكاية هو أبو المطهر الأزدى محمد بن أحمد ، وهو رجل يذكر قليلا جداً فى المجموعات الأدبية ، ولم نستطع الوصول إلى معرفة أخباره فى كتب التراجم ، ولكن المسيو ميتس (Mez) هدانا فى المقدمة الألمانية التى صدَّر بها طبعته لهذه الحكاية إلى أن الأزدى كان يعيش فى صميم القرن الرابع .

والظاهر أنه ولد فى الربع الأخير من القرن الثالث فقد كان فى سنة ٣٠٦ من الفتيان الماجنين ، بدليل قوله : « ولَعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة ، وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ أربعمائة وستين جارية ، فى الجانبين ، وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ، ما يفوت حدود الوصف ، هذا سوى ما كنا لا نظفر بهم ولا نصل إليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم ، وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب إلا اذا نشط فى وقت ، أو ثمل فى حال ، وخلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه . . الخ »[1] .

وفى مكان آخر يتحدّث عن مجلس أنس قضاه مع ابن الحجاج وأبى محمد اليعقوبى وأبى الحسن بن سكرة[2] ، وهم من أعيان القرن الرابع ، عاش أوّلهم إلى سنة ٣٩١ ، وثالثهم إلى سنة ٣٨٥ فحكاية أبى القاسم البغدادى وضعت بلا ريب فى أواسط القرن الرابع .

٢ — وليست حكاية أبو القاسم التى وضعها أبو المطهر الأزدى إلا فنونا من القول أراد بها وصف المجون وتصوير الماجنين من أهل بغداد وأصفهان . فهى ليست قصة بالمعنى المعروف ، ولكنها مجلس واحد يطَّرد فيه القول من فن إلى فن فى دعابة وظرف . (وأبو القاسم

---

(١) ص ٨٧ (من حكاية أبى القاسم البغدادى) .　　(٢) ص ٨٨

البغدادى) بطل القصة رجل جمع أدوات النصب والأحتيال والنفاق . وهو يشبه من بعض الوجوه أبا الفتح الاسكندرى فى مقامات بديع الزمان : فإنا نراه يدارى أهل المجلس و ينافقهم فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى إذا رآهم على أستعداد للهزل أنقلب لاعباً متمرداً عارفاً بغرائب الخلاعة والمجون(١) .

ولنعط الكلمة للمؤلف ليحدّثنا عن منهج كتابه :

« ... بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله والصلاة على سيدنا محمد النبى وآله والسلام ، أما الذى أختاره من الأدب فالخطاب البدوى والشعر القديم العربى، ثم الشوارد التى أفترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء ، والنوادر التى أخترعتها قرائح المحدَثين من أعيان الشعراء ، هذا الذى أحصاه من أدب غيرى وأقتنيه وأتحلى به وأدعيه وأرويه من ملح ما تنفسوا به وتنافسوا فيه ، و يصدق شاهدى عليه أسفار لنفسى دونتها ، ورسائل سيرتها ، ومقامات حضرتها . ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستخشنة ، وعبارات [عن] أهل بلده مستفصحة ومستفضحة ، فأثبتها خاطرى لتكون كالتذكرة فى معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم ، وكالأنموذج المأخوذ عن عاداتهم ، وكأنها قد نظمتهم فى صورة واحدة يقع تحتها نوعهم ، وتشترك فيها أشخاص ذلك النوع على أحد واحد بحيث لا يختلفون فيه إلا باختلاف المراتب ، وتفاوت المنازل ، ولعلى صرت فى ذلك كما قال أبو عثمان الجاحظ فى فصل من كلامه :

(١) ولنلاحظ أن شخصية أبى القاسم وشخصية أبى الفتح من الشخصيات الخرافية ، وصدورها على طريق التكنية لون من التفخيم أو التلميح ، والكنيةظاهرةعربية ، ولا يشترط فيها أبوه فقد يكنى الصبى أحيانا وهو لم يستحق أن يكون أبا ، وربما ولد له فسمى ولده بغير ما كنى به ، وتكنية الصغير تفاؤله بالحياة وطول العمر والولد ، وتكنية الكبير تعظيم له عن التسمية باسمه ، وقد تجعل العرب للرجل الكنية والكنيتين والثلاث على مقدار جلالته فى النفوس (راجع نقد النثر ص ٤٢ و٤٣) .

وفى معجم الأدباء لياقوت ــ ص ١٨٨ ج ٥ ــ فى أخبار الكسائى كلام صريح فى الافتخار بالكنية وعيب التكنية فى مجالس الخلفاء ، لما فى ذلك من مظاهر الزهو والخيلاء .

وقد عرضنا للتكنية بكلام مفصل فى الجزء الثانى ص ٢٨٨ ، ٢٨٩

« و إنا مع هذا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً ، وكذلك تكون حكايته للمغربى والخراسانى والأهوازى والسندى والزنجى ، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم ، فأما إذا حكى كلام الفافأة فكأنه قد جمع كل طرفة فى كلام كل فأفاء فى الأرض فى لسان واحد ، كما أنك تجده يحاكى الأعمى بصورة ينشئها بوجهه وعينيه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله ، فكأن هذا الحاكى قد جمع ما هو مفترق فيهم ، وحصر جميع طرف حكايات العميان فى أعمى واحد . ولقد كان فلان[1] يقف بباب الكرخ بحضرة المكارين فينهق فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا نهق ، وقد يسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا ينبعث له ولا يتحرك كحركته لصوت هذا الحاكى ، وكأنه قد جمع جميع النغم التى تناسب نهيق الحمار فجعلها نهيق حمار واحد ، فارتاحت لسماع ذلك نفوس جميع الحمير. ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالمَ الصغير سليل العالمَ الكبير لأنه يصور بيده كل صورة ،و يحكى بفهمه كل صوت ، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم ، و يأكل اللحم كما تأكل السباع ، و يأكل الحب كما تأكل الطيور ، ولأن فيه أشكالا من جميع أجناس الحيوان » .

و إذ قدّمت هذه الجملة فأقول : هذه حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله إلى آخره ، أو ليلة كذلك ، و إنما يمكن أستيفاؤها وأستغراقها فى مثل هذه المدّة ، فمن نشط لسماعها ولم يعدّ تطويل فصولها وفضولها كلفة على قلبه ، ولا لحنا يرد فيها من عباراتهم قصور معرفة يعيِّرنى بها ، لا سيما مع أنتهائه منها إلى الحكاية البدوية الأدبية التى أردفتها بها ، ومع قول أحد البلغاء (ملح النادرة فى لحنها ، وحلاوتها فى قصر متنها ، وحرارتها فى حسن منطقها) كلفت له من البسط جهده المتعب علىّ وغيرة الممتع[2] له . ثم إن لى قدمة شوط أستعيره وأستغيره من شعر أبى عبد الله بن الحجاج وهو قوله :

---

(١) هو فى البيان والتبيين (أبو دبوبة الزنجى) ص ٣٩ ج ١
(٢) فى هذه العبارة ركاكة وغموض .

يا سيدى ، دعوةَ مَن شعرهُ يجرى على العادة والعرف
لا بد أن يغفل عن لفظة طريفــة يأتى بها سخفى

٣ — وهذه المقدّمة تبين غرض المؤلف : فهو يريد وصف الحياة فى بغداد لعهده ، وسياق الحكاية صريح فى أنه قصد إلى وصف جانب خاص هو جانب العبث والمجون . والطريف فى منهج المؤلف هو شعوره بأهمية تدوين العادات والألفاظ ، وإشارته إلى أن اللحن قد يكون أصرح من الفصاحة فى عرض الملح والفكاهات ، وأن السخف قد يكون وسيلة إلى طريف الألفاظ فى بعض الأحيان .

وأكثر ألفاظ البغداديين فيما دونه أبو المطهر غير قاموسية ، أعنى أنها لم تدوّن فى المعاجم . وأبو المطهر يقصد إليها قصداً : فهو رجل مثقف العقل يجرى فى درس اللغة على منهاج . من ذلك ما أنطق به المحدّث :

— يا أبا القاسم ، تعرف شيئاً من السباحة ؟

فيجيب :

— يا أحمق ! يا سوادىّ لا يحسن أن يركب البقر ، وتركى لا يحسن أن ينزع القوس! أنا والله أسبح من الضفدع ومن التنين ؛ أعرف من السباحة أنواعا لم يحسنها قط ، سمك ولا بط ، أعرف منها الشق والذرع والغمر والأستلقاء والتزاور والشكلى والطاووس والعقربى والمقرفض والموزون والكامل والطويل والمقيد . كان أستاذى فى جميعها ابن الطوّا والزنابيرى .

وفى هذا الحوار يعلمنا أبو المطهر أسماء العوم ، وهى أسماء لا نجد شرحها كاملا فى القواميس ، ولا نجد فى أهل زماننا من يعرف ما لها من مدلول . وقد تكون أسماء العوم فى أندية الرياضة المصرية مما يمت إلى لغات أجنبية .

ولا يقف أبو المطهر عند هذا . بل يُنطق المحدّث بألفاظ الملاحين فيقول :

— يا أبا القاسم ، أريد أن أعرف شيئاً من ألفاظ الملاحين وأحوالهم .

فيقول :

— يحتاج أن نعرف ألوان المراكب من السفن والسميريات ، والمراكب العماليات ، والزبازب ، والكمندوريات ، والبالوع ، والطبطاب ، والجدى ، والجاسوس ، والورحيات ، والقوارب ، والخيطيات ، والشلملى ، والجعفريات[1].

وللحديث بقية فيها استقصاء لألفاظ الملاحين ، وهى خطة تذكر بما صنعه المسيو كولان Colin حين عاشر الملاحين المصريين ليعرف الألفاظ الفنية لأجزاء السفن المصرية . فانظر كيف سبق أبو المطهر صاحبنا كولان بعشرة قرون !

ويتصل بهذا تدوينه لمظاهر الحضارة فى بغداد ، فقد سخر من أهل أصبهان إذ يجد السالك محال كريهة الأسماء مثل : « موضع المجذومين » و « درب الصُّم » و « درب العُمْى » ويقول : « هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل من أرى ببغداد من الوراقين ، والخطاطين ، والخياطين ، والخراطين ، والزرادين ، والمزوقين ، والطباخين ، والطحانين ، ومن لا يحصى عدداً من الحذاق المعجزين ؟ »[2].

٤ — ولأبى المطهر صور فنية يقصد إليها رغبة فى الدعاية ، من ذلك قوله فى وصف منافق :

« ويقبل خلال الأحاديث على من يليه من اليمين فيفاوضه ويتسمع من أحاديثه ويستهش لها ويقول :

يا سيدنا ، ذا والله ليس كلام البشر ، إنما هو سحر يولّه القلوب والأسماع كلام والله كبَرد الشراب ، وبُرد الشباب ، بل كالنعيم الحاضر ، والشباب الناضر ، قِطَع الزهر ، وعُقَد السحر ، ماهو إلا كالبشرى بالولد الكريم ، إلى سمع الشيخ العقيم ، حسن الديباجة، صافى الزجاجة ، حلو المساغ ، يعافَى به المريض ، ويجبَر به المهيض ، يقود سامعه إلى السجود ، ويجرى مجرى الماء

---

(١) راجع ص ١٠٧ و ١٠٨ (٢) ص ٢٤

فى العود ، قد اُتسع له بحمد الله مَشْرع الإطناب ، واُنفرج عنه مسلك الإسهاب ، فهو ينثر الدرّ على الدرّ .

فيقول الذى على يساره : فى أى شىء أنتم ؟ فيغمز إليه بعينه و يقبل عليه و يقول :

يا سيدنا ! أنا فى محنة صلعاء بلا طاقة شعر ، فى كلام أثقل من الجندل ، وأمرّ من الحنظل ، هذيان المحموم ، وسواد المهموم ، لمثله يتسلى الأخرس عن كلمه ، و يفرح الأصم بصممه . كلام والله يصدى الخاطر ، إن لم يُعشِ الناظر . كلام تتعثر الأسماع من حزونته ، وتتحير الأوهام من وعورته ، لا مساغ له فى الأسماع ، ولا قبول من الطباع .

ثم يلتفت إلى اليمين فينشده صاحبه الذى يليه شعراً فيقول :

أعيذه بالله ؟ ما أصفى نظره ، وأنقى درره ، وأغزر بحره ، وأحكم نحته ونجره[1] .. لوجُعل خلعة على الزمان لتحلى بها مكاثراً ، وتجلى فيها مفاخراً . شعر والله يختلط بأجزاء النفس ، الآذانُ والله تصير أصدافا لهذا الدر .

و يلتفت عنه ثانيا إلى اليسار فيقول :

يا سيدنا ! أما كنت تسمع ذا الشعر البارد العبارة ، الثقيل الأُستعارة ، وتلك الإشارة الفاترة يا سيدنا ، بلا حلاوة ولا طراوة . ليس إلا إقواء وابطاء وأخطاء . لو شعر ، أعزه الله بالنقص لما شعر !

ثم يقبل على اليمين ثالثاً و يأخذ فى تقريظه و يقول :

سيدنا بحمد الله كريم الأخلاق والأطواق ، المجد لسان أوصافه ، والشرف نسب أسلافه ، ما ورث المحاسن عن كلالة ، ولا ظفر بها عن ضلالة . شجرة طيبة أصلها فى الماء ، وفرعها فى السماء ، ثم هو بحمد الله فى الكرم والجود بحر لا يظمأ وارده ولا يمتنع بارده ، لو أن البحر قدره ، والسحاب مده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه ، وفى العلم البحر المد لسبعة أبحر ، كأنما يومٌ بحمد الله منه أعمار سبعة أنسر . شجرة فصل عودها أدب ، وأغصانها

---

(١) فى الأصل (نحره) بالحاء المهملة .

علم وثمرتها عقل ، هذا بحمد الله مع خُلق كنسيم الأنوار ، على صفحات الأشجار ، فى نفحات الأسحار ، خلائق فى ذكاء الخلوق[١] ، وشمائل فى صفاء الشَّمول ، أذكى من حركات الريح بين الريحان ، جِد كعلوّ[٢] الجد ، وهزل كحديقة الورد ، سبحة ناسك ، وتفـاحة فاتك ، وعشرة يكاد ماؤها يقطر ، وصحوها من الغضارة يمطر . ثم المنظر الذى تبهر وضاءته العيون ، متبرقع والله ببديع الجمال ، متعوذ من عين الكمال . متخلل مخائل الأمثال . أحلى والله من الوبل ، على المحل ، الخَلق ورضّى ، والخُلق رضّى ، والفضل مضّى[٣] . محاسن أنا والله منها فى روضة وغدير ، بل فى جنة وحرير .

ويلتفت إلى من يليه ويقول على العادة فى النفاق والخبث :

«ذا والله سخنة عين، عصارة لؤم، فى فؤاد خبث ، كالكمأة لا أصل لها ثابت ، ولا فرع نابت ، لو قُذِف والله الليل بلؤمه لطفئت أنوار نجومه . لا يبضّ حجره ، ولا يثمر شجره ، حجة لا تروى ، وزند لا يورى ، قالب جهل مستور بثوب ، يعثر فى عنان جهله ، ويتساقط فى ذبول خُرقه ، صخرة خلقاء لا تستجيب للمرتقى ، وحية صماء لا تتسع إلى الرقى ، كأنى إذا ناظرته أسفر منه عَودا ، وأهز طودا ، ثقيـل الطلعة ، بغيض التفصيل والجملة . يحكى ثقل الحديث المعاد ، ويمشى على العيون والأكباد ، هو والله فى العين قذاة ، وبين النعل والأخمص حصاة ، كأن وجهه على الحقيقة هول . المطلع النحس يطلع من جبهته ، والخل يقطر من وجنته . وجه يشق على العين ، وكلام لا يسوغ فى الأذن ، ما كنت أدرى والله أيحدِّث أم يحدِث ، مدخل أكله أمذر[٤] من مخرج ثفله ، لا يفرق والله بين محساده ومفساده .. الخ»[٥] .

وأوّل ما يلاحظ فى هذه الصورة كثرة القسم . وكان ذلك لعهد المؤلف من طبيعة البغداديين . والصورة عادية من حيث السياق : فليس فيها تحليل لطبيعة المنـافق غير هذا الوضع البسيط وهو التلون والتقلب ، والظهور بوجهين ، وتلك أظهر ما فى شيم المنافقين .

(١) الخلوق بفتح الخاء الطيب . (٢) فى الأصل (غلو) بالغين المعجمة . (٣) مضىء وخفف للسجع . (٤) أمذر : أخبث ، وبيضة مذرة : فاسدة (٥) راجع ص ١١٣ و ١١٥

وليس لأبى المطهر يدٌ فى تلوين هذه الصور : فهى جملة من المحامد والمقابح جمعها من ألفاظ معاصريه ، وكنا أشرنا فى النص الفرنسى إلى أنه اقتبسها من كتب الثعالبى ، ويظهر لنا الآن أن الثعالبى هو الذى أُعتمد على أبى المطهر فى نظم هذه الصورة الفنية .

٥ — ومن هذا الباب ما كتبه فى وصف الثقيل :

« يا أول ليلة الغريب ، إذا بعد عن الحبيب ، ياطلعة الرقيب ! يايوم الأربعاء فى آخر صفر ، يالقاء الكابوس فى وقت السحر ، يا خَرَاجا بلاغلة ، ياسفراً مقروناً بعلة ! يا أخلق من طيلسان ابن حرب ، ياأشأم على نفسه من ضرطة وهب! ياأبغض من قدح اللبلاب فى كف المريض،وأنكر من نظر المفلس فى وجه الغريم البغيض! ياأنتن من الكنيف فى سحر الصيف ، وأثقل من طلعة البغيض على الضيف ! ياوجه المستخرج فى يوم السبت ، يا إفطار الصائم على الخبز البحت ! ياأبرد من الشمال فى كانون ، وأوسخ من فراش الجرب المبطون ! ياأقذر من ذباب على جعس(١) رطب،وأحقر من قملة فى أذن كلب ! ياأقذر من جفنة الدباغين، وأنتن من ريح القصابين ! يا أبلد من حضيض الحمام ، وأنتن من حانوت الحجام! يا أقذر من طين السماكين ! ياأوحش من شخص الظالم فى عين المظلوم،وأكره من صوت البوم إذا صك سمع المحموم ، يا أبرح من غم الدّين ، وأشد من وجع العين ، وأوحش من بكرة يوم البين ! يا ليلة المسافر فى كانون الآخر ، على أكاف بائس ، وبرد قارس ! يا أذل من ناسج برد ، ودابغ جلد ، وراكب قرد ، وسائس عرد ! يا أثقل من طفيلى يعربد على الندماء ، ويقترح أنواع الغناء ، ويتشهى بعد أكل الغذاء والعشاء ، ألوان الصيف فى الشتاء ، مجشما للساقى ، قاطعاً على المغنى ، يواثب ويدنى(٢) . يا أشد على الأحرار من تطاول الحجاب ، وعبوس البواب ، وجفاء الحجاب ، وسوء المنقلب والإياب ! يا أشد من كربة صاحب المتاع الكاسد ، وأضيق من قلب الكاشح الحاسد ، وأكرب من الاستماع إلى المغنى البارد ! يا أكره من هجرات الصديق ، ومن النظر إلى زوج الأم على الريق ، ومضيق الطريق ، من سوء القضاء ، وجهد البلاء ، وشماتة الأعداء ،

---

(١) الجعس : الرجيع . (٢) فى رسائل الخوارزمى : « يزنى » .

وحسد القرباء ، وملازمة الغرماء[١] ، وخيانة الشركاء ، وملاحظة الثقلاء ، وملابسة السفهاء ومساءلة البخلاء ، ومعاداة الشعراء»[٢] .

وقد أشرنا فى النص الفرنسى إلى أن هذه الصورة منقولة عن رسالة للخوارزمى، ونرجح الآن أن الخوارزمى هو الذى حاكى أبا المطهر فى وصف الثقيل ، لأن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣ أو ٣٩٣ وأبو المطهر كان شاباً ماجناً فى سنة ٣٠٦ فمن المستبعد أن يكون عاش طويلا بعد انتصاف القرن الرابع[٣] .

وقد عندنا فوازنا بين الرسالتين : رسالة أبى المطهر ورسالة الخوارزمى فوجدناهما تتوافقان فى ألفاظ وتختلفان فى ألفاظ . وفى العبارات المتقاربة تظهر الدقة فى جانب الخوارزمى ، فأبو المطهر يقول :

«ياأنتن من الكنيف، فى سحر الصيف»

والخوارزمى يقول :

« يا كنيف السجن فى الصيف »

وهى عبارة أقذر وأشنع .

ورسالة الخوارزمى طويلة جدا ، ولكن هيهات أن يصل إلى ما وصل إليه أبو المطهر من الإفحاش والإقذاع فإنه نثرأهاجيه فى كتابه نثر الشوك . وهذه الأهاجى البشعة من مظاهر الحضارة فى بغداد ، ونعيذ القارىء أن يدهش من ذلك ، فإن الحضارات تقتضى فنوناً من المناقب والمثالب لاتستطيعها البداوات . وعيوب أصحاب الحرف والصناعات ، ورذائل المترفين ومساوى الموسرين لاتُعرف إلا فى الحواضر المزهرة ، ومن أجل ذلك اتخذنا أهاجى أبى المطهر عنواناً على قوة الحضارة فى بغداد .

---

(١) فى الأصل (القرباء) . (٢) راجع ص ١٢٠

(٣) وقد ورد وصف الثقيل على هذا النحو أيضاً فى نثر بديع الزمان (انظر المقامة الدينارية ص٧٩ ، ٨٠ طبع استامبول) .

وهل يستطيع البدوى أن يفهم كيف تكون القذارة فى جفنة الدباغين،وريح القصابين، وطين السماكين ؟ هيهات ! فتلك وأمثالها بلايا لا يعرفها إلا الحضريون !

٦ — ومن طريف الصور ماجرى به قلمه فىوصف الجمال ، وهو كأهل عصره يتحدث عن جمال النساء وجمال الغلمان ، ففى الفن الأول يقول :

« وذكاء البغداديين ومجونهم أكثر من أن يحصى وأشهر من أن يذكر ، فما ظنك بخرعوبة من بنات الملوك قد جمعت الذكاء مع الملاحة ، والفطنة مع الصباحة . . . قد أطرّ الفتاء[1] شاربها ، وزوى الإباء حاجبها ، ورخم ألفاظها،وفتر النعيم ألحاظها ، وأرهف الظرف أعطافها ، وألانت النعمة أطرافها ، ولذ للراشف مقبلها ، واغتص بالبرنىّ مخلخها ، واطرد ماء النعيم بين رياض وجنتها ، وترقرق جريال الشباب على صفحاتها ، وتورد مع صبغ الحياء خدها ، واهتز من نضارة الصبا قدها ، وشخص للطراوة نهدها ، وارتجت من الشحم روادفها وتشربت أنوار الحسن سوالفها ، ثم أعيدت ساخطة على محبها ، وقد قطب التيه جبينها ، وشمخت النخوة بعرنينها ، وطفقت تعدد عليه ذنوبه بأناملها المترفة ، وتأبى قبول معاذيره المزخرفة ، حتى إذا انتهى عاشقها فى الاستكانة والخضوع ، وبل أكمامه بسوارب الدموع ، أقرت متبسمة عن شتيت الدر ، ونضحت بلطيف كلامها على ذلك الحرى والحر . ثم أقبلت نرجستاها تدمعان رحمة لعاشقها المبتلى ، فترى والله حباب الدموع ؛ أو خمر الخجل ، ونفساً تموت فتحييها بزاد من القبل ، وتجشمت بعد ذلك زيارة فى ملاءة من الظلام ، ووافته وهو سادر فى ساعة الأحلام ، وقدسرى أمامها أرج المسك الفتيق ، وعبق الجوّ منها بريّا الراح العتيق ، وانثنت متمايلة وقد بل البهر غلائلها ، وفتَّر الأين[2] مفاصلها ، وأرعد الوجد فرائصها وغمز المشى أخماصها ، وجعلت تمتن عليه بإلمامها ، وتدّعى فضل غرامها ، وتناسمه من

(١) الفتاء : طراءة السن ، قال الشاعر :

إذا عاش الفتى سبعين عاما * فقد ذهب البشاشة والفتاء

وفى الأصل (الغناء) وهو تحريف . (٢) الأين : التعب .

أحاديثها بما هو أقر لعينه ، وأشهى إلى نفسه ، من طول بقائها ، و بلاغ نعمائهـــا ، تدوى بألحاظها ، وتداوى بألفاظها ، تردى بمقلتها ، وتحيي بقبلتها... الخ[١]» .

وفى الفن الثانى يقول :

« كم تشغلنى يا أبله ، وتسألنى عن الأباطيل ، وتقطع كلامى بما لايفيدك ؟ ما أرى والله على رأس أحدكم غلاما نظيفا غنج الحركات ، حلو الشمائل ، خنث الأعطاف ، بابلى الطرف، يمشى بخصر دقيق ، وردف ثقيل ، غنت عليه المناطق ، ودل على حسن صنعة الخالق ، خده جلّنار[٢] ، وعيناه نرجس،وشار به زمرّد،وشفتاه مرجان أو عقيق ، وثغره در وريقه رحيق كأنه دينار منقوش ، أو جرعة عسل ... لو جذب عضو منه أنفطر ، أرقّ من نسيم الهواء ، وألذ من الماء بعد الظمأ ، كأنه طاقة ريحان ، أو غصن بان ، أو قضيب خيزران ، أو طاقة آس ريان ، كأن جبينه هلال ، وكأن حاجبه خط بقلم ، كأن عينيه عينا جؤذر ، وكأن أنفه حدّ سيف ، وكأن وجنته الخمر ، أو لون الراح ، أو حمرة التفاح . أحسن من نور زهر الربيع الباكر على الغصن الروىّ . أحسن من الروض المطور . كأن شاربه طراز بنفسج على ورد جنى ... كأن شار به زئبر الخز الأخضر ، وعذاره طراز المسك الأذفر ، على الورد الأحمر ، إذ تكلم يكشف حجاب الزمرد والعقيق ، عن الدر الأنيق ... كأن فمه حلقة خاتم ، وكأن ثغره البرد ، أو أقحوان تحت غمامة . كأن فاه الخمر ، نبت فيه الدر ، كان عنقه إبريق فضة... كأنما لبس بدنه قشور الدر ، كأنه فضة قد مسها ذهب، كأن بطنه قبطية ،وساقه بردية ، وقدمه لسان حية . كأن وجهه الشمس ، وكأنه دارة القمر ، وكأنه المشترى ، وكأنه الزهرة ، وكأنه الدرة ، وكأنه الغمامة . أطهر من الماء الزلال ، وألذ من معانقة الخيال، وأزهر من النار ، وأزكى من الأرض التى تنبت البنفسج ... كالظبى الغرير ، والقمر المنير ، والغصن النضير ، والمهاة على الغدير ... الخ»[٣] .

---

(١) ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) الجلنار : زهر الرمان ، وهو فارسى معرب .

(٣) ص ٦٥ و ٦٦

وهذه الصورة أيضاً منقولة عن معاصريه من كتاب القرن الرابع ، ودليل ذلك أنها خلت من الرباط الوثيق الذى يجمع بين أواصر الإنشاء المتين . فهى أوصاف حشرت حشراً ولم تكلف الكاتب إلا التقاطها من أزاهير الأسجاع ، بحيث يصعب التمييز بين ما نقله وما أبتدعه . و إن كنا نجد جودة القصص فى مثل قوله يصف غلام ابن عرس :

« كان إذا حضر ألقى إزاره وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستفتحوا ، فإنى ولدكم ، بل عبدكم ، أخدمكم بغنائى ؛ وأساعدكم على خصى وغلائى ، من أرادنى مرة واحدة أردته ألف مرة ، ومن أحبنى رياء أحببته إخلاصاً ، ومن مات لى مت عليه . لِمَ أبخل عليكم بحسنى وظرفى ؟ ولِمَ أتعسر عليكم ؟ و إنما خلقت لكم ! ولِمَ أتطاول عليكم ؟ وأنا غداً مضطر إليكم إذا بقل وجهى ، وتدلى سبالى ، وتولى جمالى ، وتكمش خدّى ، وتعوج قدّى . حاجتى والله إليكم غداً أشد من حاجتكم إلىّ اليوم . لحا الله سوء الخلق ، وشراسة الطباع ، وقلة الرعاية والحفاظ ... الخ »[١] .

٧ — وقد وصف الخمر فى أماكن متفرقة من حكايته أظهرها ما جاء فى صفحة ١٠٩ وصفحة ١٣٢ وهى كذلك صفات نجدها عند معاصريه ، فلا موجب لعرضها فى هذا الفصل ونشير إلى أننا استظرفنا وصفه للخمر بأنها «أرق من دين أبى نواس ! »[٢] .

وهو مأخوذ من قول أبى نواس نفسه فى وصف الصهباء :

عتقت فى الدن حتى   هى فى رقـــة دينى

٨ — وقد يلقاك أبو المطهر بنظرات فلسفية يعلل بها غلبة المجون على الناس ، فقد وصف وصف أحد المؤلفين فى زمانه بأنه كان إذا سمع غناء تمرغ فى التراب ، وهاج ، وأزبد ، ونعر واستعر وعض بنانه ، وركل برجله ، ولطم وجهه ألف لطمة فى ساعة . وهنا يسأل السامرون :

---

(١) ص ٥٨   (٢) وجاء فى ١٣٢ «نشاط الشراب يطوى على مافيه من الخطأ» نشاط تحريف ، وصوابه (بساط) و « متابعة الأبطال ، تترك الشيوخ كالأطفال » والأبطال ، محرفة والصواب (الأرطال) و« يأخـذ من ثقلهم ، ويضحك من عقلهم » و (ثقلهم) محرفة ، والصواب (نقلهم) .

— يا أبا القاسم ! كل هذا يجرى لسماع غناء ؟

فيقـــــول :

— هذه صورة إذا استولت على أهل مجلس وجدت لهـا عدوى لا تملك ، وغاية لا تدرك ؛ لأنه قلّ ما يخلو الإنسان من صبوة ، أو صبابة ، أو حسرة على فائت ، أو فـكر فى متمنًّى ، أو خوف من قطيعة ، أو رجاء لمنتظر ، أو حزن على حال . فالناس كأنهم على جديلة واحدة فى هذه الحال[١] .

٩ — وقد عرض لفـكاهات البغداديين ونوادرهم فى غير موضع ، وهى فى الأكثر فكاهات ماجنة لا تحسن روايتها فى هذا الـكتاب ، ولا بأس من إيراد هاتين النادرتين :

استعرض رجل جارية مليحة وتوقف عن شرائها لعرج كان بها فقالت : إن كنت تريد جملا تحج عليه فما أصلح لك ، وإن كنت تريد جارية للمتعة فالعرج لا يمنعك من ذلك[٢] .

وقال آخر لجارية : ليتك أمسيت تحتى ! فقالت : نعم يا سيدى ، مع ثلاثة أُخر ![٣] أى إذا كان على الجنازة .

وفى الـكتاب قصص كثيرة عن مجون أهل بغداد وخلاعة مغنيهم وقيانهم ، وأوصاف سابغة لسهراتهم ومجالس لهوهم وأنسهم ، ذلك كله بأسلوب جميل جذاب يحمل الفارغين على تشهى اللهو والمجون ، وكأنما أراد المؤلف أن يجعل تلك القصة مرجعاً لأكثر المعانى الهزلية ، فلم يترك باباً من أبواب الدعابة إلا طرقه ، ولم يدع معنى من معانى الخلاعة إلا ألم به . وأحسبه حشر فى كتابه أقذر ما روى من الشعر المـاجن الخليع .

ولهذا النوع من التأليف قيمته على أى حال ، فهو لون من ألوان الأدب تحتاج إليه النفس فى ساعات الملال .

١٠ — وفى الـكتاب ألفاظ لا تزال حية على ألسنة عوام المصريين ، كقول شاعر فى وصف ثقيل :

---

(١) ص ٧٨ ، ٧٩ (٢) ص ٧٥ (٣) ص ٧٦

يا كل شيء وَحِشٍ مهولِ   يا رأس خنزير ووجه غولِ[1]

والشاهد فى (شيء وحش) .

وقول آخر :

يا سفل النـــاس وأوباشهم   من بين صفعان إلى ضارط[2]

والشاهد فى (أوباش) وهى مقلوبة عن (أوشاب) .

وقول أبى القاسم :

« ياسفل العالم ! إذا أسكرتمونى فمن يزنى حينئذ بأم هذا الديوث الذى أنا فى داره » .

وقول شاعر :

ويكِ سِـــتى كلمينى قبـــل أن أُبصَر مُثْله[3]

وعوام المصريين يقولون : « فلان عليه حتة لسان » يعنون أن له لساناً طويلا ، أى ثرثاراً . ومثل هذا التعبير ورد فى بيت ماجن تقبح روايته فى مثل هذا الـكتاب .

١١ — وجملة القول إن كتاب أبى المطهر الأزدى سخيف ، ولـكنه مع سخفه ظريف ، والمؤلف خليق بأن يوصف بما رواه لأحد الشعراء :

شيخٌ سخيفٌ ولـكن يأتى بســـخفٍ مليحِ

وهناك قصيدة رائية لأبى دلف الخزرجى من شعراء القرن الرابع اسمها القصيدة الساسانية[4] وهى فى الشعر كحكاية أبى القاسم فى النثر كلتاهما تصف أخلاق الأوباش وتحكى ألفاظهم . ومراجعةُ هذين الأثرين مفيدةٌ لمن يعنيه أن يعرف ما أهملت المعاجم من ألفاظ الجماهير السوقية . وبكل مدينة أحياء ماجنة تتفرد بألفاظ وتعابير تمثل مافيها من شواذ الأخلاق ، وفى القاهرة اليوم ناس يسمون (أولاد البلد) لهم كنايات وإشارات لا يفهمها الخواص ، كالذى يقع لأهل (Belleville) من أحياء باريس .

---

(١) ص ١١٩   (٢) ص ١٢٤   (٣) ص ١٢٦

(٤) تجد هذه القصيدة مشروحة فى يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٧٦ — ١٩٢

الفهرس المفصل (١)

نقد النثر الفنى

	صفحة
عناية النقاد بالشعر وانصرافهم عن النثر	١٧
كيف شغل النقاد بنثر القرآن .	١٧
طائفة من الكتب الخاصة بالنثر ونقده	١٧
الموازنة بين الشعراء والكتاب . .	١٨
مظاهر إيثار الشعر على النثر فى البيئات العربية . . .	١٩
المفاضلة بين الشعر والنثر . .	١٩
نقد رأى الثعالبى . .	٢٩
رأى ابن المعذل فى حياة الشعراء .	٢٠
وصية أبى تمام للبحترى ودلالتها على أحوال الشعراء النفسية .	٢١
رسالة الشاعر إلى العالم .	٢١
نقد رأى ابن رشيق .	٢١
أثر النزعة الشخصية فى أحكام النقاد .	٢٢
نقد رأى أبى هلال العسكرى .	٢٣
الرسائل والخطب فن واحد أو فنان متقاربان . . .	٢٣
الموضوعات هى التى تحدد الصياغة الفنية	٢٥
نقد رأى المسيو مرسيه فى فهم خطاب معاوية	٢٥
الجمع بين الشعر والنثر وفقاً لموجبات المعانى والأغراض . .	٢٥
كلمة حاسمة فيما يصلح للشعر وما يصلح للنثر	٢٦
غلبة الشعر على كتاب القرن الرابع .	٢٦
نماذج من شعر الصاحب وابن العميد وبديع الزمان .	٢٧
نقد رأى القلقشندى . .	٢٧
خلاصة القول فى الشعر والنثر . .	٢٩
دواعى الشعر لا تزال تزخر بها الحياة .	٢٩
الغرض من تأليف هذا الكتاب .	٣٠

(١) ليس الغرض من هذا الفهرس استقصاء موضوعات الكتاب ، ولكن الغرض إرشاد القارىء إلى أهم الموضوعات التى عرض لها المؤلف بالنقد والتحليل .

البـــاب الأول

تطور النثر من عصر النبوة إلى القرن الرابع

صفحة

١ — النثر الجاهلى

هل كان للعرب نثر فنى فى عصور الجاهلية ؟ . . . ٣٣
نقد رأى الأستاذ خليل مطران . ٣٣
نقد رأى المسيو مرسيه والدكتور طه حسين . . ٣٣
خطب أهل الجاهلية . . . ٣٤
كان للجاهلين نثر فنى ولكنه ضاع . ٣٤
نقد حديث خنافر الحميرى . . . ٣٥
خطبة قس بن ساعدة موضوعة . . ٣٥
خطب وفود العرب عند كسرى موضوعة . . . ٣٦
هل كان كسرى يتكلم العربية ؟ وهل كان عند النعمان ديوان إنشاء ؟ ٣٦
المحاورات المنسوبة إلى أهل الجاهلية . ٣٧
ما حفظ من الشعر أكثر جداً مما حفظ من النثر ٣٧
ضياع خطب الإسلاميين أنفسهم لقلة التدوين . . . ٣٧
القرآن من شواهد البلاغة الجاهلية . ٣٨
خطأ المسيو مرسيه والدكتور طه فى دعواهم أن ابن المقفع أول كاتب فى اللغة العربية . . ٣٨
خطأ من ظن أن القرآن لا هو شعر ولا هو نثر . . . ٣٨

صفحة

أين نضع القرآن من عهود النثر فى اللغة العربية ؟ ٣٩
سر اللغة هو فى طريقة الأداء لا فى أعيان الألفاظ . . . ٣٩
عرض القرآن لما كان فى عصره من المعضلات العقلية والاجتماعية والروحية ٤٠
ليس القرآن مجموعة أناشيد ومزامير يرتلها المسلمون وإن اشتمل على سور قصيرة مسجوعة للدعاء والابتهال . ٤٠
خلو القرآن من الشعر الموزون . . ٤١
نظام الآيات يخالف نظام النثر المرسل ونظام السجع . . ٤١
القرآن يسوق القصص وقد يكرر القصة الواحدة ٤١
تبتدئ بعض السور بألفاظ غير مفهومة اختلف فى تأويلها المفسرون . ٤١
رأى المسيو بلانشو فى فواتح السور القرآنية ٤١
نظم القرآن نظما غنائياً وكان ترتيله ملحوظاً فى أوضاعه النثرية . ٤٢
القرآن لا يلتزم السجع . ٤٢
الابتداء بالبسملة ٤٢
الأسلوب يختلف بين السور المكية والمدنية ٤٢
تصوير القرآن لما كان يعرف الجاهليون من الحقائق الأدبية والاجتماعية والدينية ٤٢

صفحة

كان للعرب نثر فنى قبل أن يتصلوا بالفرس واليونان . ٤٣

٢ — نشأة النثر الفنى

يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفنى وصل إلى العرب من الفرس ويرى الدكتور طه أنه وصل إليهم من اليونان ، وهذه مدرسة قديمة ترجع إلى رينان ٤٤
تأثر العرب بالفرس فى حياتهم الأدبية ٤٥
القرآن يفيض بالصنعة والزخرف . ٤٥
من الواجب أن يجعل ميدان النضال عصر النبوة لا العصر العباسى . ٤٥
كيف يتعذر فى الوقت الحاضر درس القرآن دراسة تحليلية . . . ٤٥
القرآن أثر عربى صرف لم يتأثر بالفرس ولا باليونان ٤٦
الزخرف طابع أصيل فى اللغة العربية ٤٧
هل كانت اللغة الأدبية التى سبقت الإسلام تخالف كثيراً لغة القرآن ؟ . ٤٧
نشأة العلوم العربية . . . ٤٧
كان البديع موجوداً وتطور على ألسنة الشعراء . . ٤٨
لم يكن العرب أميين بالدرجة التى يصورهم بها أكثر الباحثين . . ٤٨
كان الجاهليون يعرفون النقد الأدبى ٤٨
كان الإسلام تاجاً لنهضة علمية ، وأدبية وسياسية ، وأخلاقية ، واجتماعية ، وفلسفية ٤٨

صفحة

الحياة الأدبية والاجتماعية لعهد النبى لم تصور بصورتها الحقيقية إلى الآن . ٤٩
كيف ضاعت آثار الوثنيين والنصارى واليهود ٤٩
كيف ضاعت آثار حزب المعارضة لعهد الرسول . . ٥٠
ضياع أكثر آثار النبى وأصحابه . . ٥٠
كان للعرب فى عصر النبوة أدب يمثل طور التحول والانتقال . ٥٠
كان للعرب أدب يقرب فى أسلوبه وروحه من أسلوب القرآن وروحه . . ٥١
تسمية العصر الذى سبق القرآن «بالجاهلى» تسمية دينية فقط ، وإلا فهو عهد معرفة ونور . . ٥١
كيف استمسك العرب المسلمون بأهداب الأدب الجاهلى وعدوه وحده المرجع فى ضبط أساليب اللغة العربية . . ٥١
كيف كان الأدب الجاهلى يصنع ويباع فى الأسواق . . ٥١
الجاهليون فى رأينا هم سكان الحواضر ، وكانت لهم آداب وعلوم وفنون . ٥١
الأدب الجاهلى لم يضع إلا عند المتأخرين . . . ٥٢
فى المكاتب الشرقية والغربية آثار جاهلية لم تدرس إلى اليوم . . . ٥٣
كيف وأد المسلمون بعض آيات الأدب الجاهلى ٥٣
تشاؤم الخلفاء من روايه طائفة من الأدب الجاهلى ٥٤

صفحة

شاهد من الأدب المصرى الحديث الذى تناساه الناس عامدين . . . ٥٤
ليس أبو الأسود أول من وضع النحو كما يعتقد الأزهريون ، وليس النحو أثراً من اتصال العرب بالسريان والروم كما يظن المستشرقون . ٥٥
رأى ابن فارس فى قدم العروض . . ٥٥
رأيه فى معرفة القدماء بأصول التصريف ٥٦
ليس ابن المعتز أول من وضع علم البديع ٥٦

٣ — النثر الفنى فى العصر الإسلامى

كيف أيقظ الإسلام العرب وأحيا أدبهم ٥٧
الخلاف بين المهاجرين والأنصار وقيام الأحزاب السياسية أثرا فى النهضة النثرية . ٥٧
عمق النثر بفضل اتصال العرب بالأمم الأجنبية . . ٥٧
حرص أمراء العرب على تربية أبنائهم تربية بدوية . . . ٥٨
كيف كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يبتدئون الرسائل . . ٥٨
أثر القرآن فى إحياء البلاغة العربية ومناقشة رأى المسيو مرسيه فى دعوى تجنب العرب محاكاة القرآن . ٥٨
الإيجاز والإطناب ومراعاة ظروف الخطاب . ٥٩
لم يكن الكتاب والخطباء جميعاً موفقين إلى ترك الفضول . ٥٩
رأى ابن قتيبة فى الإيجاز والإطناب . ٥٩
كتاب يزيد بن الوليد . . ٦٠

صفحه

نقد رأى الأستاذ أحمد الزيات . . ٦٠
عبد الحميد بن يحيي أول من نقل تقاليد الفرس إلى العربية . . ٦٠
هل كانت شخصية عبد الحميد بن يحيي خرافية ؟ . . ٦٠
السجع لم يلتزم فى النثر الإسلامى . . ٦١
جهد واصل بن عطاء ودلالته على إجادتهم للنثر . . . ٦١
اهتمام الكتاب ببسط المعانى وتأكيدها ٦١
رسالة الحسن البصرى إلى عمر بن عبد العزيز . . ٦١
مشاورة المهدى لأهل بيته . ٦٢
نقد أسلوب الجاحظ . . ٦٢
الخيال فى كلام الخطباء والكتاب . . ٦٣

٤ — أطوار السجع

خطأ المسيو مرسيه والدكتور طه حسين ٦٤
السجع من مميزات البلاغه الفطرية . ٦٤
شواهد من السجع فى اللغة الفرنسية . ٦٥
شواهد من السجع فى أسماء الشهور عند الفرنسيين والمصريين . . ٦٥
السجع من خصائص اللغة القرآنيه . ٦٥
تشابه صور الترتيل عند المسلمين والنصارى واليهود . ٦٦
أمثلة من سجع القرآن . ٦٦
السجع فى الأحاديث النبوية . ٦٧
السجع فى خطب الخلفاء . . . ٦٨

	صفحة
نقد رأى المسيو ديمومبين فى نهج البلاغة	٦٩
رسالة على لسان عمر يخاطب بها أبا عبيدة	٦٩
السجع فى خطب خلفاء بنى أمية	٧٠
السجع فى لغة الزهاد والنساك فى العصر الأموى	٧٠
نقد ما رأى المسيو مرسيه من كراهة معاوية للسجع	٧١
ابن المقفع كان يسجع ، وكذلك عبد الحميد	٧١
شاهدان من نثر عبد الحميد	٧٢
شاهد من الكلام الموزون عند ابن المقفع	٧٢
ميل الأذواق العربية إلى إيثار السجع	٧٢
ماوضع من الأحاديث على ألسنة الأعراب	٧٣
التزام السجع فى وصايا الآباء للأبناء	٧٤
وصية عبد الله بن شداد وعلقمة بن لبيد	٧٤
زعماء الوافدين على الخلفاء يؤثرون السجع	٧٤
العجاج فى حضرة عبد الملك بن مروان	٧٤
صعصعة بن صوحان فى حضرة معاوية ابن أبى سفيان	٧٥
كان السجع من وسائل العفاة والمجتدين	٧٧
بديع الزمان اقتبس طريقة السائلين	٧٨
أعرابى يلاحى أحد الفتيان	٧٩
أعرابى وقف على قوم فمنعوه	٧٩
رأى الرقاشى فى إيثار السجع	٨٠
خطأ صاحب (الريحان والريعان) فى الخلط بين الخطب والموزون	٨٠
رسالة كلثوم بن عمرو العتابى	٨١
ظهور السجع فى الكتابة والتأليف	٨١
كتاب فى ذم أحمد بن الخصيب	٨١
كلمة ابن المعتز فى مدح مدينة سر من رأى وذم مدينة بغداد	٨٢
شواهد من كلامه المسجوع	٨٢
السجع فى عناوين فصول كتاب الزهرة	٨٣
السجع فى عناوين الكتب	٨٤
السجع فى بعض كتب ابن المقفع	٨٤
السجع فى عناوين كتاب الموشى	٨٥
شاهد من سجع الوشاء فى كتابه	٨٥
أسجاع على فصوص الخواتم	٨٥
السجع فى الغزل والوصف والهجاء	٨٦
السجع فى كلام الجاحظ	٨٧
ماهو المزدوج	٨٨
دفاع الجاحظ عن السجع	٨٩
الحقائق المستخلصة من كلام الجاحظ	٨٩
رأى الخفاجى فى السجع	٨٩
القرآن أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم	٩١
شاهد مسجوع من كلام قطرى بن الفجاءة وآخر لخطيب من آل صوحان	٩١
كان الكلام يوضع على ألسنة الرواة مسجوعا	٩٢
دفاع أبى هلال العسكرى عن السجع	٩٢
رأى الحريرى فى الإتباع ، وشىء من شواهده فى اللغة العامية عند المصريين	٩٣
السجع فى الشعر وهو الترصيع	٩٤
دفاع ابن الأثير عن السجع	٩٥

صفحة

السجع من أسرار الإعجاز فى القرآن ٩٦
القرآن لايكاد شىء يخرج منه عن السجع والموازنة . . ٩٦
هل كان عصر الجاحظ بريئا من السجع ؟ . ٩٦
شواهد من سجع الجاحظ ٩٧
رأى قدامة بن جعفر فى السجع ٩٧
رأيه فى سجع أهل القرن الرابع ٩٨

صفحة

السجع فى بعض ماترجم المتقدمون من الفارسية واليونانية والعبرية . ٩٩
درس السجع ضرورى فى بناء هذا الكتاب . . . ١٠٠
السجع يعطل حركة الفكر والعقل فى كثير من الأحيان . . ١٠٠
السجع فى العصر الحاضر . ١٠١
رأى ابن أبى الحديد ورأى شوقى فى السجع . ١٠١

الباب الثانى

خصائص النثر فى القرن الرابع

١ — خصائص نثرية

هل فى القرن الرابع خصائص نثرية ١٠٥
إيثار البديع ١٠٥
التزام السجع فى جميع الرسائل حتى المطولة ١٠٦
تضمين الرسائل أطايب الشعر ومختار الأمثال ١٠٦
الكتابة فى الموضوعات التى كانت خاصة بالشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف ١٠٧
رسالة بديع الزمان فى ذم أحد القضاة ١٠٧
رسالته إلى شاب عادى يستميل فؤاده بعد أن عزل وضاع صباه . . ١٠٩
عدم التقيد بصيغة خاصة فى بداية الكتب ١١٠
شواهد مختلفة ١١١
خصائص النثر فى القرن الرابع ليست إلا فنونا تطورت على الزمان ١١٢

٢ — السجع والازدواج

طرائق الكتاب فى إيثار السجع والازدواج . . ١١٣
الطائفة التى تلتزم السجع . ١١٣
شواهد من سجع الصاحب وابن العميد ١١٤
التوحيدى يمزج بين السجع والمزاوجة ٢١٥
شاهد مطول من نثره فى وصف نكبة أبى الفتح بن العميد . . ١١٦
تحليل بعض فقرات هذه الرسالة الطويلة ١٢١
أسلوب الشريف الرضى ١٢١
أسلوب أحمد بن عبد ربه ١٢٢
حرية النثر عند ابن مسكويه وإخوان الصفاء . ١٢٢
موازنة بين أسلوب التوحيدى وابن مسكويه . . ١٢٣
شاهد من نثر ابن مسكويه ١٣٤

صفحة

شاهد من نثر إخوان الصفا فى وصف الرسول . . ١٢٤
نقد هـذا الشاهد . . . ١٢٥
ابن حزم والفارابى والإشارة إلى الفرق بين الكتابة العلمية والكتابة الأدبية ١٢٥

٣ — تصوير الحياة العقلية

قوة حزب الشيعة ورسالة الخوارزمى فى مناصرتهم . . . ١٢٦
تفسير أمثال هـذه الرسالة لغوامض التاريخ . . . ١٢٧
اختلاف الفرس والعرب . ١٢٧
تصوير الكتاب لنعيم العقل والحواس ١٢٨
رأى الثعالبى وابن قتيبة فى الأدب المكشوف . . ١٢٩
خصومات الكتاب . ١٢٩
رسالة بديع الزمان إلى أبى نصر بن المرزبان ١٣٠
الخصومه بين الهمذانى والخوارزمى ١٣٠
خصومه التوحيدى لابن عباد وابن العميد . ١٣١

٤ — الفكاهات

الفكاهة فن قديم ازدهر فى القرن الرابع . . ١٣٢
تحليل المقامة الشامية ١٣٢
تحليل المقامة المضيرية . . . ١٣٣
وصف حمل هزيل لأبى الخطاب الصابى ١٣٩
أبو إسحاق الصابى يعزى عن ثور أبيض ١٤١

صفحة

عهد التطفل للصابى . . ١٤٢

٥ — النسيب

النسيب فن قديم وجدت منه شواهد فى القرآن . . . ١٤٧
القصص الغرامى فى عصر بنى أمية وبنى العباس . . ١٤٧
أقصوصة غرامية . . ١٤٨
وصف المخطوبات . . ١٤٩
وصف الهوى والنساء . . . ١٤٩
رسالة تشبيب حدث بها مخارق المغنى ١٥١
وصف أبى العتاهية لمخارق . . ١٥١
كلمات غزلية لعلى بن عبيدة الريحانى ١٥٢
رسالة تشبيب كتبها إسحاق بن إبراهيم الموصلى ١٥٢
كتاب غلام من ولد أنو شروان إلى رفيق له بالديوان . ١٥٣
جواب ذلك الرفيق . . . ١٥٤
كتاب شوق أرسله الجاحظ إلى ابن المدبر . . . ١٥٥
كتاب حب أرسلته معشوقة لابن المعتز ، وجواب ابن المعتز على ذلك الخطاب . . . ١٥٦
كتاب شوق لابن العميد . . ١٥٧
خطاب وجد لقابوس بن وشمكير . ١٥٧
فقرات فى محاسن النساء والغلمان . ١٥٨
خطاب المذكر أسهل من خطاب المؤنث فى توجيه الضمائر والإشارات . . ١٦٠
غزل المذكر نوع من الثورة على التقاليد الأدبية ١٦١

صفحة

رد الفعل لهذه النزعة عند كتاب العصر الحاضر ١٦١
موقفنا موقف المؤرخ للظواهر الأدبية ١٧٢

٦ — الإخوانيات

قدم هذا الفن فى اللغة العربية . . ١٦٣
فقرات من الإخوانيات . . . ١٦٣
انتهاب كتاب القرن الرابع لمعانى المتقدمين . . ١٦٦
الإخوانيات عند التوحيدى . . ١٦٦
الإخوانيات عند بديع الزمان . ١٦٩
الإخوانيات عند العتبى ١٧٠

٧ — الوصف

موضوعات الوصف عند كتاب القرن الرابع ١٧١
فقرات مختلفة فى الأوصاف . . ١٧٢
إغارة توفيق البكرى على كتاب القرن الرابع . . . ١٧٣
إغارة كتاب القرن الرابع على معانى من سبقهم من الكتاب والشعراء ١٧٤
نظرية الفن للفن ١٧٧
صور فنية على ألسنة أرباب الصناعات ١٧٥
وصف البلاغة ١٧٨
قيمه الزخرف عند كتاب القرن الرابع ١٧٩

صفحة

٨ — المبتذل والطريف

ما هو المبتذل ، وما هو الطريف ؟ ١٨٠
رأى المسيو ديموبين . ١٨٠
توجد المبتذلات فى جميع اللغات . ١٨٠
نماذج من المبتذلات (الكليشهات) ١٨١
تعابير تبتذل لسبب غير كثرة الاستعمال ١٨٢
انتقال المبتذلات من عصر إلى عصر . ١٨٣
تعابير تحيا على ألسنة أصحابها فقط . ١٨٣
أنواع المبتذلات . ١٨٤
فى اللغة العربية تعابير تفيض قوة وحياة ولكن انصرف عنها الكتاب . ١٨٥
تعابير توجبها الضرورة اللغوية وتحيها الصور الفنية . . ١٨٦
« الكليشيه » لايوجد فى اللغة العربية إلا قليلا . . ١٨٧
نماذج من التعابير الحية . . . ١٨٨
كلام سعيد بن حميد وتوفيق البكرى ١٩١
إحياء الصور القديمة يزيد اللغة قوة . ١٩٢
رأى أبى العلاء فى حلاوة القرآن . ١٩٢
البلاغة كالموسيقا يزيدها التكرار قرباً من النفس . ١٩٢
عناية كتاب القرن الرابع بخلق أنصار من الخواص . ١٩٣

البــــاب الثالث

كتاب الأخبار والأقاصيص

صفحة

١ — المقامات

القصص فى البيئات العربية . . . ١٩٧
هل كان بديع الزمان هو المنشئ الأول لفن المقامات . ١٩٨
رأى الحريرى . . . ١٧٧
ابن دريد هو مبتكر هذا الفن . . ١٩٨
أحاديث ابن دريد . . . ٢٠٠
ماهى المقامات فى كلام ابن المدبر . ٢٠١
طريقة ابن دريد وطريقة بديع الزمان ٣٠١
مقامات ابن نباتة السعدى . . . ٢٠٢
مقامات الحريرى . ٢٠٢
فن بديع الزمان وفن الحريرى فى المقامات ٢٠٢
شيوع هذا الفن فى الأقطار العربية . ٢٠٢
انتقال هذا الفن إلى الفارسية والعبرية والسريانية . ٢٠٣
فن المقامة غير فن القصة . . ٢٠٤
أهمية ابتداع بديع الزمان . . ٢٠٥

٢ — مقامات بديع الزمان

كانت مقاماته خمسين ولم تكن أربعمائة ٢٠٦
شواهد من المقامات ٢٠٦
وقوف بديع الزمان عند شخصية واحدة ٢٠٩
شغفه برسم السوءات . ٢٠٩
الوصف فى مقامات بديع الزمان . ٢١١

صفحة

ألغاز شعرية . . ١٦٢
القدماء والمحدثون من الشعراء . . ٢١٩
رأى بديع الزمان فى آراء المعتزلة . ٢٢١
المجون فى بغداد . ٢٢٢
فكاهة الحمام . ٢٢٣
نصائح بديع الزمان . . ٢٢٤
أخلاق بديع الزمان فى مقاماته . . ٢٢٥
أهمية المقامات . . ٢٢٦

٣ — أحاديث ابن دريد

حياة ابن دريد وشاعريته . . . ٢٢٧
حياته فى بيته ونظرته إلى المحاسن المعنوية ٢٢٧
خفة روحه وحلاوة نكته . ٢٢٩
جرأته فى بيته ودرسه . ٢٢٩
أحاديثه القصصية . . ٢٣٠
طرفه فى تصوير حج أبى نواس . . ٢٣١
اهتمامه بتصوير الشمائل العربية . . ٢٣١
تصويره لشجعان العرب وأجوادهم . ٢٣٢
وصفه لأعيان الجاهلية . . ٢٣٢
حديث المرأة التى عاشت بجوار قبور أهلها . . ٢٣٢

٤ — روايات الأغانى

حياة الأصفهانى ٢٣٤
أثر أخلاقه الشخصية فى أعماله الأدبية . ٢٣٤

صفحة

تعقبه لهفوات الشعراء . ٢٣٥
منهج كتاب الأغانى . ٢٣٥
نموذج من أخبار ابن أبى ربيعة . ٢٣٧
اهتمام الأصفهانى بالجوانب الطريفة من الأخبار . . ٢٣٧
قصص ابن أبى ربيعة . . ٢٣٧
نقد الأصفهانى لبعض الأخبار . ٢٤١
أخبار ابن أبى ربيعة وضعت تفسيرا لشعره . . . ٢٤١
لم يخترع الأصفهانى كل أحاديث عمر ٢٤٢
أقاصيص من حياة الأصفهانى الشخصية . ٢٤٣

٥ — أخبار ابن دريد

من هو عبد الرحمن بن أخى الأصمعى . . ٢٤٦
اختلاف ابن دريد . . ٢٤٧
بعض النواحى العقلية من ابن دريد . ٢٤٧
قصة لقمان بن عاد . . ٢٤٨
حكايات ابن خالويه . . ٢٤٩
روح العصر . . ٢٤٩
أبو عمر الزاهد وتلفيقاته . ٢٤٩
تحليل أخبار ابن دريد . ٢٥٠
صف الزوج المنشود ٢٥٠
الأخبار التعليمية . . ٢٥٢
قصة الفتى العاشق . . ٢٥٢
تعليل الكلمة التى قالها عبيد بن الأبرص وهو محتضر . . . ٢٥٢

صفحة

ما نقله ابن دريد عن السجستانى . . ٢٥٢
حديث عامر بن الظرب العدوانى وحممة ابن رافع الدوسى ٢٥٠
هل كان الجاهليون يفكرون فى البلاغة ؟ . . . ٢٥٣

٦ — حكايات ابن الأنبارى

هل كان ابن الأنبارى يضع القصص ؟ ٢٥٤
قصة السفية الذى كان يجمع بين الرجال والنساء فى مكة وعرفات . ٢٥٤
لغة ابن الأنبارى . ٢٥٥
قصة سوار . . ٢٥٥

٧ — التوابع والزوابع

معنى التوابع والزوابع . . ٢٥٨
رأى الدكتور أحمد ضيف . ٢٥٨
متى كتبت رسالة التوابع . . . ٢٥٩
التشابه بين رسالة التوابع ورسالة الغفران ٢٦٠
مطلع الرسالة والاتصال بزهير بن نمير الجنى ٢٦١
هل كان للخطباء والكتاب شياطين ؟ ٢٦٢
شعر البغال والحمير فى عالم الجن . ٢٦٣
حكم ابن شهيد بين بغل وحمار . ٢٦٣
بغلة أبى عيسى . ٢٦٤
فهم ابن شهيد لعالم الطير . . ٢٦٤
وصف الأوزة . . ٢٦٤
ملاحاة الأوزة لابن شهيد . ٢٦٥
مذهب الجاحظ فى الكتابة . . ٢٦٥
رأى ابن شهيد فى أهل الأندلس ٢٦٥

صفحة

كان ابن شهيد مبتلى بحقد معاصريه . ٢٦٦
غرام ابن شهيد بمعارضة كتاب المشرق ٢٦٧
اصطدامه بشيطان أنف الناقة . . ٢٦٧
زهو ابن شهيد . ٢٦٨
رأيه فى البيان . ٢٦٨
رأيه فى شعره . . ٢٦٩

٨ — الإنسان والحيون أمام محكمة الجن

تأثر كاتب الرسالة بكتاب كليلة ودمنة . ٢٨١
قصة الخصومة بين الإنسان والحيوان . ٢٧١
وصف جزيرة صاغون . ٢٧٢
روح الفكاهة فى الرسالة . . ٢٧٣
تأثر الكاتب بنظرية المثال . . ٢٧٣
أوصاف حسية وعقلية لمختلف الشعوب ٢٨٤
زعماء الوفود يصفون أممهم ويتقدمهم وزير الجن . . ٢٧٥
تعابير تعين أذواق الشعوب . . ٢٧٦
اللغة العربية لم تسد سيادة تامة فى أرض فارس . . ٢٧٧
الطبيعة يأكل بعضها بعضا . . ٢٧٧
النقل بالعربات . . ٢٧٧
التشابه بين الكلب والإنسان . . ٢٧٨
أصل العدواة بين الإنس والجن . . ٢٨٩
دور القران ٢٧٠
السبب فى كثرة الملوك عند الإنس والجن ٢٧٩
نتيجة المحاكمة بين الإنس والجن . . ٢٨٠

٩ — أخبار التوحيدى

ماهو عمل التوحيدى فى الأقاصيص . ٢٨١

صفحة

نقل فلسفة اليونان عن اللغة السريانية . ٢٨١
محصول العرب من الوجهه الفلسفية . ٢٨١
واضع حديث السقيفة . ٢٨١
خلاصه الحديث ٢٨٣
بوادر الشر الذى كان يهدد كيان المسلمين ٢٨٤

١٠ — قصص الببغا

طرف من حياته . ٢٨٦
القصص الغرامى عند العرب . ٢٨٦
قصة طريفة فيها قليل من المجون . . ٢٨٦

١١ — أحمد بن يوسف المصرى

رأى مؤلف هذا الكتاب فى أسرار البلاغة . . . ٢٩٤
كتاب المكافأة . ٢٩٧
اللصوص الشرفاء . ٢٩٨
أسلوب أحمد بن يوسف . . ٢٩٩
نموذج من دقه الإشارة . . ٣٠٠
قصه الفتاة الدميمة التى تزوجت من رجل كريم . ٣٠٠
تعابير جيدة ٣٠٢
بعض المآخذ فى أسلوب ابن يوسف . ٣٠٣
تعابير مصرية . . . ٣٠٤
السر فى فصاحة الكلمات . . . ٣٠٦
الغرض الذى وضع لأجله كتاب المكافأة . . . ٣٠٧
أقسام الكتاب ٣٠٨
المحن والشدائد من أجمل ماهب الله . ٣١٠
قوة العقيدة ٣١٠
فضل كتاب المكافأة على مؤلف هذا الكتاب ٣١١

	صفحة
١٢ — عبد الله بن عبد الكريم	
شخصيته	٣١٢
قصة وقعت فى قصر ابن طولون	٣١٢
١٤ — المحسن التنوخى	
نشوار المحاضرة	٣١٥
موضوع هذا الكتاب وما حذف منه	٣١٦
أهمية هذا الكتاب	٣١٧
قوة الحس ودقة الملاحظة وخصب اللغة عند التنوخى	٣١٩
المتقدمون لم يتفردوا بالإبداع	٣١٩
ثورة التنوخى على أمراء عصره	٣٢٠
الوقت الذى وضع فيه كتاب النشوار	٣٢١
طريقة التنوخى فى التأليف	٣٢٢
نقل آداب الناس	٣٢٣
درس النفوس	٣٢٤
لغة المؤلف	٣٢٤
خطاب من نثر المؤلف	٣٢٥
تعابير جميلة	٣٢٦
كلمات حية	٣٢٧
نقد طباع الناس	٣٣١
قرد يفهم فكرة الخير والشر	٣٣١
بابك الخرمى وقوة النفس	٣٣٢
أريحية الوزراء	٣٣٣
شيوع الرشوة عند الحكام الأقدمين	٣٣٤
القاضى أبو يوسف وعنف زوجته	٣٣٤
أبو يوسف عند الرشيد	٣٣٥
تشبيب القضاة	٣٣٥
صلة ابن المدبر بعريب	٣٣٦
بين عريب وابراهيم بن المدبر	٣٣٧
الغناء عند المسلمين	٣٣٧
١٤ — حكاية أبى القاسم البغدادى	
حياة أبى المطهر الأزدى	٣٣٨
الغرض من هذه القصة	٣٣٨
شخصية أبى القاسم البغدادى وشخصية أبى الفتح الاسكندرى	٣٣٩
منهج أبى المطهر فى قصته	٣٣٧
حكاية شمائل العميان والحيوانات	٣٤٠
وصف المجون فى بغداد	٣٤١
ألفاظ السباحة والملاحين	٣٤١
أسماء الشوارع فى أصبهان	٣٤٢
صورة فنية فى وصف منافق	٣٤٢
وصف الثقيل	٣٤٥
موازنة قصيرة بين رسالة أبى المطهر ورسالة الخوارزمى	٣٤٦
وصف جمال النساء	٣٤٧
وصف جمال الغلمان	٣٤٨
وصف غلام ماجن — تعليل المجون	٣٤٩
فكاهات البغداديين	٣٥٠
تعابير بغدادية تحيا فى مصر	٣٥١
رائية الخزرجى فى ألفاظ الماجنين من أوباش بغداد	٣٥٠

تصـــحيحات (١)

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٨١	١٤	من عمك غيره	من عمّك خيره
١٣٩	٦	يقـــلق	يعـــلق
١٥٦	٧	أتى	أنى

---

(١) صحح هذا الـكتاب بعناية شديدة . ولـكن ذلك لم يصـل به إلى العصمة من الخطأ ، وقد رأينا تصحيح ما رأيناه من الأغلاط. وإن كنا فى ثقة من أن القارئ الفطن لن يغيب عنه المعنى لكلمة ينقصها إعجام أو يشوبها تحريف .

وقد نظرنا فى الجزء الثانى فلم نجد فيه إلا أغلاطاً يسيرة جداً يدركها القارئ بدون توقيف فلم نر موجبا لإثباتها هناك .

* * *

كَمُلَ طبع الجزء الأوّل من كتاب « النثر الفنى فى القرن الرابع »
بمطبعة السعادة الـكبرى فى يوم الخميس ١٦ شوّال سنة ١٣٧٦ هجرية
(١٦ مايو سنة ١٩٥٧ ميلادية) م

على محمّد إسماعيل
مدير مطبعة السعادة

الأخلاق عند الغزالى

قُدِّم هذا الكتاب إلى الجامعة المصرية ، ونوقش أمام الجمهور فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيّد جدًّا » ولقب دكتور فى الآداب .

يقع هذا الكتاب فى ٤٣٤ صفحة ، و به كثير من الرسوم التاريخية التى تمثل طائفة من المعالم القديمة ، و به مقدّمة بديعة بقلم الكاتب الفيلسوف الدكتور منصور فهمى ، وهذا الكتاب ضرورى جداً لمن يحب الوقوف على فلسفة الأخلاق ، وعلى العصر الذى عاش فيه الغزالى ، والمصادر التى أستقى منها آراءه الفلسفية ، والفرق بين الخير والشر ، والكفر والإيمان ، والشك واليقين ، والجبر والأختيار ، وما إلى ذلك من المباحث الهامة التى جار فى فهمها الباحثون ، وخبط أكثرهم فيها خبط عشواء .

وفى هذا الكتاب باب ممتع فى الموازنة بين الغزالى و بين الفلاسفة المحدَثين ، حيث تناول المؤلف بالنقد والتحليل آراء ديكارت ، و بسكال ، وهو بس ، و بوتلير ، وكارليل ، وسبينوزا ، وجسندى ، ومالبرانش .. وفيه كذلك صورة لآراء علماء العصر فى الغزالى : كالدكتور منصور فهمى ، والشيخ على عبد الرازق ، ومحمد بك جاد المولى ، والأستاذ عبده خير الدين ، والشيخ عبد العزيز شاويش ، والكونت دى جالارزا ، والشيخ عبد الوهاب النجار ، والشيخ حسين والى ، والشيخ عبد الباقى سرور ، والشيخ يوسف الدجوى .

وقد قامت حول هذا الكتاب ضجة عنيفة ، فمن الواجب أن يطلع عليه أهل العلم ليقفوا على كنه ما فيه من آثار حرية الفكر والرأى .